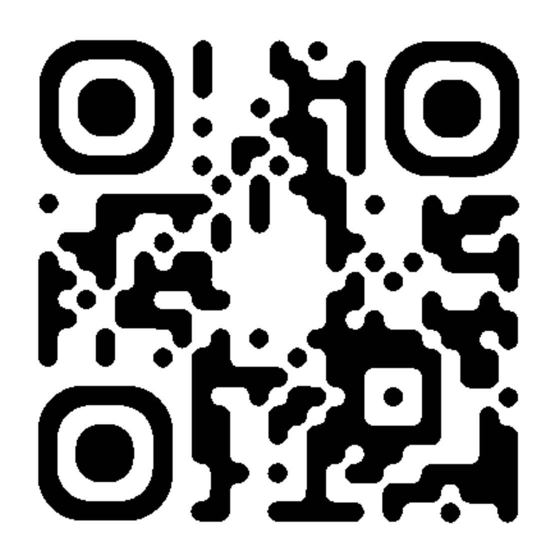
حسن أوريد

زينة الدنيا

رواية

مكتبة





حسن أوريد

زينة الدنيا



الكتاب

زينة الدنيا

تأليف

حسن أوريد

الطبعة

الأولى، 2021

عدد الصفحات: 640

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-959-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

حسن أوريد

زينة الدنيا

رواية

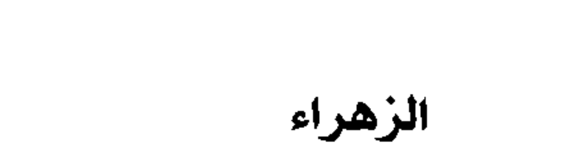


المركز الثقافي العربي

الإهداء

إلى أنا مَرية سانشيث مِدينة

الجزء الأول


الزهراء

1

جوٌّ خريفي اصفرّت فيه أوراق الشجر في ربوع قرطبة وأرجائها، وأخذت تتناثر على الأديم. أشعّة وسناء تنقشع من الغيم ضُحى، تبعث الدفء وتغري بالنشاط، وغلمان ثلاثة يلعبون بالسطح الممرد من قصر الزهراء. غلام مسَّ صاحبه ثم نفرَ هارباً يلتمس مكاناً يتوارى فيه:

- الوليد، لن تجدني.. هه هه..

وهو يشفع حركته بضحكة ساخرة. ثم أطلق ساقَيه للريح بعيداً عن السطح المُمرد. لحقَ به الوليد، ولكنه استدار من السطح وغشي موضع الفصلان المؤدي إلى الجناح الغربي من القصر، ثم غاب عن الأنظار. توقف الوليد في اتجاه الغلام الثالث:

- مروان ساعدني في البحث عن هشام.

وردَّ الوليد:

- إن غشي هشام جناح الفصلان فيعسر علينا أن نلحق به، لأنه يُمنع علينا أن نلج الجناح، وهي الساعة التي تأتي فيه أم سيدي، ويشتغل فيه الديوان، ويحل الخدم والحشم.

كان قصر الزهراء مقسّماً إلى جناح شرقي حيث يقيم الخليفة، وجناح غربي تقام فيه المراسم.

في تلك الأثناء عنّت سيدة من جنبات الرياض تلبس البياض،

تشيّعها وصيفات، عليها هالة وهي تتوجّه نحو الجناح الغربي. ما إن رآها الغلام الوليد حتى هبَّ صائحاً:

- إنها أم سيدي مولاتي صبح، أسرعْ كي نسلّم عليها.

وهبَّ الغلامان في اتجاه السيدة كي يُقبّلا يدها. كانت في الأربعينات من عمرها، شقراء اللون، سافرة الوجه، وضّاءة المُحَيا، جميلة القسمات، تضع مِقنعة[1] بيضاء على رأسها. استفسرَت في غير اكتراث متحدثة العربية بلكنة رومانية:

- أين هو أمير المؤمنين؟

بدا وكأن الفتيين لم يدركا قصدها، فلم يُحِرا جواباً لأنهما لم يستأنسا أن يكلما تِربها هشاماً بلقب أمير المؤمنين، وهما يناديان عليه إمّا بلقبه ولي العهد، وإمّا بلقب التجلّة، مولاي، وأحياناً بهشام من غير كُلفة. تجرّأ الوليد بالقول وقد أدرك قصدها:

- كنا نلعب يا مولاتي وغشي الفصلان.

نظرت إليهما معاتبة وقالت لهما بالرومانية:

- أنتما لن تتركاه يضطلع بمسؤولياته. هشام لم يعد تِرباً لكما. هو الخليفة.

ثم أمرت في اتجاه وصيف من وصفان الخدمة بعربية مضطربة:

- اذهب في البحث عن أمير المؤمنين، وبسرعة.

ألقى الوصيف بخُف من رجليه، يُسمّى البَلْغَة[2]، ثم نفرَ يعدو حافياً يبحث عن أمير المؤمنين في سراديب الزهراء. توجّهت صبح إلى الغلامَين بالرومانية بالقول:

---

(1) مقنعة، خمار ينزل إلى الصدر دون أن يحجب الوجه، كانت تضعها النسوة من العلية بالأندلس.

(2) البَلْغَة من أصل إسباني Bargha/ Alpargata، وتعود إلى أصل لاتيني حسب ليفي بروفنسال Avarca.

- انصرفا الآن، واحضُرا بعد الظهر بعد إذ يفرغ الديوان. سيأتي الفقيه الزبيدي ليعلّم أمير المؤمنين اللغة العربية.

وفجأة اعتلت أصوات متقاطعة للوصفان تردد على التوالي، بعد إذ يمر غلام في سنّ الثانية عشرة من عمره، ثم ينحنون عند ممره:

- بارك اللّه في عمر الخليفة.

كانت علامات الضجر بادية على الغلام وهو يمشي منكسراً نحو أمه. لمّا اقترب من صبح انحنت له، وقبّلت يده، كي تبث في النفوس أنها لا تتصرف كأم مع ابنها، وإنما كواحدة من الرعايا في علاقتها مع الخليفة. استكان الغلام ثم بادرها بصوت خفيض بالرومانية:

- أليس لي الحق أن ألهو لبعض الوقت؟

ردّت السيدة صبح بحدّة، والأسماع بعيدة عنها:

- أنت الخليفة، أنت أمير المؤمنين، لم تعد مِلكاً لنفسك.

- أماه، قمت بما قلت لي حينما قدّم الوجهاء البيعة لي أمس.

- ينبغي أن تستقبل الحاجب جعفراً المصحفي في أمر هام. هو في انتظارك.

- ألا يمكن أن تربنه لوحدك؟ أريد أن ألعب مع الوليد ومروان.

- حتّام تفكر في اللعب؟ بعد الديوان سيأتي المؤدّب الزبيدي كي يعلّمك اللغة العربية.

- اللغة العربية عسيرة. لماذا تريدينني أن أتعلمها؟

- لأنها لغة أجدادك بني أمية.

- الوليد لا يحسنها وحتى مروان يخطئ فيها.

- هما ليسا بأمير المؤمنين. ينبغي أن تفهم ما يقوله لك وجهاء القوم والرعية من المسلمين ممن يأتون من عدة أصقاع، من الأندلس والعَدْوة، وكل أرجاء بلاد المسلمين. اسمع يا هشام، الحاجب جعفر

المصحفي في انتظارك. ستجلس على سرير الملك.. تلتزم الوقار ولا تبرح مكانك أو تتحرك. ستُبقي على رباطة جأشك، مهما يكن.

استدارت يُمنة ويسرة حتى لا يلتقي نظرها بالفتيان من الحرّاس والوصفان، إذ كانت حريصة على احترام المظاهر، تطأطئ رأسها للخليفة هشام أمام أعين الحرّاس وتُقبّل يده، أما الآن، وفي غياب نظر الخدم، أمسكت يد هشام بقوة، ونهرته مغاضبة:

- ستغيّر ملابسك، وترتدي ملابس الأبهة، وستستقبل الحاجب جعفراً. سيسلمك وديعة.

- وديعة؟

- صولجان الحكم.

- صولجان الحكم؟

- لسوف ترى. الآن أسرع. أمرت أصحاب الخدمة بإحضار لباس الأبّهة. سترتديه في قبّة الرياض، هناك، المحاذية للسطح الممرد.

* * *

جلس الخليفة هشام المؤيَّد بالله على سرير الخلافة وعلامات الضجر بادية عليه. زادَ من ضجره لباسه الذي لم يعتد عليه. طراز مذهّب وطيلسان مرصّع بالأحجار الكريمة، عليه ريشة من النعام. أثقل عليه الطيلسان، وأخذ يتفصد عرقاً. كان يرفع يده اليسرى بين حين وحين ويمسح جبهته بظهر سبابته. يشرئبّ برأسه فيجد أمه صُبحاً وراء الستار، بحيث لا يستطيع الداخل أن يراها وتستطيع أن ترى ما يجري. كانت ترسل إلى هشام نظرة حادّة. راودته نفسه أن يفر، ولكن نظرَ أمه الحاد صدّه. خرجت من مخبئها وأرسلت بالرومانية في حدّة:

- عليك بالوقار الآن.

ثم رفعت يديها إلى الوصيف كي ينقر للبوابَين بالخارج ليتأهّبا ليفتحا الباب. علا صوت وصفان وصقالبة أمام البوابة:

- بارك اللّه في عمر سيدنا.

ثم تردد على التوالي في ساحة السطح الممرد، وبعده حتى أسفل البِرْكة.

ما إن فُتح الباب حتى تقدم وصيف يمشي الهوينى ومن ورائه خادمان يحملان صندوقاً مغطى برداء، وخلفهم الحاجب جعفر المصحفي. توقف الوصيف. انحنى أمام الخليفة، ثم انسحب إلى منفذ على يمين الخليفة. حينها طرح الخادمان الصندوق. انحنيا، ثم تراجعا القهقرى. إثرها تقدّمَ الحاجب جعفر، وانحنى أمام الخليفة. قبّل الأرض. ثم بعد إذ نهض، أزاح الرداء عن الصندوق. أثقل الملل على هشام وهو يرى هذه الطقوس الثقيلة. فتح جعفر الصندوق ودسَّ يده فيه، ثم حمل جسماً ما إن تبيّنه هشام حتى انفجرت أحشاؤه في قيء. لم يكن يستمع إلى كلمات أمه. كانت تدعوه للثبات. كانت صورةَ عمه المغيرة، بابتسامة حزينة تلحّ عليه. ظلَّ جعفر ماسكاً برأس المغيرة من شعره. وفجأة نفر هشام هارباً من سرير الخلافة يترجرج في طرازه وقد سقط منه طيلسانه، وأمه صبح تناديه بالرومانية:

- هشام، عد. ينبغي أن تستأنس بمسؤولياتك.

2

سَرَتِ الإشاعات أن المغيرة خنقَ نفسه، وأنه من أودى بحياته. واستهجنَ الفقهاء أن يُقْدم مسلم على قتل نفسه، وحمدوا اللّه أن كفاهم شرّ المغيرة. وكيف يتولّى الأمر من ليس مسلم السريرة، طاهر النقيبة، لا يرعى حرمة الحنفية السمحة، ويُقدم على قتل نفسه؟ وحمدوا اللّه أن أثابهم عوضاً بهشام، وهو نسل الخليفة الحَكم، نشأ على يديه، فأحسن تنشئته. أفاض الخطباء في ذلك وأطنبوا في خطب يوم الجمعة الذي تلا تولية هشام والبيعة له.

حينما قُبضت روح الحَكَم بدار الخلافة بقرطبة، أخفى الفتيان جوذر وفائق الأمر. كانا صاحبا الأمر والنهي. أدركا غبَّ وفاة الخليفة أن عليهما أن يُسرعا في ترتيب انتقال السلطة قبل أن يفشو خبر وفاة الخليفة. كانا يدركان أن تولّي هشام، هو تولّي صبح في حقيقة الأمر، وهي لن تقوى على تدبير أمور الخلافة من دون ابن عامر، وهو من سيصبح الحاكم الفعلي، ولا حظّ لهما مع ابن عامر. لذلك ناصرا المغيرة، لسنّه وعلمه وتقواه. كان عليهما أن يستميلا الحاجب جعفراً المصحفي، لسابق مكانته مع الحَكم ومعرفته شؤون الحُكم، وغيرته على الخلافة، ولعزل صبح، ومن خلالها ابن عامر.

أرسلا في طلب جعفر لأمر يستعجله فيه الخليفة الحَكم. لم يتركا

له أن يتدبّر أو يتفكّر. أتى بما عليه. كان رأي جوذر أن يُقتل جعفر، ممّا سيثير الخوف في الحاشية ويفرض انقياد بقية رجالات الدولة. وكان رأي فائق استمالة جعفر، لمكانته من الحَكم، ولعلاقاته مع رجال الدولة، ويرى فضلاً عن ذلك أن قتل جعفر قد يدفع بأصحاب الشرطة الصغرى والوسطى والكبرى، وكلها تحت إمرة ابن عامر، إلى ردّ غير محسوب العواقب، ولن يقوى الصقالبة على مواجهة هذه القوى بالحضرة، وقد تنضم إليها جيوش الثغور التابعة لغالب، ممّا قد يفضي إلى الفتنة.

جُرّد جعفر من سيفه لمّا حلّ بدار الخلافة بقرطبة، وغُلّقت دونه الأبواب. حينها أدرك أن الخليفة الحَكم توفي، وأن الفتيَين الصقلبيَّين، لم يناديا عليه إلّا لترتيب انتقال السلطة، ويحسن أن يجاريهما. لم يُبن عن شيء. حافظ على رباطة جأشه. أعجله فائق من غير مقدمات:

- انتقل الخليفة إلى عفو اللّه.

وندَّ عن جعفر صوت يفيد الحسرة والأسى.

- يا أللّه، مات مولاي. إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

ثم استغرق في البكاء.

لم ينبس جوذر بشيء وقد كان رأيه قتل جعفر. ابتدره فائق:

- يمكن أن تبكي فيما بعد. ينبغي أن نهيّئ انتقال السلطان الآن.

وردَّ الحاجب جعفر وهو يمسح دمعه:

- الرأي رأيكما، وما تفعلانه أباركه.



أعجله فائق بالقول:

- قررنا تولية المغيرة.

ولم يَسَعْ جعفر إلّا أن نطق في صوت خفيت:

- نِعم الاختيار.

أضاف فائق من غير زخرف الألقاب وسُنن التقاليد المرعية:

- هشام صبي لا يصلح للأمر، وستتولّى صبح الأمر من ورائه.

ردَّ جعفر مستكيناً:

- ما رأيتما هو الصواب، ولن يقوم بأمر الخلافة إلّا من هو أهل لها، ويعرف شؤونها، ويرعى حرمتها، ويقوم بواجبها. ومَن غير المغيرة بالأمر؟ ومَن سواكما يعرف مصلحة البلاد والعباد؟

وحسم فائق:

- حسناً. ستهيّئ ترتيب البيعة للمغيرة على سبيل الاستعجال.

- سأفعل بإذن اللّه. عليّ بجمع الأكابر والوجهاء وقاضي القضاة لكتابة صكّ البيعة للمغيرة. خير البرّ عاجله.

وهمَّ بالنهوض. أمسكه فائق من كتفه بخشونة:

- لا أحد يعلم بوفاة الخليفة، ولا ينبغي لأحد أن يعلم قبل تحضير ترتيب البيعة. أفهمت؟

وردَّ جعفر في صوت خفيت:

- وكيف لا؟

أراد جوذر أن يقول شيئاً، ولكن فائقاً لم يمهله وصاح على أثر جعفر:

- انصرف حالاً وما أن يتنفس الصبح حتى نقبل بجندنا إلى الزهراء. ادعُ الوجهاء لبيعة المغيرة. ينبغي للأمر أن يُحسم مع الظهر.

- سأفعل إن شاء اللّه.

خفرت مقنبة[1] من الصقالبة جعفراً، إلى أن بلغ الزهراء قبيل الفجر. استأذن جعفر رئيس المقنبة في الصلاة بمسجد الزهراء. صلّى

---

(1) جماعة من الفرسان دون المئة.

ركعتَين تحية المسجد، وأشار على القيّم برأسه، فلما حضر همسَ له أن يذهب إلى بيت ابن عامر بالزهراء ويستدعيه إلى قصره خفية على استعجال. ثم نادى على الإمام وكان يغدق عليه، فأمره أن يقرأ طِوال السُّوَر أثناء الصلاة، ويطيل التلاوة، وبعدها يتلو الدعاء بطول العمر للخليفة الحَكم.

طالَ أمد الصلاة. لمّا غادر جعفر المسجد انفتل إلى قائد المقنبة متأفّفاً من الإمام الذي لم يجد سوى السُّوَر الطوال للصلاة. ثم استأذن الجند في التعريج على بيته لارتداء ملابس الأبهة لأمر كلّفه به الخليفة الحكم، أمدَّ اللّه في عمره.

دخل جعفر قصره وأمرَ أهل الخدمة أن يهيّئوا الفطور لمقنبة الصقالبة، من حساء الذرة باللبن. ثم خرج لهم بنفسه متوجّهاً إليهم بالقول:

- أطعموا، فقد يطول بنا الأمر. والعجلة من الشيطان.

كان ابن عامر في صحن القصر واقفاً ينتظر جعفراً. ما أن عنّ جعفر حتى قدّم له ابن عامر التحية العسكرية، حتى إذا اقترب منه سلّم في احترام. همسَ جعفر كما لو أنه كان يكلّم نفسه:

- مات الخليفة. طوّقْ مقنبة الصقالبة المحيطة بقصري. وابعث بكتيبة تطوّق قصر الخلافة بقرطبة. اخرُجْ من الباب الموارب، ثم انسلّ من الدهليز الأرضي حتى لا يراك أحد.

وانفتل ابن عامر هرعاً. بعد نصف ساعة، بعث جعفر لكبير مقنبة الصقالبة يخبره أن قد يتأخر نصف ساعة بعد أن يُتم وِرْد الصباح، وهي سُنّة دأب عليها كي يحفظ اللّه الخليفة ويصون الخلافة ويدرأ عنها كل مكروه. ولم تمضِ ساعة حتى كان بيت جعفر مطوّقاً بعناصر من الشرطة الصغرى مدجّجة بالسلاح دعت مقنبة الصقالبة أن تسلّم نفسها،

وانضافت إليها المتوسطة، والتحقت بها الشرطة الكبرى. لم يَسَعْ مقنبة الصقالبة إلّا أن تنصاع للأمر وتسلّم نفسها. كانت عناصر الشرطة بقواها الثلاثة قد أحاطَت بالزهراء تحول دون دخول جند الصقالبة القادمين من قرطبة. شعرَ جعفر ببرد الراحة حينها. استرجعَ المبادرة ونجا من مخالب الموت، إذ كان يمكن أن يُقتل. سارع لتلبية نداء جوذر اعتقاداً منه أن الحَكم كان يريده أن يأتمنه على وصية أو أمر ما، ولمّا وصل قرطبة وأُبلغ خبر وفاة الخليفة وأطلعه جوذر وفائق بخطتهما في تولية المغيرة، لم ينصرف ذهنه سوى الظفر بجلده. فكّر خلال الطريق في الخطة التي ينبغي أن يسلكها. كان ينبغي أن يتصل بابن عامر لفكّ حصار المقنبة والحؤول دون بلوغ جند الصقالبة الزهراء.

لم يتأخّر رجالات الدولة والقواد في الحضور لقصر جعفر. أخبرهم جعفر بوفاة الخليفة الحَكم، وأطلعهم على خطة الصقالبة، ثم شفع بالقول:

- «إن حبسنا الدولة على هشام أمِنّا على أنفسنا، وصارت الدنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغيرة، استُبدل بنا، وطلب شفاء أحقاده»[1].

ثم سألهم:

- ما أنتم فاعلون؟

وعلت الهمهمة. ثم كما لو أنهم استشفوا رأي جعفر، قالوا بصوت واحد:

- يُقتل.

أعجلهم جعفر بالسؤال:

---

(1) ابن عذاري المراكشي، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج 2، ص 260.

- ومن يُقدم على ذلك؟

سادَ الصمت. لم يردّ أحد. حينها قام ابن عامر وتوجّه إلى الحاجب في عزم:

- أنا لهذا الأمر، ونحن «تبع لهذا الرئيس»[1]. وهو يشير لجعفر.

ثم هبَّ من مكان الاجتماع وخرج مع نفر من رجاله الأصفياء مدجّجين بالسلاح.

(1) البيان المُغرب، ج 2، ص 261.

3

كان الليل قد أناخ، وكانت الزهراء تقارع صولته بمصابيحها وأنوارها المنبثّة في جنابتها، فتزداد بهجة. يقوم بها قصر جعفر الباذخ، وهو محاذٍ للجناح الغربي مكان إقامة الخليفة. يشدُّ قصر جعفر الأنظار بأنواره التي تجلله. أراده الخليفة الحَكم قيد حياته مجاوراً لإقامته، إن احتاج حاجبَه جعفراً، ساعدَه الأيمن وعضده. لم يكن القصر في حجم الجناح الغربي، حيث الخليفة، ولكنه لم يكن أقل بهاء، بزخارفه ونقوشه وجنانه وبِركه. تتخلل القصر عدة مداخل تفضي إلى رياض، ينتهي بدوره إلى صحون، كل صحن إلى عدة قاعات تحيط به. بُثت الأرجاء المحيطة بالرياض والصحون بقناديل الزيت وشُعَلها فزادته جلالاً. كانت المصابيح تتدلّى من السقوف، وكانت الشموع على حافة الجدران، والقناديل مبثوثة على الأرض تبعث كلها نوراً مخللاً يضفي فضْلاً من جمال، يزيده جلالاً خرير السواقي وانبجاس ماء النافورات. ينتهي الصحن الكبير إلى قاعة بها نقوش وزخارف على الجبس والخشب، وأفاريز من أبيات شعرية. بالقاعة سرير من ديباج تحيط به الأرائك، ويستندُ على نمارق من حرير. في هذا المكان يستقبل جعفر مساعديه وأصحاب الخدمة، وفيه يملي توجيهاته. ومن تلك القاعة يوجد باب موارب يفضي إلى الجناح الخاص لجعفر.

كان جعفر بالقاعة الكبرى على سريره، وقد فرغ لنفسه بعد عدة أشغال. كانت بالصحن فرقة تعزف نوبات من الموسيقى الأندلسية. كان الجوّ معتدلاً، وازداد جمالاً وبهاء بنور النجوم واكتمال البدر. أمضى جعفر أياماً مضنية، تخلّص منها جزئياً من عبء الصقالبة وأزاح الخطر الذي كانوا يشكّلونه على انتقال الخلافة، إلّا أن جعفراً ظلَّ على حذر لما قد يُبيّتون من أمر. كان قد أمرَ بإغلاق باب الحديد من الزهراء الذي كان يدخل منه الصقالبة، وفرض عليهم الدخول والخروج مثل العامة من باب السُّدة، ثم أمر ابنَ عامر بإدراج عناصرهم في قواته.

لم يكن الصقالبة بالأمر الهيّن. كانت لهم قوة يُعتدّ بها لم تكن الشرطة لتصمد أمامها. أسقط في أيدي فائق وجوذر منذ مقتل المغيرة. بيد أن خطر الصقالبة يظلّ قائماً. أوحى جعفر إلى فائق بطلب الإعفاء كمن يستجدي التكفير عن حوبة، لأنه ناصرَ المغيرة، وتعهّد جعفر أن يدس إلى الخليفة عبر السيدة صبح استبقاءه. ورتّب جعفر الأمر، بتنظيم مراسم الاستقبال في السطح الممرد، ودخول فائق على الخليفة وهو على سرير الملك، والانحناء وتقبيل الأرض. فعلَ فائق ما أشير به عليه، وحين فاتح الخليفة بطلب الإعفاء، لم يردَّ الخليفة بشيء، ذلك أن جعفراً لم يلتمس شيئاً من صبح في شأن فائق. وكانت حيلة منه كي يتخلّص من فائق. لم يكن الخليفة يقول إلّا ما قُوّل من لدن أمه صبح في اتفاق مع الحاجب جعفر وصاحب الشرطة ابن عامر. بمجرد ما انتهى الرسم أخبر وصيف فائقاً أن الخليفة قبل طلب الإعفاء وأمره أن يَلزم بيته.. أيقن فائق أن جعفراً غرّر به وهزأ منه. كسب جعفر من جهتَين، تخلّصَ من فائق، وبعث في الحاشية أن الصقالبة انحاشت للخليفة وهم يرون فائقاً يؤدّي فروض الطاعة للخليفة حتى لا يغتر أحد منهم أو توسوس له نفسه بأمر أو تدعوه للثأر.

كان مكسباً أن انزاح فائق من الساحة، ولكن جعفراً وكذا ابن عامر يعرفان أن عناصر الصقالبة لم ترضَ بما آلت إليه الأمور. ركبها التذمُّر وسعت للتمرُّد وراء فتى صقلبي اسمه دُري. وقد استدرج جعفر الفتى دُري بأن دعاه باسم الخليفة للقصر، وبعث له من همسَ له أنه قد يتولّى منصب جوذر على رأس جند الصقالبة. أُمِر بأن يلبس لباس الأبهة على سُنن الترتيب، واحتشد الحشم على الأبواب، كما في يوم الديوان. وما أن غشي دُري باب الأقباء حتى رأى جموع الشرطة، وأدرك أنه قد أوقع به. لم يكن يحمل السلاح، وقفز في سرعة وأسقط جندياً ونزع منه رمحه. نظر من حوله ورأى ابن عامر يرمقه. صاح ابن عامر على إثره:

- ضع السِّنان يا دُري، والتحق بخدمتي أسوة بصحبك. هذا خير لك.

وردَّ دُري في حنق واحتقار:

- من أنت حتى ألتحق بخدمتك؟

- أنا صاحب شرطة أمير المؤمنين، أعز اللّه أمره.

- أنت وغد يا ابن عامر، مع صاحبك جعفر. أريد أن أرى الخليفة.

- ضع السلاح يا دُري، وإلا مكانك سجن المُطْبَق. أنت أهون من أن يستقبلك الخليفة، أعز اللّه أمره.

وما هي إلّا هنيهة حتى صوّب دري الرمح نحو ابن عامر. أصاب سنانُه ابن عامر في الكتف من دون أذى. وللتوّ أحيط بدُري من قِبل عناصر الشرطة. انهالوا عليه بالضرب حتى خرَّ على الأرض لا يقوى على الحراك، ثم حُمل بعيداً.

كان جعفر يريد أن يستجم، ولذلك أراد حفلة تنسيه ما لقي من عناء التخلُّص من الصقالبة وحادثة دُري ذاك الصباح.

كانت تقسيمات العود تنتهي إلى جعفر من أقصى الغرفة. كان جعفر ساهياً، كمن يفكر، وكان بقربه خادمه ميسور واقفاً ينتظر إشارته. رفع جعفر يده، وأشار ميسور إلى الساقي الذي ما انتهت إليه الإشارة حتى هبَّ مسرعاً. وضع قدحاً على مائدة قرب سرير جعفر، ثم أفرغ من زِقّ وانتظر. حمل جعفر القدح إلى فمه، تذوق من الخمر، استحسنها. أشار برأسه للساقي أن يملأ القدح.

كان جعفر ينتشي بالخمر، وقد تحول النغم إلى نوبة الرصد. كانت عين ميسور عليه.

لم تكن الأخطار الداخلية وحدها ما يشغل بال جعفر، ذلك أن المماليك المسيحية في الشمال كانت تشكل مصدر خطر. زحفت نحو الجنوب واحتلت قشتالةُ بعض الحصون، وكان من المفترض أن يردّها قائد الثغر غالب، ولكنه لم يفعل. ولم يكن جعفر يرى أن يبعث جنود الحضرة إلى الثغور والوضع الداخلي لم يستتب بعد. أخذت الأخطار الداخلية تنزاح يوماً عن يوم، ولذلك ارتأى أن يتصدى للأخطار الخارجية.

بدأت مغنية شابة ترفع عقيرتها من شعر جعفر، من نوبة رصد الماية، يبدر منها الخفر والوجل إذ كانت تحضر قصر جعفر أول مرة. أخذت تردّد البيتين:

لعينيك في قلبي عليّ عيون
وبين ضلوعي للشجون فنون
لئن كان جسمي مُخْلَقاً[1] في يد الهوى
فحبك غضٌّ في الفؤاد مصون

طرب جعفر للغناء وتموجات الصوت، كما لو هي صلوات في

---

(1) خلق بمعنى قديم، وهنا شيخ، بمعنى إذا جسمه هرم فإن قلبه لا يزال غضّاً.

كنيسة. كان ميسور من أتى بالمغنّية. كانت مغنّية مغمورة، غير معروفة، رغم صوتها الجميل وأدائها الرفيع. حفّظها ميسور شعر الحاجب جعفر كي تغنيه. غنَّتِ البيتَين، ولمّا رأت من انتشاء جعفر أخذت تعيدهما وقد ذهب عنها الارتباك. ثم شفعت بشعر عن الخمر من شعر جعفر دائماً.

صفراء تطرقُ في الزجاج فإن سرت
في الجسم دبّت مثل صلّ لادغ
خفيَت على شُرّابها فكأنما
يجدون ريّاً في إناء فارغ

طرب جعفر للغناء. أخذت أنامله تُقطّع على فخذه أنغام المغنية ونوبة الغناء.. ثم استدار نحو خادمه ميسور مستحسناً أداء المغنية:

- من أين أتيت بهذه المغنّية؟ لم نرَ مثلها حتى مع الخليفة الحَكم...

- وقعت عليها في خمارة بحي اليهود تزدريها العين. سمعت أن الناس يتردّدون عليها لسماع صوت المغنّية، فحضرتُ المكان وأعجبت بالصوت، وودت من سيدي أن يسمع غناءها.

- كيف لها هذا الأداء، ولم تلْحق زرياب؟

- أخذت عن سعيد بن كامل.

- ما اسمها؟

- راحيل...

- ما أن ننهي تدبير الأمور العالقة حتى تلحقها بخدمتي يا ميسور.

- حاضر يا مولاي...

ثم أخذَ جعفر يردّد: «صفراء تطرقُ في الزجاج...» وهو يُقطّع بيده.. كانت عين الساقي عليه كلما أنهى من قدح أفرغ له أخرى..

بدا الانشراح من جعفر.. أخذَت الخمر تفعل فعلها. استدار نحو ميسور وسأله:

- ما جدّ في الأمر؟

- جوذر ارتحل إلى ميورقة..

- لا أعادته الأقدار. هو من كنت أخشى من الصقالبة لأنه صاحب حزم. وفائق لن يقوى على شيء من دون جوذر.

- ألا يرى مولاي أن يتخلّص من فائق؟

- لا حاجة. ما فائق من غير الصقالبة؟ من كان يشكِّل خطورة منهم، هو دُري، قد ألقيَ عليه القبض اليوم، وأشبعته عناصر ابن عامر ضرباً.

- ينبغي التخلص من ابن عامر يا مولاي. أرى شوكته تعظم.

- ليس الآن، يا ميسور. له مكانته قرب صبح، وهو على رأس الشرطة، وهو في خدمتي، ولا أستطيع أن أعوّل على جيش الثغر بقيادة غالب..

هزّت جعفراً أنغامُ المغنية راحيل:

- واللّه إن لها لصوتاً جميلاً يذيب الشجى، قال ذلك وهو يُقطّع على نوباتها...

كان الليل قد جاوز النصف حين حضر خادمٌ وهمسَ شيئاً إلى الحاجب جعفر. أومأ جعفر برأسه للخادم، وأشار بيده إلى ميسور ممّا فهم عنه ميسور أن ينزوي. وما هي إلّا هنيهة حتى حضر ابن عامر. قدّمَ التحية العسكرية لجعفر، ثم سلّمَ عليه في انحناء. تراجع لخطوات. بقي واقفاً.. لم يأذن له جعفر في الجلوس. توجّه جعفر إليه في استعلاء وهو يمسك قدحه من الخمر:

- ما وراءك يا ابن عامر؟

- لفظَ دُري أنفاسه، سيدي.

- أبْشِرْ إذاً. انزاح ثقل.

- كنا نود أن نعرف منه، إلا أنه مات متأثراً بالجراح، ولم يثبت للتعذيب..

- المهم أن مات. انتهى أمر الصقالبة. أُزيحَ خطر الداخل، ينبغي أن نتصدى لخطر الخارج يا ابن عامر. لا يمكن أن نُعوّل على غالب. تلكأ في دفع الخطر، وليس هذا فعل القُوّاد. المسيحيون يتحرشون بنا. سنجتمع غداً يا ابن عامر من أجل أن ندرس الوضع كي نبعث البعوث لصدِّ خطر المسيحيين.

- حاضر سيدي.

بقي ابن عامر واقفاً. ارتشف جعفر من قدحه، ثم رفع يده وقال باستخفاف:

- يمكن أن تنصرف.

أدّى ابن عامر التحية العسكرية... ثم انصرف...

استغرقَ جعفر في غناء المغنّية راحيل، يتهادى بجسمه على أنغامها، ويحرّك رأسه طرباً لنوباتها. التحقَ به ميسور بمجرد أن غادر ابن عامر. بادره الحاجب منتشياً:

- قلت لك يا ميسور إن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح. مات رأس حربة الصقالبة دُري، وسأبعث ابن عامر إلى الثغور، وقد يلقى حتفه هناك، وأتخلص منه دون أن أحمل جريرة قتله، ثم إني سأثير حفيظة غالب الذي لن يرضى أن أتخذَ قراراً عسكرياً من دونه. وغالب ليس له إلّا القوة العسكرية، ولا يفقه في السياسة ولا سند له بالحضرة، هذا فضلاً على أنه شيخ طاعن... للّه درّك يا ميسور أطربتنا بهذه المغنّية الرائعة...

ثم أخذ يترنم على أنغام الموسيقى ما رددته راحيل بصوتها القوي، في نوبات متعدِّدة بيتاً لذي الرمة:

لعلّ انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً
من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل

تُقطّع البيت، ثم تغيّر النوبات. طرب جعفر، وهو يردِّد «من الوجد» في انتشاء، وقد فعلت الخمر فعلها، ثم رفع يده نحو الفرقة كي ترفع عقيرتها. واهتزَّ جناح الرياض، بأغاني راحيل وترداد الفرقة، غمر ما تلفعت به الزهراء من حداد، وما فُرض على العامة بقرطبة من مظاهر الأسى، وإغلاق الخمّارات لأربعين يوماً حزناً على وفاة الخليفة الحَكم.

4

الليل بهيم. سيدة ترقب بين حين وحين من شرفة نافذة مُنية[1] بحي الرصافة من الطابق العلوي. يقطع هدوء الليل خرير ساقية وانبجاس الماء من نافورة. نور باهت ينبعث من الغرفة من قناديل صغيرة والتماعات نار المدفأة مع فرقعة حطبها. السماء في الخارج دكناء والجوّ بارد. الغرفة دافئة، تكاد أن تكون مظلمة عن قصد. تُكبُّ الوصيفة على أذن السيدة وتُسرُّ لها بأمر. تنهض متثاقلة. تجلس على لحاف من ريش النعام. ابن عامر سوف يتأخّر. عناصره بعثت لها برسول لأنه في شغل للتهيُّؤ لغزوة الشاتئة ضدّ مملكة قشتالة.

كانت صبح أو السيدة الكبرى كما أضحت تُلقَّب بعد تولي هشام المؤيد باللّه الخلافة، قد فرغت من عِدّتها، وأقيم حفل كبير في الزهراء تُلِيَ فيه القرآن الكريم ترحُّماً على الحَكم بن عبد الرحمن. ترأس الحفل أمير المؤمنين هشام المؤيد باللّه. غداة الحفل خرجت السيدة صبح من الزهراء في زيارة قبر زوجها في تُربة الأمويين بقرطبة، وتُلي القرآن على قبره ووُزِّعت الصدقات. نزعت صبح ثياب

(1) المنية، بيت ثانوي يصغر عن القصر، خارج المدينة، يتوسّطه جنان.

البياض، ثوب الحداد، وقرّرت أن تستقر بقرطبة في بيت لها بالرصافة. كانت تود أن تدبّر أمر السلطة من حي الرصافة بضاحية قرطبة حيث تنبثُ المُنيات وقصور عِلية القوم، عوض أن تبقى بالزهراء، كي يتسنّى لها الالتقاء بعشيقها ابن عامر بمنيتها والتنسيق معه بعيداً عن الأنظار وقد فرغت من العِدّة. كانت خادمتها سلطانة مَن ينسّق مع خادمة لابن عامر، تُماضر، لمكان اللقاء وساعته.

لم تكن صبح تُقدّر أن الأمور سوف تكون بالصعوبة التي هي عليها. انزاح خطر الصقالبة، أو توارى. ولكنها اصطدمت بحاجز هو جعفر. فهو على شبكة واسعة ونافذة، وأبناؤه وأقرباؤه في المناصب الحساسة، ولا يمكن حسم أمر من دونه. لم يكن ليشكّل خطورة، ولكنها لن تستطيع أن تمارس السلطة وجعفر ماسك بخيوطها. وهو لا يريد أن يشاركه السلطةَ أحد أو يرضى بدور صوري. يتأدّب مع السيدة الكبرى، يخضع لرغباتها، يستجيب لطلباتها ولكنه يظل هو المتحكم. وهي لا تريد أن تستجدي أحداً. تريد أن تكون الآمرة ولها يد يمكن أن تبطش بها، هي ابن عامر.

بلغها من بعض رجالات الخدمة ممن أرادوا أن يتقرّبوا منها، لأنهم أدركوا نفوذها ودورها في مجريات الأمور ونجمها الساطع، أن الخليفة في أواخر ملكه كان يختلي بكاتب بربري، ولا يُدرى ما أسرّ له به. أقضّ مضجعَها الخبر. من يكون هذا البربري، وماذا يكون الحَكم قد أسرّ له به؟ أأسراراً، أم وصية؟ استشعرت الجفاء من الخليفة في أواخر عمره، وعزت ذلك للكاتب البربري. أكان يتآمر عليها؟ ودّت أن تُكلّم ابن عامر في شأنه، ولكن ابن عامر مشغول بحشد الجنود لغزوة الشاتئة لصدّ تحرشات النصارى. ثم هو يضع في سُلَّم الأوليات التقرب من القائد غالب في أُفُق تنحية جعفر. لم يجهر ابن عامر بذلك لأحد سوى لصبح، خلال أول اختلاء بينهما بعد

العِدّة. قدّرت صبح ألّا جدوى من مفاتحته في شأن الكاتب البربري في الظروف الراهنة، ولو أنها تتحرّق للقضاء عليه.

خلّف الخليفة الحَكم وضعاً معقّداً، هشّاً، يشل كل طرف الآخر. كان الكل على حذر. جعفر يحذر من ابن عامر، ولو أن ابن عامر يبدي الولاء لجعفر، وابن عامر متوجّس من جعفر ولو هو يظهر التودد. قوة الصقالبة دفعت جعفراً أن يستميل ابن عامر. بقيت قوة غالب بعيدة عن مجرى التنافس، ولكنها قوة لا شيء يمكن أن يحسم من دونها. كانت صبح ترى أن الأمور ستوزّع ما بين شؤون الدولة يديرها جعفر، وشؤون الشرطة يتولاها ابن عامر، وهي تشرف على الأمرَين، وهي من يحكم من خلال ابنها هشام. لكنّ جعفراً لم يكن مستعدّاً أن يتخلّى عن الأمر. كان حليفاً قبل إزاحة الصقالبة، وأضحى حجرة عثرة بعد إزاحتهم.

هل وضعُ السلطان الموزّع ما بين الحاجب جعفر، وصاحب الشرطة ابن عامر، والقائد العسكري غالب، هو من تفكير الحَكم، أم من وحي الكاتب البربري على الحَكم؟ الحَكم أوهى من أن تبدر منه فكرة مثل هذه. خائر الهمّة، ضعيف الخيال، تستهويه المتع، ويعلق برسم الحكم أكثر من جوهره، ويأنف من مستلزماته. لم يكن يقوى على جهد، ويحسب أنه من خلال الظهور يكفي كي يحكم. منذ تعرّف إلى بدر الفتى المجوسي، أهملَ شؤون الحُكم، ولم يعد له من هم سوى أن يسترضي الفتى بدراً، ولمّا مات بدر أو قُتل، اعتزلَ وغارَ في الحزن. لم يكن يلتقي إلّا بطبيبه حسداي وكاتبه زيري وخادميه جوذر وفائق.

كان ما تخشاه صبح هو أن ينقض الحَكم ولاية العهد لهشام ويعهد بالأمر للمغيرة، لذلك أخذت من ابن عامر الالتزام بالبيعة لهشام. كان هذا هو الذي يهمها قيد حياة الحَكم. كانت قد كفّت من أن تحب

الحَكم حينما أيقنت أنه جعل منها تربة لبذرته. لم يخصها بعناية، ولم يُحطها بحب، ثم هجرها، وحينما التقت بشخص مكتمل الرجولة، ألقت بنفسها في حضنه. أحبت ابن عامر لأنه انتشلها من البرودة، ونزعها من الزيف، وبذل لها الرجولة، وشملها بالجود، واستهواها بالنخوة. كان لعلاقتهما أن تنهار بعد موت ابنها عبد الرحمن، وسرت الإشاعات أن قد قُتل مسموماً، وأشيع أن ابن عامر من سمّمه. تأذّت صبح من ذلك، واعتقدت لفترة أن ابن عامر من سمّم ابنها فعلاً. لم تُخْفِ الأمر وفاتحت ابن عامر فيه وطلبت منه أن يُقسم. كانت في حالة ضعف. ما يفيد القسم؟ وماذا يغيّر من أمر؟ ابنها عبد الرحمن مات، ولن يعود، وهي الآن من يتطلع للحكم، ولن تستطيع من دون ابن عامر، ولا يمكنها التخلص من جعفر من دون ابن عامر.

نجحت في الامتحان الأول وهو التخلص من المغيرة. بلغتها قصة المغيرة. تشفّع. بكى، وأقسم بالأيمان المغلظة أن يلتزم بالبيعة لابن أخيه ويغادر قرطبة إلى الشام أو المغرب. رق له ابن عامر وبعث بمبعوث لجعفر يستجديه عدم قتل المغيرة، وبلغه من جعفر أنه إن لم يفعل فهو من يقتل. أشار ابن عامر برأسه حينها إلى واحد من الشرطة الصغرى فأضجع المغيرة وخنقه بوسادة إلى أن أسلم الروح، إثرها حزَّ ابن عامر رأسه، ثم أمسكه من شعره والدم يسيل من رقبته، ونظر إليه كمن يحدّث حياً، وهو يقرأ آثار الألم في قسمات وجهه:

– آسف يا مغيرة، لم يكن بدّ ممّا هو بدّ. اعذرني.

كان المغيرة فتى ودوداً، وكان يخص صبحاً بالاحترام، ولم يبدر منه شيء يسيء إليها أو يغض من مكانتها. ولكنها لم ترَ بدّاً من القضاء عليه. كان حجرة عثرة أمام ما تتشوف إليه من سلطان. أشيع عنه أنه قتل نفسه.

كانت ترى التخلص من المغيرة، لأن الموتى وحدهم لا يعودون، وكانت تعرف ابنها وحدوده، وتدرك أن الفقهاء قد يتحولون عنه، ويتحللون من البيعة له، ويعهدون بالأمر إلى المغيرة، للصفات التي تتوافر فيه وتنعدم في ابنها، لذكائه ومعرفته وأخلاقه، ولذلك كان من الضروري استئصال أية إمكانية ليُستعاض عن ابنها، كي تحكم من خلاله، واعتبرت أن الحب المضطرم في جوانحها لابن عامر أداة في هذه العلاقة.

أخذتها سِنة من نوم وهي تسترجع سِجلّ ما حدث. أسدلت الخادمة سلطانة عليها الغطاء، وقد رأت سيدتها غلبها النعاس. هبّت صبح فزعة. شكرت خادمتها.

كانت سلطانة وصيفتها القريبة ونجيتها الأثيرة، تعرف أمرها، تُسرّ لها صبح بما يعرض لها، وهي صلة الوصل بخادمة ابن عامر تماضر. كانت سلطانة أول من عرف بحبها لابن عامر، وأداتها في ترتيب اللقاءات وبعث الرسائل مع تماضر. لم تكن صبح لتخفي عنها شيئاً، وكانت تجدُ عندها المواساة حين يعتكر مزاجها.

كان الحَكم قد هجرها. لم يكن سرّاً أن الحَكم لم يكن يأتي النساء، وكان يضجر بحضرتهنّ، ولذلك لم يتزوج إلّا وقد ولي الخلافة، واختار فتاة مغمورة من نساء الغناء، لا عائلة لها ولا عصبية، وقدّر أنها ستَقبل حياة النعيم وتُقبلُ عليها وتَصدفُ عما تقتضيه الطبيعة. وعاش معها فترة كما يعيش الأزواج، وقرّبها وبدا أنه يستشيرها. فرض عليها حين يختلي بها أن تلبس لباس الرجال. كان يناديها بجعفر. ثم نفر منها بعدها، أو لم يتحرج من النأي عنها. خلّفت له عبد الرحمن الذي توفي في ظروف غامضة. تهلهلت علاقتهما بعد وفاة ابنهما عبد الرحمن. حملت بهشام، ومنذ وضعته لم يقربها الحَكم. وكان أن وقعت في أحضان ابن عامر وقد كان كاتباً لها. كانت أرضاً مجدبة

فسقاها، ووردة ذابلة فبعث فيها الحياة، وأداة فغدت إنساناً، وشخصاً مستكيناً إلى امرأة لها طموح. اكتشفت أن لها استعداداً للدهاء، زكّته حياة الحريم وما تطفح به من دسائس ووشايات وكذب وغريزة بقاء. كان ينقصها البطش، أو قوة ضاربة، فوجدتها عند ابن عامر. بدت دوماً أمام الخليفة بمنظر الزوج الحنون والمرأة المطيعة. لم يعد يهمها شيء من أمر الحَكم سوى ما قد يتيحه الاقتران به من التشوف للسلطان. لم يعد يهمها كرجل ولا كزوج، لأنه لم يكن لها زوجاً، وإنما أرادها محضناً لنسله. وجدت حاجتها كامرأة عند ابن عامر، يحرّك شغاف قلبها، بل يحرّك مكنون جسدها، إذ يقبّلها فيلتهب بدنها، مما لم يستطع الحَكم أن يفعل، أو حين تسري يد ابن عامر في جسدها متحرّكة في تضاريسه، فيمسك حلمتَي ثدييها، أو يقبلهما، ثم وهو يجري يده من قدميها حتى فخذيها، ويعبث بعانتها، فتتأوّه من الرغبة، وتضطرم من الشهوة، وتستكين له، ثم وهو يضاجعها، فإذا غلبتها اللذة صرخت من شبق. كانت صبح قد حُرمت ذلك كله، ووجدته أخيراً. ووجدته عند رجل مكتمل الرجولة، جمع إلى قوة السلطان الأدب والكياسة والمعرفة فضلاً عن الوسامة. لم يحقّق الرجل حاجتها كامرأة فقط، بل طموحها كمتشوّفة للسيادة والسؤدد. ولولا هذا الطموح لما ترضّت الحَكم، ولا خضعت لنزواته، هو من ظلّ طفلاً مدلّلاً. لبقيت حزينة، منكسفة، غضبى. مرة تجرّأت وقالت للحَكم ما كانت تضمره له. أقذعت له في القول، ولم يكن لها أن تفعل لو كانت مشبعة الرغبة، راضية النفس. تزيّنت وتطرّت وتعطرت، وأشعلت القناديل في مخدع الجناح الغربي، ثم اقتعدت تنتظر الحَكم في مخدعها. كان الحَكم مع جعفر في الصحن، ثم انضاف إليهما الطبيب حسداي. قدّرت أنه سيصرفهما لكي يخلو لها ويختلي بها. وأعياها الانتظار، وأخيراً لم تجد بدّاً من أن تلفّ رداء خفيفاً يظهر مفاتنها وقسمات

جسمها ونهديها. فعلت ذلك عن قصد كي تشهد جعفراً والطبيب حسداي. وصرخت في وجه الحَكم بعربية سليمة، ممّا يعني أنها هيَّأت الجملة وكررتها، كي يسمعها من له سمع:

- تترك امرأة جميلة هي زوجك، من أجل خدم تظل معهم سحابة يومك. هل يعوضك سمرك عن زوجك؟ أم أنك تنأى بهذا السمر عني؟ قل لي أرجل أنت، فما هذا فعل الرجال؟

لم يؤذِ الحَكم شيء في حياته عدا وفاة ابنه عبد الرحمن، شيء كما آذاه قول صبح. كان يستطيع أن يبوح ببثه حين قُبضت روح عبد الرحمن، فيجدَ العزاء، ولم يكن يستطيع أن يجهر بما قذفته في وجهه صبح. لم يبرأ من قول صبح الجارح. صاح الحَكم إثرها:

- اصعدي غرفتك يا فاجرة، وأنتما يمكنكما أن تنصرفا.

لم ينم الحَكم ليلته تلك. وأمر الحشم أن يخفروه في الليل إلى منية الناعورة، وبها نام، أو على الأصحّ أمضى الليلة، لأن عينَيه لم تكتحلا بنوم. عند الصباح نادى على جعفر وأمره بالإتيان بعدلَين للطلاق. فعل جعفر ما أُمر به، وأتى بالعدلَين، ثم قال للخليفة:

- العدلان ها هنا. والرأي رأي مولاي، إنما هل يأذن لي مولاي بأن أعبّر عمّا أرى، ولمولانا واسع النظر؟

- أبنْ يا جعفر.

- ليس من مصلحة مولانا أن يَشيع عنه طلاقه لزوجته. إذ لو فعل لتحررت صبح، وأفشت أسرار البيت الخلافي. مولاي بين أمرَين، إمّا أن يقتلها، وإمّا أن يمسكها. أما الطلاق فهو يحرّرها، وهو خطر على البيت الخلافي.

تفكَّر الخليفة الحكم فيما بثه جعفر إياه. قلّب اقتراح القتل على وجوهه، وأيقن أنه لن يستطيع الانفصال عن صبح. رضي أن يبقيها في عصمته، على مضض، ولو مبعدة. منذ ذلك التاريخ كره الحَكم

السلطان، وأخذ يتوارى عن الأنظار. شعر بالعجز. ليس هناك شيء فتّ من نفسية الحَكم مثل الجملة التي نطقت بها صبح «أرجل أنت؟». ثم ألقت بنفسها في حضن ابن عامر. ولم تكن لتفعل لولا هجرُ الخليفة لها وازوراره عنها. لم يعد يهمهما من أمر الحَكم بعدئذ إلا أنه حامل لصولجان الحُكم وتريد أن تنقله لابنها هشام. تُقبّل يد الحَكم أمام الملأ. تتصرف أمامه حسب القواعد المرعية والسنن الجارية. كان الحَكم يقبل منها ذلك، أو اضطره حاله أن يقبل منها ذلك. لم يقوَ على ما قام به أبوه حين مثّل بوجه جارية تمنعت عليه، وحين ذبح ابناً له ثار ضدّه. كان عبد الرحمن يمثل سؤدد الحكم وهيبته، ولو في بطشه وغلوائه. وكان الحَكم يمثل صورته أو رسمه. كان خائرَ العزيمة، وكان يجد عوضاً بالبطش على الضِّعاف، ممن ليس لهم حول ولا قوة.

كانت سلطانة تعرف كل تلك الأسرار. هي المؤتمنة عليها. كانت تعرف أن موطن ضعف ليس الحَكم وحده وإنما الخلافة كلها هو حال الحَكم مع صبح، أو عدم قربه للنساء. كانت هي الثلمة التي نفذ منها ابن عامر. كانت تدرك بحدسها أن هذه الثلمة قد تتوسع، كشرخ في حائط يتسع، إلى أن يتصدع. كانت وفاة الحَكم تحرُّراً لصبح. تحرُّراً كي تعيش حياتها كامرأة لها الحق أن تحِب وتحَب، وتستمتع بجسدها وتُمتع، ولها طموح كي تمسك عنان السلطان، وتحكم من خلال ابنها هشام. ولكنها تتبيّن أن السبيل ليست سالكة. لما يشكله جعفر من عثرة، ولهذا الكاتب البربري الذي مثلما انتهى لها كان يرتبط بالصقالبة. آلت أن تقضي عليه لما أن تفرغ من جعفر، وكانت سلطانة تشاركها توجسها حول هذا الكاتب الذي تبدّد مذ مات الخليفة.

نظرت صبح إلى سلطانة مستفسرة في استخذاء:

– أخشى أن تصرفه الاستعدادات ولا يأتي.

- لسوف يأتي يا مولاتي. لقد أكدت لي تماضر الأمر. اطمئني. لسوف يأتي. وهو لن يستطيع أن يذهب للغزو من دون ملاقاة مولاتي. وقد اجتمعت الجنود والحشود بربض السرادق، ممّا يعني أن ساعة النُّفرة أزفت.

- وما ترين من شأن ابن عامر يا سلطانة؟

- يُعَوِّل على هذه الغزوة كي يكسب غالباً إلى جانبه لعزل جعفر.

- فليباركه الربّ.

- ألم تستأنسي بعد بدعاء المسلمين يا مولاتي؟

- ولدت مسيحية يا سلطانة، ودرجت على المسيحية، قبل أن أعتنق الإسلام، ويبقى رسيس ما عليه درجت. فلينصره اللّه.

ثم أرسلت ضحكة. انفرجت أساريرها وفاتحت نجيتها بعدها:

- احك لي يا سلطانة من معاناة قومك، من سِفْر الخروج. أريد أن أسمعه منك مرة أخرى.

وأخذت تحكي لها اضطهاد فرعون للعبرانيين، وابتلاء اللّه للمصريين، حتى الخروج، إلى أن شملها الكرى. وكفّت سلطانة عن الحديث. لم تتحرك حتى لا توقظ سيدتها. نظرت إلى وجهها. لم تدرِ أهو حب ابن عامر ما يحرك شغاف مولاتها، أم حب السلطان، أم كلاهما؟ ثم خرجت سلطانة إلى حيث النافذة ترصد طلائع ابن عامر كي تخبر مولاتها حين يحل.

5

صعد المؤدّب الزبيدي الدّرج المفضي لجناح الاستقبالات بالجناح الغربي المطلّ على الرياض بجهد جهيد، لتقدم سنّه وطول الدّرج. استقبله الخدم بحفاوة لميزته السابقة إبّان الحَكم ومكانته بين الفقهاء، وقدّموا له عصائر، وأخبره الوصيف مسعود المكلف بالخدمة من أن أمير المؤمنين هشاماً سيستقبله بعد حين. وابتهج الشيخ للأمر، لأنه ما انفك يأتي زوال كل يوم كي يُعلّم أمير المؤمنين اللغة العربية والفقه وأصول المذهب المالكي، فينتظر لساعات، فيأتي مسعود ليخبره بأن أمير المؤمنين شغلته أمور الدولة، أو أنه لم ينم الليل كله، لأن أخباراً بلغته عن كلَب المسيحيين وتهديدهم لدار الإسلام، فسهر الليل وأعطى أوامره المطاعة للتصدي للأمر ودرء الخطر المحدق، فيردُّ الفقيه:

- الدفاع عن بيضة الإسلام أولى. بلّغ سيدي ومولاي فروض طاعتي وولائي. اللّهُمّ وفّقه للخير وأعنه عليه، وحقق على يديه ما إليه يصبو وبه تعلو راية الإسلام، وتُمحَق شرذمة الضلال، ويُقمع أصحاب النفاق، ويُرذل أهل الشرك، ويُهزم أصحاب التثليث، فيُردون، والعياذ باللّه، إلى أسفل سافلين.

كان الوليد، رفيق الخليفة، من يتفتق ذهنه عن حيلة ليبرر تغيُّب

الخليفة عن الدرس. ما أن يُخبَر الخليفة هشام بوصول الفقيه الزبيدي حتى يسأل رفيقَيه الوليد ومروان:

- ما تُراني أقول لهذا المأفون؟

كان مروان يشير على الخليفة هشام القيام بواجباته، ممّا لم يكن يروق لهشام، وكان لذلك يفضّل عليه الوليد. تبدر دوماً من الوليد حيلة في كل نازلة كي لا يحضر هشام الدرس، فيستحبها، وما يلبث أن يبعث وصيفه مسعوداً إلى الفقيه الزبيدي. كان مسعود من الزنج، اشتُري من عِدوة المغرب، وسنّه لا تجاوز الست سنوات، وتربّى على رجال الخدمة، وعلى قاعدتها الأساسية الطاعة. كان فتى جذعاً حين ولي هشام الأمر، وكان لديه أثيراً، ولذلك أضحى مهيباً. وكان إلى مكانته، قوي البنية، مفتول العضلات، شديد القوة، قوي البأس حين يؤمر بتنفيذ عقاب.

بلغ صبح تخلُّف هشام عن حضور الدروس وصلاة الجمعة فغضبت من ابنها، وحذّرته وهدّدته بمعاقبته بأن تحرمه من اللعب، ولكنه لم يعبأ بها، ولم تعاود المؤاخذة لأنها كانت منصرفة لشؤون السياسة وسباق الرئاسة وضرورة التخلُّص من جعفر على أن تهتم بتعلُّم ابنها هشام.

كان الخليفة يملُّ من دروس الزبيدي، وكان لمّا كان والده الحَكم على قيد الحياة يحضرها خشية منه، وكان لا يفقه شيئاً ممّا يتحدث عنه الفقيه الزبيدي. كان الفقيه الزبيدي يحدّث بما يحدّث به في مجالس العلم لعلماء يعرفون اللغة ويدركون أمور الفقه. ولم يكن يبذل أي جهد كي ينزل إلى مستوى فتية لا يحسنون العربية، وليس لهم دراية بقضايا معقدة، ولا يستحثهم طموح المعرفة، فكان يصيبهم الملل لذلك. ولم يكن أحد يستطيع أن يراجع الزبيدي، وهو من هو، من علماء الحضرة بقرطبة، وفقهائها المبرزين، وعَلَم من أعلام الغرب الإسلامي قاطبة،

ودعامة المذهب المالكي، ومن المنتصرين للسنّة والجماعة، المناهضين لأصحاب علم الكلام، المتصدين لأهل العقل، القامعين لكل مستحدثة. بلغ حظوة مع الحَكم في أواخر حكمه، وأثّر في توجهاته، وسعى الخليفة أن يسترضيه ضمن من استرضى من الفقهاء وينأى عمّا طبع خلافته في أول أمره من انفتاح وتسامح... كانت دروس الزبيدي مستغلقة على هشام، فلما ولي الأمر، لم يجد غضاضة أن يتحلل منها وألا يحضرها، ولم يكن يرى أن يجلس أمام فقيه لساعة أو أكثر، لا يفهم عنه، كما لو أنه عقاب يتعرض له. نظر الخليفة إلى الوليد وقد أُخبِر بمجيء الزبيدي فسأله ذات السؤال الذي يطرحه:

- ما تراني أقول لهذا المقيت؟

أشار عليه الوليد بأن يبلّغه بأن الخليفة يتأهّب لاستقبال الجنود في غزوة الشاتئة ضدّ قشتالة. ردَّ الخليفة مبتهجاً:

- أحسنت يا وليد. فكرة جيّدة.

ثم استدار الخليفة نحو رفيقيه وأمرهما أن يلتحقا بالفقيه الزبيدي.

كان الفقيه الزبيدي ينتظر بجناح من القصر. سلّمَ الفَتيان مروان والوليد عليه فقبّلا يده، ثم أخبره الوليد أن الخليفة هشاماً، المؤيد باللّه، دام علاه، سيلتحق بهم فور أن يفرغ من مشاغل تهييئ الحشود ضدّ الممالك المسيحية، وأن يبدؤوا الدرس ريثما يلحق بهم الخليفة أعزّ اللّه أمره. عقّب الفقيه الزبيدي بلازمته المعتادة بالدعوة لأمير المؤمنين بالتوفيق والسداد، وأن يُبقيه ذخراً للبلاد والعباد، ويرفع على يده راية الإسلام، ويقمع به الكفار والمشركين والمنافقين.

ثم استوى على المصطبة، وتنحنح وبسمل وحوقل، ثم قاطع:

- أفلا ننتظر أمير المؤمنين؟

فردَّ الوليد في خبث:

- نعم سيدي، أمير المؤمنين، المؤيد بالله، نصره الله، أذن لك أن تبدأ، وسيلتحق بنا.

وعاد الفقيه الزبيدي فتنحنح وبسمل وحوقل ثم قال دون أن ينتبه للغلامَين:

«الحمد لله أن شملتنا نعمة الإسلام وخصّنا ببيانه القرآن، ففضّلنا على العالمين، وهيّأ لنا بمنّه وكرمه لسانَ كتابه ورسالة نبيه ومستودع سرّه، وجلاء معجزته، به تكلم آدم، وبه ينطق أهل الصُّفة يوم الحشر، وقد جازوا الصراط فقعدوا في أعلى عليين، مع الشهداء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، أنزله بلسان عربي مبين، به تتم الصلاة، وتصدق النجوى، ويصح الدعاء.

أما بعد،

فالكلام لفظ مفيد، وهو اسم وفعل وحرف، وقد تكلمت العرب بالسليقة فلم تلحن. فلما اختلط العرب بالعجم، عمّ اللحن وتفشت العُجمة، وكاد لسان الضاد أن ينطمس، وأوشكت العربية أن تبيد، فوضع أسنان اللغة علم النحو، ورسموا البيان، وأرسوا قواعد البلاغة، حتى لا تضيع اللغة، ويتأتى فهم القرآن وأسراره التي لا تنقطع».

كان مروان يجهد نفسه أن يستمع إلى كلام الفقيه الزبيدي، وما أن يسهو الفقيه أو يولي ظهره حتى يضرب الوليدُ مروانَ براحته على ظهر يده، فتنتهي الصفقة إلى سماع الزبيدي، فيتظاهر بعدم الاستماع، ثم يتكرر الضرب، فلا يسع الزبيدي أن يسأل:

- ما هذا الذي أسمع؟

فيجيبه الوليد بتأدُّب:

- نعم سيدي، هو صدى جند الخليفة وهم يتدرّبون.

فيتظاهر الفقيه بعدم الفهم، فيردِّد:

- اللهم أعن جند المسلمين واجعل أسِنّتهم في نحور أعداء الدين.

ثم يستأنف الزبيدي الدرس عن أصول البلاغة، وقول السلف بمطابقة الكلام لمقتضى الحال. حتى إذا أغمض الزبيدي عينَيه، يستذكر قولاً أو يستحضر استشهاداً، أرسل الوليد صوت مُواء، فما يكون من الفقيه الزبيدي إلا أن يسأل:

- ما هذا الذي أسمع؟

فيردُّ الوليد:

- هرٌّ عابر.

- وكيف لهرّ أن يمرَّ بالزهراء؟ يردّ الفقيه الزبيدي مستغبياً.

- هي هرر مولاي.

- وبها ونعمت، ما دامت هي هرر مولانا. نستأنف الحديث. وقد تقتضي البلاغة الإيجاز، وقد تقتضي الإطناب، حسب مقتضى الحال..

ثم ينحني الوليد كأنه يبحث عن شيء، ويرسل مرة أخرى صوت مواء.

فلا يتمالك الزبيدي وقد بدا منه الغضب فيثور:

- ما هذا الذي أسمع؟

- هر يطير، ردَّ الوليد.

عقب الزبيدي وعلامات الضجر بادية عليه:

- إنها علامة الساعة.

ثم يرفع دعاء الختم، في تبرُّم وضجر:

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّه رب العالمين».

6

احتشدت الجموع منذ الصباح الباكر، رغم البرد، من خارج قرطبة بفحص السُّرادق حتى الزهراء على جنبات الطريق المؤدية للزهراء، كي ترى جيوش المسلمين تنفر للدفاع عن حوزة الإسلام بقيادة ابن عامر. كان الرسم يقضي قبل النُّفرة للجهاد، عقد الألوية بالجامع الكبير بقرطبة عصر الجمعة. قدِم القواد من مختلف طبقات الجند وهم يحملون الألوية، في حفل بهيج، والنفير يردد الآية: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، ثم غشي القواد صحن الجامع بألويتهم بداخل المسجد قرب المحراب، ووُضعت الألوية بموازاة الرماح، ثم عُقدت بها تيمُّناً بالنصر. وعند الغداة سرت جحافل من المنادين تذرع قرطبة، وتجوب القرى المحيطة بها، من الأرباض تستنفر الساكنة لحضور يوم البروز الذي لسوف يترأسه الخليفة المؤيد بالله أمير المؤمنين هشام بن الحكم بن عبد الرحمن، من الزهراء بباب الأقباء المشرف على ساحة المحفل، حيث ستنطلق الجيوش قبل أن تُعرّج على قرطبة، ومنها تنفر نحو قشتالة.

كانت الجموع من المسلمين ومن اليهود، ولم يتخلف إلّا المسيحيون وبعض المولَّدين. اكتفى اليهود بالحضور والدعوة للخليفة بالسداد والنصر، أما المسلمون فقد كانوا في حالة نشوة وهم يُكبّرون

ويهللون ويدْعون للجهاد ولأمير المؤمنين بالتمكين والسداد. كانت أجواءَ بهجة وحبور. وحتى الأطفال خرجوا، والنساء لم يتخلفن، وإن لم يختلطن بالرجال وبقين في موضع خاص. خرج الباعة يبيعون الطعام، وأصحاب الحِرف يعرضون نتاجهم. أوقِدت مواقد في الجنبات يصطلي بها من نال منهم البرد، ثم يعودون إمّا للاصطفاف في أماكنهم ينتظرون مرور موكب جيش المسلمين وإمّا الحديث فيما بينهم. كان البروز مناسبة للتلاقي لكثيرين ممن صرفتهم شؤون الحياة. دعوة الجهاد أثارت الحَمية في المسلمين وألهبت مشاعرهم ضدّ المسيحيين بقشتالة، وذكّرتهم عهد عبد الرحمن الناصر وانتصاراته المتلاحقة على المسيحيين، وبداية حكم الحَكم حينما دكَّ صروح المسيحيين دكّاً.

كانت أجواء الزهراء مستنفَرة. فُرشت الفُرش، وزينت الجنبات، ورُصت الطنافس، من الرياض إلى باب السُّدة فالأقباء، وأوقدت الشموع والمصابيح بداخل أرجاء القصر، وحمل الوصفان مواقد البخّور وهم يطوفون بها في مختلف الأجنحة من الجناح الشرقي.

عند الضحى بدأت وفود الأعيان والعلماء ورؤساء طوائف الحِرَف تتقاطر على ساحة المحفل. كانت عناصر الشرطة الصغرى تدقّق معها، ثم إذ تنتهي منها تقع تحت طائلة الشرطة الوسطى. كان الحضور يلبسون البياض، لباس بني أمية، وكان كل من حضر المحفل يعتبر نفسه محظوظاً، يفاخر بذلك. أما العلية من الوزراء والقوّاد والفقهاء والقضاة وأصحاب الرسم فقد غشوا داخل القصر بالجناح الشرقي، ينتظرون الإشارة كي يتحولوا إلى الشُّرف المطلة على المحفل. كان الحبور يملؤهم وهم يرون الجنود والحشود وقد نفروا للجهاد. كان حديثهم في الجناح الشرقي كما لو هو طنين النحل.

* * *

كانت سيدة محتبية قرب فراش، والساعة ضحى، في غرفة مظلمة، وهي تتنحنح في خفوت، وتردد بلا ملل: «أصبح ولله الحمد، وازدان بطلعة مولانا المؤيد»، ثم تحرِّك الفراش في رفق عسى أن يستيقظ النائم. منذ الضحى وهي تردد اللازمة نفسها، والخليفة هشام لا يزيد أن يردّد:

- مباركة دعيني أنام.

فتلتزم الصمت، ولا تُلحف. ينفتح إثرها الباب يطل منه الوصيف مسعود، كي يخبرها أن العلية قد أتوا، وقد اجتمعوا بالجناح الشرقي، فترفع عقيرتها بالنداء نفسه: «أصبح ولله الحمد، وازدان بطلعة مولانا المؤيد»، وقد رفعت شيئاً من نبرتها، فينهرها أمير المؤمنين:

- مباركة، قلت لك دعيني أنام.

تلزم الصمت إثرها. وما يلبث أن ينفتح الباب الموارب ويطل منه مسعود، ويخبرها أن الحاجب جعفراً قد وصل. فتعيد النداء: «أصبح ولله الحمد، وازدان بطلعة مولانا المؤيد»، وقد زادت من نبرتها، فينبري صوت الخليفة هشام:

- مباركة، سأقطع رأسك إن صددتني عن النوم.

إذّاك، لا ترى بدّاً من الصمت حينها، ثم تتجرأ بعدها وتحرِّك الفراش تحريكاً خفيفاً. حتى إذا لم تأنس ردّاً كفّت عن فعلها، وهي تحملق في الظلام، وتردِّد في نفسها أنْ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. وتعاود نفسها وترى أنه يحسن بها أن تتعرض لغضب أمير المؤمنين على أن تتركه سادراً في النوم وعلية القوم ينتظرون، والرعية قد احتشدت منذ الصباح لتشهد موكب جنود المسلمين ينفرون للجهاد.

ينفتح بعدها الباب مرة أخرى، ويطلُّ منه من طرْف خفي الوصيف مسعود، يخبر مباركة بأن الحاجب جعفراً حلَّ، ويشفع، «كي تُبلغي سيدي». وهي لا تستطيع لأن سيدها لا يزال يغط في النوم. ولا ترى

بدّاً، وهي تدرك جلالة المناسبة، أن تتنحنح، ثم تعمد إلى أن تعطس، وبعدها تسعل فينزع ذلك هشاماً من فراشه، فيستدير منه، وتوقن أنه يقظان، فتصدح بصوت رخيم:

- خَدم سيدي، حضروا، نعم سيدي.

يردُّ الخليفة هشام وقد أدرك خطورة الأمر:

- اتركيني لبعض الوقت، وأيقظيني، مباركة، بعدها.

ثم يغط في نومه، فإذا كان الضحى لم ترَ بدّاً من أن تحرك الفراش. وهي تعاود الأمر حتى أذان الظهر، والمؤيد بالله أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، من سيعطي انطلاق جنود المسلمين للجهاد، في الفراش، لم يَصْحُ بعد. فتنتهي جلبة إلى مباركة، وتسمع صوت مسعود يصد شخصاً عن الدخول، وصوت امرأة يرتفع، وتدرك مباركة جلية الأمر. ينزعج هشام المؤيد، فينهض من الفراش ويسأل:

- ماذا؟

تخبره أن السيدة الكبرى حضرت وأن الفتى مسعوداً صدّها عن الدخول، فيأمر مباركة أن تُبْلغ مسعوداً بأن يأذن لها، فتفعل. تدخل السيدة صبح نافرة مغاضبة، وهي تصرخ بالرومانية:

- متى تدرك أنك أمير المؤمنين؟ استفق. إن بقيت هكذا، لن تجد يوماً من يوقظك. قم.

ونهض هشام، وهو يبرغم:

- حسبُك.

ثم استدار نحو مباركة يدعوها أن تغادر. كان لا يود أن يظهر عليه أحد من الخدم وأمه تعنّفه.

سحبت صبح الستائر وغشي النور المكان، ولم يتمالك هشام من الردّ:

- بالتؤدة، من فضلك.

- قم. المرة المقبلة التي يمنعني هذا الزنجي، سأعيده من حيث أتى، إلى بلاده من المغرب الأقصى.

- هو يقوم بواجبه.

- وأنت لا تقوم بواجبك. اغتسل، كي تأتي نساء الخدمة ليُلبسنك لباس الأبهة. هيا. رجالات الدولة حضروا، والناس احتشدوا في الجنبات منذ الصباح الباكر في البرد، تنتظر أمير المؤمنين وأمير المؤمنين لم يستيقظ بعد.

* * *

كان الخليفة قد خرجَ في أحسن شارة، بعد الظهر، في المحفل، لحفل البروز الذي يؤذن بالنُفرة للجهاد. وكانت طبقات الدولة من بني أمية والوزراء والقوّاد والقضاة وأصحاب المراتب قد اقتعدوا في شرفة القصر المطلّة على المحفل، والخليفة يتقدمهم على سرير الملك. بالميدان انتظمت مختلف طبقات الجيش، من الجنود والحشود والمرتزقة والحشم والخُرس (من الصقالبة) والطنجيين (من البربر والزنوج). كانت طبقة الفرسان هي التي حضرت الميدان، فيما بقيَ الرجّالة بفحص السرادق، لأن الميدان لم يكن ليتسع لهم.

يرأس كل طبقة من الفرسان أمير على رأس خمسة آلاف جندي، يحمل الراية، موزعة على خمس طبقات، كل طبقة يترأسها قائد، كل واحد يحمل العلم، وكل طبقة مقسمة إلى خمس فئات، على رأسها نقيب يحمل لواء، وكل فئة مقسمة على خمس يترأسها عريف يحمل بنداً.

ما إن حضر الخليفة حتى تلا شابٌ آيات من القرآن من سورة الفتح. فلمّا أنهى الفتى ترتيله تقدم الفقيه الزبيدي فتلا خطبة. كانت الريح تهب، كي يستمع الحضور إلى خطبته، وما أن أنهاها حتى ردّد النفير بصوت جهوري: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾.

كان ابن عامر على فرسه، يترأس الحشود، ينتظر إشارة الخليفة. . وتقدم الحاجب جعفر فهمس إلى الخليفة ورفع الخليفة ذراعه، ثم تحرّك الموكب، واهتزت الجنبات ممن احتشد من الناس بالتكبير، وسارَ الموكب من الزهراء إلى فحص السرادق، حتى إذا بلغه، التحقت به طبقات الجند، بمختلف تركيبتها، في اتجاه قشتالة، يتقدمها صاحب العرض والتمييز.

كانت الجماهير في حبور وهي ترى جند المسلمين ينفر للجهاد، وهي تصدح بالتكبير حتى ساعة المغرب، ولم تنقطع سيول الجنود وهي تدبُّ نحو الشمال.

7

كان الربيع مزهراً، وكانت أكناف الورد قد تفتقت وأغصان الشجر أورقت، والدفء سرى. نقر الفتى مسعود على باب أمير المؤمنين الخليفة المؤيد بالله، في جناحه الخاص يخبره بحلول المؤدّب الزبيدي لدرس الفقه. ونفث الخليفة نفثة تأفُّف ونفور. كان مشغولاً بالوصيفة مباركة، بها يلهو، ويزجي الفراغ، يقعدها على أريكة، ويعمد في صبغ وجهها. وكانت حينها، حين أقبل الفتى مسعود، قاعدة في مقابلة النافذة وأشعة منخلة تنسلُّ من النافذة على وجهها الأسمر، وتبدي ملامح جمال ولّى، أتى عليه الزمن ونال منه الأسى. كان السنّ قد أثقلها، والحزن أقعدها والهمّ فل منها. كان أمير المؤمنين يحب أن يلهو لا مع مباركة بل بمباركة. فإذا فرغ من عبثه نفحها مئة مثقال، وهي تستكين لنزواته خوفاً ورغباً، يصبغ وجهها بالألوان، ويضع على خدّيها ما شاء منها حسب هواه، يختار منها الفاقعة فيصبغ شفتيها، وكان يروق له كذلك أن يعبث بالخادمة عنبر، وكانت غليظة، فيأمرها أن تُبرز ثدييها الغليظَين، يغريها بالمال، ويهدّدها بقطع مؤونتها إن امتنعت، أو يهددها بالسجن، فلا تجد بدّاً من أن تخرج ثدييها، فيبدر من هشام وصاحبه الوليد القهقهة حتى لتدمع عيونهما من فرط الضحك. كان الخليفة هشام يعرف أنه لا يستطيع أن يقتضي ذلك من

مباركة لورعها وتقواها، ولكنها كانت تذعن لرغبته في صبغ وجهها.
ولم يكن مروان يستحب ذلك اللهو، ويُسرّ في رفق إلى الخليفة:
- مولاي إنها إنسان، وينبغي احترام حرمتها كإنسان، وقد ورد في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.
نظر الخليفة هشام إلى مروان وقال له في نبرة تهكمية:
- يمكن أن تستفيد لوحدك من الفقيه الزبيدي، قم والتحق به. قل له إن أمير المؤمنين مشغول بقضايا المسلمين. انتظر. خذ من عند مسعود صرة الفقيه. ما يهمه هو جرايته. خسيء هو وعلمه.
وانفتل مروان متخاذلاً وقد أخذ الصرة من عند مسعود تحمل صلة الخليفة للفقيه. سلّم على الفقيه إذ بلغ، وأخبره بأن أمير المؤمنين قد صرفته شؤون التهيُّؤ للصائفة. ثم جلس القرفصاء أمام الفقيه، وذهنه شارد، والفقيه يتلو بشكل آلي:
«الحمد للّه الذي بحمده تتم النعم، وتسمو الهمم، وترقى البصائر وتنجلي السرائر، وتبرز الحقائق وتتبدى الدقائق، والصلاة على النبي الأكرم، محمد بن عبد اللّه، عليه صلوات اللّه، من به تتم الصالحات وتُنال الرغبات وعلى هديه تتحقق الأماني، وبه تنطاع الأمالي، والسلام على آله الأطهار وصحبه الأبرار والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب اللّه، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة في النار.
حدّث إمام الحديث الحافظ البحر نفعنا اللّه بعلمه، أبو زيد القيرواني، ممّا حفظه من **الموطأ** وهو أصحّ كتاب بعد القرآن ما بيانه:
...».

لم يعد مروان يثبت لشيء ممّا يردّده الفقيه، فسأله كي يبيّن له أنه يتابع:

- مولانا، أطال اللّه عمرك، ما القول في من يُعملون العقل؟

فردَّ الفقيه جواباً يبدو أنه دأب عليه، يردّده في كل محفل:

- أقوَم طريق ما سنّه الأوائل من الصحابة والتابعين من بديع سنّتهم، وأنهج السبل من سلك نهجهم ولم يزغ عن سبيلهم ولم يتنكب عن المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. وقد حدثت أمور في قطرنا هذا من بلاد الأندلس، ممّا سوّغه أهل الرأي وأجازه أصحاب العقل حتى اختلط الأمر وفشا الخطل، وعشا البصر وكَلّ النظر، فأُحِل الحرام وحُرّم الحلال، وتساوى المؤمن والكافر، والمسلم والمشرك، وسالك سبيل الأولين العاضّ على نواجذ السنّة المطهرة مع المبتدع، والراشد والضال، والفصيح والعَيِيّ، والعربي والأعجمي، وتلك لَعمري علامة الساعة، وقد أخبرنا الصادق المصدوق بأمارتها، وهي أن تلد الأمَة ربتها، إلا أن يتولانا اللّه برحمته.

ثم أفاض الفقيه الزبيدي مسترسلاً في حديثه المعاد ضدّ أصحاب الرأي ونفاحه عن أصحاب السنّة والجماعة، ممن لم يُفرقوا أمرها، ولم يستهوهم المحدث من الأمر، ولم ينصاعوا للمبتدعة من أصحاب الرأي. ذهل مروان عمّا كان يتلوه الفقيه. إلى أن سمع اللازمة التي تحيل على الختم:

- وآخر دعواهم أن الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، والحمد للّه رب العالمين.

قبّل مروان يد الفقيه بطريقة آلية، ثم انفتل ليلتحق برفيقه بالجناح الغربي. صعد الدرج المفضي لجناح الخليفة. وجد الوصيف مسعود على الباب. التمس منه أن يشير إلى الخليفة بحضوره كي يأذن له في الدخول. وانتظر هنيهة، حتى أتى مسعود وأذن له في الدخول.

قبّل مروان يد الخليفة، دون أن يعيره الخليفة بالاً، وهو مسترسل في الحديث مع الوليد:

- قررت أن أهدم الجناح المجاور للديوان، وأبني به بناء يتسع للعب، إلى جانب المَسارة[1].

فردَّ مروان على الفور:

- نِعم الرأي يا مولاي. رأي ثاقب. فكرة رائعة.

- وسأجعل به بِركة للصيف، كي أستحم بها، وأجعل بها صنوف السمك.

- أين يجد سيدي هذه الأفكار الرائعة؟

انبسط هشام، واستدار حيال الوليد:

- ما رأيك أن تشرب الخمر يا وليد؟

- فكرة رائعة يا مولاي، وأين نجد الخمر؟

- أمرت مسعود بأن يأتي بها خلسة.

- للّه درّك يا مولاي، لك جواب لكل سؤال، ولا تأتي على أمر حتى تقلبه على وجوهه.

ونادى الخليفة الفتى مسعود:

- مسعود، هات ما عندك.

وردَّ مسعود بصوت جهوري:

- نعم سيدي.

وأتى بصندوق مموّه، وطرحه قبالة الخليفة هشام، ثم انفتل خارج الجناح.

سأل الخليفة الوليد:

- هل سبق لك أن نلت من الخمرة يا وليد؟

---

(1) المَسارة: ميدان ركوب الخيل في الأندلس.

- وهل في الأندلس من لا يشربها؟ وهل تستقيم الحياة من دونها؟
- وأنت يا مروان.
- الخمر حرام يا مولاي.
- ولكن ستشربها.
- لا يمكن أن أشرب الخمر وقد حرمها اللّه.
- ستشربها لأن أمير المؤمنين أمرك بشربها.
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
- زدني. أين تعلمت كل هذا؟
- من الزبيدي.
- مِن الزبيدي؟ تعرف الزبيدي.
- الخمر حرام يا مولاي.
- سأعلّمك ما ليس حراماً يا مروان، ولا حاجة كي تجهد عقلك لتتذكره. ستذكره من تلقاء نفسك، طوال حياتك.

بعثَ الخليفة هشام بإشارة من عينيه نحو الوليد. استدار الوليد خلف مروان وأمسكه من رقبته. أخذ مروان يتمطى. أثناء ذلك أخذ هشام ينزِع سرواله، ومروان يركل برجليه، إثرها نادى هشام على مسعود. ما إن سمع مروان اسم مسعود حتى أخذ يستغيث:

- مولاي، أتوسل إليك بجاه النبي العدنان، وبجدك عبد الرحمن الداخل. مولاي، أتوسل إليك...

وعنّ مسعود ومن عينه يتقدح وهج كالشرر، وهو يردّد:
- نعم سيدي، سمعاً وطاعة.

أومأ هشام في اتجاه مروان، وهذا الأخير يصرخ ويسعى أن يتنصل من الوليد. انفجر الخليفة ضاحكاً، والوليد يقهقه، ومروان يصك الجناح بصراخه يستغيث، ولا من مغيث.

باب الهُدى

1

في الجزء الشمالي لقرطبة قرب باب الهدى كما يُعرف، أو باب اليهود كما كان يعرف، تقوم خمارة قميئة بِحارة اليهود، تزدريها العين وتقتحمها النفس. يقصد الخمارةَ متواضعو المسيحيين واليهود وبعض الدَّهماء من المسلمين المتنكرين. لم يكن مرتادو الخمارة من العلية، ولم يكن صاحبها صمويل صارماً حيال من يتردد عليها من المسلمين طالما نأوا عن الشغب، ولم يثيروا فوضى أو تقترن بهم شبهة. كان أصحاب الخمارات مطالَبين بتقديم تقارير لصاحب الشرطة الصغرى. ولم يكن أصحاب الخدمة من الشرطة، يلحفون في شأن الخمارات عموماً، وفي شأن خمارة باب الهدى خصوصاً، لأن ما كان يهم أصحاب الخدمة هو القضايا السياسية والمطامع التي قد تحرّك من قد يتعاطفون مع الشيعة أو من ينتصرون للطامعين من الأمويين، أو حركات بعض المولدين من الوجهاء من يحنّون لسؤدد القوط ويريدون أن ينسلخوا عن سلطان العرب. أما أهل الذمة فكانوا مذادين عن الشأن العام، ولذلك لم يكونوا يشكلون مصدر إزعاج. ولم يكن المسلمون ممن يقصدون الخمارات ليثيروا المخاوف، إلّا إن انتهى الأمر إلى ذوي الحسبة، وإذّاك يهمس أصحاب الخدمة للزبون بالنأي مرحلياً، وإذا كان من ذوي السوابق، أو لم يرعوِ، أسلموه للقضاء

فأقيم عليه الحدّ إرضاء للفقهاء ودفعاً لشبهة تغاضي أصحاب الشرطة عن زجر من يعاقر الخمر. وقلّ مَن هم في أسلاك الدولة، أو من العلية أو الوجهاء من لا يشربها.

كان الناس في قرطبة في مرَج شديد حيال وضع متقلّب بعد وفاة الخليفة الحَكم وتولّي هشام ومقتل المغيرة وتمرُّد الصقالبة. كانوا غير مطمئنين أن يتولّى الخلافة صبي لا تجربة له ولا معرفة يُدلّ بها، ولا كانوا يرتاحون لصبح، التي قد تحكم من ورائه. ولم يكن برز في غمرة الصراع شخص يمكن أن يطمئنوا إليه. كانوا يعرفون لجعفر دهاءه، ولكنهم لم يكونوا ينظرون إليه بمنظر التقدير، لطبعه الخسيس، واستئثاره بالأمر ووضع أهله في المرافق الهامة واحتجانه للأموال. وكانت العلية من طبقات بني أمية والوزراء تكرهه لذلك. كان الناس بقرطبة وبالأندلس يدركون أن الحلف ما بين جعفر وابن عامر ولّى، وأن الصراع بدأ يحتدم بين الرجلَين. أخذ نجم ابن عامر يعلو بعد عودته المظفرة من غزوته بالحامة، ونصره على المسيحيين وعودته بالفيء والسبايا والأسرى ورؤوس القتلى. أخذ يظهر بمظهر البطل والحامي للإسلام...

كان صمويل صاحب خمارة اليهود يَدين بالولاء لجعفر، حفاظاً على مصالحه، ولكنه بعد ما فشا من صعود نجم ابن عامر، أيقن أنه لا ينبغي له أن يجعل بيضه كله في سلة واحدة، وأن يكون حذراً فيمن يرتاد الخمارة، وفيما قد يعرض بها.

حلَّ شابٌّ، يبدو في بداية الثلاثينات من عمره بباب خمارة صمويل كما كانت تُعرف. طرق بابها. فتحَ الحارس أذفونشو فألفى وجهاً غير مألوف. سأل الطارق بغيته، فردَّ هازئاً: «أن أتعبّد. وما تراني أفعل في خمارة؟». أغلق الحارس الباب. ثم توالى الطرق. فتح أذفونشو مرة أخرى، وردَّ في حنق أن الحانة لا تُفتح في وجه

المسلمين. ردَّ الطارق أنه من الإسرائيليين. لم يُعره الحارس بالاً فأوصد الباب وهو يبرغم بعربية متعتعة:

- يلبس لباس المسلمين، ويزعم أنه من الإسرائيليين.

ردَّ الفتى:

- لأن لا فرق بين لباس اليهود والمسلمين، يا مغفل.

ثم أراه قلنسوة اليهود مردّداً:

- وما تصنع بهذه، وماذا تعرف عن الأندلس؟

توالى الطرق، والبوّاب مصرٌّ على عدم فتح الباب.

كانت الخمارة تعرف إقبالاً بفضل مغنّية جديدة حلَّت، سرى ذكرها لأدائها المميز، حتى إن بعضاً من العلية من المسلمين أخذوا يتردّدون على الخمارة، رغم وضاعة المكان لسماع المغنّية، وتردد أن الحاجب جعفراً يستدعيها لقصره...

عاود الفتى الطرق، ثم أسند أذنه على الباب، وانتهى إليه حديث متقطّع ما بين الحارس وصاحب الخمارة. خرج صمويل صاحب الخمارة وهو يعتمر قلنسوة، وواجه الطارق بأدب، غير أسلوب الحارس، بلغة تخاطب اليهود بعربية تحمل أثر العامية:

- أش يحب الخاطر أشيدي؟

وردَّ الطارق:

- ما يريده كل مرتاد لحانة، أن أشرب الخمر وأستمع إلى المغنّية التي بحانتك.

- شعداتي (يا لسعادتي)، شعداتي، ولكن أخَاي (أخي)، الشراب حرمو ربي ذ المشلمين على المشلمين.

- وكيف حكمت علي أني من المشلمين؟ هل تريد أن أتعرّى كي تتأكد أني يهودي؟

- بعيد البلاء. وعلاش أخاي، المشلمين ما يختنو ش؟

- وهذه؟

وأراه قلنسوته...

وردّ صمويل متهكّماً:

- مزيونة (جميلة).

- هل تخشى ألا أؤدّي؟ عقَّب الفتى.

- حاشا. أنتين مكمول الهمة والشان. الهمة ما يزيبوها ش (يجيؤوا بها) الفلوش.

- وإذاً؟..

- خلّني نخمن أخاي. انتين محال تكون يهودي.

- كيف تزعم ذلك؟

- اليهود يعرفو اليهود.

ردَّ الفتى:

- أنا من يهود العدوة. من فاس. هيا أفسح يا صمويل لابن عمك هارون بن عمران كي يستمع إلى طرب راحيل.

ثم أخذ يتكلّم بلكنة يهود المغرب:

- حبيتِ نتكلم الكلام دي اليهود ذ فاش؟

إثرها مدَّ الفتى هارون بن عمران قطعة نقدية لصمويل. نظر إليها واندهش. قطعة من مئة مثقال. لن يتجاوز استهلاك الزبون مثقالاً واحداً، فكيف يقدم على إكرامية من مئة مثقال؟

انبسطت أسارير صمويل وقد أمسك الإكرامية ثم قال وقد لان لإغراء المال:

- اشمع، يهودي ولا مشلم، فحال فحال، إلا (إذا) شربت ما تدوخش، ولا دخت ما تعمل ش الفوضى.. وإلا عملت الفوضى، ما يشقشي (يستقصي) احد الخبر.. وإلا وشل (وصل) الخبر لناش (ناس) الحشبة (الحسبة)، دبر لراشك.

- لا عليك. ردَّ هارون.

أفسح صمويل لهارون بن عمران كما قدم نفسه. ألقى هذا الأخير نظرة شزراء على أذفونشو متوعداً إياه:

- المرة المقبلة إن أغلقت الحانة دوني، هشمت أنفك.

نفر أذفونشو يشتبك بالأيدي مع هارون بن عمران، ما لبث صمويل أن فصل بينهما متوجهاً بالحديث لهارون:

- ويلي، حبيتي تعمل لي الفضيحة، ويغلأو (يغلقون) لي اشحاب (أصحاب) الحشبة (الحسبة) المحل... يا خاي هارون، هاذي ماشي عمايل اليهود؟ اليهود يحبو الكياشة (الكياسة). واه؟ فين شفت يهودي يتعارك. يتعاركوا بالفن والكياشة (الكياسة).

أمسك صمويل هارون بن عمران من كمه وأجلسه في مكان قريب من مصطبة الغناء:

- أزي (أجي، تعال) أخاي، انتين ماشي دي المجاح (دي المزاح)، أزي (أجي) تشمع (تسمع) غناء مكمولة الزين والهمة والشان دونا راحيل. تفضل. موطع (موضع) مليح هنا. أول لي (قل لي)، أنتين يهودي بالشح (بالصح/ فعلاً)؟

ردَّ هارون بن عمران بالعبرية:

- اشمع اشرائيل أدوناي أخذ.

ثم شفع بالقول متوجِّهاً إلى صمويل:

- أدخل يديك في جيبك.

وأدخلها صمويل.

- أخرج منها مئة مثقال.

تردد صمويل وأخيراً أخرج القطعة. أخذها منه هارون بن عمران، ثم جعلها في جيبه. عقب:

- كانت لك، والآن أصبحت لي.

صاح صمويل:

- يهودي، والله حتى يهودي. بروخ أدوناي بروخ.. شدّأتك (صدّقتك)، والآن ردّ لي مية (مئة) مثآل (مثقال).

- سنرى صمويل إن كنت تستحقها. الآن ائتني بخمرة معتقة. ليس الخمرة الرديئة التي تخلطها بماء الحياة[1]..

- حاشا. أزيب لك (أجيء لك) بالشلافة (بالسُّلافة)[2].. ثم شفع بجمع أصابعه إلى فمه في حركة تعني الاستحسان. وأعقب:

- إيوا، مية مثآل (مثقال)؟

- سنرى صمويل... سنرى هل تستحق أن نستثمر فيك؟

- كيف؟

- ألا تعرف أشحاب (أصحاب) الخدمة؟

- أنتين من أشحاب (أصحاب) الخدمة؟

- لا تفتح فمك أكثر من اللزوم.

- صمويل في حال (مثل) البير. اللي نزلت به ما تخرز (تخرج) منه.

ثم تنحنح صمويل وتجرّأ بالسؤال:

- إيوا، إلا كنت من أشحاب الخدمة، أنتين ماشي يهودي؟

- ومن قال لك إن اليهود لا يشتغلون في الخدمة؟

- بروخ أدوناي.

- وثقت إذاً؟

---

(1) ماء الحياة: نبيذ يصنعه اليهود من التين.

(2) السُّلافة: الخمر الجيدة.

- ويلي؟ اكذّبك؟ حاشا.. هيّا ردّ لي مية مثآل.
- يهودي أم لا؟
- من اللاويين. إوا، اعطني مية مثآل وأنتين (أنت) يهودي ونصف.
- أعطني زقّاً ممّا تخص به أصحاب الخدمة، وطعام الدفية كوشير، هل سمعت؟ كوشير وليس حلالاً. وتعال أحدثك.
- حاضر.
- وإذا خرج الحديث من هنا... تعرف ما قد ينتظرك.
- بزهد (جهد) ربي، ما يخرز (ما يخرج). وتعطيني مية مثآل...
- سنرى.. مَن هذه المغنّية التي يتحدث بشأنها الجميع؟
- راحيل؟ راحيل. تبارك اللي خلأها (خلقها). الزين والثبات والكياشة (الكياسة).. هاي هاي... زابها (جاء بها) ربي، في حال دزازة (دجاجة) بكامونها. اشمع. أرّبْ (اقترب). راحيل د تغني في أصر (قصر) الحازب زعفر (الحاجب جعفر)... نعم شيدي... راحيل يا راحيل... الزين والهمة والشان. شعادة اللي يشمع غناها، خايف ياخذوها لي.
- ولماذا سيأخذونها منك؟
- الناس يحبوا يزيوا (يجيؤوا) باش يشمعو (يسمعوا) راحيل.. هذا رزئي (رزقي) أخاي. ما نحب ياخذه لي احد.
- قل لها أن تصعد المصطبة..
- وتعطيني مئة مثآل... شوف حتى وأنتين مشلم ما شي مشكل. ما نحب ش مشاكل مع الشرطة.. إوا، فهمتني؟
وذهب صمويل عند المغنية فحدّثها. صعدت المنصة. بدأت تغني من غير آلة في صوت كما لو أنه آهات تعبُّد، تمزج طوراً ما بين الشِّعر العربي القديم، وطوراً بالعبرية.

ثم استدارت نحو صاحب الرباب فأخذ يعزف من آلته، وسانده صاحب الدف... كان غناؤها يمتح من عمق غناء الأندلس ممّا كان يتردد في الكنائس، مع ما وضعه زرياب من نوبات، وأدخله من آلات وأوتار، وتشفع بصوت جؤار أصوات الكنائس، وتبتلات اليهود. كان صوتها الشجي يضفي جلالاً على الأشعار العربية التي تغنّيها...

أخذت الخمرة تعبث بهارون. تقدّم نحو المغنّية، ونفحها قطعة نقدية من مئة مثقال. بدا له جمالها، ومسحة من حزن تجلل وجهها...

عادَ مكانه. اقترب منه صمويل:

- إيوى مئة مثآل، أخاي..

ألقى بها هارون إلى صمويل. كان ذهنه منصرفاً لراحيل. أثاره جمالها وأداؤها مع مسحة حزينة. هل كان لأدائها أن يسمو لولا ما كان يعتمل في نفسها من حزن وما تضطرب فيه من شجى؟ لعلّ ذلك أن يكون الصدع الذي يمكن أن ينفذ منه هارون إلى راحيل.

بقيَ هارون بالحانة حتى فرغ الزبائن في ساعة متأخِّرة. أخذَت راحيل تتأهّب وفرقتها للمغادرة. تقدّم إليها هارون، أمسك يدها وقبّلها. تورّدت وجنتاها. ثم شفع:

- شالوم، اشمي (اسمي) هارون...

واكتفت بابتسامة. بدا من وجهها الحزن.

2

دأبَ هارون بن عمران أن يتردد على خمارة صمويل بباب الهدى. أنسَ بها مرتادوها، وانتهى بالارتباط بصداقة مع أذفونشو. كان يوسّع عليه ممّا ينفحه من الإكراميات. عرف الزبائن لهارون عشقه للغناء، وحبّه للشراب، مثلما لاحظوا تولُّهه براحيل، لا يغادر حتى تنهي أداءها. كان هارون حريصاً على وضع قلسنوته على رأسه، حينما يحل بالخمارة، والأكل كوشير.

كان صمويل محتاراً في شأن هذا الزبون الغريب. كان يمكن أن يكون من رجال الخدمة، أو التجسُّس، لأنه كان يبدي اهتماماً لما يجري، ولأن كثيراً من الإسرائيليين يشتغلون لصالح أصحاب الخدمة، وكان منهم من يشتغل لفائدة غريمين، وكان وضعهم ما بين الغرماء هو ما يسمح لهم باقتناص الأخبار من هذا وذاك، هذا فضلاً عن شبكة تسمح لهم بتبادل المعلومات، إمّا في الكنيس، وإمّا الحانات، وإمّا التجارة عبر وسائط مختلفة. إلا أن صمويل لم يكن موقناً أن يكون هارون بن عمران يهودياً... ليس للكنته، فقد يمكن أن يكون من يهود العدوة، مثلما زعم، ولكن لطبعه الذي يختلف عن طبع اليهود، فهو كان يتشاكس، ولا يخشى الشجار، وكان حين يأخذ معه صمويل في قضايا دقيقة للديانة اليهودية يتملّص.

وفجأة غابَ هارون عن الأنظار. لشهر. صادف الشهر شهر رمضان. كان هذا ما بثّ الشك في صمويل. . . لو كان يهودياً حقاً لما تردد أن يحلّ بالخمارة في شهر رمضان. كان يمكن أن يكون مخبراً مندسّاً في شكل يهودي حتى لا يثير الانتباه. قرَّ قرار صمويل، بالنظر إلى الظرف المضطرب، التعامل معه بصفته يهودياً، ما دام مواظباً على الحانة، وموسعاً في الأداء.

عاد هارون بعد عيد الفطر. . كان الحديث حينها بقرطبة عن خروج ابن عامر في غزوة الصائفة يوم عيد الفطر. كانت انتصاراته التي حقّقها في غزوته الأولى قد شحذت همم المسلمين، وأظهرته بمنظر البطل والمنقذ. وكان المسلمون قد سمعوا بالمساجد، وما بلّغ به المنادي، من أن الخليفة أعز اللّه أمره رفع القائد غالباً إلى خطة ذي الوزارتين، ويتولّى من أجل ذلك قيادة جيش الثغر، وانتدبَ الخليفة في مرسوم ابن عامر قائداً لجيش الحضرة. .

كان صمويل يعلم من خلال سلطانة أو إستير، خادمة السيدة الكبرى، إذ يلتقي بها بالكنيس يوم السبت، أن ابن عامر كان يتردد على صبح أو السيدة الكبرى في رمضان، حيث كان يهيّئ للصائفة، يفطر معها، ولا يغادر إلا مع الفجر. لم تكن تلك اللقاءات لكي يخلو بحبيبته وتخلو له فحسب، ولكن لكي يرسما خطة المستقبل من أجل إزاحة جعفر. . .

استطاع ابن عامر في أول غزوة له أن يتقرّب من غالب. خدمه كما يخدم أي جندي قائده، وأبدى له من التوقير ما كسب به قلب غالب. أبلغه تقدير السيدة الكبرى، فاطمأن غالب. وسوّد له صحيفة جعفر، فراقه ذلك. كان غالب يكره جعفراً كما يمقت القادة العسكريون السياسيين عموماً. وكان يضمر له حسيفة كذلك لأن جعفراً نعته بالجبن والعجز عن دفع خطر المسيحيين، مثلما أبلغه به ابن عامر. كان غالب

يخشى دسائس جعفر، وبعد الغزوة الأولى والتقائه بابن عامر، اطمأنَّ غالب أن له بقرطبة شخصاً يحميه لدى السيدة الكبرى، فقرّبه إليه، وأعجبه من ابن عامر تودده وخدمته.

كان الرجلان يعولان في غزوتهما الثانية أن يستوثقا من حلفهما، ويدبّرا الخطط لإزاحة جعفر.

أدرك صمويل أن عقرب الميزان أخذ يميل لصالح ابن عامر ويحسن به أن ينأى عن جعفر.

ساور صمويل الشك أن هارون بن عمران يشتغل لصالح ابن عامر. وأخيراً لم يعد يهتم بما قد يكون عليه هارون، لأنه كان من خيرة زبائنه، وهذا ما يهم صمويل. كان ينظر إليه وهو يهيم في سماع أغاني راحيل. كانت أغانيها تأسر قلبه وعقله. أخذت راحيل تُقطّع أبياتاً لبشار بن برد:

يا كثير الجفاء لي ... ومُضيعاً وسائلي
طال حبي ولم تفز ... منك نفسي بطائل
أنت لي هاجر وإن ... كنت في ثوب واصل

بدأت راحيل بنوبة الرصد، ثم أخذت تغيّر في النوبات. كان الزبائن في حالة وجد، لحسن التقطيع، وجميل الصمت، وطلاوة العبارة. نسي صمويل هواجسه أمام الأداء المتميز لراحيل وحبور الزبائن. كان هارون ينتشي وهو يستمع إلى غناء راحيل، يعبث برأسه مغمضاً عينَيه، وهو مستغرق في أداء راحيل وتقطيعها.

3

أقيل صاحب المدينة محمد بن جعفر ابن الحاجب من مهامه عقب عودة ابن عامر من غزوة الصائفة، وتمَّ تعيين ابن عامر صاحبَ المدينة. أضاف ابن عامر إلى جيش الحضرة شؤون المدينة، فأصبح القوة الأولى بقرطبة، فضلاً عن حلفه مع غالب، قائد الثغور.

كانت الأخبار قد وردت باستحكام العلاقة ما بين ابن عامر والقائد غالب خلال الغزوة الثانية، إذ التقى الجيشان بمجريط ودوّخَ القائدان قشتالة واستوليا على حصن مولة المنيع، وأصابت جيوش المسلمين الغنائم الوافرة والسبايا والأسرى فضلاً عن رؤوس القتلى ممّا رفع على رؤوس الرماح. أخذت الدائرة تدور على جعفر، وقد أضحى ابن عامر يتمتع بسند القائد غالب، هذا فضلاً عمّا أخذ الناس ينظرون إليه بقرطبة والأندلس، أنه حامي الملة، والذائد عن الخلافة.

كان هارون يقصد خمارة صمويل في ذلك الجوّ السياسي المشحون. كانت معالم الصيف قد أخذت تنشر دفئها وتملأ المدينة بأزهارها ورياحينها. كانت الخمارة شبه فارغة، لأن الناس يستحبون صيفاً الخروج قرب الوادي الكبير، أو بعض الخمارات غير البعيدة عن القنطرة. وكان وضع خمارة صمويل في باب الهدى، يصرف عنها الزبائن في الصيف، عدا من علموا براحيل واستأنسوا بغنائها. اتخذَ

هارون مجلسه المعتاد بخمارة صمويل. طلب إبريق خمر. كان يبدو شارداً. جالسه صمويل وجاذب معه أطراف الحديث ولكنه ألفى هارون على غير عادته من التوثب والحماس. حاول أن يستميله بإخباره أن راحيل لن تغادر الحانة. وشفع أن لحسن الحظ أن مشاكل الحاجب جعفر تصرفه عن اتخاذ راحيل قَينة له بقصره.. التزم هارون الصمت. كان صمويل يعرف شغف هارون بها، بل تولُّهه بها. لم يكن زبوناً يستحب غناءها فقط، بل شخصاً أغرم بها، مثلما بدا لكلّ مرتادي الحانة، وكان يبدو أنها كذلك تبادله الشعور نفسه رغم تحفظها وحيائها. ظنّ صمويل أنه سيستدرج هارون بالحديث عن راحيل. لم ينبس هارون بشفة. طلب هارون إبريق خمر ثانياً. سألَ صمويل هارون إن كان يريد معه أكلاً، وأومأ برأسه أن لا.

لم يجد صمويل بُدّاً من التعقيب:

- ما عزبتنيش (ما أعجبتني) أخَاي هارون.

- الساعة للّه.

- كيف؟

- الشاعة لأدوناي...

- أخَاي، أنتينَ (أنت) يهودي في شي شكل..

وانتهره هارون:

- وما دخلك في يهوديتي؟

كان يوم شؤم. الزبائن قليلون، وهارون متوتر، حتى أداء راحيل كان سيّئاً. كان غناؤها مضطرباً تلك الليلة. كان صوتها كما لو به بحة، وكانت نوبتها متداخلة ومضطربة، وحتى نطقها للأغاني مرتبكاً.

نطق صمويل في حسرة:

- ما عرفت ايش شاب (أصاب) راحيل.. العين هذه. عيّنوها

لي أخَاي.. الحشد (الحسد) أخاي. إلا مشى غنا راحيل مشى كل شي. الموطع (الموضع) على أد (قدر) الحال، والشراب موزود (موجود) في الأندلش كلها، اللي ما كاينش هو راحيل.. أدوناي إلا (إذا) ذنبا تب علينا. تب على شعبك اللي يحبك وتحبو.

لم يعقب هارون... وأخيراً قام صمويل تاركاً هارون لشأنه.

حاولَت راحيل أن تتدارك سوء أدائها، بتكلف ظاهر، فكان أسوأ من ذي قبل. اعتراها السعال. أوتي لها بالماء. ارتشفت من الكأس. عاودت الغناء، فلم يتحسّن.

وأخذت الهمهمة تعلو في الخمارة من بعض السكارى الذين أخذوا يعبّرون عن تذمرهم. قال سكّير من عمق الخمارة:

- صمويل نأتي للاستماع لجميل الغناء، وليس هذا غناء حسناً..

أخذ البعض يصفر. اضطربت راحيل، ثم أشارت على فرقتها بالتوقف. نهضت من المصطبة، ثم قصدت هارون حيث كان يقعد، حتى إذا كانت على مقربة منه، صفعته. بقيت واقفة تنتظر ردّه.

اهتزَّ صمويل. تركزت الأنظار على هارون. لم يفهم أحد ما جرى. خشي صمويل أن يرد لها الصفعة لما يعرف من طبع هارون الحادّ. وقفت راحيل تنظر إليه في تحدٍّ. فجأة سُمعت ضحكة مجلجلة. استدار الزبائن إلى مصدر الضحك. كان الحارس أذفونشو. استلقى من الضحك. تحولت إليه الأنظار.

أخذ هارون قدحه واحتسى منه، كما لو أنه لم تنله صفعة على خده. حدّقت فيه راحيل النظر. استدارت على عقبيها ثم ولت الأدبار، وتوارت من باب موارب قرب المصطبة.

نادى هارون على صمويل:

- زقّ من الخمرة المعتّقة على حسابي لكل الزبائن... ثم أضاف:

- أذفونشو، تعال، أنت ضيفي اليوم. سنشرب أنا وأنت.

هدأت هواجس صمويل...

غار هارون في الشرب مع أذفونشو. كان رغم ذلك شارداً، كمن استغرقه التفكير والهمّ. لم يفهم صمويل لمَ صفعت راحيل هارون، ولا أحد من مرتادي الحانة أدرك علة تصرفها. راعهم رباطة جأش هارون الذي تصرّف بأريحية. أما أذفونشو فكان مبتهجاً ذاك اليوم وقد حلَّ ضيفاً على هارون، يأكل بنهم ويشرب شرب الهيم.


أستجة

1

في صباح باكر بعد إذ فُتحت أبواب قرطبة، انفتل من باب العطّارين المؤدي إلى طريق إشبيلية، رجل وامرأة على راكبتين. الرجل على ظهر بغلة يحمل معه بعض المتاع، والمرأة تركب حماراً وقد اشتملت بإزار وأمسكت بإحدى يديها طرفيه على وجهها. كانا يبدوان كزوجَين من ساكنة الأرباض. كان الزوج أو من بدا كذلك يلبس لباس البلديين، ممن يقصدون قرطبة من الأرباض للتبضُّع أو لبيع ما تُغلّه أرضهم. كان يرتدي جُبّة حتى ساقيه، وغِفارة على رأسه. انعطف الرجل جنوباً نحو مُنية الناعورة، بجانب الوادي الكبير، تتلوه زوجته في طريق مُحاذٍ للنهر. لف جنان القصر حتى القنطرة، فمنية عجب، ومنها إلى الطريق المؤدية إلى أستجة. يتخلّل الطريق بعض المباني من منيات العِلية. ثم تنقطع بعدها سوى بعض المساكن المتواضعة وسط البساتين ممّا يسكنه المولَّدون. كان الرجل يتقدم في سيره حثيثاً، ثم ما يلبث أن يتوقف كي ينتظر زوجته التي كانت تتقدم من عل ظهر راكبتها في عنت شديد، فيرفع يده، كأنما ليستحثها على السير... ظلا كذلك يغُذّان السير في جهد، والجو حارّ، حتى أعيى المرأة المسير، واستوقفت زوجها تحت ظلال بعض شجرات الحور كي تستجمّ لبعض الوقت قبل أن يعاودا السير. اشتدت وطأة الحر، فزاد ذلك من تعب

المرأة. لم تطق صبراً. كانت تستوقف زوجها، فيعود إليها ببغلته. يستكين لطلبها أحياناً، ثم ما يلبث أن يستحثها على السير. التمست جرعة ماء من قِربة كانت في متاع زوجها. ارتشفت منها ثم ما لبثت أن عافت ماءها. كان دافئاً بفعل الحرارة المفرطة. أخرج الرجل طعاماً من جِرابه، خبزاً وجبناً وزيتوناً. أسلم منه للمرأة. نالت منه ولم تستمرئه فأعرضت عنه. أكل هو بنهم لشخصٍ نال منه الجوع والجهد. ثم استأنفا المسير بجنبات نهر شنيل الذي تظلّله بعض الأشجار. كانت الشمس على أطرافها حين بلغا أستجة وقد هدّهما التعب. تلطف الجوّ بعض الشيء ولمّا تبرحِ الحرارة. سأل الزوج بعض السابلة، كما لو كان يبحث عن مكان ما، أو شخص ما، فلم يفيدوه في شيء، وأخيراً وقع على رجل، رسم لحظة تروي، ثم أشار له بيده لبيت جانبي خارج المدينة، هو في حقيقة الأمر مزرعة صغيرة.

قصدَ الزوج المكان المشار إليه وقد ترجّل من زاملته[1] يجرها من لجامها، ووراءه زوجته على الحمار وقد أعيى بها السفر طوال يوم، من قرطبة إلى أستجة، في جوّ شديد الحرارة، وهي المسافة التي تُقطع عادة في مرحلتَين، وقطعاها في مرحلة. وقف الرجل أمام بيت منعزل وسط ضيعة صغيرة. تفحّص البيت. كان الباب مفتوحاً على عادة أهل الأندلس الذين لا يغلقون أبواب بيوتهم إلّا ليلاً. طرق طرقاً خفيفاً. فلمّا لم يجد ردّاً، عاود الطرق بأقوى من ذي قبل. انتهى إليه صوت بالرومانية. استغربَ. ما لبثت امرأة أن فتحت الباب. كلمت الرجل بالرومانية. لم يُحِر جواباً لأنه لم يكن يحسن الرومانية. استدار نحو زوجته كمن يلتمس منها الترجمة. أنزلها من الحمار في رفق. كانت

---

(1) الزاملة هي البغلة في لسان الأندلس، وانتقلت الكلمة إلى الإسبانية، Acémila.

منهكة. كلّمت المرأة بالرومانية. بدا أنهما تفاهمتا. عادت السيدة إلى البيت، وعنّ إثرها رجل في الستين من عمره، صلب العود. بادر الفتى صاحبَ البيت بالعربية:

- عمت مساء سيدي.

- عمت مساء، ردَّ صاحب البيت.

- جئتك قاصداً. قال الفتى.

- خيراً.

أضاف الفتى:

- وجهتي إشبيلية وزوجتي حامل، وألتمس ضيافة اللّه (القِرى) قبل أن نستأنف المسير.

تفحّص صاحب البيت الفتى. أطرق لبعض الوقت، ثم صاح مرحّباً:

- أهلاً. تفضّل. تفضّلا.

ثم أشار إليه أن يربط راكبتيه خلف الدار، حيث الدواب. تقدمه نحو حوش المزرعة حيث تربض الدواب وتُحرس الماشية، كان بالحوش حصان منزوع من سرجه يقضم القرط، وماشية في حظيرة، وديكة ودجاج وأرانب تنط. ساعد صاحبُ البيت الفتى في حمل متاعه من البغلة. ثم نادى على زوجته بالرومانية:

- مرية تعهّدي السيدة.

صحبت زوجته مرية المرأة إلى غرفة في بيت أندلسي، يتوسطه صحن، وتنفتح عليه غرف، وبالصحن نافورة ينبجس منها الماء. التمست منها المرأة الحامل أن تخلو بنفسها محدثة إياها بالرومانية، فرافقتها إلى جناح خارج البيت حيث بيت الراحة، وأمدتها بإناء ماء.

بعد أن ربط الرجل الضيف البغلة والحمار ونزع عنهما البردعتين، حمل صاحب البيت بعض الحشيش للدابتين. تقدم بعدها نحو

الصحن، من باب خلفي. أشار ربّ البيت إلى غرفة للضيف. كان بها بساط، وأفرشة ونَمَارِق، ولها نافذة مطلّة على الضيعة. كانت دفتا النافذة منفتحتين، وتحجبها عن الخارج سترة كي تصد البعوض والذباب الذي يتكاثر مع الحرارة والشجر والدواب. ألقى البلدي بمتاعه، واستلقى على البساط. ما لبثت زوجته أن التحقت به، وهي تمسك ظهرها من ثقل الحمل. واجهته متأفّفة:

- إلى أين أتيت بنا يا هارون؟ عند شخص لا تعرفه. وكيف تأمنه؟ ألا تكفّ عن تهورك يا هارون؟

ردّ الزوج:

- هوّني عليك يا راحيل. نحن في مكان آمن. ليس هناك مكان آمن لنا في الأندلس كلها من هذا المكان.

- كيف تزعم ذلك وأنت لا تعرف الرجل حتى؟

- أعرفه بصيته.

- ولكنه لا يعرفك.. لسوف نُضطر غداً للمغادرة وقد قلت له وجهتنا إشبيلية، وأنا لا أقوى على الحركة.

- لا عليك. سأخبره بكل شيء.

- تخبره وأنت لا تعرفه؟ وهل تأمن عواقب ذلك؟

- اطمئني. لا عليك، عزيزتي راحيل.

تمدّدت راحيل على لحاف، ولم تتمالك أن قالت في نفور:

- شكوتك إلى أدوناي يا هارون، وباسم هذا الجنين الذي يضطرب في أحشائي.

أسدلت إزارها عليها ممّا اعتادت النساء المسلمات أن يرتدين. تنكّرت في لباس امرأة مسلمة من البدويات. وما أن وضعت رأسها على الوسادة حتى نامت. انهمك زوجها بعدها في ترتيب متاعه، بما

فيها أوراق له. كانت الظلمة قد أخذت تزحف. باغته طرق خفيف، فنفرَ إلى حيث الطرق. فتح الباب. كان الرجل المضيف وهو يحمل فانوساً... بادره:

- دونك الفانوس.. متى تريدان العشاء؟ أقدّر أنكما جائعان.

- نشكو التعب أكثر من الجوع. بورك فيك.. ردَّ هارون.

عقب صاحب البيت:

- أنا ومرية خارج البيت على مشارف الباب. التحقا بنا متى استجممتما. لا نقوى على المكوث داخل البيت في هذا الجو الحار. ليس هناك مكان أشد حرارة في الأندلس كلها من أستجة.

- صدقت. قرطبة ولو هي حارة، لا تبلغ مبلغ أستجة. بورك فيك سيدي. أنتظر زوجتي ريثما تصحو من نومها ونلتحق بكما.

انصرفَ ربُّ البيت، وعادَ هارون إلى أوراقه يتفحّصها. رتّبها. أدخل بعضاً منها في كيس، وأخرج أوراقاً ملفوفة ووضعها جانباً. بعدها نزع الجبّة التي كان يرتدي ولبس تشامير وهي جبّة خفيفة. أخرج من كيسه خُفّاً. تفقّد قلنسوته. تركها جانباً. لا حاجة أن يضعها على رأسه. بدا في لباسه الجديد مغايراً لصورة البلدي التي كان يبدو عليها. ثم جلس قرب زوجته، ووضع يده على شعرها وهي نائمة. أخذ يتملّى وجهها. كان ظاهرَ الحب لها والتعلق بها. ثم أغمض عينيه متفكّراً في كل ما اعترض يومه. كان متيقّناً أنه لو بقي لأيام معدودات بقرطبة لانكشفَ أمره، ولألقى عليه رجالات ابن عامر القبض. لم يعد يخشى جعفراً لأن هذا الأخير فقدَ كثيراً من سطوته ولم يعد متحكماً في مفاصل الدولة. كانت خشيته أول الأمر من جعفر ومن صُبح وقد ارتبط بجوذر... مذ فقد الصقالبة صولتهم وهو عرضة للخطر. أضحى مصدر الخطر اليوم هو ابن عامر. لن تخفى صلة هارون بالصقالبة على ابن عامر وقد حبلت راحيل، وهي من كانت تتردد على قصر جعفر

للغناء. حملها يفضحها. أو على الأصحّ يفضح الرجل الذي حبلت منه.

مسح على وجه زوجته، ثم أخذ يدها وقبّلها. تأمّل وجهها الصبيح. أخذَ يمسّد على شعرها وهي مستغرقة في نوم عميق... تردّد للحظة أيوقظها أم يدعها تستريح. ولكنها لم تكد تأكل طعاماً النهار كله... ناداها في صوت خفيت:

- راحيل، حبيبتي... استيقظي. يمكن أن تنامي بعد العشاء. لا بدَّ أن تَطعمي.

لم تُبد راحيل حراكاً. كانت مستغرقة في نوم عميق.

حرّكها، وندَّ منها صوت التأفف ممن يريد الاستمرار في النوم.. بادرها بصوت خفيت:

- راحيل، عزيزتي، الرجل وزوجته ينتظراننا للعشاء..

هزت رأسها، ونظرت إلى زوجها.

- أين نحن يا هارون؟

- أستجة. في مكان آمن يا حبيبتي. أفيقي، يمكنك أن تنامي بعدها. اطمئني لن نرحل غداً.

2

لم يذق هارون طعم النوم رغم التعب. بلغ منه الإعياء مبلغاً حتى صدّه عن النوم، فضلاً عن الحرارة المفرطة. . . لم يكن له من خيار سوى أن يغادر قرطبة مذ حملت منه راحيل. عشقها أول مرة رآها في حانة صمويل وتولّه بها. أعجبه صوتها أول الأمر، ثم حين تقرّب منها راقه جمالها واستهوته رقّتها. . . راودها فامتنعت بادئ الأمر. لم تكن تريد علاقة عابرة. وحينما استوثقت من شعور هارون نحوها، بذلت نفسها له. حلّت عنده في غرفة بحي للطلبة قرب الجامع. استغربت ذلك منه ثم أخذ يتردد عندها في بيتها بالحي اليهودي، في الباب الشمالي. كان يسكن حينها في غرفة صغيرة، في الطابق العلوي من بيت محاذٍ للجامع الكبير. وكان يذرع المسافة في أزقّة المدينة من حيّه إلى باب بطليموس، مُعرّجاً على دار الناعورة، فباب ليون، نحو حارة اليهود، حتى إذا اقترب منها، وضع قلنسوته اليهودية إلى أن يبلغ بيت راحيل. كان مستغرباً ألا يسكن الحي اليهودي، وحين سألته راحيل، تذرّع بأنه حينما حلّ من عدوة المغرب لم يكن يعرف أحداً واستأجرَ غرفة بثمن بخس. دفع بأنه لا يستطيع أن يتحلل من عقد الإيجار. كان يكذب. كان يكذب في كل شيء.

آن الوقت ليسفر عن حقيقته. تستّر لأن حياته كانت عرضة للخطر. سكنَ غرفة من غُرف الطَّلَبة المحيطة بالجامع، ولزم حانة

صمويل، وارتبط براحيل، وحبلت منه، وحينما حبلت، اقتضت منه أن يذهبا عند الناجد كي يبارك علاقتهما ويُرسّمها، ولكن هارون كان يُسوّف دائماً. أغضبَ ذلك راحيل. لم تكن تريد أن تضع سِفَاحاً.

لم يُرسّم هارون علاقته مع راحيل لأنه لم يكن يهودياً، وهو الأمر الذي تستّر عنه، وهو ما تجهله راحيل. لم يكن اسمه هارون. زعم أنه من يهود العدوة، والحقيقة أنه مسلم، ولد مسلماً، ونشأ في محيط مسلم بعدوة المغرب. حفظ شطراً من القرآن في بادية المغرب بقبائل زواغة وهو طفل، وارتحلَ إلى فاس كي يدرس بجامع القرويين، فاستكمل حفظ القرآن ودراسة المتون، وأصول البلاغة والبيان، ومبادئ الفِقه والأصول، ثم هاجر بعدها إلى الأندلس بحاضرتها قرطبة، استزادة للعلم وطلباً للرزق. لزم جامعها يَحضُر دروسه في المنطق والكلام واللغة.. قرأ **العقد الفريد**، وأدرك بعضاً ممن درس على أبي علي القالي. كان وقد حلَّ بالأندلس أبعد ما يكون عن السياسة. بل حتى لمّا كان بالعدوة، كان لا يخوض في شأنها. كان يهمّه العِلم. وحينما حلَّ بقرطبة حاولَ أن يخلُص للمعرفة، بيد أن ما كانت تعرفه الأندلس من صراع خفي في أخريات حكم الحَكم استأثر باهتمامه، أو فرض نفسه عليه. كان يستمع إلى ما كان يتردد حول شؤون السياسة في صحن المسجد أو في فنائه. لم يكن الحَكم يدبّر أي شيء، واعتزل في قصر الزهراء، ولم يعد يحضر الصلاة ولا يؤدّي الصدقات بنفسه. وتردد أنه مريض لا يقوى على شيء وأن من يدبّر كل شيء، وصاحب الأمر الفعلي هو الحاجب جعفر المصحفي، يؤازره ذراعه الأيمن صاحب الشرطة ابن عامر. كانت العلاقة ما بين ابن عامر وصبح على الألسُن، أو تتداولها الألسُن همساً.

ويوماً فوجئ برجال الخدمة من الصقالبة يصطحبونه وقد خرج من الجامع بعد صلاة العصر. خفروه إلى جانب من قصر بني أمية، ثم

أدخلوه إلى جناح بها، وتركوه لشأنه لأكثر من ساعة. أيقن حينها أنه أوقِف، وأنه سيودَع السجن. ساورته الظنون. ألأنه كان يستمع إلى ما يتردد في صحن المسجد في شأن الخليفة؟ لم يكن الوحيد. هل هي وشاية كيدية وتهمة ملفّقة؟ ومَن صاحبها؟ لم يرتبط بعداء مع أحد كي يكون موضع وشاية. هل حامت حوله الظنون من أنه يضمر ولاء لآل البيت لأنه من العدوة، ولأن أهل المغرب موضع شبهة لذلك؟ هل للاستبيان ليس غير؟ لم يمسّه رجال خدمة الصقالبة بأذى أو أساءوا معاملته. أخذوه إلى غرفة أنيقة بقصر بني أمية. طلبَ أن يصلّي. أُذن له أن يصلّي. بعد أذان صلاة العشاء نُقر على باب غرفته وأُعطي طعاماً حسناً. نال منه. ثم تمدّد على فراش بالغرفة. نامَ نوماً مضطرباً. عند الصباح، نُقر على الباب وأوتي له بحساء دافئ من الذُّرة، وفطائر بعسل وزبدة ممّا يعرف بالمسمن مع الإسفنج بالعسل. لم يكن طعامَ سجن أو من هو في اعتقال. بعدها أتاه عنصر من الخدم لا يحسن اللغة العربية. أسلمه لباساً فاخراً وأشار عليه أن يرتديه، ثم انسحب. وما هي إلّا هنيهة حتى حلَّ ثلاثة أعضاء أمروه أن يرافقهم. أيقن أنها النهاية، وتجرّأ بالسؤال عن الوجهة. ردّوا عليه ألا يسأل. راعه أن ردّهم لم يكن فيه غلظة. ركب زاملة، يخفره نفر من حشم الصقالبة. أخذوه بعدها إلى الزهراء. دخلها أول مرة. أنساه جمالها ما كان فيه من فرَق. انتظر طويلاً بغرفة في جناح، إلى أن سمع أذان الظهر. طلب أن يتوضّأ. توضّأ ثم صلى بالغرفة التي هو بها. أوتِي له بطعام. دخل بعدها وصيف وأمره أن يمشي على أثره، حتى باب الأقباء. وجد فرساً مُسرجة تنتظره، وفتى بفرس مثلها، أمره أن يرافقه. كان الفتى ودوداً. ثم قصدا إلى منية على جنبات الوادي الكبير. ومنها بدأت حياة جديدة. حياة جديدة جعلته في بؤرة الأحداث، هي ما جعلته اليوم عرضة للأخطار.

أذّن الديك فنزعه من خواطره. زوجته مستغرقة في نومها. اقترب منها وعانقها ثم التصق بها. صدّته عنها. كانا ينامان متعانقَين، ولكنها مذ حملت، أخذت تنفر منه. متى سيُطلعها على حقيقته؟ أو الجانب الأكبر والخفي عليها من أنه ليس يهودياً؟ المسألة تكتسي أهمية، لأن شأن العقيدة مهم بالنسبة إلى راحيل... كان قد أسرّ لها من أنه يهودي يشتغل لصالح الصقالبة، وكانت حينها تتردد على قصر جعفر للغناء. والحقيقة ما لا تعرفه راحيل هو أنه لم يكن من أصحاب الخدمة، وأنه زعم ذلك لصمويل كي يندس في خمارة بعد وفاة الحَكم. فكر أول الأمر أن يعود للعدوة، حيث سيكون في مأمن من أحابيل السياسة، والصراع ما بين الصقالبة وجعفر وشرطة ابن عامر، ولكن علاقته براحيل ربطته بقرطبة وبالأندلس. يمكن أن يخبر راحيل بأن لا علاقة له بأي طائفة من الطوائف المتصارعة، ويمكنها أن تفهم ذلك عنه، وتتغاضى عن كذبته التي فرضتها الأوضاع، ولكن هل ستتغاضى عن أن الرجل الذي ملّكته جسدها وأسكنته قلبها لا يدين بدينها؟ أو على الأصحّ زعم أنه من دينها وهو ليس كذلك. كانت تتغاضى عن عدم ارتباطه بالطقوس، وعدم احترامه للسبت، لأن الكثيرين، ومن الشباب اليهود خاصة، يتحررون من الطقوس، ولأن الحَبر يأذن بذلك حماية لأرواحهم، وتستراً عن معتقداتهم، وسيراً للاتجاه العام، ولكن أن يكون أب الجنين الذي يضطرب في أحشائها مسلماً، فهذا ما لن تصطبر عليه. كيف مجاهرتها بالحقيقة دون أن تُصدم؟ أراد هارون أن يخبرها بالأمر لمّا كانا بقرطبة، وخشي من ردّ فعل قوي يجعلها تفشي كل شيء للناجد، ثم ينكشف أمره... ولذلك قرر أن يختبئ في أستجة، عند صاحب المزرعة، وإذّاك يطلعُ راحيل على الحقيقة. لن تقدر على شيء حينها. لن تستطيع إطلاع أي أحد، أو العودة لقرطبة. كان ينبغي أن يستيقن من الرجل قبل ذلك. كان يود أن يسلمه

مخطوطاً. هو ما سيفتح له قلب الرجل. حينما سيقرأ الرجل المخطوط سيفهم كل شيء، ولن يتردّد في استضافته. وإذا لم يقرأ الرجل المخطوط؟ أو أنه قرأه ورأى أنه يُعرّض نفسه للخطر بحماية شخص مشبوه، فكيف يقوى حينها أن يستجيره؟

كان الرجلُ صاحبُ المزرعة، أثناء العشاء، ودوداً. جلسوا جميعهم قبالة البيت. افترشوا الأرض. حوْلهم فوانيس تضيء. قبالتهم قُلة ماء تلفّها خرقة مبلّلة كي تحميها من الحرارة حتى يبقى الماء بارداً. قرب الرجل يوجد زق خمرة. أفرغ منه قدحاً، وسأل هارون إن كان يريد منه، ولم يتردّد هارون، ثم أفرغ قدحاً لراحيل ولكنها اعتذرت.

- هذه خمرة أصنعها بنفسي، هنا في مزرعتي، قال صاحب المزرعة، مضيفاً: طبعاً لا ترقى لخمرة شريش، ولكنها جيّدة.

تذوقها هارون واستحسنها.

لم يسأل الرجل هارون في شيء. كما في عدوة المغرب، إذ حين يحل المسافر ويُستضاف لثلاث ليال ولا يُسأل عن شيء. فإذا أراد البقاء لسبع، حدّث عن نفسه. وبعد انصرام سبع أيام يرحل إلّا إن استبقاه المضيف.

وضعت مرية حساء بارداً من الطماطم، ثم أتت بطبق من المقبّلات من الفلفل والباذنجان والزيتون والجزر المجفّف. أفرغ الرجل قدحاً من الخمر لهارون ثم أخرى لنفسه. نادى على مرية كي تتناول قدحاً. ذاقت منه، ثم تعلّلت بالشغل في المطبخ. أخذوا في الطعام. كانت راحيل مطرقة لا تنبس بشيء.

- ترتضخ لكنة أهل البربر، قال صاحب البيت.

- أنا من العدوة، ردَّ هارون.

- آه، يذكرني ذلك بسفر قمت به للمغرب الأقصى في شبابي. كان من أجمل الذكريات التي أحتفظ بها.

ثم أضاف ضاحكاً:

- كدت أن ألقى به حتفي.

عقب هارون هازئاً:

- تحتفظ بذكريات جميلة لأنك كدت تلقى بها حتفك؟

انبرت من الرجل ضحكة خفيفة، ثم عقّب:

- تلك قصة تطول.

أتت مرية بلحم مجفّف، يشبه القديد.

- خذ من هذا اللَّحم، قال الرجل لهارون. لا تخشَ شيئاً. ليس لحم الخنزير.

اعتذرت راحيل. كانت حريصة على احترام الطقوس اليهودية للأكل. لم يكن اللحم كوشير. كانت مطرقة لا تنبس وهي تأكل بتؤدة من صحون المقبلات.

لمّا انتهت مرية من تحضير الأكل التحقت بهم وأخذت قدح خمر، ثم تناولت بعضاً من الأكل. توجّهت بالحديث إلى راحيل بالرومانية، وتشاجن بينهما الحديث.

كانت النجوم تتلألأ في السماء والجو تلطف. كان المضيف في مزاج رائق وقد فعلت الخمرة فعلها. كلّم زوجته بالرومانية. قامت مرية تُقطّع بصوت شجي، يحمل أنّة الألم.

أنسى الجو المرح هارون وراحيل تعبهما. أغرى ذلك راحيل بالغناء. أخذَت تغنّي مرتجلة ألحاناً من دون كلمات. تحوّلت الليلة إلى غناء مرتجل بين المرأتين. وصاحب البيت يصفق بيديه، متتبّعاً ترانيم زوجته وشجى راحيل وقد ذهب عنها التعب. كان غناء المرأتين هجيناً، وكان جماله في هجنته. لم يكن من ذلك الغناء الذي كانت راحيل تغنّيه عند جعفر، أو في حانة صمويل.

لو لم يكن ما بهارون من تعب لبقيَ وزوجته ساهرَين مع الرجل.

استأذن في الانصراف لأن زوجته متعَبة. اختلى بالرجل قبل أن ينفتل إلى الغرفة التي وضعها رهن إشارتهما. أسلمه رُقعاً من الورق، ثم قالَ في صوت كما لو أنه الهمس:

- أريد منك أن تقرأ هذا المخطوط.

كان كل أمله أن يقرأ الرجل تلك الورقات.

3

علا صياح الدِّيَكة. لا تزال راحيل مستغرقة في النوم. هل قرأ الرجل المخطوط الذي أسلمه هارون إياه؟ إذا لم يكن قد قرأه فإنه يتوجب عليه المغادرة كما وعد. انتهى إلى أن يتعلل بالحالة الصحية لزوجته كي يبقى يوماً أو يومَين إضافيَّين، ولكنه سيضطر في نهاية المطاف أن يغادر. لا يعرف وجهة معيّنة. العودة إلى العدوة مع امرأة حامل؟ مستحيل. الوضع هناك أشد اضطراباً من الأندلس.

انتهى إليه صوت حركة. أقدام تتحرك. حركة من جهة الحظيرة. صوت دلو. الرجل صاحب البيت يمتح الماء من البئر. يسقي الدواب والماشية. أخذ النور ينسل من النافذة. الصباح يزحف وهارون لم ينم بعد. نظر إلى راحيل وراودته نفسه أن يحدّثها. أن يسفر عن سرّه. وأخيراً أحجم. ثم داعبه النوم.

كان الضحى حينما سمع هارون نقراً على الباب. نهض من الفراش. أيقظ راحيل. وجد بالباب إناءين مملوءين ماء كي يغتسلا. قصدا على التوالي بيت الراحة خارج السكن.

كان ربّ البيت وزوجته خلف البيت. كان مظلّلاً لأن الشمس لا تسطع عليه إلا عند العصر. افترش الرجل لبدة، وتمدّد عليها. غير بعيد موقد نار، ومرية وهي تُحضّر فطائر.

ما أن عنَّ هارون وراحيل، حتى بادرهما الرجل بصوت مرحِّب. أشار على راحيل بالجلوس. ساعدها زوجها على ذلك. قدّم رب البيت للضيفَين قدحين من حساء دافئ بالحليب والسميد. ومن دون سابق إنذار ابتدرهما:

- سوف نستبقيكما لبعض الوقت. الحرارة مفرطة كي تذهبا إلى إشبيلية.

أرسل هارون نظرة نحو زوجته، كما لو أنه يقول لها: «أرأيتِ؟». ردّت بحركة تنم عن الحيرة، ثم قطّبت وجهها كمن يستفهم، أو لم يستيقن من الأمر بعد.

قدّم المضيف الفطائر مع العسل لهارون وزوجته، ثم قال لراحيل في رفق:

- سأحتاج زوجك لبعض الشغل قبل أن تشتد الحرارة. سنذهب إلى حيث خلايا النحل، في طرْف الضيعة. لن نتأخر.

تمشّى الرجل وهارون وسط الحقل، تحت شجر الزيتون. أرسل الرجل:

- الشجر في حاجة إلى السقي، وصبيب ماء النهر قل.

ثم توقّف أمام شجرة، وقطف منها خوخة:

- ذق من هذا الخوخ.

مسحَ هارون الفاكهة بطرف جبّته، ثم ذاقَ منها. عبّر عن استحسانه.

- أنظرْ هنا، إلى خلايا النحل.. أستخلص عسلها بنفسي. أتلفّع بدِراق وأضع على يدَي قفازَين. لا تقربْ. قد يلسعك النحل... لعسل الأندلس نكهة خاصة. أنتم كذلك في العدوة لديكم عسل جيّد.

استرسل الرجل في الحديث عن طرق استخلاص العسل، وعن شجر الزيتون الذي يعود لأكثر من مئة سنة، ثم قفلا عائدَين تحت

ظلال شجر الزيتون.. شعر هارون بالانقباض. وما شأنه وطريقة استخلاص العسل وسقي الغرس وعمر شجر الزيتون؟ حياته في خطر إن لم يستضفه الرجل.

فاجأ ربّ البيت الفتى وهما على مقربة من البيت:

- هل تريد أن أستمر في المناداة عليك بهارون؟

4

لم يكن هارونُ هارونَ وإنما زيري، كاتب الخليفة الذي كان قد أملى عليه مذكراته. كان أصحاب الخدمة من الصقالبة قد رصدوا كاتباً مغموراً، من أجل أن يسمع عن الخليفة وينقل عنه بَوْحَه، ولا يفشي سرّه. كان زيري طالباً يتردّد على جامع قرطبة، ويُقبل على حلقاتها دون أن يختلط بأحد. سأل أصحابُ الخدمة من الصقالبة القيّمَ على الجامع عن الطالب فأخبرهم أنه من بربر العدوة.. كان الطبيب حسداي قد نصحَ الخليفة بالكلام، وأنه لو أفصح عمّا في نفسه فإنه يستطيع أن يتغلّب على ما بها من كدر وكآبة. لم يكن الفتى فائق يود أن يمرَّ عبر ابن عامر من أجل اصطناع كاتب للسلطان. عهد بذلك إلى الفتى دُري صاحب شرطة الصقالبة، وهو من رصد الكاتب وتأكد من أنه لا يرتبط بأية علاقة مع ذوي السلطان وأصحاب السياسة.

كان الداء قد أثقل على الخليفة الحَكم حينما أتم سرده. توارى زيري إثرها عن الأنظار، في غرفته قرب جامع بني أمية، يرتّب فيها أوراقه وينقّح سرده. لم تطاوعه نفسه أن يغادر قرطبة رغم أن الخليفة نصحه بالنأي عنها. استهوته بسحرها وأغوته بجمالها. اكتشف عالم السياسة وصراعها وتقلّباتها... خلال تلك المدة التي كان يتردد على منية الناعورة ليخلو إلى الخليفة، ارتبطَ بصاحب شرطة الصقالبة دُري.

كان دُري من جليقية، وكان من يصطحبه من سكنى وُضعت رهن إشارته بالزهراء إلى مُنية الناعورة حيث كان الخليفة يقيم حينها قبل أن ينتقل إلى قصر قرطبة إلى أن أدركته المَنية به. كان دُري مَن خفره أول مرة إلى منية الناعورة حين استقبله الخليفة. ظلت العلاقة مستمرة ما بين زيري ودُري حتى بعد أن أنهى الخليفة حكيه. كان زيري متحفّظاً، وأصبح بفضل علاقته مع دُري متفتّحاً. كان دُري يصطحبه للخمارات بالرصافة، ويستمتعان هناك بالغناء والطرب. لم يكن زيري قبلها يعاقر الخمر، وأصبح في صحبة دُري يشربها وأخذ يعشقها. كان يحب من دُري شجاعته ويُكبر جرأته. وكان أكثر من ذلك مرآة لنفسه وصدى لما يعتلج بها لشخص عانى طويلاً من الوحدة. كان زيري قبلها كشجرة من دون جذور، موضوعة على تربة قرطبة، وأضحى بفضل دُري متجذّراً في أرضها، مهتمّاً بما يضطرب بها، يهمّه مآلها، ويَكلَف بما يعرض لها. لم يكن دُري يتحفّظ في شأن ما يراه من شؤون الخلافة، من جعفر الذي كان الحاكم الفعلي، من ابن عامر الذي ارتبط بعلاقة مع صبح، وخانَ بذلك الأمانة. ظلَّ دُري بادي التوقير للخليفة، رغم أن الجميع كان يعلم أن الحَكم لم يعد من الأمر في شيء. بقي زيري ودُري كذلك في علاقاتها إلى أن مات الخليفة الحَكم، والتقى به مرة بعد وفاة الخليفة، وكان دُري من نصحه بالاستخفاء، إلى أن يحتاجه. كان زيري يتابع الأحداث، من «انتحار» المغيرة، إلى تولي هشام المؤيد الخلافة، إلى عزل جوذر وارتحال فائق إلى ميورقة. حتى بلغه مقتل دُري في غمرة الصراع ما بين الصقالبة وشرطة ابن عامر. اهتزَّ حينها. فقدَ صديقاً. والأدهى والأمرّ أن دُري لم يمت في عراك ولكن جراء تعذيب. حينها خشي زيري على نفسه. لم يأمن أن يكون دُري قد جهر باسمه تحت التعذيب.

لم يعد له من خيار سوى أن يتنكر. أخذ يتردد على خمارة

صمويل كي يستخفي بها. ومَنذا سيأبه لسكّير يتردّد على خمارة؟ ومن سيخشى من شأن يهودي؟ كان وضعه المادي مريحاً بفضل ما أجزل له الخليفة الحَكم من عطاء، مما سمح له بأن يخادع صمويل بفضل سعته. إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان، حينما وقع في هوى راحيل. كان ما أغراه جمالها وما سحره صوتها. تمنّعت عليه، وكلما تمنّعت كلما ازداد تعلُّقاً بها وحبّاً لها. أذعنت له في النهاية، ثم بادلته الحب. ويوماً أخبرته بتأخر موعد الحيض. . لم يعد هناك شكّ من أنها حامل. طلبت منه أن يذهبا عند الناجد كي يتزوجها وفق الشريعة الموسوية. أخذ يُسوّف. ثم تعلل بأنه بصفته من يهوديي العدوة، عليه أن يقصد ناجد فاس. لم تفهم راحيل لأن لا شيء يمنع ناجد قرطبة أن يعلنهما زوجَين، ولم تفهم لأن هارون، أو من كانت تحسبه كذلك لم يكن يحترم الطقوس، فكيف يتعلل بناجد فاس وهو لا يأبه بالطقوس أصلاً؟ لذلك لم تمتلك نفسها وصفعته بالحانة. كان يخشى أن ينفضح سرّه وقد حملت منه. لم يكن ليخفى عن رجال ابن عامر أنها كانت تتردد على قصر جعفر وسينتهي بهم الأمر إلى معرفة الرجل الذي حملت منه، وأنه كان على صلة بالصقالبة.

شدَّ انتباه زيري، في سرد الخليفة، شخص لم يكن يعلم عنه إلا ما حكاه عنه الخليفة. لم يكن شخصاً معروفاً بقرطبة إلّا من لدن فئة قليلة. لازم الخليفة في صغره، وافترقا في الكبر، وشاءت المصادفات أن يلتقيا ثانية، في إحدى أحابيل الحياة، ومكر التاريخ، في اشتراكهما في حبّ نفس الشخص، غادة قرطبة، هند، ولم يكن ذلك الشخص سوى باشكوال، رفيق دراسة الخليفة، ومساعد له في بدايات حكمه، ومن سيعتزل شؤون السياسة بعدها. استقصى زيري أمره، وانتهى إلى أنه اعتزل بأستجة، في ضيعة صغيرة. كان يهمه حينها أن يسمع منه، ويعرف الجزء المستتر من السرد الذي سمعه غير سرد

الخليفة. كان يتحرق أن يعرف عنه. وكان ما يغريه تلك الصورة التي صوّره بها الخليفة الحَكم، وتلك النهاية التي انتهى بها السرد، حينما التقى الرجلان في حب الشخص نفسه، هند. لفترة اعتبر زيري أن باشكوال لا يوجد، مثلما لا توجد هند، وأنهما من محض خيال الحَكم أو هذيانه. كانت تأتي على الخليفة فترات يغيب فيها. وكان زيري يحضر غير ما مرة إلى منية الناعورة ولا يستطيع الخليفة أن يستقبله حينما يشتد عليه الألم حتى ليذهل عن كل شيء، ثم تأتي عليه لحظات يصفو ذهنه وتعاوده العزيمة فلا يتوقف عن السرد، كما لو أنه كان في عجلة من أمره. اعتقد زيري أن باشكوال لم يكن إلّا صورة للعقل، وأن هنداً تحيل إلى الضمير. كان زيري يعتقد أن العقل الباطني للخليفة اختلق هذين الشخصَين، للتدليل على ما كان يعاني ليس من الفلج وحده، ولكن من تبكيت الضمير. كان على زيري أن ينقل سرد الخليفة، كما ورد، سواء أوُجد الشخصان أم لم يوجدا فعلاً. وانتهى إلى أن باشكوال وُجد فعلاً، تعرفه فئة قليلة ممن عاصرت بداية حُكم الخليفة الحَكم. كانت مغامرة أن يحل عند شخص لا يعرفه، ولا يعرفه إلا بما قيل عنه، أو بما تمثله عنه. لم يكن من المؤكد أن يكون باشكوال مطابقاً للصورة التي انطبعت في ذهنه.. لكنه منذ حبلت منه راحيل لم يعد يفكر فيه كمصدر ليستوثق مما حكاه الخليفة، ولكن كملاذ يأوي إليه.

لم يكن لائقاً أن يجاهره بالحقيقة لأول وهلة. وكيف أن يفعل وقد أخفى الأمر على راحيل نفسها؟ اعتبرَ وريقاته هي المنفذ. هي كلمة السرّ التي من شأنها أن تنفذ إلى قلب باشكوال. منذ فطور الصباح، حين نطق باشكوال بأنه سيستبقيهما فهم زيري أن باشكوال اطّلع على أوراقه، إن لم تكن كلها فعلى جزء منها. لم يكن يهمه أن يعرف ما كتبه، بقدر أن يعرف من هو. كاتب من كتَبَة الخليفة.

اختلق باشكوال ذريعة تفقُّدِ أرجاء الضيعة والوقوف على خلايا النحل، وأخيراً نطق بكلمة السر حينما سأله إن كان يريد أن يستمر بندائه إياه بهارون. افترّ حينها ثغر زيري، وأدرك فعلاً أنه أمام شخص استثنائي..

اعتراه الفرح حينما سأله باشكوال السؤال. شملته الطمأنينة. وجدَ الحضن الذي يأويه. ردَّ زيري على باشكوال كما لو أن معرفة قديمة تربطهما:

- لم أخبر راحيل بالحقيقة بعد.

- ينبغي أن تطلعها بها، قال له باشكوال.

ثم عقّب:

- البيت بيتك.

5

كان الليل بهيجاً. خفّت وطأة الحرارة، وازدانت السماء بالبدر في اكتماله وبالنجوم المتلألئة في قبّتها. انسحبت راحيل إلى داخل البيت لتنام. أسدلت مرية على جسمها غطاء خفيفاً تحت قبّة السماء واستسلمت للنوم. كانت تنام حينها خارج البيت... أما باشكوال وزيري فقد التحفا حصيراً قبالة البيت واستندا على الوسائد. ناول باشكوال زيري قدح خمر. نقع منه، ثم قال بلسان متلعثم:

- أسرفتُ في الشراب يا باشكوال.

- لا عليك. لن تخشى صداعاً. خمرة جيّدة. ردَّ باشكوال.

- أي نعم، ولكني لم أعد أقوى على قدح إضافية. أين كنا من الحديث؟

- دُري. ردَّ باشكوال.

- نعم هو من عرفت أول الأمر في محيط الخليفة. وأرى أن من فتح لي مغاليق المدينة هو دُري. لذلك لم يكن مقتله عليّ هيّناً. شعرت بأني وحيد. تبيّنت الخطر بعدها. ولكن موته من رسّخ ارتباطي بالأندلس.

توقّف لحظة، ثم استرسل من غير رابط:

- كنت أرى بحضرة الخليفة شيئاً غير ما اعتاده الناس وتوهّموه.

كنت أرى شخصاً ككل الأشخاص. بل أحياناً أقل من أي إنسان عادي. لأن الإنسان العادي يرتبط بالواقع. يلمس الأوجُه المختلفة للحقيقة، من جوع وحرمان وشظف، ومن ثمة يُقدر الشِّبع والنُّجح والسَّعة... كنت أشعر بحضرة الخليفة أنه لم يكن يدرك إلا صور الأشياء، ولا يرى العالم إلا من خلال الآخرين. ومع ذلك كنت أرى شيئاً آخر، أو أحس به على الأصحّ، أن هذا الشخص الذي لا ينفذ إلى الحقيقة، ولا يستطيع تمثّلها، يملك سيفاً وسلطاناً... يَعزل ويُقرب، يُكرم ويُذل، يُجزل ويمنع. أي ضمانة أن يصرف سلطانه إلى ما يتوافق مع الحقّ والصواب؟ ليس هناك أي ضمانة. يمكن أن يصرفه في نزواته وهواه. مع ما قد يترتب عن ذلك من حيف وظلم...

عقّب باشكوال على قوله مبتسماً:

- لو تبيّنوا أنك ستنتهي إلى ما انتهيت إليه، لم يكونوا لينادون عليك لتكتب سيرة الخليفة.

ثم ملأ قدحاً. اعتذر زيري:

- بورك فيك يا باشكوال... لا أقوى على كأس أخرى.. ماذا كنت أقول؟ كان الخليفة يألم. كان يشعر بالعجز. سعى أن يتجاوز ضعفه والطعنة التي وجّهها له ابن عامر وقد انتهت إليه علاقته بصُبح. ولم تكن تهمّه الطعنة بقدر خطر شيوعها لدى الناس. احتمل الضربة. خرج للناس ولكنه ما لبث أن انهار... كانت الأمور أكبر ممّا يستطيعه. كان من دون شكّ يقارن بين زمن يستطيع أن ينطق بأمر لينطاع كل شيء، وحالة لا يستطيع فيها أي شيء... لم تكن حالة العجز الجسدي التي يعيشها إلا صورة للوهن النفسي الذي كان يتلظّى به. كنت أرَقّ له لِما كان فيه من ألم.

- آذى الكثيرين كذلك.

- كان يأسى لذلك.

- لا أحسبه قادراً على ذلك. لا يستطيع أن يدرك ما يجيش في نفوس الآخرين. لا يمكن لشخص ولد في مثل وضعه أن يدرك معاناة الآخرين. لازمتُه في شبابه، وعرفت شؤونه، ووقفت على شخصيته، وحسبت أنه لمّا يلي الأمر سيتجاوز ذلك كله. اعتبر المُلك ملكية. حسبته بعد ذلك أنه قادر أن يراجع نفسه، ولكني تبيّنت عجزه عن ذلك، بل نفوره من الحقيقة. لم يصطبر حين واجهته هند بها. أراد أن يقبر الحقيقة.

- تصرّفَ كإنسان جريح.

- الجريح يألم، يجأر بالألم. يضمد جراحه. لا يقبر الحقيقة. لا يقضي على حياة. أو حيوات. يقبل بالحقيقة. يتعايش معها.

- كان لديه جانب إنساني... كان يود أن يعانق البُعد الإنساني الذي حجبته عنه تربيته، وألزمه فيه وضعه، وقيّدته به الطقوس أو الترتيب.

- لست على يقين أنه كان يريد أن يستعيد بُعده الإنساني ولا أنه كان يستطيع. كان يألم، وكان يسعى أن يخفّف عن نفسه ممّا يعانيه من آلام. بالبوح. أنت مَن قال لي إن الطبيب حسداي هو من أوحى له بذلك. تحدث عن نفسه في كل السرد الذي أملاه ونقلته. أنظر!

وجمع باشكوال كُمّ قميصه وأرى زيري ندباً كبيراً في ساعده:

- ترى هذا الندب، هو نتاج العلاقة التي ربطتني بالحَكم. الشاهدة على علاقتنا. ندب لجرح غائر. حينما كنا بعدوة المغرب وانهالت علينا كتيبة من بدو صنهاجة. كادت ضربة أن تهوي على رأس الحَكم، واعترضتها بدِراقي، ولكنها هوت على ذراعي. لم يقل الحَكم شيئاً في سرده عن الجرح، لأنه لم يشعر به، ولا يحمل ندوبه، وهند هي الندب الآخر.

قال باشكوال ثم أغمض عينَيه. وأضاف:

- آسف زيري، قاطعتك.

واصلَ زيري:

- لم يكن ينام... أو كان ينام نوماً مضطرباً...

- لو برأ مما كان يعانيه من هوس، وكان حقاً يريد أن يستعيد بُعده الإنساني، لما عهد بالأمر لابنه هشام. كيف يتولى الأمر طفل لا يعرف شيئاً عن الحياة، فبالأحرى شؤون الدولة؟ هذا استهتار بالدولة. هذا احتقار للرعية. هذا استخفاف بشؤون الحُكم.

- السلطان شأن رجالات الدولة.

- ها أنت ترى بعينَيك شأن رجالات الدولة. يتناحرون ويَشل بعضهم بعضاً. كيف ترى أن يصمد حُكم يعتمد على القتل والغيلة والمكر؟

- ضريبة السياسة.

- لا بدَّ من أخلاق في السياسة يا زيري. السلطان بلا فضيلة مؤذن بالخراب. اقرأ كتابات الفُرس. اقرأ فلسفة الإغريق. اقرأ الكتاب المقدّس والقرآن. يمكن أن تنتزع السلطان بالخديعة، ولا يمكن أن تحافظ عليه إلا بالفضيلة. لا يستقيم أمر ينبني على الغيلة والرذيلة على المدى الطويل. اعتزلت هنا، لأن قصة الحَكم هي قصة عبد الرحمن الناصر، وهي قصة خلفاء بني العباس... قصة تتكرّر. لأشخاص يتألّهون. لأنهم يقعون في الزهو الذي يحدثه السلطان، ممّا تزيّنه لهم حاشيتهم. ثم يُخلّفون ذرية أبعد من أن يدركوا كنه الأشياء، تستهويهم المتع ويغلب عليهم اللهو. المشكل ليس الحَكم، بل البنية التي تفرّع منها الحَكم وأنجبت جعفراً وابن عامر وصبحاً... وهي بنية محكوم عليها بالفناء. طال الزمن أو قصر. تحمل بذور فنائها. لم يعد يهمني لا شأن الحَكم ولا دسائس جعفر ولا نزوات صبح. تهمني البنية التي أنجبت هؤلاء.

- كان يريد أن ينقذ البنية.

- لم يكن ليستطيع.. لأنه نتاج البنية. لمّا كان ولياً للعهد كان يشعر أنه ضحية البنية. كان يشقى من غطرسة والده، ومن تهميشه له، ومن هزء رجالات الدولة منه. ولكنه لمّا ولّي الأمر انسكب في القالب الذي صاغه والده. والده الذي مثّل بوجه جارية تمنّعت عليه، والده الذي ذبح ابنه... هل هذا حقاً ممّا يمكن أن يفخر به الإنسان؟ ورث الحَكم الطراز نفسه ونسج عليه. دعْ ما سيكتبه الكتَبَة من تاريخ منمّق. ليس سرّاً كيف كان يسوم الحَكم الخسف ضعاف مستخدميه، ويبطش بهم، كما لو أنهم المجال الذي يجري فيه سطوته. لم تكن له عبقرية عبد الرحمن، واستند على جعفر الذي كان يدبّر كل شيء باسمه. أنا في الأندلس أعرَف الناس بجعفر. لا بأموره الشخصية ولا ما أتى وما يأتي، ومن التقى وما صنع... كل هذا زبَد. أعرف بنيته الذهنية، وهذه البنية تحمل شيئَين مفضيَين إلى الفشل، السطحية والغرور. ولذلك لم ينجح في شيء أقدم عليه لأنه غير قادر أن ينجح.. لا أعرف عنه أن أتمَّ عملاً بدأه أو وفّق فيه. ثم أنيل السلطة، وخضعت له الرقاب، فحسب أنه من الدهاة والعباقرة... كان النجاح يحالف ما يقوم به أول الأمر، وكان يحسب النجاح نجاحه، والحقيقة أنه كان نجاح البنية. ولم يُقدّر أن تصاب البنية بالترهُّل فتتعثر.

توقّف باشكوال. انصرف ذهنه كمن يفكر في شيء، ثم قال:

- كيف أستطيع أن أنظر إلى رجل خصَّ الوظائف الكبرى لأهله، وجعل الأندلس ملكية خاصة؟ كيف أستطيع أن أنظر إلى رجل أمر بقتل المغيرة؟ سمعت القصة هنا في سوق أستجة، واقشعر بدني.. كان يتداولها الشعراء العوام، ممن ينتقلون في الأسواق. أتعرف القصة؟

- أعرف أن المغيرة لم ينتحر وإنما قُتل خنقاً.

- كان المنشدون من المطربين العوام الذين ينتقلون في القرى

يتداولونها بأسى... بكى المغيرة. تشفّع. قدّم البيعة لهشام. قبِلَ أن يرحل إلى المغرب أو الشام. لم يشفع له شيء في ذلك. خُنق بمرأى من أهله، ثم صلب في بيته... باللّه عليك، زيري، هل هذا ما يمكن أن يُسمّى بزينة الدنيا؟ أهذا الذي أراد الخليفة أن يدس في حكيه، ويجعل نفسه المؤتمن عليه؟

– ليس لدي أدنى تقدير لجعفر ولا لابن عامر، ولكني أرتبط بجانب شخصي بالخليفة.

– وهل يمكن أن نفصل بين الخليفة وحاشيته؟ من اختار جعفراً؟ من أطلق يده؟ من استقدم ابن عامر؟ هل تحسب أنني لم أكن تحت سحر البنية أو غوايتها؟ اعتقدت أن الحَكم يمكن أن يقطع مع إرث عبد الرحمن. كنت أعتقد أن دماثته تجعله بمنأى عن عجرفة والده... وأخيراً تشبّه بوالده لأنه لم يكن يرى نفسه يتأثر أحداً سواه، وتأثره في أسوأ ما كان لدى الرحمن، دون أن تكون له عبقرية والده... يعزل لنزوة، يجزل العطاء من غير سبب موجب، يغضب لغير جريرة، مثلما قال عنه الشاعر يوسف بن هارون الرمادي:

يولي ويعزل من يومه فلا ذا يتمُّ ولا ذا يتم

تحولت كل مواطن ضعفه مع السلطان إلى أسباب للعجرفة والتسلُّط والغرور، واعتبر السلطان وسيلة للثأر...

توقف باشكوال، ثم أضاف:

– لا تحسبن أنه الذحل[1] أنطقني يا زيري.. برئت من ذلك كله... نعم كان نفي هند جرحاً، وقتلها كان طعنة نجلاء. ثم صار رسالة. أو أمانة. ليس للثأر، ولكن للفهم. للحقيقة. ليس رسائلها

---

(1) الذحل هو الضغينة المستترة، وهو المقابل لـ Ressentiment في الفرنسية و Resentment في الإنجليزية.

وحدها التي أحتفظ بها، ولكن موتها. مقتلها غيلة هو ما يستحثّني للبحث عن الحقيقة. ليس لذاتي وحدي، فأنا أعيش وضع الكفاف، لا أحتاج أحداً، ولا أخشى أحداً. أسعى للحقيقة من أجل الأندلس، هذا العقد الفريد، بتعبير ابن عبد ربه، أو زينة الدنيا، تبصرة للآخرين. من يعبدون الأصنام. ظلُّ اللّه، وخليفة اللّه في أرضه، وما شئت من الألقاب لتبرير الاستبداد.

قال باشكوال ذلك في حدّة، ثم غار في الصمت. قاطعه زيري:

- وماذا يستطيع الفكر أمام جبروت السلطان؟

- لا شيء على المدى القصير. لكن الفكر هو بمثابة البذرة التي تنغرس في الأرض. تختمر. تشق أديم الأرض، تتفتق. ثم تكبر رويداً رويداً، إلى أن تصبح دوحاً. عامل الزمن مهم. ولكن إذا لم تنغرس الفكرة، لم تونع الشجرة.

ثم أضاف:

- اسمع يا زيري، الحَكم انتهى قيد حياته. أصبح صورة، وهو نفسه أسرّ لك بذلك، حينما قال لك إنه لم يعد من الأمر في شيء. لم تعد إلا المنظومة التي تدافع عن نفسها باسم الخليفة. تبدي شراسة ضدّ كل من يتهدد مصالحها، بما فيها الخليفة نفسه. لم يقل لك الحقيقة في شأن بدر، فتاه المجوسي الذي قُتل في ظروف مشبوهة. لم يقل لك الحقيقة لأنه لم يكن يعرفها هو نفسه.

- قيل له إن بدراً انتحر، وظلّ هو يشك في ذلك.

- بدر لم ينتحر ولكن اغتيل. اغتاله ابن عامر بأمر من جعفر، لأن العلاقة بين الخليفة وبدر أصبحت تشين لصورة الخلافة. لم تكن من قبيل العلاقات العذرية، ولكن الخليفة تولّه به. ليس سرّاً أن الحكم لم يكن يأتي النساء. تزوج لأنه لم يكن له بدّ من الزواج وقد أصبح خليفة، ولأنه لم يكن بدّ من الإنجاب لضمان استمرارية الخلافة.

افترق من صبح، واقترن ببدر، ولم يعد الخليفة يتورّع في الخروج مع بدر، حتى أصبحت للفتى المجوسي الكلمة في شؤون الدولة. أبدى الناس وأعادوا في الأمر. ولم يرَ جعفر بدّاً من قطع دابر الإشاعات والحديث واللمز بالقضاء على بدر.

أفرغ باشكوال كأساً. نقع منها، ثم استرسل:

- هو ذا كعب أخيل الحَكم كما يقول الإغريق. ولم يستطع أن يتجاوزه، وحينما فعل، فعل بطريقة فجّة. لا أصدر من منظور أخلاقي. ولكني أرفض الكذب، الكذب على الناس. تستّر الحَكم عن شغفه بالولدان وإعراضه عن النساء. أوقره وضعه. وعاش موزّعاً بين طبيعته، وما تفرضه عليه مسؤوليته. وكان الثمن غالياً بالنسبة إلى سير الدولة. اضطرابه النفسي، غضباته، نزواته، كل ذلك من أثر التوزُّع بين طبيعته ووضعه. الجوانب الشخصية لا تهمني إلّا بقدر انعكاسها على الشأن العام. بلغ اضطرابه منتهاه في نهاية حياته، ولم يبقَ له إلا أن يقضي على هند، وما توحي له. لم يحب هنداً، وإنما تاقَ لها، كي يعيش وضعاً طبيعياً. لم يقبل بطبيعته. ثم اختارك، أو تمَّ اختيارك لتنقل سيرة منمّقة. أريد لك أن تكون على شاكلة مؤرّخي البلاط، ممن ينقلون سيرة منمّقة. سيرة كاذبة. مزوَّرة.

- هل ما نقلت ليس الحقيقة؟

- الحقيقة المطلقة لا توجد. سردك يتضمّن جزءاً من الحقيقة... معاناة الحَكم في صباه، خوفه من والده. عيشه في ظله. كل هذا صحيح... إلّا أن هناك جوانب معتمة.

- غُرر بي إذاً.

- أنت أذكى من أن يُغرّر بك. ولو كان الأمر كذلك لتوقفت حيث انتهى السرد. لقد أسرّ لك الخليفة بالعجز وأفضى لك بشعوره بأنها النهاية. أظنّه صادقاً في ذلك، ويهمني أن أقف على النتيجة.

- النتيجة هو استقواء جانب ابن عامر وأفول جعفر.

- مرحلياً. لكن هل سيضمن ذلك قوة الخلافة؟ أو استمرارية بني أمية؟ كل ما له بداية له نهاية. هي بداية النهاية. ولا أدري أي شكل ستأخذ. يمكن لابن عامر أن يؤجِّل حُكم التاريخ، ولا يمكن أن يلغيه.

هبَّ نسيمٌ لطّف الجو. كان زيري يصغي في اهتمام. تُرى أهو الذحل ما أنطق باشكوال؟ يزعم أنه بريء من جرح هند، ولكن الصورة التي يرسمها عن الحَكم تبدو مصطبغة بجانب ذاتي... كان حكي باشكوال ينسف الصورة التي تشكّلت في ذهنه عن الخليفة والبيت الخلافي. لم يكن زيري يتأذّى من حالة الضعف التي رأى فيها الخليفة الحَكم. وأي إنسان يسلم من حالات ضعف وهوان؟ ولكنه يكتشف شيئاً آخر، أمضَّ من الضعف، وهو الافتراء... الصورة التي تُقدّم عن الخليفة كاذبة... ولكن هل يمكن حجب الحقيقة إلى ما لا نهاية؟

ما يهم زيري الآن هو حماية نفسه، وحياة قرينته. فرَّ من قرطبة خوفاً على حياته، خشية من ابن عامر. لن يتورّع ابن عامر في قتله وقد عرف علاقته مع الصقالبة وارتباطه بدُري... حياته في خطر. قد يكون باشكوال أدرك ذلك. ينبغي لزيري أن يفاتحه في الأمر. ينبغي أن يطلعه على كل شيء..

تنحنح ثم أرسل:

- أخشى تبعات الوضع المضطرب على حياتي.

- ما الذي يخيفك؟ علاقاتك السابقة مع الحَكم؟

- نعم.

- المتناحرون لهم أولويات... هم منصرفون عنك.

- لكن ينبغي أن آخذ حذري. لدي امرأة في عصمتي.

توقف زيري، ثم استرسل بعدها:

- لم أخبر راحيل بحقيقتي.

- ينبغي أن تخبرها بالحقيقة...

- لم أكن أتوقع أن أرتبط بها، ولا أن تحمل مني. تعرّفت إليها في خمارة، كنت ألزمها كي أتستّر لمّا بلغني مقتل دُري. كنت أقدّم نفسي بصفتي يهودياً. ووقع ما وقع. لا أدري حتّام أستطيع إخفاء الأمر على راحيل، أو هل ينبغي أن أبقي على هويتي المزورة حتى لا أصدمها؟

- الحقيقة مثل الموت لا تُخفى.

- لن تتقبّل الأمر.

- ستصدم في البداية، وسينتهي بها الأمر إلى أن تتقبّل الحقيقة. كلما تأخّرت، كلما كان أثر ذلك أكثر إيذاء.

- هي حامل، وقد يؤثر ذلك على الجنين.

- لا أظن ذلك. قول الحقيقة سيحرّرك وسيحرّرها.

- هي محافِظة، وستصطدم حين تعرف أني لست يهودياً.

- بادئ الأمر. لا يتحرّر الناس من أفكارهم المسبقة إلا بصدمة. بعد الصدمة الأولى ستتخلص من أفكارها المسبقة، لكي تراك كما أنت، وترتبط بك لما أنت، بغض النظر عن أي رابط. ينبغي أن تجاهرها بالحقيقة. ستتخلّص من عبء، وستنظر بعدها إليك بنظرة صافية لا تشوبها شائبة. عِدني أنك ستفعل.

6

خفّت وطأة الحرارة بعد موجة من الرعود توالت لأيام متتالية. أقبلت ساكنة أستجة على التنزُّه بجنبات وادي شنيل من أجل الترويح. عرض زيري على راحيل الخروج للنزهة بعد العصر. كانت راحيل تمشي في عسر وقد أثقل عليها الحمل. لمّا وصلا جانب النهر، قرب مرج، طرح زيري حصيراً، ووضع وسادتَين، وطرح قُلة ماء صغيرة. أعان راحيل على القعود وهي تردِّد اسم أدوناي. نظرت إلى زيري بحسرة ثم قالت:

- حتّام نبقى يا هارون في هذه الوضعية؟ عمّا قريب سأضع، ينبغي لهذا الصبي أن يكون له أب معترف به من قِبل الناجد، ويباركه الحاخام.

- أدوناي يعلم بحبّي لك يا راحيل، وهو الأهم.

- لا بدَّ للناجد أن يبارك علاقتنا. لا بدَّ للطائفة أن تعرف باقتراني بك وتَشهد على علاقتنا.

- هل الناجد أهم من أدوناي؟

- الناجد يتكلّم باسم أدوناي. الناجد يحافظ على تلاحُم الطائفة ويسهر على سكينتها.

- اسمعي يا راحيل...

ثم توقف. لم تسعفه العبارة.. بقيَ صامتاً للحظة دون أن يواصل الكلام.

- ماذا؟ استفسرت راحيل.

أردف زيري:

- المهم في علاقة رجل وامرأة هو الحب.

- نعم، والحب يحتاج إلى ترسيم.

استجمع قواه، ثم سأل راحيل:

- هل تثقين بحبّي لك؟

- لا أشك في ذلك يا هارون. ولكني تعبت يا هارون.

- هل تحبينني يا راحيل؟

- كيف لا أحبك يا هارون. منحتك قلبي وأسكنتك جسدي، وأصبحت أحمل بذرتك.

- هل ستكفين عن حبي لو... لو مثلاً، مسّتني عاهة. لو أني أصبحت ضريراً. أو.. أو بُتر إصبع لي، أو لنفرض يدي؟

- وهل هذا كلام عاقل؟ أحبك أنت. هل سأكف عن حبك لو أصابك مكروه؟ الحب المقترن بوضع أو أوضاع ليس بحب؟

كان الأطفال يلعبون بجنبات مروج النهر. يغْدون ويتعاركون على مرأى من آبائهم. الكبار يتجاذبون أطراف الحديث. أغلبهم من الدهماء، خليط من المسلمين، عرباً وبربراً ومولدين، ومن المسيحيين واليهود. بالمرج فِرق تغنّي، ومنها عناصر ترقص. كان المشهد يبدو هادئا كبحرٍ ساكن، أو بركان خامد. أحاديث عادية. ألعاب معتادة... ساورت زيري نفسه أن يحجم عن قول الحقيقة لراحيل، على الأقل يومه ذاك. ثم تذكر ما قطعه عليه باشكوال من ضرورة إطلاع راحيل بالحقيقة. واصل زيري في حدّة:

- راحيل، لم أخْفِ عليك حبي لك، وتعلقي بك. أنت هي

الأندلس بالنسبة إليّ بعد إذ غادرت موطني من العدوة. أنت من احتضنني وقد كنت بلا حاضن. أنت وباشكوال. ليس لي إلا أنتما من الأحياء. لا يمكن أن أكذبك وأنت تحملين بذرتي، وأنا وأنت نرتبط بموثق. ينبغي...

ثم أطرق. لم يستطع أن يسترسل. بادرته راحيل بعد أن لاحظت صمته:

- ألديك امرأة أخرى؟

- كلا. أتمزحين؟ كيف أرتبط بامرأة وأنا أحبك؟

- ممكن أن تكون لك امرأة سابقة.

- لا. أبداً.

- أتشتغل لصالح ابن عامر؟

- لو يُلقي ابن عامر القبض عليّ لن يوقّرني.

- إذاً ما المشكل؟

- لست هارون.

سادَ صمت. كما لو أن راحيل كانت تسعى أن تتبيّن قوله. استمرَّ الصمت. نطقت بعد برهة متعجبة:

- أنت لست هارون!

ثم شفعت هازئة:

- ومن تكون؟ الشخص الذي ينام بجانبي، الشخص الذي أسكن إليه ويسكن إليّ ليس هارون؟ ومن يكون الشخص الذي تمتزج أمشاجه وأمشاجي؟

ثم أرسلت ضحكة مجلجلة. استغرقت في الضحك حتى دمعت عيناها:

- أنت لست هارون؟ أنت طيف هارون إذاً. دعني أضحك. مضى عليّ وقت لم أضحك فيه.

أطرق زيري. شملته الطمأنينة. ضحكها علامة إيجابية. لم تتوقف راحيل عن ضحكها. ثم أخذت قهقهتها تخفت رويداً رويداً. ابتدرته:

- هارون، مُد لي المنديل... باروخ أدوناي. هارون ليس هارون. وأنا قد لا أكون أنا، وقرطبة ليست هي قرطبة، والأندلس ليست الأندلس. ومن نكون؟ ومن تكون؟ ألك اسم غير اسمك؟ أم تريد تغيير اسمك؟

كان ينظر إليها بابتسامة بلهاء. راودته نفسه أن يتراجع عمّا قطعه على نفسه من الإسرار لها بالحقيقة، ولكنه تعهّد لباشكوال أن يُطلعها على الأمر. أردفت راحيل:

- أصبحتَ مجنوناً يا هارون. هل يغيّر إنسان اسمه؟ هل يغيّر هويته؟ وهبْه غيّر اسمه، هل يغيّر ذلك شخصيته؟

- صدقت يا راحيل. إنما أنا لست هارون..

- اسمع يا هارون. أنا أعرف أن لديك نزوعاً فلسفياً، ولكنني لست في الوضع الذي قد أتفلسف فيه معك. أنا حامل وأخشى على نفسي وعلى هذا الجنين. سايرتك فيما أشرت به، عن غير اقتناع. أريد أن نظفر بعشّ، في أي مكان من الأندلس. بعيداً عن الأخطار. بعيداً عن الأنظار. عن جعفر. عن ابن عامر. أريد أن نذهب عند الناجد، في إشبيلية أو طليطلة، أو في أي مكان من الأندلس، أو العدوة بفاس إن تشأ. أنا مستعدة أن أذهب معك إليها. نُرسّم علاقتنا ونعيش بعدها حياة هادئة مطمئنة.

- ذلك ما أريده يا راحيل. لكن ينبغي أن أقول لك الحقيقة. حقيقتي.

توقف. حدّقت فيه راحيل دون أن تسحب نظرها عنه. كان يتطلّع أن تقطع الصمت. لم تفعل. سلّطت عليه نظرها الحادّ. لم يجد بدّاً من أن يُلقي ما بنفسه كشخص يرتمي في لجة الماء بعد تردُّد:

- أنا زيري. اسمي زيري.

سادَ الصمت. كما لتستبين قوله ثم أرسلت في ذهول:

- ماذا؟ زيري ليس اسماً عبرانياً.

- تماماً.

- ولماذا اختار لك والداك اسماً غير عبراني؟

- لأني لست عبرانياً.

لم تمهله راحيل ونطقت بحدّة مقطبة جبينها:

- ماذا يعني أنك لست عبرانياً؟

- يعني لم أولد يهودياً..

- واعتنقت اليهودية؟

- لم أعتنق اليهودية.

- أعرف أنك لا تلتزم بالطقوس. ولكن تؤمن بشعب إسرائيل. برسالة أدوناي لشعبه المختار.

- لم أولد يهودياً...

ابتلع ريقه ثم أردف:

- ولدتُ مسلماً.

إثرها عمَّ بينهما صمت مطبق لا يقطعه إلّا شغب الأطفال وهم يمرحون في المرج. الشمس تؤذن بالمغيب. بعض الأُسر أخذت تجمع حوائجها متأهّبة للمغادرة. لا شيء ينبئ عن احتدام النقاش ما بين شخصَين يتحدثان في قضايا وجودية، ترهن حياتيهما ومصيريهما. لا شيء. ينبغي الاقتراب منهما، والاستماع إليهما لإدراك طبيعة حديثهما.

- مستحيل. قالت راحيل. لو كنت مسلماً وارتددت لقتلك المسلمون.

ردَّ:

- بالنسبة إليّ الأديان واحدة، وهي جيّدة طالما دعت للمحبة، ومنحت للوجود معنى، وهي سيّئة طالما دعت للبغضاء.

- تريد أن تخرجني عن طوري يا هارون.. تعود للفلسفة وليس بي طاقة للتفلسف.

- زيري، ويمكنك أن تناديني بهارون إلى أن تستأنسي بزيري.

- ماذا؟ الجنين الذي في أحشائي مسلم؟

- لا أدري.

- كيف لا تدري؟ كلما كلّمتك قلت لي لا أدري.

- لا أدري فعلاً. الجنين من دون انتماء عقدي.

- هارون إنك لتمزح. أصدقني. إنك تمزح.

- وددت أني أمزح. أمزح حينما تكون الحقيقة مضنية، فأتستّر عنها أو حين تكون حياة مُهدَّدة. وأكف عن المزاح، حين تلحُّ عليّ الحقيقة... من يحبّكِ وُلد مسلماً ونشأ مسلماً. أو أني مسلم من شاكلة مغايرة، ممّا لا يضعني في مجافاة مع أي عقيدة.

تأكدت راحيل أن محدّثها مسلم. لم تتمالك إثرها فصاحت:

- لاااااااا.

صيحة اصطكّ لها المكان. ثم أخذت تضرب على فخذَيها. أخذت تندب. حاول زيري أن يهدئ من روعها لكنها كانت منصرفة عنه. كانت تصرخ كشخص خرج عن طوره وفقدَ صوابه... انصبّت عليها أنظار المتنزهين. كسرَ صراخها رتابة المكان. حدّق فيها زيري. لم يعرف كيف يتصرّف. حوّل نظره ما بين راحيل والمتلصصين. شعر بالحرج. اقترب من راحيل كي يهدئ من روعها ويدعوها لبعض القصد. مدَّ ذراعه نحوها كي يضم رأسها إليه ويعانقها. صرفته بحدّة صائحة:

- لا تمسسني. ابتعد مني. أنت نذل.. أنت نجس.

حاول أن يمسح دمعها، ويصدها أن ترفع صوتها. دفعته. ردَّ بصوت خفيت:

- راحيل، حبيبتي، لا تصرخي. الناس ينظرون إلينا. راحيل، أحبك. راحيل لم يكن لأخفي عنك الحقيقة. الحقيقة لا تغيّر شيئاً من الأمر. أحبك دوماً..

ردّت والدموع تخنقها:

- اذهب أنت وحبك إلى الجحيم. لا أحبك. لا أريدك. ولا أريد الجنين الذي يضطرب بأحشائي. سأتخلص منه.

استرسلت في البكاء. شعر زيري بالعجز. كان بشكوال قد حذّره أنها ستصاب بردّ فعل قوي أول الأمر، ثم لن تلبث أن تهدأ. لم تهدأ. كان زيري يشعر بالانزعاج والأنظار منصبّة عليهما. كان مَن يُصوّبون نظرهم عليهما، كما لو أنهم يريدون أن يَطّلعوا على سبب الخصام. غير بعيد جماعة كانت تغني، غير حافلة بالخصام. أخذ المرج يُفرغ من المتنزهين وقد غربت الشمس. راحيل تشهق. يهتز صدرها بالنشيج. يقطعه تبتلاتها. «لماذا أدوناي. لماذا تبتليني؟».

ثم ما لبث صوتها أن أخذ يخفت، ونشيجها يهدأ وأخذ الفواق يقطعه. مدَّ زيري يدها لشعرها يربت عليه. لم تصده. حوّل يده إلى وجنتها يكفكف دمعها. لم تصرفه. قرّب وجهه إليها وضمّها إليه. استكانت له. همس لها متودّداً:

- أحبك راحيل. وهو المهم في علاقتنا.

لم تنبس. كان لا يُسمع إلّا نشيجها. كانت منهدّة لا تقوى على الحديث. ناب النشيج عن القول. ثم فجأة بدر منها في صوت خفيت:

- لماذا هارون فعلت هذا بي؟ لماذا غرّرت بي؟ لم أكن لأرتبط بك، ولا لأحمل منك لو بادرتني بالحقيقة أول الأمر.

- الحب أسمى من كل انتماء يا عزيزتي. لو قلت لك الحقيقة

أول الأمر لنفرت مني. ولم أرد أن تنفري مني. أنت أجمل ما لدي بالأندلس. أنت زينتها.

انفصلَ عنها، كي ينظر إليها. أمسك يديها وقال لها كما لو أنها أول مرة يقولها، رغم أنه لم يفتأ يردّدها:

- أحبك يا راحيل.

نظرت إليه نظرة غائمة. بدر الحزن منها. علت وجهها بسمة خاطفة، ثم قالت:

- لماذا لم تقل لي الحقيقة أول الأمر يا زيري.

سمعَ زيري اسمه على لسان راحيل. أخذَ يدها وقبّلها. بقي كذلك لبرهة ذاهلاً عن كل شيء. توقّفت الأهازيج وضروب الغناء والرقص في المكان. رفعَ رأسه. كان المكان فارغاً والظلام أخذ يزحف. أمسك يدها. أعانها على الوقوف. جمع الحوائج. ضمّها تحت ذراعه اليسرى. بقيَ ممسكاً بيدها. شعر بخفقات قلبها. بالدفء يسري في عروقها وينتقل إلى عروقه. رفع يدها إليه وقبّلها. توجّها نحو بيت باشكوال في صمت. ما أن بلغاه حتى ألفيا باشكوال ينتظرهما أمام الباب.

- أنظري إلى باشكوال. إنه من سيبارك حبنا.

سألته مستسلمة:

- هل يعرف؟

- نعم يعرف، وهو من حثّني كي أقول لك الحقيقة.

7

مذ عرفت راحيل أن رفيقها لم يكن هارون وإنما زيري، تغيّرت علاقتهما. بعد الصدمة الأولى، ازدادا ارتباطاً بعضهما ببعض. تحرّرَ زيري من ثقل، وأصبح أكثر عفوية في تعامله معها. مثلما ازدادت راحيل ارتباطاً بزيري. بعد الأثر الأول تبيّنت أن الرابط الذي يربطها بزيري، هو أسمى من كل رابط، وهو الحب. كانت تنام معتلقة به، كأنما تخشى أن يفرَّ منها. إن ابتعد عنها في الفراش، بحثت عنه وسط الظلام، مادة ذراعيها تبحث عنه أو تهمس في هلع «زيري أين أنت؟». أضحت حياتها تتحلق حول زيري. لم يعد لها من رباط سوى زيري. الرابط الذي يربطها بالحياة هو زيري، والرابط الذي يربطها به هو الحب.

رأى باشكوال التطور الذي عرفته العلاقة ما بين زيري وراحيل. لم يكن ليُخفي ابتهاجه لما آلت إليه الأمور. رُفعت الكُلفة بينهم جميعاً، ممّا أسهم في رفع الحرج وتبديد الضيق الذي كانت تشعر به راحيل. حينما يختلي باشكوال بزيري، تلازم راحيل مرية. وجدت مرية الرفقة مع راحيل، تحدّثها بالرومانية، إذ لم تكن تحسن العربيه. وبالوقت ذاته وجدَ باشكوال الرفقة مع زيري. كانت علاقة خاصة، شبيهة بعلاقة أب وابنه، ولكنها علاقة رُفعت فيها الكلفة كما بين

صديقَين، وكانت علاقة شبيهة بصديقَين، ولكنها صداقة لا تخلو من عطف خاص. كان باشكوال يرى في زيري الابن الذي لم يرزق، وكان زيري يجدُ في باشكوال الحضن الذي افتقده منذ مقتل دُري. هذا فضلاً عن جاذبية شخصية باشكوال الفذة، وحياته الغنية، وثقافته الواسعة، ونظرته الثاقبة. كان زيري وباشكوال يختليان بعد الضحى، يخوضان في الحديث، أو يخلصان للقراءة، حين يجد باشكوال من نفسه القابلية على القراءة، أو يسعفه البصر ساعات النهار، أو يلتمس من زيري أن يقرأ له، حين تكون الحروف لمخطوط صغيرة والنور ضئيلاً. وكان باشكوال إلى ذلك يقرأ باللاتينية، ممّا لا يستطيع زيري أن يقرأه، فإذا غارَ باشكوال في قراءاته تلك، فتح زيري **العقد الفريد** لابن عبده، أو بعض الأوراق ممّا نسخه الناسخون من **أمالي** أبي علي القالي... سأل باشكوال مرة عن أبي علي القالي. كان باشكوال مقدراً لأبي علي القالي، وكان ممّا قال في شأنه:

– أحببت الرجل مذ حلَّ بقرطبة. وكنت أحضر لقاءاته مع الحَكم وأحياناً لوحدي بمسجد قرطبة حيث كان يلقي حديثه يوم الخميس. كان يروقه حضوري ويسعده. كان بحراً في المعرفة. غادر بغداد لا عن قلى، ولكن لما عرفته من تقلبات واضطرابات. كان يود أن يجدَ عوضاً في الأندلس، والحقيقة أنه لم يجد العوض الذي كان يبحث عنه، رغم أن العلية من القوم والفقهاء وحتى العوام كانوا يحيطونه بالتقدير. لا يسلو المرء عن موطنه، ولا يعتاض عن لسانه. كنت كلما التقيت به سردت عليه بيتاً من قصيدة كان قد ألقاها علينا في مجلس مع الحَكم:

فلو أن ما أبقيت مني مُعلق
بعود ثُمام ما تأوّد عودها..

فيطربه ذلك وينبري يسرد القصيدة كلها، ممّا أذكر منها:

أيا عمروُ كم من مُهرةٍ عربيةٍ
من الناس قد بُليَت بوغدٍ يقودها
يسوسُ وما يدري لها من سياسة
يريد بها أشياءَ ليست تريدها

كان يروق لباشكوال أن يستمع إلى زيري يقرأ له مقتطفات من **أمالي** القالي. كان باشكوال يجد لذة في الاستماع إلى تلك الأحاديث والنوادر. سأله زيري ما الفائدة من قراءة أسفار تحدّث عن عوالم غريبة، لا عمّا يجري في الأندلس. أطرقَ باشكوال لحظة ثم نطق:

- صدقت. ولكن المرء لا ينفصل بيسر عمّا دأب عليه... لازمني هذا الأدب في شبابي وكهولتي، وحينما أدركت حقيقتي لم أستطع أن أتخلّصَ منه. المرجِعية التي أأتمُّ بها هي التراث الإغريقي اللاتيني. هو تراث يحدّث الطبيعة الإنسانية والعقل والضمير... يمكن للغة العربية أن تحمل هنا في الأندلس وبلاد المغرب روح اليونان.

كانا يقبعان، قبيل مغيب الشمس، خارج البيت بالحديقة على أريكتَين يتجاذبان أطراف الحديث... دأبَ زيري أن يرافق باشكوال في أشغال المزرعة.. فإذا أصابهما الملل ركبا فرسَين وجالا في أرجاء الحقول نحو قرمونة، أو حلا بالسوق للتبضُّع.

كان باشكوال يجدُ نفسه في زيري. مثلما أن زيري كان يجدُ الحضن والموئل في باشكوال. أضحوا جميعاً، باشكوال وزيري وراحيل ومرية، أسرة واحدة متلاحمة، يجمعها التقدير والمحبة.

8

بدأت علامات الحمل تظهر على راحيل. كانت تمشي بعسر، ولكنها رغم ذلك كانت تشعر بالحبور لما كان يشملها زيري من الحنان والعطف.

كان فصل الخريف قد ولّى وأزف موسم جني الزيتون. كانت إرهاصات الموسم تبدو جيدة، وكان باشكوال يتهيّأ لموسم الجني...

قصد باشكوال السوق رفقة زيري على حمارَين. كان باشكوال يلبس لباس البلديين، أما زيري فقد تنكّر في زي يهودي. لم يكن اليهود يتميّزون في اللباس بشيء عن المسلمين سوى القلنسوة. تقلّب زيري وباشكوال ما بين رُحَب الخضار والحبوب والقطاني والمواشي... وكان أكثر ما يروق لباشكوال هو تجاذُب أطراف الحديث مع المزارعين والبلديين ممن يحلّون بالسوق، من أستجة وقرمونة بل من قرطبة وإشبيلية، وكان يسعفه في ذلك معرفته للسان الروماني فضلاً عن العربية، ينتقل بين هذه وتلك في يسر حسب محدّثيه. انتقل بعدها إلى الحدادين رفقة زيري لشحذ السكاكين ثم بعده إلى الإسكافي عمران لتعهّد أدوات الحرث وبعض المناجيل. حتى إذا بلغت ساعة الظهر راغا إلى مكان صاحب مطعم يدعى شبريقو. كان شبريقو من المولَّدين، حافظَ على اسمه القديم ولم يتخذ اسماً عربياً

كما جرت العادة بالنسبة إليهم. وكان يقصد مطعمه المسلمون والنصارى على السواء، فضلاً عن اليهود، لأن خادمه شلمو كان يهودياً، ويقدّم الطعام كوشير لمن يبتغي من اليهود. وكان أغلب ما يروق الزبائن اللحم المقدد أو المركس، وهو لحم مفروم في الأمعاء، وكذا العصائب، أو الخضار المخللة، والزيتون المخلّل، أو اللحم المشوي في مواقد قرب المحل.

قصد باشكوال شبريقو وزيري على أثَره. سلّم باشكوال على صاحب المطعم بحرارة لشخصَين يبدو أنهما يتعارفان. أمر صاحب المطعم خادماً بأن يهيّئ طاولة، ثم بادره:

- أطلت الغيبة يا باشكوال؟

- الحر أقعدني يا شبريقو. ولا أجرؤ أن أترك مرية لوحدها.

- أين تريد أن تكون، بالداخل أو خارج المكان؟ سألَ صاحب المطعم.

- بالخارج، الجوّ طلق، ردَّ باشكوال.

- قد تريد أن تشرب في منأى عن أعين الناس.

- لدي شغل. لا أرغب في الشراب، ولا أشرب نهاراً.

- لدي نبيذ من التين. لن يؤذيك في شيء. على العكس، سيبثُّ فيك الحيوية. هيا، على حسابي، باشكوال.

لم يبدر اعتراض من باشكوال. صاح شبريقو إثرها في أثر الخادم:

- شلمو، ائت بالزق الخاص، ثلاثة أقداح. أنا كذلك سأشرب معكما. لم تقدّم لي الضيف.

- هارون من العدوة. قال باشكوال في اقتضاب.

- لدي طعام كوشير إن أراد.

- سيان بالنسبة إليه، قاطع باشكوال. هارون متحرّر.

- مرحباً بك قال صاحب المطعم. ثم أردف: تلطف الجو. لم تعرف أستجة صيفاً قائظاً كهذا الذي مرَّ.

- هكذا دوماً نقول. جُبلنا على أن ننسى. قال باشكوال.

أردف شبريقو:

- كيف هو السوق؟ أنا بجانبه ولا أعرف ما يدور بداخله.

- يبدو الناس مبتهجين. الضرائب خفّت، والأسعار معقولة، والمحتسب في أستجة لا يثقل كاهل الناس. هذا الذي سمعت من البائعين.

- منذ إزاحة ابن جعفر من شرطة المدينة وتولي ابن عم ابن عامر عليها تحسّنتِ الأمور بقرطبة وخارج قرطبة.

- وهل أثّر ذلك على أستجة؟

- أي نعم. جعفر وأهله جعلوا الأندلس خراجاً لهم، وأثقلوا على الناس بالإتاوات.

- ومع ذلك جعفر هو من حمى بيضة الإسلام، وصان الخلافة، قال باشكوال بنبرة متهكّمة.

ردَّ شبريقو:

- أتهزأ مني يا باشكوال؟ أنت أعرف مني بجعفر وعلاقته بالإسلام.

- أعرفُ جعفراً الإنسان، وليس جعفراً الصورة، أو كما يتصوّره الناس. ثم إن السلطان يغيّر الإنسان.

في هذه الأثناء أتى النادل بزق من خزف، مع ثلاثة أقداح. صرف شبريقو النادل. أفرغ من الزق، وقدّم القدحين لباشكوال وزيري، ثم تناول القدح الثالث:

- هذا شراب من تين. لا.. ليس ممّا يصنعه اليهود.. هو أمر توارثناه في الأسرة.

- ولم تقطعوا هذه السُّنّة الحميدة بعد إذ أسلمتم، قال باشكوال مستهزئاً.

ردَّ شبريقو هازئاً:

- منكم نلتمس القدوة. وجدناكم تشربون الخمر فهيّأناها لكم.

- أنت تعرف أني لست قدوة حسنة، ردَّ باشكوال.. على أي، شرابك جيّد.

- صاحبك لا ينطق. قال شبريقو. هل يتستّر على شيء؟ قل له لن أهدده في شيء. ليس لدينا نحن المولدين سلطان كي نصيبه بسوء.

- يتوجّس منك، ردَّ باشكوال.

- قل له فلْيطمئن. لن يخشى أمراً معي.

تدخّل زيري:

- نحن البربر متحفّظون. هذا ما في الأمر.

- هل أنت بربري أم يهودي؟ إما بربري، وإما يهودي.

- يمكن أن أكون الاثنين.

- محال. تجربتي أكّدت استحالة الأمر.

- دعه وشأنه، صاحَ باشكوال. تتحدث معه كما لو أنك من أصحاب الشرطة. قل لي ما عندك للأكل؟

- أي شيء تريد؟ حساء بارد؟ ساخن؟ لحم قديد؟ لحم غَرِيض؟ ضأن؟ بقر؟ مشوي أم مقلي؟

- أثق فيك وفي ذوقك. هيّئ لنا تشكيلة من الخضار المخللة، واللحم المشوي..

- وصاحبك؟

- قلت لك صاحبي يهودي سيّئ، لا يأتمر بالموانع.

- باشكوال، أنت تخفي عني شيئاً.

- وهل أنت ممّا يخفى عليه شيء؟

اكتفى زيري بالابتسام.

- ما استجدَّ في الأمر يا شبريقو؟ سأل باشكوال.

- الجديد ما تعرفه، دارت الدائرة على صاحبك جعفر. مذ عاد ابن عامر من الصائفة وتعيين ابن عامر وزيراً. إنها بداية النهاية. لابن عامر أكثر من سهم في كنانته. لديه صبح وغالب، ثم أصبح المسلمون ينظرون إليه نظرة المنقذ لبيضة الإسلام بعد أن دوّخ المماليك المسيحية وهزمها وعاد منها بالغنائم والأسرى.

ثم أنشدَ:

اقترب الوعيد وحان الهلاك — وكل ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب في مكتب — أمه حبلى وقاض يُناك

وعقب:

- هذا ما ما يتداوله الناس في قرطبة والأرباض.

إثرها انفجر شبريقو ضاحكاً. اكتفى زيري بالابتسام. سأل باشكوال شبريقو:

- وهل تحسب أن جعفراً سيتوارى بسرعة؟

- تتغافل يا باشكوال. السلطان كالريح، إن واتتك فلا تحتاج جهداً، وإن عاكستك فلن يتأتّى لك شيء مهما تفعل. أدبرت ريح جعفر.

- لن يستسلم صاحب حظوة مهدّد بسهولة.

- جعفر يخادع نفسه. يتصرّف كغلام غرير... بلا رؤية. انتهى جعفر. خذ قدحاً ثانية...

- أنت حريص أن تسكرنا يا شبريقو. . .

- وما العيب؟ وهل تستقيم الأندلس من دون خمر؟ ومن دون شعر؟ ومن دون فلسفة؟

- لكننا نعيش تحت راية الإسلام الذي يُحرّم الخمر، ويرى في الشّعر غواية، ويستنكف من الفلسفة.

- سكبنا الإسلام في قوالبنا. اعتنقنا الإسلام، ونشرب الخمر ونتعاطى الشّعر والفلسفة، ونحب ونعشق.

- الفقهاء لا يعتبرون ذلك إسلاماً، ويرونه مروقاً.

- الفقهاء يأتمرون بما يأمره أهل السياسة. الفقهاء أصحاب هوى.

- قل لي هل أنت صاحب مطعم أم حلقة فلسفة؟ هذا ليس حديث صاحب مطعم.

- هذا ما ينتهي إليه المولدون. . . مطعم وتجارة صغيرة. وأحياناً فقهاء إن كانوا أشد تزمّتاً من العرب كابن القوطية. نحن غرباء في أرضنا. وكان ينبغي أن تساعدونا أنتم أهل الرأي كي نتحرّر. لكن فضّلتم أن تخدموا السادة من العرب. ثرنا وهُزمنا، وكانت آخر ثورة مع ابن حفصون.

في هذه الأثناء أحضرَ شلومو المقبّلات والخبز وقدح ماء. أخذ باشكوال وزيري في الأكل، دون أن يرافقهم شبريقو:

- ما لك ترفع يدك عن الطعام؟ أدسست لنا شيئاً فيه؟ قال باشكوال ممازحاً.

- لا آكل إلا بعد أن ينفضّ الزبائن مع العصر وأفرغ من الشغل. اشتقت الحديث إليك وقد طالت غيبتك. قلبي يحدّثني أننا مقبلون على تحولات عميقة. وأنت عوض أن تعينني على الفهم، تهزأ مني.

- وكيف أعينك على أمر لا ألمُّ به وأنت أعلم بما يجري. . .
- أنت أعلم بالسدى. قلبي لا يرتاح لابن عامر.
- رغم ما أبدى من حسن التدبير والتخفيف من الإتاوات وإشاعة الأمن؟
- النصل الذي نُحز به واحد، ما تغيّر سوى المقبض.
- تتحدّث كالبربر.
- البربر خذلونا. لا يمكن أن نعوّل عليهم.
عقب زيري مستهزئاً:
- صدقت.
- البربر لا يعرفون ما يريدون. وقلبوهم شتى. قال باشكوال.
- الظروف جعلتهم لا يعرفون ما يريدون، عقّب زيري.
- ماذا؟ سأل شبريقو. أقسم بربِّ الكعبة، أو بمريم البتول أنكما تخفيان عني شيئاً. لن أترككما تنفلتان مني حتى تجهرا بالحقيقة.
ابتسم باشكوال:
- وتؤمّننا؟
- وهل عرفت مني خيانة؟
- صاحبي متنكر في صفة يهودي. اسمه زيري. . . وهو من بربر العدوة. أوصيك به خيراً.
حينها قال شبريقو:
- الآن أزحتما هوساً من صدري. . . ثم صاح في اتجاه النادل:
- شلمو ائت بتتمّة الأكل.
أكل باشكوال وزيري بشهية. رفض شبريقو أن يتقاضى أجراً. . .
همّ باشكوال بالنهوض فاستبقاه شبريقو:
- ما لك تستعجل؟

- أريد أن أقف على حلقات الفرجة.

- وما تفيد تلك الحلقات؟

- جزء من الحياة، وتعبير عن الأندلس.

نهض باشكوال في تثاقل... ثم استدرك:

- لو هيّأت لي لحماً كوشير.

- ألم تقل لي إن صاحبك ليس يهودياً؟

- بلى، ولكن زوجته يهودية... لا تلحف كثيراً في السؤال يا شبريقو..

ثم غادرا. قصد باشكوال رفقة زيري حلقة قرّاد. وقفا عندها للحظة، ثم تحولا إلى حلقة حاكي. كان يضرب الطنبور كي يستدر اهتمام المتفرجين.

نقر على الطنبور، عدة مرات، ثم صاح:

- هل أتاكم حديث الديك؟

ردَّ الجمع:

- لا.

قال الرواي:

- لم أسمع.

ردّدوا:

- لم نسمع حديثه.

- مرة أخرى؟

- لا نعرف قصة الديك

- هل تريدون أن تسمعوا قصته؟

- بلى...

- أعيدوا.

- بلى.

- عليكم بالناض...

ثم استدار صاحب له يجمع النقود... حتى إذا اجتمعت حصة لا بأس بها، أخذَ في الحكي، والناس وجوم:

«رمتنا الأقدار، وقد نفرنا من عشرة الأشرار، بدارة بدوي، ذي هيئة وزي. فهش بنا وبش، وكنس منزله ورش، وصير عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف. ثم مال بنا إلى بيت مُكنس، مُنوَّع مُجنس، قد جلّله حصُراً بلدية، وغشاه بُسُطاً بدوية، وما شئت من خرق معصفرة، وعصائب مزعفرة، وقد اتخذ في الحائط كوة ثانية، وملأها حقافاً وآنية، وأودعها من عتاد العروس فاخرُه، ومن طيب البادية أولُّه وآخره.. فقلت يا صاحب المنزل: هنئت وهُنيت، ولقد أوتيت وأوتيت، من أين للبداوة بهذا الرونق والطلاء، وكيف حتى أغرْت على حانوت العطار؟ لقد قرّت بك الأعين، وسرّت الأنفس، هذا زي العروس فأين العرس؟ فضحك البدوي ملء فيه وتوسّمت الازدراء فيه، وأنشد:

يا أخي نحن على أنّـ ـا نَتاجٌ بدويٌّ

عندنا إن جاء ضيف شِبَع جَمٌّ وريٌّ

وسرير حشوه ريـ ـش الفراريج وطيٌّ

وكرامات كثيرا ت وهيئات وزي»

توقف السارد، وسأل:

- أفلا نُقري نحن آل أندلس الضيف؟

ردَّ الجمع:

- بلى.

- ألسنا أصحاب كرم وهيئات وزي؟

ردّوا بصوت جماعي:

- بلى.

- هل تريدون أن تعرفوا تتمّة القصة؟

ردّوا جماعة:

- أي واللّه.

- فابسطوا أياديكم بما آتاكم اللّه.

وتقدم خادمه يجمع النقود. ثم استأنف الحاكي السرد:

«قام البدوي من مكانه، ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك هرم ليذبحه في طاعة الكرم، فأقبلوا على الديك متهافتين، وهو يضطرب اضطراب المخنوق ويستغيث بالخالق والمخلوق، واتفق لفرط حنقه، ومؤلم تقلقه، أن عضَّ على أيديهم عضة، وانتفض منهم نفضة، ثم صفق بجناح ثَنِيين، وصرخ صرختين، واقترب به المؤذّنون وتجمهر المؤذَنون، حتى إذ قضيت الصلاة استصرخهم فأصرخوه وتواثبت إليه السادة والوجوه..».

ثم قاطع الحاكي حكيه، وسأل جمهرة الحلقة:

- أتدرون ما قال لهم الديك؟

فردّوا أن لا..

فقال الحاكي:

- اسمعوا مقالته فإن فيها لعبرة. قال الديك:

«أيها السادة، فيكم الشاب مُتّع بالشباب، والأشيب نور شيبه مع الكواعب والأتراب، وقد صحبتكم مدة، وسبّحت اللّه تعالى على رؤوسكم مراراً عدة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفاداً، وربيت لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بلي في خدمتكم تاجي، أُنعَى إلى دجاجي، وتُنحى الشفرة على أوداجي. يا للكرام من ذل هذا المقام.

ثم جُعلت دموعه تُسفح من دمه، والحزن يطبق على فمه، ثم غُشي عليه، فاجتمع أهل البداوة من كل ناحية إليه يضربون وجهه بالماء، ويخلصون له في الدعاء. ثم أفاق الديك من غشيته وأنشد:

علام يُقتل شيخ من كل ذنب بريُّ؟
مُحقق، مُتحرٌ موحّد سُنّيُّ
هل نصَّ هذا كتابٌ أو قال هذا نبيُّ؟
لا ذنبَ لي غير أني مؤذِّن بدويُّ».

فصاحت الحلقة جُماعاً:

- واللّه إن الديك لأنصفكم.

ثم قال قائل:

- لا تُحلُّ النفس التي حرّم اللّه قتلها.

- ومتى كان اختلاف الرأي موجباً للقتل...

- دعونا نسمع تتمّة القصة.

فانبرى الحاكي وقد راقه أن قصته أعجبت الحضور:

«فرقّت للديك أنفسُ القوم، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم، فقال ويحكم، إن لي في ذبح هذا الديك سرّاً، ولا بدَّ أن يُزيّن لحمه قِدْراً، وتُضرم تحته النيران، ويشبع من لحمه الضيفان. ثم تمثل قول القائل:

ومن شيمتي مهما تزيَّن منزلي
بضيف أن أقريَه بأحسن ما عندي
لو أن دمي خمرٌ لرويته به
ولو صلحت كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني أبي مذ عقلته
وقد كان أوصاه بذا قبله جدّي».

وتوزّعت الحلقة فريقَين. فريق ينافح عن الديك، ويدعو للإبقاء

عليه، وفريق يدعو إلى قرى الضيف. علت الهمهمة والصخب.. حتى اضطر صاحب الحلقة أن يضع حدّاً لها بالقول:

- دعوا الديك يتكلم فهو أعلم بشأنه.

فردَّ أصحاب الحلقة:

- صدقت.

ثم استرسل صاحب الحلقة:

- قال الديك نفعنا اللّه بعلمه: «الحق طريق مستبين، واتّباعه مروءة ودين، أما صاحبي فهو على خلق عظيم، كريم ابن كريم، غير أنه أخطأ في أمري وأفرط، وغلط ما شاء أن يغلط. أما علم أن هرمات الديوك، ليست من مطاعم الملوك. وأقسم لو اتخذ صاحبي برمة من فؤاد مهجور ووضعني من مثله على تنور، لا قضى به حاجة، وما نال مني إلا نيوءاً وفجاجة....

هذا قول الديك. وبه جرى اللسان، لمن أراد أن يعتبر من بني الإنسان، إذ الحكمة مُنقذة، والبلادة مَهلكة، نفعني وإياكم بحسن الخاتمة»[1]...

فصفّقَ الجمع للحاكي.

إثرها سار باشكوال وزيري نحو مربط الدابتين وهما يحملان بعضاً من الأواني التي استصلحها باشكوال والسكاكين التي شحذها وبعض العَروض من التوابل واللحم كوشير لراحيل.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ج 1، ص 516 بتصرف.

9

امتزجت زخّات المطر في الساعات الأولى للصبح مع صوت غريب يتردد من خارج البيت. كانت أشعّة الصباح قد أخذت تنفذ من خلال ثقوب النافذة وزيري وراحيل في الفراش. اختلط الصوت والمطر والوسن في ذهن زيري. خيل له أنه يحلم. مدَّ ذراعه اليسرى يبحث عن راحيل. صدّته:

- دعني أنام، ابتعد عني ستؤذي الجنين.

أيقظه ردّ فعلها وتبيّن الصوتَ الغريب الممتزج مع زخات المطر الآتي من الخارج. كان الصوت يترنم بالأمازيغية. استغرب للأمر. أصاخَ السمع لصوت نسائي كما لو هو يتبتل باللسان الأمازيغي:

باسمك اللّهُمّ ربي أبدأ
من بك لا يستهلّ القول؟
كيف يستقيم له الرأي
ويحلو الكلام؟
من لم يقصدك، أي باب ينفتح له؟
أي سكن يأوي إليه؟
أي حمى يستند إليه؟
بك أبدأ

ولو في الفؤاد جراح،
لأهل ثكلت
وبلاد برحت
إليك ربي لجأت
وبابك قصدت.

أرخى زيري السمع للصوت الشجي وللكلمات. امَّحى فاصل اللغة. كان على وقع اللغة، بادئ الأمر، وتحول إلى مدلولها. أصاخ إلى مدلول الترجيع:

وقد فررت
مِن أقوام بطروا
وبالعهد حنثوا.
إليك أشكو
ومن لسواك أشتكي؟
وبك أستجير
وبمن سواك أستجير؟
ومَن جارٌ يأويني
سواك؟
ربي
إن يشملني فضلك ربي فلا أبالي
بك أبدأ ربي..

انسلَّ من الفراش. انتعلَ خف البلغة. كان النور أخذ ينفذ إلى البيت. قصد الباب. فتحه ووجد امرأة زنجية في الخمسينات من عمرها، محتبية على الأرض وقد تبلّلت بالمطر، حافية القدمَين، وهي

تُرجّع لحنها الشجي. ألفى نفسه في حالة ذهول، يردِّد معها باللسان الأمازيغي:

إليك أشكو
ومن سواك أشتكي؟
وبك أستجير،
وبمن سواك أستجير؟

ما لبث أن عنّ باشكوال يحمل دثاراً. لفّه على المرأة، ثم احتضنها بذراعه وصحبها إلى داخل البيت. أنزلها متكأ بالمجلس. كانت ترتجف من أثر برد الصباح. استسلمت لباشكوال حين احتضنها. كان قد سمع صوتها وخرج إليها ورأى ما يعتري الجو من برد. عادَ إلى داخل البيت يبحث عمّا يدثّرها به، حينها خرج زيري إليها. أخذها باشكوال إلى المجلس مطوقاً إياها بذراعه، ثم نادى على مرية. كلّمها وفهم زيري من أنه طلب منها ماء دافئاً وحساء. استسلمت المرأة ثم أرخت رأسها وأغمضت عينَيها. كما لو أنها فقدت الوعي ولم يعد يصدر منها إلا تأوّهات في صوت خفيت.

أتَت مرية بإناء به ماء دافئ وأخذت تغسل قدميها. كانتا مخضّبتَين بالدم. كلما دلكتهما مرية كلما ندَّ عن الزنجية تأوّه ألم.. لما أنهت مرية دلكهما، لفّت القدمَين بخرقة. أرخت الزنجية رأسها بعدها واستسلمت للنوم.

وقفت عليهم راحيل وقد أيقظتها الحركة. سألَت عمّا يجري. ردَّ زيري:

- امرأة حلت هنا تشكو.

عقّب باشكوال:

- لم أفهم قولها. كانت تترنّم بالأمازيغية.

- تتوسل إلى اللّه، وتشكو له، عقب زيري، ثم أضاف: يبدو أن لا أهل لها.

- ينبغي لفها بغطاء، قالت راحيل.

ردَّ باشكوال:

- ارتجاف جسدها مردّه المَخْمَصة أكثر من البرد.

- لا ينبغي أن تأكل كثيراً في هذه الحالة. عقبت راحيل. تنال بعض الحساء ثم تنام.

- Miel، قالت مرية.

ذهبت مرية إلى المطبخ وأتت بحُق عسل مع مغرفة صغيرة من الخشب. غمستها في القدح ومدّتها لفم الزنجية. كانت مستغرقة في النوم. منطقت لسانها كصبي يرضع من ثدي أمه، ثم ابتلعتها في تثاقل. كانت غائبة الوعي.

- الرأي أن تُترك نائمة. قالت راحيل.

ثم وضعت يدها على جبينها.

- بها الحمّى. دعوني وإياها، قالت راحيل. يمكنكم تناول الفطور، سأتكفل بها.

وطّأت لها راحيل اللحاف، وأسندت لها الوِساد، ثم أسبلت عليها الغطاء. غمست خرقة في الماء بللتها ووضعتها على جبينها. كانت المرأة تهذي وتمزج اللسان الأمازيغي بالعربية. أيقنت راحيل أنها تعرف العربية. أمسكت يدها. ضغطت عليها. كانت يداً رخْصة[1]، لا أثر فيها لمجانة[2]، خلا قدميها الداميتَين. غارت السيدة

---

(1) بمعنى لينة.

(2) وهي غلظة الأطراف.

الزنجية في نوم عميق وقد خفتَ هذيانها، وخفَّ نشيجها. لم تلبث راحيل نفسها أن أخذتها سَنة من نوم. فاجأتها مرية وقد أتت بقدحين من حساء السميد مع العسل.

- خذي راحيل من حساء السميد مع العسل هذا. سيمنحك المدد. تحتاجين القوة من أجل الجنين. وهذا للسيدة.

- لا أقوى على إيقاظها، ردّت راحيل.

- حاولي أن توقظيها كي تشرب الحساء ما دام دافئاً، وتعود بعدها للنوم.

- أين زيري؟ سألت راحيل.

- مع باشكوال في جناح مكتبته. لا يريدان الإزعاج. المرأة قد تحتاج إلى قضاء حاجتها.

تناولت راحيل الحساء. بعث فيها الحيوية. راودتها نفسها أن توقظ السيدة.

- لالّة. قالت كناية على سيدتي بالأمازيغية، ممّا تعلمته من زيري. لالّة... عاودت الأمر في صوت خفيت.

وندَّ عن السيدة تأوّه، دون أن تفتح عينيها. حركتها راحيل في رفق. برغمَت المرأة كلاماً غير مفهوم.. حملت راحيل القدح إلى فمها كما يُحمل الثدي إلى رضيع. فتحت السيدة فمها في عسر. ارتغت منه بلا شهية. تركت راحيل القدح على شفتيها. بقيت كذلك حتى أتت على النصف، ثم أدارت رأسها في عزوف واستغرقت في النوم.

من تكون هذه المرأة؟ استرعت راحيل المفارقة ما بين قدميها الداميتَين ويديها الرخْصتَين. لم يكن لباسها لباس البلديين، بل لباساً أنيقاً ولو حاق به البِلى. قدّرت راحيل أن تكون أَمَة فرّت من سيدها. ما الذي أتى بها لبيت باشكوال؟ الصدفة؟ مستبعَد، لأن البيت يقع خارج المدينة وسط ضيعة، ممّا يدلّ أن السيدة أتت قاصدة بيت

باشكوال، ولعلّها أن تكون أتت من مكان بعيد، كما تدل عليه قدماها الحافيتان. ولمَ الصباح؟. . . هل باتت خارج البيت حتى الصباح؟

شعرت راحيل ببرد الراحة قرب السيدة. رفعت جانباً من الغطاء ووضعته على رجليها. أصبحا كلتاهما تحت الرداء ذاته. رفعت راحيل يدها اليسرى ووضعتها على جبين السيدة الزنجية، واليمنى على بطنها، تستشعر حركة الجنين في بطنها. شعرت بالدفء يسري فيها. لم تبرح مكانها بقربها، متقلّبة ما بين اليقظة والوسن. ورأت فيما يرى النائم أمها التي كانت قد قضت قبل سنين.

10

بعد أسبوع تحسّنت الحالة الصحية للزنجية بفضل عناية راحيل بها. لم تدَعها لحالها. تُناولها الطعام، وترافقها كي تقضي حاجتها. لا تفارقها إلّا ليلاً. هيَّأت مرية للزنجية بعض الأطعمة التي تبعث القوة والحيوية، مع بعض الأعشاب... كانت الزنجية تشكو التعب ومخلفات نزلة برد. لمّا تحسنت حالتها ساعدتها راحيل في الاغتسال بحمّام بالبيت... غسّلتها ودلكتها ما نزع منها الأدران، وأذهب عنها الوهن. اقترضت من راحيل رداءها كي تصلي. كان أول شيء قامت به الزنجية، بعد إذ اغتسلت أن أدت فريضة الصلاة.

كان باشكوال قد أهاب بالمرأتين ألّا تسألا الزنجية شيئاً من أمرها إلا إن هي أرادت أن تُسفر عنه، نزولاً عند عوائد البربر الذين لا يسألون من ينزل ضيفاً بساحتهم. وكان الشيء الوحيد الذي أسرّت به مرية إلى الزنجية، ممّا نقلته لها راحيل، أنها تستطيع أن تقيم بالبيت إلى ما شاءت.

كانت المرأة الزنجية مثلما قدّرت راحيل أَمَة فرّت من مولاها. ولم تكن لتفر وتركب المغامرة لو لم تكن تتعرض لسوء المعاملة. كانت تحسن العربية ولو هي تنطقها بلكنة بربر الصحراء، وتفهم

الرومانية وتعبِّر بها. كانت راحيل تسألها بعض الأسئلة ممّا قد تحتاج إليه، فتردُّ بالعربية. علمت أنها أتت من الزهراء، وأنها كانت أَمَة بها، وأن اسمها مباركة. ولم يكن سيدها سوى الخليفة الحَكم، ثم عُهد بها إلى هشام، قبل أن يتولى الأمر، وبقيت معه حين استُخلف. لم تكن مباركة خادماً للخليفة هشام، ولا وصيفة، ولكن بضاعة يلهو بها. وقرّ عزمها أن تفر، وفاتحت خصياً من خصيان الزهراء عن عزمها. أثناها أول الأمر، لأن لا أحد سيستقبلها وسينكشف أمرها ويُقتص منها. ألحفت في الطلب. حينها أشار عليها بشخص يدعى باشكوال عرفه لما كان في خدمة الحكم، لأنه الشخص الذي يمكن أن تستجير به، والوحيد الذي يمكنه أن يتحدّى قواعد بيت الخلافة، دون أن يجرُؤ عليه أحد لأنه يحظى بنوع من التوقير. لن يستطيع أن يناله أحد بسوء، ولن تستطيع يد أن تمتد إليها عنده.

كانت مباركة تقيم الصلاة في وقتها. تستيقظ مع الفجر، وبعد إذ تصلي تتبتّل وتتهجّد. كانت أولَ شخص يستيقظ في البيت، تتوضّأ ثم تنبري في ترتيل شجي مشفوع بلازمة «أصبح ولله الحمد»، ثم تتلوها مرية التي كانت هي كذلك تتبتّل بلغتها الرومانية، وتردِّد صلاة «أبانا الذي في السماء». . . وكانت راحيل رغم الحمل حريصة على صلاة الصباح كما المساء تؤدّيها بالعبرية وترداد الشهادة «اشمع إسرائيل، أدوناي أخذ». كان طريفاً أن تؤدّي هؤلاء النسوة صلواتهنّ كل واحدة في دينها، مباركة وفق طقوس الإسلام، ومرية وفق المسيحية، وراحيل حسب ما تدعو إليه اليهودية، لا يمنعهنّ ذلك وقد أدّين فريضتهنّ في العيش المشترك والتوادد والتعاون. كانت مرية تفيض بالمحبّة المسيحية. وكانت راحيل مفعمة بتعاليم اليهودية، حريصة على طقوسها وأخلاقها، أما مباركة فكانت ملتزمة بتعاليم الإسلام، تصلّي الصلاة في أوقاتها، وتقوم الليل، ومتشبّعة بسمت الإسلام.

منذ أول وهلة ارتبطت مباركة بعطف خاص حيال راحيل. كانت مباركة حينما تصحو، مذ حلت، تجد راحيل بقربها، وكانت راحيل من يسألها بغيتها، ويتعهّد أمرها. كانت مباركة تشعر بقرب راحيل منها، وكأنما روحيهما قد امتزجتا. تحولت تلك العناية من قِبل راحيل إلى حبّ من لدن مباركة. وكانت راحيل، من جانبها، تَدين بالاحترام لمباركة. عرفت بعضاً من قصتها ممّا استقته منها. كانت قد فرّت من أستجة حينما التمست من القهرمانة الذهاب لقرطبة لزيارة الجامع والترحُّم على قبور الموتى في جبّانة قرطبة. أذنت لها القهرمانة، ومذ خرجت مباركة من الزهراء، مشت راجلة في الطريق المؤدية إلى إشبيلية. بعد مرحلة من السير وجدت نزلاً. غشيته. طلبت غرفة تأوي إليها. ازدراها الشخص القيّم على النزل. أكدت أنها ستؤدي. طلب منها أن تؤدي أولاً. اقتضى منها ثمناً مرتفعاً. أعطته إياه. لمّا دفعت ما عليها، قال لها إن ليس هناك غرفة سوى مكان قرب حظيرة الحيوانات بلا باب، هو مكان العَسَس في حقيقة الأمر. قالت له إنها تريد بعض الأكل. طلب منها أن تؤدي. أدت. أعطاها خبزاً جافاً وجبناً صلباً. قضمت منه. كان المكان خمارة، وخشيت أن يعتدي عليها أحد. لم تنم، أو نامت نوماً مضطرباً قرب الدواب على فراش هو أشبه ما يكون بكيس كبير. استأنفت السير لثاني يوم، وتوقفت تحت شجر حور غير بعيد عن النهر. اكتفت بما غلّته من بعض البساتين، من عنب ورمان، وبقية كسرة الخبز والجبن، ممّا أودعته في جرابها من طعام النزل. استأنفت السير حتى أستجة. بلغتها مع العصر. قصدت جامعها. توضّأت ولفّت رداء على رأسها ثم صلت الصلوات ممّا لم يتهيّأ لها أن تصليه. استرخت لتنام في زاوية من المسجد، ولكنها لم تستطع النوم. لم يسألها أحد حاجتها. خرجت إلى المدينة، وسألت بعض من تلتقي بهم بيت شخص يدعى باشكوال. لم يعينوها في شيء. كان أغلبهم

يُعرضون عنها. لونها من دون شكّ. وضعها المشبوه؟ أَمَة قد فرّت؟ وقفت على صاحب مطعم، وسألته عن باشكوال. تفحّصها. سألها إن كانت تعرفه. ردّت بالنفي، ثم عقبت بأن أشير به عليها، لأنه رجل فاضل. كان شبريقو. أشار لها على بيت باشكوال وسط مزرعة في الطريق إلى قرمونة. ثم دسَّ لها بعض الطعام ممّا يفضل في المطعم. نالَت منه. أرادت أن تؤدّي فامتنع. عادت إلى المسجد. استلقت به. صلت المغرب فالعشاء، واسترخت لبعض الوقت. وضعت رأسها على يديها. نامت نوماً مضطرباً. صلت الفجر مع الجماعة، وكانت المرأة الوحيدة، ثم استأنفت السير. كان خُفُّها قد تمزق، ولم تجد بدّاً من أن تلقي به. أضحى يعوقها عن المشي. أخذت تمشي حافية. أدماها الحصى والشوك. أنهكها المشي. ثم فجأة انفجرت مترنمة لحناً شجياً، ممّا كانت حفظته صغيرة لمّا كانت بالعدوة قبل أن تُختطف وتباع في سوق النخاسة بفاس، وتنقل بعدها إلى قرطبة ببيت الخليفة. بدأت تعاود اللحن، ثم أخذت تَنظم من قريحتها، بلسانها. ذهب عليها زمن لم تتحدث بلسانها، وحدث فجأة أن عاد لها لسانها كما الماء ينبجس من أعماق الأرض. حتى بلغت المزرعة. غشيتها حتى البيت. لم تجرؤ أن تطرق الباب كي لا توقظ أصحابه في الصباح الباكر، أو خشية أن يردّوها، أو ألا يكون هو البيت الذي تبحث عنه. كانت في حالة وجد. رغم النصَب والسَّغب. كان أول من فتح البيت باشكوال. تملاها، ثم غشي البيت يبحث لها عن دثار. خرج زيري بعدئذ. ذكرت فيما ذكرت أنه ردّدَ معها لحنها الشجي. تذكرُ حينما أحاطها باشكوال بذراعه، ثم لا شيء بعدها. أحسن أهل البيت مثواها. شعرت بدفء حُرمت منه، هو دفء الأُسرة. بل شعرت بشيء غريب لم تألفه، هو العناية التي تحاط بها، بصفتها إنساناً، من دون إغضاء أو تمييز. أيقنت أن الخصي كان محقاً في شهادته عن باشكوال.

راودت زيري الرغبة أن يسألها أمرها، ويحدّثها بلسانها. ولكنه أحجم. كان ما يعرف عنها ما استقاه من راحيل، أو ما حكته له ونقله إلى باشكوال.

لم يلحف الرجلان في شأن مباركة أو يسألانها شؤونها. بعد أن استرجعت عافيتها التمس منها باشكوال أن تأكل معهم في المائدة نفسها. امتنعت. ألحفَ باشكوال، ولكنها كانت مصرّة. لم تتخلّص من إصر الاستعباد بعدُ. أوحى زيري لراحيل أن تثنيها. كلمتها راحيل، ولكنها اعتذرت في رفق. أسرَّ باشكوال لمرية ألّا تقدّم الخمر أثناء الأكل احتراماً لمباركة. كانت تختلي كي تصلي. مرة بعد أن صلت المغرب توجّهت إلى زيري وحدّثته بالأمازيغية:

- هلاّ تلوت عليّ شيئاً من القرآن يا ابني، فلست أحفظه.

أبلس زيري. لم يعد يصلي، ولم يكن هناك ما ينضح بحفظه للقرآن، فكيف أدركت مباركة حفظه للقرآن؟ ذهبت عليه فترة لم يرتله، أو يقرأه.. تلا عليها ما تيسر من سورة البقرة. رأى أن لا مندوحة من أن يعيد قراءة القرآن. أخذ يقرأ منه طرفاً من النهار والليل. ودأب أن يتلو لمباركة منه بعد صلاة المغرب. كانت مبتهجة لسماع القرآن. كانت تغمض عينَيها في تخشّع ذاهلة عمّا يجري حولها.

حلول مباركة بثَّ في البيت الدفء. ارتبطت مباركة براحيل، يمشيان كلتاهما للاسترواح بعد العصر. واقترنت بزيري يقرأ لها القرآن بعد صلاة المغرب. وحتى مرية رغم أنها لم تكن تحسن العربية فقد كانت تبادل مباركة مشاعر الودّ، وكانتا تتحدثان فيما بينهما لأن مباركة كانت تلمُّ بعض الإلمام بالرومانية ممّا تعلمته بالزهراء...

كم للحياة من أسرار وألغاز؟ من هو الخصي الذي أشار به على مباركة؟ أجهد باشكوال ذاكرته كي يقف على هذا الشخص الذي دلَّ

مباركة عليه ولم تسعفه في شيء. ما الناس في نهاية المطاف إلا قِيَم وأفكار. الخصي شخص وقف على حقيقته ونقلها، وكان من ذلك إنقاذ مباركة. هو ذا المهم.

11

هلَّ موسم جني الزيتون، وبدأ الجوّ يميل إلى البرد. . كان باشكوال منشغلاً بترتيبات الموسم. استقدمَ بعض العمّال من أستجة كي يساعدوا في الجني. كان من يضربون بعصيهم الأغصان كي يسقط الحب، وآخرون كي يلتقطوه، ويجمعونه في كومات، ثم ينقل في زنابيل على الحمير والبغال إلى المعصرة. كان زيري من ينقل الزيتون بالدواب إلى المعصرة. أما مرية فقد كانت منصرفة لتهييئ الطعام للعمّال. وأبت مباركة إلا أن تشارك في الشغل فكانت من يحمل الطعام إلى العمّال. .

كانت أجواءً ممتعة. لم يسعف الحمل راحيل أن تشارك الجمع نشاطه. كانت تكتفي بالمشي حيث العمّال، وهي تضع على كتفيها دثاراً، تنظر إليهم وهم ينهالون على أغصان الزيتون بالعصي، أو هم يلتقطون الحب ويكوّمونه، فإذا كلّت من الوقوف عادت أدراجها للبيت واستلقت في الفراش. كانت مبتهجة في كنف باشكوال رفقة مرية ومباركة. كانت متعلقة بزوجها زيري، ومع ذلك كانت تخفي انقباضاً. حتّام يبقيان في ضيافة باشكوال؟ سيصبح لهما، عمّا قريب، ولد، فكيف سيعيشان بطفل في كنف مضيف؟ كلما فاتحت زيري في الأمر، تملّصَ وغيّرَ الموضوع. وهل يَبقيان عالة على باشكوال؟

وكيف سيكسبان عيشهما؟ من العسير أن تعود راحيل سيرتها الأولى في الغناء دون أن ينفضح أمرها ومن ثمة زوجها؟ ومن العسير أن تعود لقرطبة، لأنها إن فعلت عرّضت نفسها لغضب الطائفة اليهودية لأنها حملت سِفاحاً ومن مسلم وأتت بالعار على الطائفة؟ وهل الإقامة بأستجة حل؟ لم يبدُ من باشكوال تأفُّف أو نفور، ولكن من غير اللائق البقاء في ضيافته. ثم إن المدينة صغيرة لن تُقدّر مواهب راحيل ولا زيري. الرحيل إلى إشبيلية؟ وهل يأمنان حينها مخالب ابن عامر بها؟

ثم هناك قضية تؤرقها. طمرتها لفترة ولكنها تعاودها وتقضُّ مضجعها. بأي ملّة سيدين وليدها؟ لم تجرؤ أن تكلّم زيري في الأمر، لأن زيري يأبى الخوض في ذاك الموضوع. بمقتضى الشريعة اليهودية سيكون الوليد يهودياً، ولكن ماذا عن الأعراف الجارية؟ هل سيتنكّر لأبيه، وهل تُضرب هي صفحاً عن مرجعية أبيه؟ بأي اسم سيلقّب الوليد؟ الاسم هوية. وطقوس الولادة هوية.. طرح عليها زيري مرة خيار أن تعتنق الإسلام صورياً من أجل ترسيم علاقتهما والقيام بالطقوس الضرورية لاسم الوليد. كانت بادئ الأمر ترفض الأمر رفضاً باتاً، ولكنها أخذت تنظر إلى الأمور بنظرة مغايرة. من أجل الجنين الذي في بطنها، ومن أجل زوجها، وبالنظر إلى الوضع الذي يعيشانه. تعتنق الإسلام ظاهرياً، ثم لا شيء يمنع أن تحافظ على عقيدتها في قرارة نفسها وتمارس طقوسها فيما بعد. بيد أن هذا الخيار كان يبدو ممكناً نظرياً فقط، ذلك أنها ستصبح بالنسبة إلى الآخرين مسلمة، ويتعيّن عليها العيش وفق شريعة المسلمين، وإن بدا منها تراجع عُدّ الأمر ردّة، والردّة تستوجب القتل.

أحياناً تميل إلى ما يذهب إليه زيري من عدم الانشغال بالموضوع إلى أن تضع. ولكن ينبغي التفكير في هذه القضايا قبل الوضع.

الاسم؟ طقوس الولادة؟. . . هذه قضايا لا تُرتجل ولا تُؤجّل. تغبط أحياناً باشكوال الذي لم يكن يدين بدين. اعتنق أجداده الإسلام أسوة بكثير من المولدين، ودرج عليه، ولكنه في مجرى حياته انصرف عنه. كان يرى أن الدين قد يقوم عائقاً في العلاقات الاجتماعية، ويرى أن الاختلافات العقدية في الأندلس مضللة، وتحجب الأهم، الارتباط بأرض، والعيش المشترك، والثقافة الواحدة. . . ولذلك لا مندوحة من العقل في ربط العلاقات الاجتماعية بالأندلس لتجاوز التمايزات العقدية أو اللسانية. ما يبدو لعنة، وهو التمايزات، قد يكون نعمة، إن تمَّ احترام الآخر، وقامت العلاقات أو النظرة إلى العالم بناءً على العقل. الأندلس بهذا المنظور ليست الرقعة الجغرافية، ولكن كل إطار يحبل بتعدُّد ثقافي وعقدي ويجعل من ذلك الغنى عنصر تآلف حول قِيَم مشتركة، لا تنافراً بسبب معتقدات. الأندلس هي مفتاح الحل، كأُفُق، كتصوُّر، وليس كحقيقة. الحقيقة معقّدة.

أسرّ باشكوال لزيري مرة بأن التراث الذي يرتبط به هو التراث الإغريقي اللاتيني، وأنه انسلخ كلية عن مخلفات التراث العبراني، باستثناء المسيحية التي حملت تأثير التراث اليوناني، في فلسفة الرواقيين. وحتى نظرته للمسيحية فلسفية. فهو لا يتردد على الكنيسة، ولا يشاطر المسيحيين معتقدهم. وما الفرق بين مرية المتشبّثة بالطقوس، وباشكوال الذي لا يأتمر بالطقوس؟ النتيجة واحدة، وهي التقاؤهما حول المحبة. مرية محتاجة إلى الطقوس لتنفذ إلى فلسفة المسيحية، وباشكوال أسمى من الطقوس للنفاذ إلى روح المسيحية. يشبه زيري باشكوال في كونه تربّى في أحضان عقيدة الإسلام، ثم رسم مسافة معها، لكي يتمثل روحها. ومباركة، ما محدّدات هويتها؟ أيكون العمق الأفريقي حيث يمتزج المعتقد والشدو، مع توجُّه إنساني؟ لربما. هل تديُّن مباركة مردّه عيشها وسط منظومة آشرة؟ التديُّن في هذه الحالة

طوق نجاة. وهي، راحيل، هي لم تعد ذاتها. تجربتها في كنف باشكوال، ومع زوجته مرية، وفي أحضان زوجها زيري، غيّرت نظرتها للدين وللحياة. ثم انضافت مباركة. يمكن للأديان أن تلتقي حول قِيَم موحّدة، وإن اختلفت أساليب التعبير عنها... المحبّة، كرامة الإنسان، نزوع الإنسان نحو التسامي.. هذا الذي انتهت إليه راحيل بعد فترة من الحياة المشتركة مع مرية، ثم مع مباركة.

ولكن هل تستطيع راحيل أن تتنكّر لتراث اليهودية؟ هل يمكن أن تنسلخ عن قرون المعاناة والاضطهاد؟ ليست الطقوس إلا تعبيراً عن هوية الاضطهاد، ولربما ذلك ما جعلها قريبة من مباركة، ضحية الاستعباد.

تُرى لو طرأ طارئ أثناء الحمل. لو... لم تفكر في الأمر من قبل. ينبغي أن تحدّث زيري في الأمر... فاجأتها مباركة وهي تحمل إليها قدحاً من الزعتر مع العسل.

- تناولي منه يا ابنتي. سينعشك.

خرجت مباركة بعدها ثم ما لبثت أن عادت وهي تحمل إناء فيه الزيت:

- أنت في حاجة أن تدلّكي أطرافك.

- بورك فيك لالّة، رددت راحيل.

ثم أخذت مباركة تدلّك قدمي راحيل. كانتا منتفختين. شعرت راحيل بدبيب الراحة. كانت مباركة تبعث الطمأنينة، وتشيع السكينة فيها ولم تدرك مردّ ذلك.

12

كانت راحيل مستلقية على الفراش، بعد أن ذهب زيري إلى الحقل. كانت تشكو الأرق والقلق. كلما ازداد انتفاخ بطنها، كلما ازداد قلقها. لم تعد تخرج للحقل إلا لماماً. كان زيري منشغلاً مع العمّال في جني الزيتون وعصره. لم تجد راحيل الرفقة إلّا من مباركة. كانت تود أن تحدّثها بما يجيش به صدرها من هواجس، ولكنها لم تجرؤ. عدة حواجز تحول بينهما. فهي ليست صديقتها. وهي ليست من شريحة عمرها، ولم تمتد الرفقة بينهما إلا لأسابيع تنيف لشهر. الصديقة التي كان يمكن أن تنفتح لها هي إستير أو سلطانة، نجية السيدة الكبرى صبح. ولكن سلطانة منذ التحقت بخدمة السيدة الكبرى، أضحت مستعصية البلوغ. فرّقت بينهما صروف الحياة. نشأتا كلتاهما في الحي ذاته، وترددتا على الكنيس ذاته، وتعلمتا على يد نفس مؤدّب الغناء سعيد بن كامل أصولَ الطرب، وهو من كان أكثر المغنين تمثلاً لأوزان زرياب ونوباته، ولم يكن يبلغ شأوه في فن الغناء إلّا وضيح بن عبد الأعلى. كانت الفتيات يتعلمن عند سعيد بن كامل الغناء، ويحفظن الأشعار، من شعر الفطاحل عمر بن أبي ربيعة وجرير والأخطل وذي الرمة والطرماح وابن الرومي والبحتري وأبي تمام. كانت راحيل تحفظ من الشعر العربي، وتتقن

نوبات الغناء الأندلسية، أما سلطانة فلم تكن موهوبة في الغناء. كانت تتفوق على راحيل في حفظ الأسفار المقدسة، حينما كانتا تحلان بالكنيس وترتلان مع الحبر الصلوات وتردّدان المزامير. كانت سلطانة أختها التي لم تلدها لها أمها. أتت قهرمانة من البلاط إلى مجلس سعيد بن كامل، وهو من أكبر مجالس الغناء بقرطبة، كي تختار فتاة لخدمة صبح إبّان فترة الحَكم. كان سنّ كل من راحيل وإستير لا يجاوز الأربعة عشرة. أدركت راحيل أنها لو يتم اختيارها فلسوف تُفصل عن والدها. كانت وحيدة والدها. مات أخوها يوسف قتيلاً في ظروف غامضة خارج أسوار قرطبة. كان يتعاطى التجارة، يبتاع ما يرد على مرفأ ألمرية من عَروض وينقله إلى قرطبة.. لم تُكشف الحقيقة حول مقتله. الذين قتلوه فعلوا طمعاً في أمواله. ولم تظهر جثته، ولم يُعرف مكان دفنه. إن دفن. حملت أمها رفيقة أثر الفجيعة ولم تبرأ منها. لزمت الفراش، ولم تعد تقوى حتى على الذهاب إلى الكنيس. وكان أشد ما كانت تحرص عليه قبلها هو التنسُّك يوم السبت. ثم أخذت تذوب كما تذوب الشمعة. كانت تهذي، وأخذت تنادي باسم يوسف، تسأل لمَ تخلف. تعاود زوجها داوود في الأمر: «لمَ تخلف يوسف؟.. قلبي يخبرني بأنه تعرض لسوء. قم داوود ابحث عنه». فإذا سمعت راحيل وأبوها داوود أمّها تهذي، عاودهما الحزن ولم يتمالكا من البكاء. أحياناً يتحول هذيان رفيقة إلى الضحك فالقهقهة. ثم تارة أخرى، تأخذ في زجر يوسف أو من تتوهم أنه يوسف: أنت لا تستمع إلى أمك. ينبغي أن تسبت من الجمعة بعد مغيب الشمس، وألا تأكل إلّا الكوشير. لمَ لا تستمع إلى أمك؟... تتحلل من وصايا أدوناي. أدوناي سيغضب منك. تعال يوسف، اقترب من أمك الحنون التي تحدب عليك، تعال بجانبي. أريد أن ألمس يدك. لماذا تنأى عني؟ ألا تَقْبل بأمك العجوز؟ احْكِ لي عن سفرك... ابني كُفّ

عن ارتياد البحر. . . البحر لا يؤتمن. ألا تفكّر في أمك إن حاق بك مكروه. . .

ثم كفّت عن الهذيان، ولم تعد تتحدث بشيء، وعافت الطعام، إلى أن انطفأت ذات صباح كما تنطفئ الشمعة.

وتغيّر كل شيء من حياة داوود الصائغ. لم يعد هناك ما يمسكه بالحياة. وفاة ابنه، وجنون زوجته، ثم وفاتها. . . راحيل وحدها الحبل الوحيد الذي يمسكه بالحياة. . . كانت الأمور ستكون أقل سوءاً لو لم تكن راحيل في الوجود. . لو لم تكن راحيل، لهان عليه الموت. لو مات داوود فبمن تحتمي راحيل؟ لم يفهم لمَ لم يمتحن أدوناي شعبه المختار؟ لمَ حكم عليه بالنفي، والاضطهاد والعذاب؟ لمَ امتدّت يد الشر لابنه؟ لو لم يكن يهودياً، أكان ليقتل؟ لم يجد بدّاً أن يكلم الرِّبي في ذلك. . . ونهره الرِّبي، وأوصاه بالمواظبة على الصلاة والتنسُّك. . ولكن ذلك لم يُزح الحزن من قلبه.

في تلك الفترة حضرت القهرمانة كي تستخلص نَجية تُحسن الغناء والطرب والمؤانسة، من مجلس سعيد بن كامل كي تلازم السيدة الكبرى. لم تكن هناك فتاة تليق بتلك الحظوة سوى راحيل. ولأمر ما غنّت راحيل غناء سيّئاً أمام القهرمانة. كان بصوتها بحّة، وخلطت النوبات، حتى أضجر ذلك المعلم سعيد بن كامل. نفرت القهرمانة من فتاة لا تضبط قواعد الغناء، واختارت إستير، مَن ستصبح سلطانة بعد التحاقها بالسيدة الكبرى صبح. . . حينما غادرت القهرمانة انتهر سعيد بن كامل راحيل، وكيف أنها فوّتت على نفسها فرصة العمر. ردّت راحيل:

– آسفة سيدي. فعلت ذلك عن قصد. لا أريد أن أفترق عن والدي.

أدركت إستير ذلك منها، فعاتبتها:

- لمَ فعلت ذلك؟ أنت من تستحقين أن تلتحقي بخدمة زوجة الخليفة؟ لماذا يا راحيل؟

ضمّتها راحيل وعانقتها، ثم قالت:

- إن احتجتك يوماً فلا تردّي لي طلباً.

أهدتها إستير عِقداً. أمسكته راحيل بيدها. راجعتها إستير:

- أريدك أن تضعيه على جيدك.

- ليس بنفسي ما يبتهج للحياة. أحتفظ به.

لم تعد راحيل فتاة ككلّ الفتيات منذ وفاة أمها، وأدركت أن مسؤولية التكفل بوالدها تقع عليها... ظلّ داوود الصائغ يذهب إلى محل عمله في الصباح الباكر بعد إذ يصلي، ولكنه لم يعد يجد المتعة التي كان يستشعرها في عمله كذي قبل، ولم يعد يتذكر طلبات زبائنه، ولا حيث يضع التحف. ثم حدث أن انزلق في أرض مبلّلة في الزقاق وانكسر حوضه. نودي على الطبيب شمعون، وحاول جبر عظمه، وألزمه الفراش... ومنذ ذلك الحين لم يبرح البيت إلا مرة واحدة... كان يردّ على عُوّاده وهم يشيرون عليه بالصبر:

- كيف، بعد وفاة يوسف وذهاب رفيقة؟

ثم يجهش بالبكاء هو الذي كان رابط الجأش. مرة التمس من ابنته راحيل أن تأخذه إلى المقبرة اليهودية للترحُّم على قبر زوجته. كان يتكئ على عكاز ويمشي ببطء. وقف على قبرها وتلا بعض الأدعية. كانت راحيل تخشى منه أن ينهار أو يغلبه الحزن. بقي متماسكاً. كان كمن يُسرّ ببشرى لزوجته. لم يبدُ عليه الحزن. عاد بمشقّة إلى البيت، وراحيل وخادمه حييم يطوقانه. عند الصباح، كلّمته راحيل، ولم يجب. حرّكته ولم يتحرّك، عندها صرخت صرخة اصطكّ لها المكان. مات داوود الصائغ وسنّ راحيل الثامنة عشرة. لم يكن لها من سند

سوى الطائفة اليهودية، لكن ذلك لم يكن يعفيها من أن تبحث عن شغل..

بدأت مغنيةً في خمارة قميئة هي خمارة صمويل بباب اليهود، وبها التقت بزيري.. كان هو الرجل الوحيد في حياتها. لم تعرف رجلاً قبله. نفذ إلى قلبها بيسر. كانت في حاجة إلى الحماية والرعاية والعطف، ووجدتهما عند زيري أو من تسمّى حينها بهارون. لم تكن تفهم غموضه حينها، ولا تناقضاته. واخذته لمّا حملت منه، لأن ذلك طوّقها بحبل الحياة، وأثقل كاهلها... لم تغفر له حين عرفت حقيقته، ولكنها اليوم لا ترى حياتها من دون زيري... لا تستطيع أن تجهر لمباركة بكل ما يجيش به صدرها. يكفي ما تقوم به مباركة نحوها من اعتناء. فاجأتها مباركة وهي نهب للهواجس والظنون. وضعت طبق الطعام قرب فراشها. لم تشعر راحيل بالزمن. اعتدلت من فراشها في تثاقل. لم تكن تشعر بالجوع. نطقت بالشكر:

- شكراً لك لالّة. لم يكن عليك أن تجشمي نفسك هذا العناء.

- ينبغي أن تأكلي يا ابنتي، من أجلك، ومن أجل الجنين.

أمسكت راحيل يدها، وسحبتها إلى فمها تريد أن تُقبّلها، فإذا مباركة تنزعها في قوة:

- لا يا ابنتي.

- أحببت أن أشكرك.

- أنا من يشكرك يا ابنتي. أنت وباشكوال ومرية، وزوجك زيري. البِرّ دَين، نناله وينبغي أن نؤدّيه كذلك.

- بورك فيك لالّة. لا أريد أن أثقل عليك.

- كُلي من هذا الطعام، فقد هيّأته لك بنفسي.

قضمت منه راحيل، ثم رفعت يدها عنه:

- سأتناول منه فيما بعد لالّة. إن لم أشق عليك، هل يمكن أن تنادي على زيري؟..

خرجت مباركة إلى الحقل لتنادي على زيري. وجدته منهمكاً في نقل الزيتون، وبقية العمّال شارفوا على نهاية الجني. اقتربت منه وهمسَت له حاجة راحيل إليه. عهد إلى شخص آخر بنقل الزيتون إلى المعصرة ثم انفتل بسرعة. قدّر أن هناك داعياً يدعوه. كانت راحيل في الشهر السادس من الحمل. هرع إلى البيت وقصد غرفتهما. وجدَ راحيل مستلقية بالفراش. كلمته كما لم تكلمه من قبل:

- تعال حبيبي قربي..

أبلس زيري..

- أتريدين شيئاً راحيل؟

- أريدك بقربي...

- لم نُنهِ الشغل بعد، وأنت ترين الحالة التي أنا فيها واللباس الذي أنا به...

- زيري، حبيبي، أغلق الباب، وتعال...

أدرك قصدها.

- ألا يستحسن ليلاً؟ ثم.. وأشار بإصبعه لبطنها... ألا تخشين على الجنين... أفضل في الليل.

- تعال زيري... ضمّني إليك..

وضمّها. شعر بالحرج بلباسه، ورائحة الزيتون المنبعثة منه. قبّلها. ثم أخذت تنزع ملابسها..

- الباب لا يغلق بمفتاح، دفع زيري.

- لا أحد سيزعجنا. لا أحد سيأتي..

- كيف عرفت؟

- أشعر بما في قلب لالّة، كما تشعر بما في قلبي....

نزعت ملابسها وتبدت عارية، ببطنها الممتلئ، وثدييها المتغضنين. التصقت بزيري. أخذَ زيري في خلع لباسه. قبّل راحيل، ثم سرت يده اليمنى في جسمها... توقف عند بطنها... أشار عليها بالانغمار في الفراش اتقاء البرد. ضمهما الفراش. لم تشعر قط بالدفء ذاته وهي في أحضان زيري، ولم يشعر بمثل الشعور الذي احتواه وهو يضم إليه راحيل.

* * *

شعرَت راحيل بدبيب الراحة بعد المعاشرة. غشيت زيري سَنة من نوم. ظلا في الفراش متعانقَين. فاجأته بالنداء:

- زيري، زيري... أتسمعني؟

نهض من غفوته، ثم صاح:

- نعم حبيبتي.

- امرأة حامل هي في حكم أدوناي.. يمكن أن يقبضها إليه.

انتفض زيري. أخذ يدَي راحيل. قبّلهما:

- لماذا تقولين قولاً كهذا؟

ودون أن ينتظر ردّها عانقها وانغمر في حضنها... بادرته:

- أشاطرك الرأي يا زيري من أن المهم في علاقة رجل وامرأة هو الحب...

توقفت، ثم استأنفت:

- ولكن الحب ليس هو كل شيء... الحب لا يستقيم من دون معرفة الآخر. دون أن تسكن الآخر ويسكنك، ولا يمكن أن تسكنه إن لم تعرفه.

- لم أفهم قصدك.

- هل تعرفني يا زيري، أو هل تعرف أم ابنك؟

- بعد الذي عشناه؟

- هل تعرف قصة أمي التي ماتت كمداً على ابنها؟ هل تعرف قصة أخي مَن قُتل غيلة؟ هل تعرف قصة أبي الذي سقط وانكسر حوضه، وظلّ يشكو ألم الجسد والروح إلى أن مات.

- لم تحدّثيني عن ذلك.

- لأنك لم تسأل.

- كي لا أحرجك.

- لستُ الآخر يا زيري. أنا أم ولدك، وأبي وأمي جدّا ولدك.

- طبعاً.

- كان ينبغي أن تكتشف الحقيقة بنفسك. أن تشعر بالرغبة في معرفتها. إن لم تشعر بذلك فلن يفيد في شيء أن أحدّثك عنها.

- لا أفهم عنك.

- لقد فتحت لك قلبي، ومنحتك جسدي، ولكني لم أفتح لك روحي بعد...

- بعد كل ما عشناه لم تفتحي لي روحك؟

- لأني أنا نفسي كنت منجرفة مع الأحداث، وأنت لم تسأل. هنا بأستجة، استشعرت السكينة كي أنظر إلى نفسي. برئت من كثير من الأفكار المسبقة، ولكني لم أبرأ من القلق. لم أبرأ لأني وأنت لسنا روحاً واحدة...

- لا أفهم عنك راحيل.

- أعرف، لأنك لا تعرف الميشنة ولا التلموذ... توليد المعاني، والنظر إليها من زوايا متعددة. ينبغي أن تكون يهودياً كي تدرك ذلك.

- تعيرني بالفلسفة، وها أنت ذي تتفلسفين.

- لا أدري يا زيري. تفكرت خلال هذه الفترة التي خلوت فيها لنفسي. استشعرت أنك تحمل جرحاً...

- مثل مباركة.

- ولو جرحها أعمق. وهي المفتاح إلى روحك. هي الجسر بيننا... هي التعبير عن جرحك بشكل آخر. لا يمكن لمن لم يشعر بالمهانة ولمن لم يحمل ندوبها أن يستشعر جراحات الآخرين ولا أن يدرك مأساتهم... أشعر بجرح مباركة، لأني مثلها جريحة. الدين هو وسيلتها للتعبير عن الجرح. عن الاستعباد. ومن ثمة التحرر. أنت تحمل الجرح مثل باشكوال، وتصوغه في قالب عقلي. لالّة، مثلها مثل مرية، تعبِّر بلغة الوجدان، وهي أبلغ... لالّة حلقة أساسية فيما بيننا..

- لا أدرك ما تعنين.

- أنا نفسي لا أدرك كل شيء، وأسعى أن أفهم. قد لا نكون أشخاصاً، ولكن أفكاراً. لو كنا أشخاصاً لما اضطررنا إلى الانزواء. يمكن أن نتوارى، يمكن أن نذوي، ولكن يمكن أن ننبعث من جديد. أو تنبعث الأفكار التي سكنتنا.

- ألا يمكن أن نعيش ونحن نزاوج بين وضعنا كأشخاص وحاملين لرؤى؟

- لم نصبح أفكاراً إلا لأن الحياة استعصت علينا. تعذّر أن نعيش حياة طبيعية. أشعر بأن القلق أخذ ينجلي من نفسي، لأن المهم هو الفكرة. ولم أعد أهفو لحياة عادية.

توقفت. كانت كمن يحدّث نفسه. ثم توجَّهت نحو زيري:

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟

- تحدّثينني كما لو كنت غريباً عنك؟

- أفضّل أن أنال تعهّدك، وقبولك لما أعرضه عليك.

- لك ذلك.

- لي صديقة، هي بمثابة أختي، أريدك أن تسلّمها قلادة.

- لماذا لا تفعلين أنت بنفسك؟

- ألتمس ذلك منك...

عقّب زيري:

- سأفعل ما تطلبينه مني ولو أني أفضّل أن تفعلي أنت، وتسلمي الوديعة لصاحبتك.

- شكراً لك. بورك فيك حبيبي. هو ذا الذي توقّعته منك. هي ذي القلادة في عقد. اتركهما عندك، حتى أقول لك متى تسلّمهما لإستير. اسمها الذي تُعرف به هي سلطانة منذ التحقت بخدمة السيدة الأولى صبح. والآن ساعدني كي أخرج إلى حيث العمّال. أرتدي ملابسي. نعم أضع دثاراً. الجو مال إلى البرد.

* * *

كانت راحيل تتقدّم ببطء نحو الحقول ويدها مستمسكة بيد زيري، وهي تضع لفافة على عنقها حتى ذراعيها لتتقي بها البرد. كانت الشمس قد غربت، واكتسى الجو حمرة مشوبة بلون رمادي.. بدت نار كبيرة موقدة، تحلّقَ حولها العمّال. باشكوال واقف يصفق براحتيه، ومرية تجأر بالغضب، وتصدح بأنّة الألم، يمتزج ترتيلها ودعوة مباركة بالفاتحة والصلاة على ربّ العالمين، وباشكوال يردّد: «أقوى، أقوى»، فتشفع مرية بنداء الألم: «أي، ياي ياي...».

على مشارف الحلقة توقف الزوجان يتمليان الفلاحين يختلط غناؤهم بين النكبة والفرح، تعبّر عنه مرية بصوت الألم. مباركة تتلو الفاتحة للاستهلال، وتمزج الحمدلة مع أنّات مرية، وتردد لا إله إلا أنت، الصلاة على النبي، وتعيد مرية ذلك، بلكنتها. ترد مباركة: اللّه، اللّه، وتردد مرية ذلك، فيتحول إلى أولي، أولي، ويصيح باشكوال أقوى، أقوى، وتردد مرية ذلك..

افتر ثغر راحيل عن ابتسامة. كانت ترى سدى الخلود ينتسج في أنين مرية وترتيل مباركة وتأوّه الفلاحين، كما لو هي أنين من نكب.

13

كانت مباركة إذ تصلي الفجر، تظل بعدها تتبتل، ثم تخلص لنفسها. كانت كمن ينظر إلى ذاته، وكما لو أن ذاتها إناء ماء مختلط، تترسب مكوناته رويداً رويداً، فيصفو بعدها. كانت عملية التهجد تلك، عبارة عن ترسيب لما اعترى حياتها كي تصفو نظرتها. كانت منذ أن ألحِقت بهشام لمّا كان ولياً للعهد، ثم لمّا صار خليفة المسلمين، تصلي الفجر، وتتوسّل إلى اللّه بالمغفرة لما قد تكون اجترحت ممّا انصرم من نهارها، وتبتهل إليه كي يمنحها المدد كي تتغلب على ما قد يعتري ما يأتي به النهار من المثبطات والوهن والضعف والهوى والشرور... كانت كمن يمحو صحيفة، وكمن يلتمس الذخيرة لمواجهة صروف يوم مقبل... ولكنها مذ حلّت بأستجة أضحت تشعر شعوراً مختلفاً. لم تعد تخشى تقلُّبات اليوم، ولا ما قد يعرض لها من وهن ويستبد بها من ضعف. كانت كمن يُقبل على حياتها كلها، وكانت كما لو أن فصول حياتها عادت إليها. لم تعد سعة الإناء الذي تنظر فيه يوماً واحداً بل حياتها كلها... كانت هناك إرهاصات لهذا الذي يعتريها بأستجة، مذ أثقل عليها العيش في كنف شخص عابث لاهٍ. ولعلّ سنّها وقد جاوزت الخمسين قد دفعها إلى أن تسترجع فصول حياتها كلها... كان ذلك يتم بطريقة مضطربة، وكان هذا الشعور هو

الذي دفعها إلى أن تفر من بيت الخلافة. كانت تشعر في قرارة نفسها أن ذلك هو السبيل كي تتخلّص من إسار الاستعباد...

أخذت تعود لها فصول حياتها بصفة مضطربة، وكانت تذهب بعيدة في الغور، إلى مربط طفولتها، ولكنها لم تكن تثبت على شيء، أو كانت فصول طفولتها تأتيها متقطعة... تذكر مروجاً خضراء وجذوع نخل. وتذكر طفلاً يلهو معها... ثم لا شيء، سوى صراخ الطفل المتصل... تذكر وجوهاً ملثمة تمسك فمها كي تمنعها من الصراخ، ثم تنفر بها إلى صهوة فرس.. يحملها الفارس بعيداً، وكلما ندَّ عنها صراخ، كلما كمّ فمها... لم تعد تسمع صراخ الطفل. وهو يناديها باسمها تودة. جأرت تناديه حتى انقطعت أنفاسها:

- حميم.. حميم...

انقطع صوت النداء باسمها تودة، لأن الذين اختطفوا أخاها ذهبوا به وجهة أخرى.

ظلّت تصرخ، حميم حميم، طوال المدة التي سار بها المختطفون... إلى أن انقطع صوتها. انقطع بفعل التعب، والأسى والعجز. أغمضت عينَيها، ولم تكن تحس إلا بجسمها يتهادى على صهوة جواد، وشخص يمسكها...

هي الصورة التي تعود إليها... وصوت مضطرب يحمل اسمها... تودة.. لأنها لن يناديها به أحد.. منذ اختُطفت... ذهب اسمها مع اختطاف أخيها.

ثم فندق بفاس، حيث يقيم الرقيق. يُخرَج بهم إلى سوق النِّخاسة مرة كل أسبوع. كما الدواب. يطرحون في مكان، بساحة تحت الشمس المحرقة صيفاً، أو جو فاس البارد شتاء، ويتقلب الزبائن بين الرقيق، يفضّلون من الرجال الأقوياء، يتفحصون أجسامهم، ويقتنون ذوي العضلات المفتولة، والقوام الصلب، ويكلفون من الفتيات

بالجميلات، ذوات الأكفال والنهود... ثم يساومون في الثمن... كانت تودة صغيرة كي تغري الرجال، وكانت منقبضة كي تشيع البهجة، وغاضبة كي تبعث على الطمأنينة، ولذلك لم يشترها أحد، ولم يحفل بها أحد... لم تعد تودة تودة وإنما مباركة، كما أطلق عليها النخّاس. ظلت مباركة كوردة ذاوية، تنتظر الخلاص. تُعرِض عن الطعام السيّئ الذي يؤتى لجمع الرقيق يتهارشون حوله. تنأى بنفسها عن الهراش. تتأفّف من الروائح العطنة بالفندق، ومن الاختلاط، ومن انعدام الحميمية. ألم تكن بنت شيخ قبيلة؟ كان اختطافها انتقاماً من قبيلة غريمة. بالفندق تستقي بعض الكلمات من العربية، ممّا قد ينتهي إليها، فيغتني معجمها، إلى أن وقع شيء غيّر حياتها... كانت قد بلغت الرابعة عشرة حين تعرّضت للاغتصاب من لدن حارس بالفندق... حاولت أن تصرخ، ولا أحد كان سيأبه لصراخها. أمسك الحارس نهديها الكاعبَين وأخذ يعركهما بفظاظة... استسلمت. شعرت بقاعدة القوي يملي شرعته على الضعيف... نزع سروالها، ثم غشى ذكره في فرجها. تأوّهت من الألم. لم يثنِ ذلك الوحش الذي نشب غريزته وازع، كما تنشب الحيوانات المفترسة مخالبها في صغير الغزال... نهض بعد أن قضى وطره، لكي ترى الدم يسيل على فخذَيها. ودأب ذلك الوحش يغرس فيها أنياب غريزته كلما تحرّكت شهوته... وتغيّرت مباركة. لم يكن لتعيش، وتبقى على الحياة، لولا غريزة حيوانية انبعثت منها أثارها النهش الذي تعرضت له.. أضحت تزاحم من أجل الأكل، وتدفع بالكتف، وتنتهر من أغضبها. أصبح ذلك الوجه الشاحب نضراً يغري. ولم تمر إلا فترة حتى أقبل عليها المشترون وغالوا في ثمنها، وانتهت عند صاحب خراجية وهو المصطلح المستعمل في الأندلس وفاس لماخور... تعلمت أشياء كثيرة في الخراجية، من خسة الإنسان ونذالته وهوانه، يستوي في ذلك

الوضيع والشريف. . . أدركت أن هناك قواسم مشتركة بين الإنسان، حين يهوي، مثلما ستدرك بعدها أن هناك قواسم مشتركة حين يرقى، بغض النظر عن العرق واللون والعقيدة. انطاع لسانها باللغة العربية. . . منذا يُقدّر أن في حاضرة من حواضر الإسلام، حيث يصدح صوت الآذان من المآذن المتعددة، كانت النفس البشرية تُمتهن بلا رادع ولا وازع؟ ويوماً فرّت مباركة من الخراجية. . لم تعرف أحداً تلجأ إليه. كان لها بعض من مال ممّا ادخرته، وما لبث أن نضبت تلك الذخيرة. قصدت مسجداً في عدوة القرويين، ونامت ببابه. . كان الفصل شتاء والبرد شديداً حينما انتشلها شيخ. صرخت في وجهه. حدّثها بهدوء:

- على رسلك يا بُنيتي. .

ونزع برنوسه ولفّه عليها ثم أضاف:

- انتظريني ريثما أفرغ من الصلاة. .

بعد إذ فرغ من الصلاة صحبها إلى بيته. نادى في زوجته:

- أم هاني أصلحي من شأن الفتاة. ثم أضاف من قول كان سبق لتودة أن سمعت بعضاً منه في بيتها وإن لم تدرك فحواه: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾.

أخذتها أم هاني إلى الحمّام. ثم هيّأت لها فراشاً. لم تسألها عن شيء. وأخذت مباركة ترقب مضيفَيها. تستمع إلى صوت القرآن في الصباح، وللتهجُّد في المساء. وترى خلال ذلك يد أم هاني تحنو عليها وتعطف عليها. ومرة صحبتها للمسجد، وشعرت مباركة ببرد الراحة مع النسوة وهنّ يصلين، ثم وهي تسمع صوت القرآن يُرتَّل جماعة، ثم والإمام يخطب، ولو أنها لم تكن تفقه شيئاً، فالتوادد الذي يشمل المصليات. . . أصبحت أم هاني وزوجها يحيى القيرواني بمثابة أُسرة لمباركة. ظلّت كذلك أربع سنوات في كنف هذه الأُسرة التي أرتها من فاس وجهاً غير وجه دار النخاسة أو الخراجية.

حينما تكب مباركة تتلو وردها صباحاً في أستجة، تدعو لراحيل، هذه الفتاة التي بلسمت جرحها، ثم لأم هاني التي أنقذتها في مقتبل شبابها... ترى في راحيل أم هاني ثانية، وتريد من خلالها أن تبر بدَين...

كان الشيخ يحيى القيرواني وزوجته أم هاني من أفريقيا، ممن قدِموا منها واستوطنوا فاس في عدوتها المعروفة بعدوة القرويين في مقابل عدوة الأندلس. لم تكن ساكنة القرويين من ذوي الجاه والغنى، ولكن أغلبهم من أهل التقوى والورع والعلم...

غلب الحنين يحيى وزوجته أم هاني كي يزورا أفريقيا ويَصلان الرحم بأهلهما هناك، تصحبهم مباركة... غادروا فاس نحو سبتة كي يركبوا البحر إلى أفريقيا، ومنها يسيرون إلى القيروان. وقبل أن يبلغوا سبتة اعترضهم قطاع الطريق وسلبوا الشيخ ماله. قتلوا الزوجَين وسبوا مباركة.. بيعت مباركة في سبتة..

لم تعد تذكر من رحلتها من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى قرطبة، سوى شيخ مهيب أسود البشرة، رق لها، تذْكُر أنه كان من غدامس... فهمت عنه وهما على متن الباخرة من سبتة إلى الجزيرة، من أنه اختُطف في بحر أفريقيا غير بعيد عن صقلية، وبيع بها، وسيق إلى سبتة، كي يباع بها. كان لسانه مستغلقاً ولو هو لسان أمازيغي. فهمت عنه فحوى كلامه... كلما أوتي بالطعام ادخر منه لمباركة... كان الوحيد من الرقيق ممن يواظبون على الصلاة.. حُملت النساء، وقد بلغ الجمع الجزيرة الخضراء، على زاملات، أما الرجال فسيقوا مشاة... توفي الشيخ الغدامسي في الطريق قبل بلوغ قرطبة ودُفن بمكان خلاء، بلا طقوس ولا صلاة. كاد الخفير أن يترك جثته في العراء، لولا أن الرقيق استنكروا ذلك، وطفقوا يصرخون ويضجّون. حفر الحرس حفرة وألقوه بها، ثم استأنفوا المسير.. لم تنسَ مباركة

الشيخ الغدامسي، لم تنسَ أمَّ هاني وزوجَها يحيى القيرواني، في هذا الشيء الذي دأبت عليه كل يوم وهو الصلاة وما يعقبها من دعاء. لم تكن صلاتها مجرّد تمرين أو طقوس، بل حديثاً لذاتها، واستكشافاً لروحها، وآصرة مع آخرين يحملون جراحاً مثلها، مثل الغدامسي الذي اختطفته يد المنون. مثل أم هاني وزوجها ممن قُتِلا غيلة.

انتهت مباركة إلى بيت الخلافة إبّان الحكم... اشتغلت ببيت الخلافة في الطراز. زُوّجت بفتى لم تعرفه ولم يعرفها، ولم تختره ولم يخترها، اسمه مرجان. كان هو نفسه من أسْرى قطلونية. كان كجذع مقطوع من فرع... كان من جند الخُرس، من الأسرى الذين ألحقوا بالجند ولم يكونوا يحسنون العربية وسموا خرساً لذلك. وجد مرجان في مباركة الدفء الذي كان يبحث عنه، ووجدت معه الحضن الذي حُرمته.. كانا يجدان في بعضهما البعض برد الحرية والإحساس بالإنسانية، كما لو أن علاقتهما جزيرة في بحر متلاطم من الاستعباد... لم يكونا بحاجة أن يتكلما، إذ لم يكن زوجها يحسن الحديث باللغة العربية، ولم يعرف عنها إلّا أنها مثله سبية وأَمَة. ما جدوى أن يعرف حياتها قبل السبي؟ السبْي صور متشابهة تختلف أشكالها ولا يختلف جوهرها. هو بتر لإنسانية الإنسان، محق لذاكرة، إجهاز على روح. كل أسير وكل سبية، لكي يعيش، ويستمر في الحياة عليه أن ينسى ماضي ما قبل السبي والأسر. أقبرت مباركة ماضيها في ربوع واحة من المغرب الأقصى، ووأدت ماضيها في النخاسة وأجهزت على ذكرى الماخور بفاس، وطمرت حادثة قتل يحيى القيرواني وزوجته أم هاني، وتناست ما حل بها وقد ألقيت كسقط المتاع بسبتة، وحين أقحمت في مركب مع جيش الطنجيين المكوّن من البربر ومن العبيد السود في رحلته إلى الأندلس... كان زوجها ينظر إليها ولا يفقه في أمر تلك الحركات، وتلك التمتمات، وهي تتوجّه خمس مرات في اتجاه واحد، ثم تركع

وتسجد، ولكنه كان يعرف لزوجته قلبها الكبير ونفسها الجيّاشة وروحها الكريمة. . . هل كان يمكن أن تُفصل تلك الحركات عن سمْتها؟ لا تفتأ تدعو في كل صلاة: «عليك الرحمة يا أم هاني، وعلى روح زوجك الطاهرة، وتغمّد اللّهُمّ الغدامسي بواسع الرحمة». عرفت مباركة بقرب مرجان هذا الشيء الذي يشدُّ المرأة إلى الرجل، والرجل إلى المرأة، وهو الحب، من خلال الكلمة الطيبة، والرفقة الحسنة، والنظرة العطوفة، والإيماءة الرغيبة. . . كانت تحس بالراحة في حضن جسد مرجان، وتشعر بالانتعاش والارتعاش، وهما ممتزجان في وحدة، ويثيبها ذلك عمّا بلت من مخالب الوحوش التي انغرست في جسمها الغض. . . كانت مباركة ترى في زوجها، يد السماء إليها. . وكانت قبل أن يخرج للالتحاق بالشغل، تقبض على يده ثم تتلو آية الحفظ. . . كانت تطلب منه أن يردّدها، ولكنه لم يكن يفهم شيئاً من شؤون الإسلام سوى ما تقتضيه الخدمة، ولم يكن رجالات الخدمة يقتضون منهم سوى الجهر بالشهادة. . . حملت منه. . . وضاع منها الجنين.

أُلحق مرجان بجيش التجيني المحارب في المغرب الأقصى الحسن بن كنون وقد انتفض على الخلافة. ولم يعد مرجان. التهمته الحرب. بلغ الخبر مباركة، ورددت ما كانت تسمعه من أم هاني: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾. وغارت في حزن شديد. رقّيت مباركة فألحقت بخدمة الخليفة. ولم تسلُ مباركة عن فقدها مرجان. . . عرف فيها أهل الخدمة ورعها، فاتخذها الخليفة رشيدةً[1] لابنه هشام، تسهر على شؤونه. . . رأت هشاماً أمام عينَيها طفلاً ينمو، إلى أن مات الحكم وتولّى هشام الأمر. لم يتغيّر شيء في حياة مباركة. . . أضحت ألعوبة في يد هشام. . . قبلت بيد القدر، ويوماً انتفضت ضدّ

(1) رشيدة في الأندلس هي المقابل لمربية.

الاستعباد. نفرت، كي تتصالح وذاتها، كي تكتشف ذاتها، في مرآة الآخرين. وكان الكشف بأستجة. وأثابتها الأقدار أُسرة جديدة من يهودية ومسيحية ومسلم وغنوصي، يلتقون جميعهم في حبّ الإنسان والإيمان بكرامته.

14

تذكرُ مرية تلك المرحلة الفاصلة من حياتها حين كانت في سنّ الرابعة عشرة تجلس قرب الكنيسة بإشبيلية تصدح بتأوّهات، ويلقي عليها بعض المارّة ما يفضل من طعام، وقد رحلت جماعة الغجر التي كانت تغنّي معهم، حتى إذا هدّها التعب، نامت حيث هي... في البرد والحر والمطر... إلى أن انتشلتها يوماً يد قسّ وأدخلتها الكنيسة. أُطعمت بها، ودُثّرت بكساء، وتعهّدتها الراهبات إلى أن استعادت عافيتها... خُلّصت من الأدران، وشُفيت من البثور وبَرئت من الجراح ثم ألحقت بدير لتنشأ به مع الراهبات.. حياتها بعدها سارت على إيقاع الكنيسة، منذ صلوات الصباح، والدعاء والتبتُّل، خلال يوم، وعلى إيقاع الأعياد المسيحية خلال سنة. لم تكن تحسن القراءة كي تقرأ النصوص وترتل الصلوات، ولكنها من فرط تردادها حفظت بعضاً منها ممّا كان يتلى باللاتينية، دون أن تفهم شيئاً منها، سوى أنها أداة للتقرُّب إلى الربّ، ودعوة الربّ للمحبة... كان ما تتلوه من صلوات وأدعية، في عرفها، وإن لم تدرك معناه، دعوة للمحبّة بتعابير متعددة.

كانت غجرية تعيش كما يعيش الغجر متنقّلين من مكان إلى آخر. ولم تعرف مأوى وقد حلّت الفرقة قرب إشبيلية سوى كهف في الجبل، ولا غطاء سوى النار توقد في الكهف، وبعض الخِرَق يُتدثّر بها، ودفء

العلاقات الإنسانية. لم تنتعل نعلاً ولا حذاء، وكانت كالغجر تمشي حافية القدمَين. كان حضنها الجماعة التي تعيش معها. لم تعرف لها أمّاً ولا أباً. كانت لها أمّ حبلت بها، وضعتها وأرضعتها لفترة ثم تبدّدت... لا تعرف شيئاً عنها، أماتت أم هي من الأحياء. كانت تلعب مع أترابها من أبناء الفرقة، وتأكل مع الفرقة، إلى اليوم الذي رحلت فيه الفرقة، وتخلفت مرية... قصدت ساحة قبالة الكنيسة تصدح فيها بذلك الشدو الذي أخذته عن الغجر.. كان شبيهاً بالندب، وينضح بالألم... تنال من ذلك بعض النقود، أو بعض الطعام، وتنام حيث هي... إلى اليوم الذي لم تستطع أن تنهض ولا أن تغنّي ولا أن تأكل. سال سائل بولها على فخذها ولم تأبه له. إلى أن رمقها قسّ، فرقّ لها وأدخلها الكنيسة، وألحقها بدير...

أصبح الدير أُسرتها وقد انفصلت عن فرقة الغجر. تقوم بما تقوم به الراهبات... منذ تراتيل الصباح، وتشتغل في الطرز والخياطة والطبخ، وتساعد في أعمال الزراعة، ولكنها إلى ذلك، حين تخلو إلى نفسها تردّد ذلك الغناء الذي تعلّمته مع الغجر، وتخلطه باللسان الروماني ممّا تعلّمته بالدير...

يقال عنها إنها ساذجة، أو ذات عقل بسيط، والحقيقة أنها كانت على الفطرة... لم تؤذِ أحداً قط، ولم تَكْذب أحداً... لا تبكي ولا تضحك ولا تبسم. أو كان بكاؤها وفرحها في هذا الغناء الذي تشدو به لمّا تخلو لنفسها. وكان رجال الدين يعرفون لها صدقها... كان القسّ حين يريد أن يعهد بشيء دقيق، أو يريد أن ينقل رسالة بلا تحريف، يوكله إلى مرية، وهو اسمها الجديد منذ التحقت بالدير، لأنها لا تخرج قيد أنملة عمّا يرسمه لها...

ومرة نادى عليها القسّ، وأيقنت أنه يريدها في خدمة. أمرها أن ترحل إلى أستجة، بكنيستها هناك، حيث سيُعهد لها بخدمة... سألت

القسّ كم يوماً تستغرق الخدمة. ردَّ بضعة أيام، أو أسابيع معدودة... حملت من حوائجها ما قلّ، وسافرت لوحدها على حمار إلى أستجة. كان لرجال الدين حرمة، وكان لباسها يشفع لها كي لا يمسّها أحد بأذى... بلغت الأبرشية، واستجمّت فيها ليوم، وكلّمها القسّ في شأن شخص يعيش لوحده، يحتاج العناية... صحبها القسّ إلى بيت الرجل. كان الرجل يعيش في مزرعة صغيرة. كان وحيداً... فتح الرجل الباب للقسّ. كان بادي الهزال. أفسح للقسّ. رفضَ القسّ الدخول واكتفى بالقول:

- عزيزي باشكوال، الأسقف بعثَ لك بالأخت مرية، كي تُعنى بشؤونك وتتعهّدك...

أبلس الرجل.. أراد أن يقول شيئاً، ولكن القسّ كان قد غادر والأخت مرية قد غشيت البيت.

- ما الذي تحتاجه؟ سألته.

- لا شيء.. ردَّ.

- أنا معك إلى أن يأمرني الأسقف بالمغادرة...

لم يكن باشكوال قد التمس من أي أحد الرفقة أو الرعاية. ولكن حاله لم يخفَ على القسّ. كان باشكوال يزوره بالدير، يستزيده معرفة باللِّسان اللاتيني أو يقتضي كتاباً، أو يسأل عن قضايا معرفية... ثم أخذت زيارات باشكوال تتقطع. إذا حلَّ بالدير كي يقرأ من هذه الكتب القديمة من لسان اللاطين (اللاتينية)، بدا بادي الهزال، شارد الذهن، يتلعثم في الكلام.. كان يشكو الهجر. لم يصطبر باشكوال على فراق هند، حبّه الكبير، منذ نُفيت إلى جزيرة من جزر ميورقة... كان يُقدّر أنها ستعود يوماً. سيُفرج عنها، وسيعيش حبه معها، بلا حاجز. تعرّف إليها مذ كانت في عصمة عبد الملك، ابن الخليفة عبد الرحمن وأخ الحَكم... كان باشكوال يومها قريباً من الحَكم ومن صاحبه

جعفر.. ولم يُقدر أن يقع في هوى امرأة متزوجة. كان ذلك بباب ليون، غير بعيد عن الجامع الكبير حين اقتربت منها وصيفة هند وطلبت منه أن يستجيب لمولاتها. كانت هند تلبس الديباج، وتضع على رأسها لفافة، شأن بنات العلية، وتسدل عليها مِقنعة تسبلها على وجهها دون أن تحجبه أو تغطي عينَيها النجلاوين. صاحت هند بصوتها الرخيم:

- باشكوال، ألم تعرفني؟

- بلى يا مولاتي، وهل يخفى القمر؟

- ولم تعد تسأل عني..

- حاشا يا مولاتي..

وشعر بشيء اضطربت له نفسه. نفذَ نظرها في فؤاده كما ينفذ السامري.. استرسلت في الحديث في رقّة وعذوبة:

- أريدك باشكوال أن تقرأ معي بعضاً من نوادر أبي علي القالي، لست أستطيع حضور دروسه بالجامع، فلو تفضّلت في تلخيصها لي...

ثم انصرفت رفقة وصيفتها. تردّد باشكوال بعدها على هند في مُنية لها قرب الوادي الكبير... وبدأ يقرأ معها نوادر أبي علي القالي، ثم أخذ الحديث يتشعّب في عدة صنوف بعيدة عن الأدب، ثم ألفى أنه لا يستطيع بُعداً عن هند، ولا هي تقوى على النأي عنه.

تساءلَ باشكوال بعدها أكانت هي صادقة في دعوتها للدرس، أم اتخذت الدرس وليجة إليه... هند كانت هدية السماء إليه. شُغف بها حباً، وأحبته من جانبها. حذِرا العيون، وخادعا كي يلتقيا... لم يكن وارداً أن يختلي بها في مُنيتها، ولو أن وصيفتها كانت متواطئة. كان يمسك يدها في جناحها بالمنية، ويُقبّلها في غفلة من الخدم... وأخيراً تجرّأت وأخذت تزوره متنكرة في بيته المتواضع بربض البرج من المدينة العتيقة.

كيف يمكن أن يعاشر امرأة متزوجة؟ تأذّى لذلك طويلاً. وحدث أن انتهر هنداً لذلك. وتوعّدها أن يقطع الصلة بها، وألّا يراها... ولكنها ما كانت تغيب عنه، حتى يزداد ولهه بها.

وأخيراً هدأ روعه من تلك النار المضطرمة في فؤاده، فليس لهند رجل سواه... لأنه هو من يحبها، وهو من تحب، أما عبد الملك فقد هجرها وأرادها تحفة ليس غير. ليس لباشكوال أن يتأذّى من علاقته مع هند أو يؤاخذ نفسه... وطلب من هند أن تفترق عن عبد المالك... توعّدها لئن لم تفعل، فلن يختلي بها...

وكاد أن يبرَّ بنذره، وهجر هنداً لشهور ثلاث. عاش الجحيم خلالها. يمشي بمحاذاة النهر كي يستنشق عبير هند. يقرأ **الأمالي** كي يسترجع ذكرى هند. ولم يسلُ. إلى أن فاجأه نقرٌ على باب بيته فجراً، يختلط بآذان الفجر من المسجد الجامع. فتح الباب، ووجد شبح امرأة مشتملة بإزار لا يُرى سوى عينَيها كما النساء البدويات. وما إن انغلق الباب حتى ارتمت في حضنه وضمّها إليه... ولم يتمالك من القول وهو يقبّلها:

- شكراً أن أتيت يا هند...

وردّت:

- وكان الجحيم.

كانا يشعران بالشيء ذاته ممّا يتلجلج في نفس الآخر، ويستطيعان أن يقرآ ما بخَلد الآخر. كانا روحاً واحدة.

لم يكن لهند أن تطلب الطلاق لأن أمرها بيد الخليفة. إلى أن طُلّقت هند من عبد الملك، لا لكي تصبح حرة، ولكن لتُنفى إلى ميورقة... ونفيت وحيدة. من دون وصيفتها.

هل كان أزلام الخليفة عبد الرحمن الناصر يعرفون بحب باشكوال

لها؟ وكيف ألا يعرفوا؟ أليس نفيها عقاباً له ولها؟ كان يأمل من الحَكم وقد ولي الحُكم أن يطلق سراح هند... ولم يفعل.. كيف لباشكوال أن يخدم رجلاً يبقي على حبيبته في الأسْر؟ لم تكن دسائس جعفر هي الحاسم في نأي باشكوال عن منظومة الحُكم.

ظلَّ متعلّقاً بالأمل. وبتلك الآصرة التي غذّتها مراسلاته مع هند... بدأت مراسلاتها تطفح بالقوة والتحدي والاستماتة أمام جبروت السلطة، ثم غدت تغور في اليأس والرتابة... أخذت هند تصور في رسائلها صولة البحر، وتتحدث عن انبجاس الماء من النافورة، عن تفتّق أكمام الزهور، وهديل حمامة... عن ديمة هطلت... الاعتقال والنفي يربطان بأشياء بسيطة، بل تافهة، ومع ذلك فتلك الأشياء هي ما يغذّي ذخيرة الأمل... لم يستطع باشكوال أن يرتبط بامرأة أخرى ولو عرف مغامرات تحرّكها الرغبة لا الحب. ظلَّ هواه لهند.. وظلَّ من خلالها يرتبط بهذا الشيء الذي اعتلق بحياته، اللغة العربية. كانت هند تتحدر من الأرستقراطية العربية اليمنية، وكان اهتمامها بالأدب ناجماً عن وعيها بجذورها... وما كان لباشكوال أن ينسلخ عن سحر اللغة العربية، لأنه إن فعل صرم الحبل الذي يوثقه بهند... أضحت تلك الثقافة وقاعدتها اللغة، ممتزجة بحبّه لهند.

إلى أن بلغه نعي هند.. تعددت الروايات. قيل إنها ماتت كمداً. قيل إنها قُتلت مسمومة. قيل إن أصحاب الطراز حزوا رأسها... والذي قتل هنداً هو منظومة، يمثلها عبد الرحمن الناصر، وبعده الحَكم... وهذا الذي انتهى إليه باشكوال.

عافَ باشكوال الأكل حين بلغه الخبر، وتوقف عن زياراته للدير حيث كان يدرس اللسان اللاتيني ويستعير الكُتُب.. وحدث أن زاره القس. تردد في البوح، وأخيراً أقرَّ له بسبب حزنه، دون أن يستفيض. كاتبَ القسُّ أبرشية إشبيلية، فبعثوا مرية...

كان باشكوال يريد أن يبقى في فراشه، حينما حلّت مرية... ولكنه لم يعرف كيف يتصرف مع شخص نزل بساحته.. قصدت مرية المطبخ، وغسلت أوانيه، ثم جمعت الحوائج المبعثرة، والألبسة الملقاة ورتقت ما بها من خرق. رتّبت ما يحتاج الترتيب وأدخلته التابوت، وغسلت ما ينبغي أن يُغسل. هيَّأت بعض الطعام، وأتت به باشكوال. نال منه وهو بالفراش... شعر بالحرج وشخص غريب يحل ببيته... كان يريد نفسه وحيداً وهو في حالة الحزن التي عليها... حدّث مرية برفق من أنه يمكنها أن تنصرف، وردّت أنها لن تنصرف إلا مع غروب الشمس كما أمرها القس. كان من قبيل العبث أن يُثنيها، لأنها لا تأتمر إلا بما تمليه الكنيسة وسدنتها... حينما أنهت شغلها، اقتعدت خارج البيت تنظر مغيب الشمس وهي تترنّم أنغامها الغجرية... فإذا غابت الشمس، ودّعت باشكوال بالرومانية... دأبت على ذلك. وأخيراً أنسَ بها... واستطاع أن يخرج من العزلة التي جثمت عليه. كانت على وشك المغادرة حين استبقاها باشكوال:

- يمكن أن تمضي الليلة هنا..

لم يعرف كيف انفلتت منه الجملة. أزاحت مرية عنه الوحدانية، وبدّدت الوحشة... ولكنه لم يتخلّص من الغمّ حين يُجِنّه الليل. يستفيق وسط جنح الظلام وذكرى هند تملأ ذهنه... وماذا كانت مرية تستطيع أن تفعل لو بقيت؟ وهل تستطيع أن تزيح الأرق وتبدِّد الهواجس؟

ردّت في صرامة:

- ينبغي أن أحصل على إذن القس...

ثم غادرت لتكِل باشكوال لهواجسه....

هل حقاً حُز رأس هند؟ من الذي أعطى الأمر بذلك؟ الحَكم؟ الحَكم، الفتى الذي لا يقوى على قتل ذبابة، يقتل ويأمر بالقتل؟ كيف

تحوّل ذاك الفتى الخجول إلى إنسان غليظ القلب؟ السلطان؟ لم يعد باشكوال يؤاخذ الحَكم، ولكن البنية التي أنجبت الحَكم...

عند الصباح أتت مرية. كان لا يزال نائماً، لأنه نام متأخّراً... غشيت غرفته كي تقول له إن القس أذن لها بالمبيت..

أخذت مرية تمضي الليل في البيت. ولم تعد تغادر إلى الأبرشية إلا يوم السبت، كي تصحو الأحد لحضور القداس.. لم يتغير بادئ الأمر شيء من ليالي باشكوال وهواجسه... ولكنه وجد نفسه شيئاً فشيئاً ينام نوماً متصلاً، وبدأ حديث ينتسج في البيت.. «مرية هل غلّقت الباب؟»، «الجو بارد»، «أنا ذاهب لأتمشى..»، «حساء وجبن..»، في أشياء بسيطة، ولكنها تنضح بالحياة، وتبقي شعلتها... كان باشكوال ذبالة تنطفئ، وأخذت هذه الأشياء البسيطة تبعث الحياة فيه، كما لو أنها قطر يسقي شجراً أتى عليه المَحْل وحلَّ به القحط.

مرة طلب منها أن تأتيه من الأبرشية بكتابات سينيكا... أتت مرية بكتاب **الحياة السعيدة** لسينيكا، باللاتينية..

في ليلة جفا النوم باشكوال. شعر بالاضطراب. نازعته الفكرة أن ينادي على مرية.. ما لبث أن أزاح الإغراء.. بقيَ متأرجحاً بين الرغبة في المناداة عليها والإعراض عنها. وأخيراً نادى من فراشه عليها. حضرت. سألته بغيته. ردَّ:

– هل يمكن أن تبقي معي في الغرفة؟

أجابت بلا تردد:

– نعم.

جلست على أريكة قرب السرير. بقيت لبعض الوقت دون حراك ودون أن تنبس بشفة. مدَّ باشكوال إليها يده يبحث عن يدها. سحبت يدها، ثم حرّكت رأسها علامة على النفي. نطق كي يطمئنها:

– ألا تريدين أن.. أن تقتربي مني...

ردّت في هدوء، دون أن يبدر منها الانزعاج:

- ليس لائقاً أن أقترب منك ما لم يبارك الربّ ذلك. ينبغي للقس أن يأذن لي. يمكن أن أبقى معك في الغرفة، هنا، ولكن ليس في فراشك...

اعتذرَ لها باشكوال.. لم يبدُ منها العتاب. وأخيراً صرفها من الغرفة. أهانت عليه ذكرى هند؟ لماذا نادى على مرية؟ عند الصباح تصرفت مرية كأن لا شيء طرأ، إلى غروب الشمس، ثم استأذنت باشكوال في الانصراف... لم تعد عند الغد. ولم تعد بعده... وانصرمت خمسة أيام، إلى أن أتى أسقف إشبيلية إلى المزرعة صحبة قسّ أستجة... لم تكن معهما مرية. قدّر أنها اشتكت منه بالتحرش، وأنهما أتيا للتعزير والتوبيخ... انسحبَ القسّ وبقيَ الأسقف. سأل الأسقف باشكوال:

- ألا تريد الحديث؟

- عماذا؟

- الاعتراف.

- لست مسيحياً.

- الرب لا يميز بين خرافه.

وتحدث باشكوال... ولأول مرة نفث ما بنفسه. بكى. اشتكى. بكى غياب هند، واشتكى ممن كانوا وراء الهجر وامتدّت أيديهم إليها. كان المأتمَ الذي فكّ عقدته... مسح دمعه وهو بالفراش.. لم ينبس الأسقف... ثم تكلم أخيراً:

- الرب يبارك علاقتك بمرية.

وصمت باشكوال... لم يعرف ما يصنع، وأخيراً برغم كلاماً غير مفهوم.

نادى الأسقف على القسّ. انفتح الباب، وانسلت منه مرية وهي

ترتدي ثوباً أبيض... كان مقرراً أن تلتحق بهما ـ أُغلق الباب وانسحب القس. لأول مرة افترت شفتا مرية عن الابتسام... بقيت حيث هي إلى أن أذنَ لها الأسقف...

اقتربت من فراش باشكوال حتى دلفت منه، ثم توقفت كجندي منضبط ينتظر الأوامر. سألها الأسقف:

- هل تقبلين بباشكوال زوجاً لك؟

ردّت على الفور أن نعم..

ثم توجّه بالسؤال ذاته إلى باشكوال:

- هل تقبل بمرية زوجاً لك؟...

ولم ينبس باشكوال... سادَ الصمت... جوابه يلزمه. هل ينسى هنداً؟ ولكنّ هنداً ماتت، وما دام لن يقترن بها، فسِيّان أن يقترن بمرية أو بسواها... وكأنما صوت يهمس له: لا تتردد. ولم يكن ذلك الصوت سوى نداء هند تبارِك اقترانه بمرية. كيف لشخص عقلاني مثله، أن يستنجدَ بأشياء غير عقلانية لاتخاذ قرار حاسم؟... أليس صوت هند الذي انسلَّ إليه، هو صوته هو، على لسان هند. أتكون هند قد أضحت جزءاً منه؟ شعر حينها أنها تسكنه، ونطق دون أن تنفرج أسارير وجهه بشيء:

- نعم.

عقّب الأسقف:

- يبارك الرب علاقتكما. وما عقده الرب لا يمكن للإنسان أن يفصم عراه.

ثم انسحب...

بقيت مرية واقفة لبرهة، ثم تقدمت بالقول:

- هل تريد أن أكون معك في الفراش؟

- كما تريدين.

- لا، كما تريد أنت...

كان يريد أن يخلو لنفسه... أن يتملّى. أن يُحدّث نفسه. بل أن يحدّث هنداً وقد حلت في وجدانه، أو هواجسه، ولكنه لم يرد أن يخدش مشاعر مرية...

- تعالي..

نزعت رداءها، وبقيت بقميص التشامير عبارة عن غلالة تبين عن معالم جسمها... نظر إلى تضاريس جسدها. لم تكن تضاريس جسد هند... هند كما عرفها قبل عشرين سنة... كيف يمكن أن تكون لو بقيت على قيد الحياة؟ ألا تكون السنون قد فعلت فعلها في جسدها؟... ومع ذلك لو كانت حية لتولّه بها، كما هي، بشعرها الموخوط شيباً، لتعلّق بتجاعيدها، بجسدها المترهّل... وبحركاتها الهادئة، وصوتها الوئيد... لأنه يحبها. أو كان يحبها. كم سنّ مرية؟ لم يسأل نفسه قبل اليوم هذا السؤال. في بداية الثلاثينات؟... جسم ممشوق لفتاة دائبة الحركة. أخذ يقارن ما بين جسدها وجسد هند. هند كما ترسّخت صورتها في ذهنه، في شبابهما. انغمرت مرية في الفراش، وتطامنت في حضنه.

- الأسقف والقس؟ سأل باشكوال.

- ذهبا. ردّت مارية.

- كيف تعرفين؟

- أعرف...

ضمّها بذراعه. لم يشعر بشيء.. لم تتحرك فيه الرغبة... ناما في حضن الآخر دون أن يمسها... ومضت أيام قبل أن يُقبّلها ويضاجعها.. كما لو كان ينتظر الإذن من هند.. أو كما يريد أن يجد بعثاً لهند.

تعلّمَ أن يتصالح مع الحياة برفقة مرية. أن يقف على الدواب

حينما يستيقظ. أن يُعنى بشؤون المزرعة. أن يحلَّ عند شبريقو بالسوق فيخوضان في أحاديث متصلة. أن يخلُص كما كان يريد للقراءة والتأمل، ولكنه لم يجد هنداً... ولم يسلُ عنها. وتعلقت به مرية... لم تكن تفصح عن كلمة الحب، وكانت تنوب عنها بالشدو والغناء. كانت لا تفصل علاقتها به عن علاقتها بالربّ، كما لو هي عبادة... كانت تدرك حدساً أنه بقيَ مسكوناً بهند، وكانت تعرف منه ذلك وهو مكبٌّ يقرأ باللغة العربية، ويكتب بها. كانت تعرف أن تلك الحروف التي تُكتب من اليمين إلى الشمال هي صدى روح هند...

15

كان الليل قد ألقى سجوفه وعمَّ الهدوء، إلى أن أيقظ الوجع راحيل فجأة. اعتدلت من فراشها وهي تتضور ألماً. أيقظ تأوهُها زيري... تلمّسَ الباب وسط الظلام، ثم أخذ قنديلاً يظل مشتعلاً خارج الغرفة... تراءى له وجه راحيل وهي تتقطع ألماً وتردد: «شاداي (اللّه العلي القدير)»... حدّق فيها:

- هل هو المخاض؟

- نعم، يا زيري.. تبلّلَ حجري... نادِ على لالّة...

تحوّل زيري في رفق إلى غرفة مباركة.. تنحنح، ثم شفع بالأمازيغية:

- عتّي.. (عمتي). انتفضت مباركة من فراشها، ثم صاحت مستفهمة:

- ممّي (ابني)؟

- عتّي، جاء المخاض راحيل...

ثم انسحب كي يتركها لحالها حتى تتهيّأ. ترك لها القنديل، واكتفى هو بشمعة أوقدها من القنديل... عاد إلى الغرفة وصوت راحيل يمزج ما بين الدعوة بـ«شاداي» وتلاوة الشميع... توضأت مباركة، ثم التحقت براحيل في غرفتها... خرج زيري من الغرفة وهو

يحمل شمعة. احتار... لم تطُل حيرته. التحق به باشكوال تصحبه مَرية وقد تناهى إليهما حسيس المستيقظين... برغمت مرية صلوات بالرومانية تمجّد الرب، ثم التحقت بالمرأتَين... تحوّل الرجلان إلى غرفة المجلس. بقيَ زيري واقفاً. دعاه باشكوال للجلوس وقدّم له نمارق كي يضعها وراء ظهره. كان ذهنه منصرفاً إلى تأوّهات راحيل. أدرك باشكوال حالته النفسية، وسعى أن يملأ الفراغ بينهما...

- ما زال الجوّ بارداً رغم علامات الربيع.. قالَ باشكوال.

- نعم... ردَّ زيري.

تبيّن باشكوال أن زيري قلق. عقّب باشكوال:

- هيا، لا تخشَ شيئاً. كل شيء سيمر على ما يرام. ستصبح أباً...

- المهم هو سلامة راحيل والجنين..

أخذَ باشكوال يمازحه:

- ولد أم بنت؟ أيهما تفضّل..

- سيّان... ردَّ زيري الذي لم يستطع أن يخفي انقباضه..

في تلك الأثناء انتهى إليهما صراخ راحيل. تواصل صراخها مشفوعاً بالنداء تارة لأدوناي، وتارة بشاداي، وأخرى كديش... وأحياناً بـ«ربي، آه يا ربي».

التزمَ باشكوال الصمت، أما زيري فظلَّ يدير رأسه كمن يستفهم... تناهى إليهما من بعيد آذان الصبح.. شعرا بالبرد. التفَّ باشكوال بلبدة ودعا زيري أن يفعل مثله... فاجأته مرية. اكتفت بالمناداة عليه «ثيري». نهضَ بسرعة وتبع مرية إلى الغرفة التي بها راحيل. شعر بالانقباض وهو أمام الباب. طرقت مرية الباب، وأذنت لها مباركة.. كانت راحيل ممتدة في الفراش، مغطاة بإزار يحجب بطنها وفخذَيها، وهي تحرّك رأسها من الألم، يبدو جبينها، من النور

الخافت للقنديل ومن معالم الصبح، ينضح بالعرق ووجهها يعتصر بالألم... كانت مباركة تمسك بمنديل وعن يسراها طست، وعلى مخدة وضعت سكّيناً لقطع حبل السُّرة. استدارت راحيل على وقع الباب، ونطقت في صوت ثقيل:

- زيري..

أرادت مباركة أن تخرج... استَبْقتها راحيل بإشارة من يدها. كان ألم المخاض يهز جسمها، دون أن يستهل الجنين... كان الإنهاك بادياً من راحيل. استجمعت قواها متحدّثة إلى زيري:

- هلّا فتحت تابوت الملابس؟.. هناك.. استخرجْ منه قلادة، هي مطوية في منديل.

فعلَ زيري ما أشارت به.. أراد أن يسلّمها لها... أشارت برأسها بالنفي.

- زيري، سلّم هذه القلادة لإستير كما طلبت منك... ثم شفعت: والآن دعني مع لالّة، ومرية.

ثم خرج. التحقَ بباشكوال. وجده ملتفّاً في لبدته، كمن يفكّر.. بدأ نور الصباح ينجاب في المجلس... عرض باشكوال:

- هل تريد أن آتي لك بلبن. إنه بالوطاب[1]..

- لا تزعج نفسك، باشكوال...

ثم سادَ الصمت بينهما يقطعه صراخ راحيل. ازداد حدّة وأكثر قوة... اضطرب زيري. أخذَ يحرّك رأسه يمنة ويسرة في حيرة. ارتأى باشكوال أن يدعوه للخروج خارج البيت والمشي في أرجاء المزرعة. أذعن زيري لطلبه. مشى لبعض الوقت، ثم التمس من باشكوال الدخول إلى البيت...

---

(1) الوطاب: سقاء اللبن.

كان صوت صراخ راحيل متصلاً يملأ المكان... كان زيري يتقطّع لسماعه صراخ راحيل... نهضَ فجأة، وبادره باشكوال:

- إلى أين؟

- عند راحيل..

- لا. دع مباركة ومرية يُولدان راحيل.. كل شيء سيمر في أحسن الظروف.

خفتَ صراخ راحيل.. ثم هدأ.. انبسطت أسارير زيري... عند بداية الضحى، ارتفع صوت صبي بالصراخ. هبَّ زيري نحو الغرفة.. في تلك الأثناء خرجت مرية. ما إن رأت زيري حتى قامت بعلامة التثليث... هنالك اندلع من زيري صوت صكّ الأرجاء. ودون أن يشعر مزّق جبته وأخذ يلطم الأرض... التحق به باشكوال. رفعه من الأرض وضمّه إليه... فارقت راحيل الحياة.

الجامع الكبير

1

بباب الساباط[1] من الجامع الكبير لقرطبة، اتخذَ فقيه مجلسه، غير بعيد عن قصر بني أمية، وقد بدا مهجوراً مذ صار بيتُ الخلافة بالزهراء وانطمسَ أثر الصقالبة. كان الفقيه يفترش جلد خروف، ويرتل القرآن، منذ الضحى، حتى آذان الظهر. إثرها يغشى صحن الجامع الكبير، يتوضّأ ثم يدخل المسجد يصلي به، ويعود إلى الصحن ينال ممّا يجود به المحسنون. فإذا طعم، غشي المسجد تارة أخرى، وتمدّد في سجاده المعروف بالوطاء البسطي، وقد لفَّ برنوسه عليه، لم يتوسّد غير يدَيه يضعهما تحت رأسه، ويَقيل لبعض الوقت، فإذا استفاق، توضّأ وصلى النافلة، وفتح القرآن يقرؤه قراءة تدبر، أو أخذ كتاباً من رفوف الكتب بالجامع وأكبَّ عليه حتى صلاة العصر. حتى إذا صلّاها

(1) الساباط هو زقاق مغطى، وتستعمل الكلمة في المدن الأندلسية بالمغرب في صيغة صبا إذ سقط حرف الطاء، لذات المعنى. كنت أحسب الكلمة من أصل إسباني، فإذا هي عربية لمّا سمعت عراقياً يستعمل الكلمة بمعنى ظلة من العنب المقابل للدالية بالمغرب، ومنها المثل في العراق «عنب صُباطك عالي»، أي صعب الحصول، فتبيّن لي أن الكلمة عربية ووجدتها كذلك. وقد ورد في **لسان العرب** أن السّاباط سقيفة بين حائطَين، أو بين دارَين من تحتها طريق نافذ. (**لسان العرب**، مادة سبط).

جماعة خرج إلى حديقة المسجد إن لم يكن مطر أو برد، واتخذ مجلسه تحت شجرة من شجره، واستجاب لطلبة طالبيه، ممن يلتمسون منه الفتوى، أو كتابة التمائم، أو تفسير الأحلام، أو قراءة الغيب. وكان أكثرَ من يقصده النساء وقد ردّدن فيما بينهنّ بركاته، يبثّنه في شأن أزواجهنّ، ممن أعرضوا عنهنّ أو هجروهنّ، أو اتخذوا خليلة، أو تزوجوا عنهنّ. وقد يقصده بعض خدم الدولة، لما يعرض لهم من تقلبات، وما يلقونه في مسارهم من تعثرات، ويلاقون من انتكاسات أو ما يتعرضون له من دسائس، فيشير عليهم بما ينبغي العمل به، أو يُطْمئنهم في شيء، أو يفسّر لهم مرمى حدث، ممّا قد ينطوي على أسرار ربانية خفية. وكان مما يزيد من لغز هذا الفقيه أنه لم يكن يقتضي أجراً، وكل من قدّم له مالاً أو هدية ردّه في رفق، أو وضعه تحت جلد الخروف، ثم يسلّمه لبيت الصدقات. بيد أن مصدر الإعجاب هو ما تردد من أنه كان يهودياً فتح اللّه عليه، وهداه إلى الإسلام. ولم تكتفِ العناية الربّانية أن هدته، بل أفاضت عليه من بركاته، فحفّظته القرآن. كانت تلك معجزة ترددها الألسُن في شأن هذا الكِتابي الذي فتح اللّه قلبه للإسلام، وأفرغ في صدره القرآن وعُلّم من تأوليه. وكان إن سأله سائل في شأن هذا الفضل الذي أوْتيه والمعجزة التي خُص بها اكتفى بالقول: «ما شاء اللّه فعل»، أو استشهد بالآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وكان أغلب ما يَرُدّ به سائليه آياتٌ من القرآن الكريم، يبشر ذوي الفضل بحسن المآب، مصداقاً لقوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾، أو يأسى بالموعظة لمن امتحنته الحياة أو أصابته معرّة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. وإن سأله سائل ما لم يستطع له جواباً، ردّ بلا حرج: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. كان كلامه القرآن الوقت أغلبه.

فإذا أذّن المؤذن لصلاة المغرب صلى الجماعة، ثم عكف يستمع

إلى دروس العشاءين إن كان هناك من درس، أو يستند على عمود من أعمدة المسجد، يصيخ السمع، فينتهي إليه ما يخوض فيه الخائضون.. يستند على سارية، ويزمزم بعض القول، ممّا قد يكون وِرداً أو دعاء، وغطاءُ جلبابه على وجهه لا ينزعه قط. ثم يرفع ذراعه، ويرسل: «أحمضوا فإن النفوس لتصدأ كما يصدأ الحديد» كما قال الصادق المصدوق. فيتحلق الناس حوله، ويأخذون في الحديث عمّا يعتري حاضرة قرطبة من أمور، أو بالأندلس عموماً، أو حتى من عدوة المغرب، فيصيخ السمع في اهتمام.

كان ممّا استقاه من تلك الأحاديث التي تنتهي إلى الجامع ممّا تمور بها قرطبة والأندلس، من أن الطوق ضاق على الحاجب جعفر منذ استوثقت العلاقة ما بين ابن عامر والقائد غالب، وترقية ابن عامر إلى منصب الوزارة. وقد سعى جعفر أن يكسر هذا الطوق بأن خطب من غالب ابنته أسماء لابنه، فلمّا بلغ الخبر ابن عامر خطبها لنفسه، وتحوّل غالب عمّا وعد به جعفراً وصاهر ابن عامر. سمع الفقيه الخبر.. توقف كمن يتملّى، ثم فاجأ محدّثه:

- حسبك. أذكروا اللّه يذكركم.

ثم شفع:

- أرحنا بها يا بلال. صدق رسول اللّه.

نهض للتوّ وصلى ركعتَين نافلة إلى أن يؤذّن المؤذن للعشاء.

كان ذلك دأبه بعد المغرب. وكان جمْع المصلين يتسارعون نحوه، ليبثّوه ما جدَّ من الأمر. كان يستمع في اهتمام من دون تعقيب. لا يبدر منه استحسان ولا استهجان.

وكان ما يثير الانتباه أنه كان مواظباً على حضور حلقات الدرس وبخاصة لأصحاب العقل والنظر. وقد شُده مرتادو المجلس وهو يحضر درساً عن ابن مسرة، وكان ابن مسرة مذموماً محسوراً منذ رسالة

شهيرة بعث بها الخليفة الناصر تُليت في المساجد يُشنِّع فيه على مذهبه. وكان ابن مسرة يشارك المعتزلة في القول بالقدر، وكان يقول بخلق القرآن، وله آراء يستقيها من فلاسفة الإغريق.

وكان الفقيه يحضر حلقة لا يرتادها الكثيرون لأبي سعيد بن فتحون السرقسطي، حول الفلسفة، وكان يسمّيها شجرة الحكمة. وكان الفقيه المعجزة يتردّد كذلك على حلقة محمد بن الحسن المعروف بالكتاني، وكان من أصحاب الرأي، له نظر في الفلسفة. وحضر حلقات أبي قاسم المجريطي، وهو عالِم في الهندسة والعدد .

حتى إذا أذّن المؤذن للعشاء صلى مع الجماعة، ونال بعضاً من الطعام بفناء المسجد، ممّا فضُل من الغداء أو ممّا يجود به المحسنون. وكان الطعام لا ينقطع عن مسجد قرطبة، ممّا يأتي من قصر الخلافة من الزهراء، أو من بيت الحاجب جعفر، أو من الوزير ابن عامر، أو من ذوي اليسار ممن آتاهم اللّه من فضله، يستبقون الخيرات. فإذا طعم الطاعمون رفعوا أكُفّ الضراعة شاكرين لآلاء ذوي الفضل، وعلى رأسهم الخليفة، صاحب الفضل الأكبر، والجميل الأوفر.

إذّاك ينفتل الفقيه إلى الغرفة المحاذية للمحراب، حيث يوضع الأموات قبل الصلاة عليهم، فيشتمل بغطاء وينام. وقبل أن يؤذن الفجر يجده المؤذن بالفرن، يمدُّ النار بالحطب ثم يُسَعّرها كي يجد المصلون الماء دافئاً للوضوء. . .

ومن أغرب ما علق بالفقيه، صاحب الكرامات والمعجزات، هو إصراره على لباسه المغربي، وعلى حرصه أن يسدل غطاء جلبابه على وجهه، بحيث لم يكن أحد يرى وجهه. وقد خاض الناس في سرّ هذا الغطاء، فمنهم من زعم أنه لداء أصابه فشان وجهه فهو لذلك حريص أن يخفيَه. ومنهم من زعم أنه لقماءة فيه، لا يقوى أن يُظهر الناس عليها، ولكن البعض كان يقول غير ذلك، ممن رآه بحمّام من

الحمّامات المجاورة لقصر بني أمية. كان قبيل صلاة الفجر يقصد الحمّام غالباً، ويكتفي بفانوس القاعة الكبرى، حيث تُرى الأشياء بلا تمييز، ولا يحمل معه فانوساً، ولكن ذلك لم يمنع من رأوه رغم لحيته الكثّة، من أن يقفوا على جمال وجهه، وأدركوا أنه كان يغطي وجهه حتى لا يكون فتنة للنساء. وتساءلَ الكثيرون كيف لرجل في مقتبل العمر، عليه وسامة وجمال ألا يقرب النساء... ولقد تجرّأ البعض أن سأله مرة أليس له أهل يأوي إليهم، فردَّ في رفق كمن يريد أن يقطع دابر الحديث: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

وأيقنوا أنه حصور لا يأتي النساء، ممن خصهم اللّه بفضله، ونزعهم من مهاوي الفتن وشرور الهوى، وأحابيل الغواية، وحصّنهم من الموبقات، وفتح لهم من أبوابه.

وقد سألَ البعض كبير أحبار اليهود عن هذا اليهودي الذي فتح اللّه قلبه للإسلام، وزادَ على ذلك أن أتاه من فضله فعلّمه القرآن. وأنكر الحبر معرفته بالشخص، وشفع بعدم الردّ عمّا يجهل. ولعلّه لم يكن يريد أن يغضب المسلمين ويخشى غائلة فقهائهم وبطش سادتهم ولذلك لم يجهر برأي، أمّا عامة اليهود فقد كانت تنال الفقيه بشائن القول لمن تولّى عن دينه، وكفرَ به. وكان الفقيه إذا سُئل عن ذلك ردَّ بآية: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾. وإذا حذّره أحد نقمة طائفته من اليهود اكتفى بالقول: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وقد زعم آخرون أن الفقيه دجّال. ودفع بعض أصحاب الرأي من المسلمين أنه محتال. وتندر بعض المولدين ممن أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم من شأن المسلمين الذين لا يُمحصون الأمور، وينساقون لكل حديث ويؤمنون بكل شيء. وكانت العامة من المسلمين

ترى فيما يقوله اليهود حسداً أشربوه، ورغبة في اللمز في دين اللّه الذي ارتضاه اللّه للعالمين، وهي ترى في أمر الفقيه حجّة دامغة على علو دينهم، وتردّ على أصحاب الشكّ من ذوي الرأي بالقول إنهم لن يؤمنوا حتى يدخل الجمل في سَمّ الخياط، وإن اللّه بعث آية عسى أن يهتدي من ليس في قلبه مرض.

كان المؤمنون الذين يترددون على الجامع يخصّون الفقيه الذي فتح اللّه قلبه للإسلام بكثير من الإجلال والتوقير، وحتى الذين لم يكونوا من المصلين، ويقصدونهم في شؤونهم الخاصة، لا يَقلّون إجلالاً له من المصلين.

كان الفقيه إحدى العجائب الكبرى ممّا لم تعرفه قرطبة، ولا حاضرة الأندلس. وقد رأى فيها الفقهاء إحدى معجزات الإسلام التي فضّل بها اللّه دينه الكريم.. ولولا ما عرفته قرطبة من أحداث جسام لكان لحديث هذا اليهودي الذي أسلم، وأوتي العلم، الحديث الذي يزري بكل حديث، والآية التي تدحض كل دعوى عن فضل الإسلام، ولكن ما عرفته قرطبة من أحداث جسام، والصراع المستعرّ ما بين الحاجب جعفر والوزير ابن عامر، جعلَ شأن هذا الإسلامي، أي من اعتنق الإسلام، يتوارى وينحصر فيمن يترددون على الجامع الكبير.

2

لم يكن من حديث في قرطبة خريف محرم 367، سوى الغزوة الثالثة التي كان ابن عامر يتأهّب لها ضد المماليك المسيحية. كان ممّا تردّد أن جند الحضرة تحت إمرة ابن عامر، سيلتقي بطليطلة بجند الثغر تحت إمرة القائد غالب قادماً من مدينة سالم... وكان الناس يدركون أن من شأن التقاء الجيشَين، تمتين الأواصر بين الرجلَين القويَّين غالب وابن عامر، وأن الخاسر الأكبر هو جعفر الذي أخذ نجمه يأفل...

كانت تتهيّأ ليوم خروج الجنود. ولم يشذ الجامع عن ذلك، إذ ما يفرغ الناس من الصلاة، حتى يتخذوا حلقات يتحدثون فيها عن ثأر المسلمين من كلَب المسيحيين، وتحالُف الرجلَين القويَّين لدفع غائلتهم، ويشفعون بالحمد أن قيض اللّه لقرطبة قائد الحضرة ابن عامر وقائد الثغر غالباً كي يرفعا راية الإسلام ويدافعا عن حوزته ويحميا بيضته.

خرجَت الجموع في ذلك اليوم الخريفي، من الزهراء بمحاذاة أسوار قرطبة، من باب ليون، فباب اليهود أو الهدى، حتى باب طليطلة، وعرّجت شمالاً إلى فحص السرادق، ليوم البروز. وتقدّم ابن عامر الجنود والحشود وهو يحمل اللواء، تتلوه جحافل الفرسان، والأعداد منبثّة في الجنبات تهلّل وتكبّر وتدعو لجيوش المسلمين بالنصر

والتمكين. . . ولم يبرح الفقيه مجلسه بجامع قرطبة. قعد في فناء المسجد، ورتل القرآن كدأبه ورأسه مغطى، ولم يقصده يومه ذاك أحد ممن دأبوا يلتمسون بركاته، أو يستشيرونه في أمر، إلا امرأة مشتملة بلباس أبيض، لا يُرى من وجهها سوى عينَيها. كلّمته ويدها على إزارها كمن تحرص ألا يسقط عنها حجابها. . . استمعَ الفقيه إليها، ولم ينبس بشيء. . ثم أسلمته صحناً به طعام، أخذه منها. وما إن غادرت حتى انفتلَ الفقيه داخل المسجد، واعتزلَ في زاوية يتملّى. وكان الجامع فارغاً من المصلّين يومه ذاك، ولم تقم به الدروس المعتادة، وأذّن المؤذن الظهر، ولم يزد جموع المصلين عن صف واحد. . . عقب الصلاة، دعا الفقيه الإمامَ والمؤذن إلى الطعام ممّا أتته به السيدة فنالوا منه، ثم استرخى بداخل المسجد، وسجّى عليه برنوسه. إلى أن أزفت ساعة العصر فنهض وتوضّأ وصلّى الجماعة، ثم اعتزل في مكان يقرأ، وكان حينها يقرأ نوادر أبي علي القالي. . .

وما أن حلَّت ساعة المغرب حتى أخذت الجموع تتقاطر على المسجد، وامتلأ عن آخره، وتفرّق الناس جماعات بعد الصلاة، تتحدّث عن النبأ العظيم وقد نفرَ جنود المسلمين من قرطبة، واهتزَّ المصلون حماساً، وثارت حميتهم إكباراً للقائد غالب، وإعجاباً بابن عامر الوزير، وتردّد أن الفقيه أبا بكر الزبيدي تلا بالزهراء في المجلس الشرقي، قبيل انطلاق الجيش، صحيفة لم تسمع قرطبة مثلها بياناً ولا بلاغة في استنهاض المسلمين، واستحثاث هممهم لحماية الحنفية السمحة. وقد رصّع خطبته بالمحسنات البديعية والاقتباسات التراثية، تحت عينَي الخليفة هشام أعز اللّه أمره، وخلّد في الصالحات ذكره، وختم بالدعاء له، وبالنصر لجند المسلمين. وقد ردّدَ الناس في الجامع أن الخليفة هشاماً سائر على سُنّة والده في الذب عن الإسلام والدفاع عن حياضه. . .

استمع الفقيه إلى ما تردّد. ولم يبدر منه قول أو رأي. وقد استثاره واحد من المصلّين بالسؤال:

- ألا ترى أن اللّه غالبٌ أمره؟

واكتفى بالرد:

- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وجيء بالموائد على الجامع بعد صلاة المغرب، وأخذ الفقراء والمحتاجون يتقاطرون بالجامع كي يصيبوا ممّا يجود به المحسنون. وأقيمت صلاة العشاء، وأجواء احتفائية تعم أرجاء الجامع. وصلى الفقيه مع الجماعة، ثم نهض للشفع والوتر، وبعدها انفتل من باب المحراب إلى حيث يرقد دون أن يصيب من طعام. استند على الوساد وسجّى عليه رداءه دون أن ينام.

3

تنبثُّ بيوتات رفيعة بمحاذاة باب بطليموس بربض هجنة الريحان، أغلب ساكنيها من اليهود من أهل الخدمة في البلاط، وغالبتيهم من ذوي اليسار. يقوم بالحي بيت، من دور أرضي تسكنه أُسرة يهودية لسبروت بن حسداي بن سبروت. كان والد سبروت في خدمة الخليفة الحكم، وكان طبيبه الخاص، ومستشاره. ولم يبلغ الابن مكانة الأب في العلم، ولم يمتهن الطب، فتعاطى التجارة. كان يُؤجر الدور الفوقاني، وكان لهذا الطابق خراجية أو منفذ ينتهي إلى الزقاق مباشرة من غير ما حاجة إلى الصحن. كانت تسكن الطابق الفوقاني يهودية من أهل الخدمة وصيفة للسيدة الكبرى صبح... وكانت لا تتردد على بيتها إلا بين حين وحين، لأنها كانت أغلب الوقت مع مولاتها، ولا تختلف إليه إلّا أن أرادت أن تسبت، أو لإجازة من مولاتها... كانت تُعرف بسلطانة... كانت متحفّظة، ولا تختلط بالساكنة. عرف لها الناس أدبها الجمّ وردّها للتحية... ولولا سكنها في ذلك الحي الأنيق لعلية اليهود وسبتها لما عرف أحد أنها يهودية. أخذت تتردّد على البيت كثيراً وكانت لا تحل به إلّا لماماً، ممّا كان يظهر من نور يشعّ من بيتها ليلاً، وكان قبلها منطفئاً الوقت أغلبه.

كانت لا تزال مستيقظة ببيتها في ساعة متأخرة من الليل. كان

الجوّ معتدلاً، كما يكون في الخريف بقرطبة. كانت تطل من النافذة، بين حين وحين. نفذَ البرد منها فأغلقتها. راغت إلى جانب الغرفة... فتحت سِفْر أيوب تقرأ منه على ضوء قنديل. كان كلّما أهمّها شيء قرأت من الكتاب المقدس، ولكن عقلها كان شارداً ولم يثبت على شيء... نزلت من غرفتها إلى أسفل كي تتأكّد من أن الباب غير مغلق بالمزلاج. ارتأتْ أن تترك الباب مواربا. كانت كمن ينتظر أحداً تأخّر... استرخت على السرير وأغمضت عينيها دون أن يداعبها النوم. وأخيراً سمعت خطوات متئدة من الدرج وقد جاوزَ الليل منتصفه. اعتدلت من فراشها... غشيت الغرفة هامة لا تظهر ملامحها، عليها غِفارة، وتغطي وجهها كمن يتستر من البرد. واجهته سلطانة بعتاب:

- لقد تأخرت...

- لم أبرح إلى أن خلا الجامع من الحشود. كانت الأجواء غير عادية. ثم إني وقد سلكت طريق سراديب القبو من المسجد لم أحمل قنديلاً. مشيت في الظلام كي لا يفطن بي أحد...

اقترب منها. أزاح الغطاء الذي يلفُّ وجهه. ضمَّ الفتاة إليه. قبّلها على شفتَيها. غارا في قُبلة عميقة. ثم صحبها للفراش. أعجلته:

- لا يمكن اليوم...

- كيف لا يمكن؟

- لا يمكن، للأسباب التي تعرفها...

- لكني؟

- أنت تعرف عزيزي زيري أن لا. هيّأت لك الطعام.

- ليس بي جوع. أريد قدح نبيذ.

- ألا تخشى أن تبقى رائحة الخمر في فمك؟

- الوقت كافٍ كي تذهب الرائحة قبل الفجر. ثم سأقضم أوراق النعناع. أحتاج إلى قدح خمر كي أزيح عني التوتر.

أفرغت له من زِقّ خمرة. تذوقها... أشار بيده نحو سلطانة. أقبلت نحوه وهو ممتد بالفراش. احتضنها ثم أخذ يربت على شعرها... استكانت في حضنه. ألْفت برد الراحة. أغمض عينَيه دون أن ينام.

منذ توفيت راحيل اقترن زيري بسلطانة. كانت تلك وصية راحيل. وكان كي لا ينكشف أمره ويتأتى له الالتقاء بسلطانة في مسكنها قد تنكر في صورة فقيه. كانت سلطانة لمّا تفرغ من الخدمة من عند مولاتها صبح، تأتي إلى الجامع، متدثّرة بملحفة، ومشتملة بإزار، وتهمسُ له بحلولها في بيتها، وهي تبدو كمن يستجدي الفقيه في أمر أو يُسرّ له بشيء. ما أن يفرغ من صلاة العشاء بالجامع، حتى يقصد مكان مبيته وراء المحراب. ينزع جلبابه ويدسّه في الفراش كي يبدو الفراش وكأن به شخص نائم. يلف دثاراً على وجهه، وينسلّ من دُرج نحو سراديب تحت الأرض لا يعلم بها إلّا القليلون، يسلكها بعض المصلين من عليه القوم، ينفذون منها من أجباب[1] بيوتهم، اتقاء البرد أو المطر.. ينزل زيري إلى تلك السراديب من الجامع متدثّراً، وهو يحمل قنديلاً، وقلما يلتقي بمارٍّ، وإن التقى به ألقى التحية، ثم أتم المسير، ثم يرتقي الدرج الذي يقوده إلى باب بطليموس، ينفتح من الداخل، ومنه يقصد حارة ربض الريحان، ومنها إلى بيت. يدفع الباب، ثم يرتقي الدرج المفضي إلى سقيفة تفضي إلى سكن سلطانة. يظل معها حتى قبيل الفجر.. لا يسلك الطريق نفسه حين العودة، إذ يسلك الطريق الأرضي. يغشى المسجد من الباب الخلفي الذي ينفتح

(1) جمع جُبّ.

على باب القنطرة. يقصد مكانه ويرتدي جلبابه، ثم يذهب إلى الميضأة، ويزيح الرماد من الجمر، ثم يضع الحطب ويُسعر النار، إثرها يقصد حمّام المسجد، ويغتسل. فإذا فرغ عمد في إشعال الشموع في الجنبات المنطفئة القريبة من المحراب. ولا يحل المؤذن إلّا وهو محتبٍ في فناء المسجد يقرأ القرآن. فيستمع إلى الآذان، ويصلّي الفجر جماعة. فإذا فرغ الناس من الصلاة هجع بعدها حتى الضحى.

فاجأته سلطانه وقد ألفته مطرقاً:

- أراك لا تنطق بشيء.

اهتزَّ زيري، وقد كان ساهياً. ردّدَ فزِعاً:

- كنت... كنت أفكر في يوسف، ابني..

- ألا ترى أن تأتي به... يمكن أن أعتني به.

- هو الآن في أيادٍ أمينة... وأنا وأنت موزعان...

- مرحلياً... الأمور ستستقر.

- إن استقرّت.

- كيف؟ أتشك في مآل الأمور؟..

- لا أدري.. الناس كمن يركب سفينة ويتحرّك بها، ويذهل عن حركة الرياح.. حركة الرياح تفيد أننا مقبلون على تحول عميق. لسنا متحكمين في شيء.

- لم أكن أعرف عنك أنك متشائم.

- أسعى أن أكون واقعياً.

- على أي، سأحتاجك في شيء.

- مرحى بطلبك.

- مولاتي.

- ما بها؟

- في وضع سيّئ. منذ بلغها خبر اقتران ابن عامر بأسماء بنت غالب. كانت تحسبه صنيعة لها لن يتحول عنها قط.

- الخيانة في هذه العوالم طبيعية... وميزته أنه بزّ الآخرين في الخيانة.

- تريد مولاتي أن تلتقي بك...

- لا، ليست فكرة وجيهة.. عيون ابن عامر ترصدها وسينكشف أمري، ولن أفيدها في شيء.

- يمكنها أن تأتي إلى هنا.

- سيّان... لن تأمن عيون ابن عامر... الأحسن أن تبقي أنت الصلة بيننا.

- تريد الحديث إليك...

- في هذه الحالة، تأتي إلى الجامع... كامرأة تستجدي تميمة من الفقيه أو بركة منه، أو هذه الخزعبلات التي يكلف بها الناس. حتى لو رآها الناس جهاراً، لن يدرك أحد غاية زيارتها.

أمسك زيري سلطانة، كما لو أن الحديث عن صبح لا يهمه. أخذ يقبّلها. ثم شرع في نزع ملابسها...

- قلتُ لك زيري، غير ممكن...

- و لماذا؟...

- أخشى ألّا تضبط نفسك بعدها...

- كنت أود اليوم... أفكر أن أذهب إلى أستجة قريباً...

- لا يمكن يا زيري أن تذهب إلى أستجة... مولاتي حريصة أن تلتقي بك.. ثم لو غادرت الجامع سيثير ذلك شكوك الناس، وقد ينكشف أمرك...

- لأكثر من ثلاثة أشهر لم أرَ ابني..

- هناك وضعية جديدة، وقد آن الأوان كي تضطلع بدور رائد. . .
- لا أرى أن ذلك ممكن، يا راحيل.
- لست راحيل زيري. . كُف أن تنظر إليّ من منظار راحيل. . .
أنا إستير، أو إن شئت سلطانة.

4

بعد أن انصرمت مدة ثلاثين يوماً عن وفاة راحيل أو الشوليشم، وهو عِدّة الحزن عند اليهود، غادر زيري أستجة إلى قرطبة عند نعمان الجماعة وأخبره بوفاة راحيل. أخبر النعمان الحبر.. استقبل الحبر زيري وأخبره أن راحيل دفنت بأستجة وفق طقوس اليهود، وأنها خلّفت ولداً منه. ثم أطلعه على قصتها معها، وبوصية راحيل لإستير. كان ينبغي برّاً بذكرى زوجته أن يسلّمها القلادة... ولم تكن إستير سوى سلطانة. كان ذلك اسمها في البلاط. ونودي على إستير من الرصافة إلى الكنيس بقرطبة. غشيت الكنيس متدثّرة الرأس. نعى لها الحبر راحيل. سالت دموعها دون أن يهتز صوتها. ثم أسلمها القلادة. أمسكتها. ثم استدارت نحو الحبر كمن تستجدي إذنه لاستلامها. رفع الحبر رأسه وحرّكه بالإيجاب.. ثم انطلق يردد الدعاء «أداش»، ويرتل: «إشمع إسرائيل أدوناي أخذ»... واستمر في الترتيل، وزيري لا يفقه شيئاً ممّا يُردد من صلوات بالعبرية ومن تهجُّد... وأخيراً أمسك الحبر عن الترنيم.. تقدم نحو زيري. أخذ يده. سأله:

- أتعرف معنى القلادة المهداة لإستير؟

- لا.

- أن تقترن بإستير.

ويرغم زيري:

- ليس بنيتي أن أتزوّج.

- عندنا في طقوسنا ما يُسمّى باليبوم، من أجل إبقاء عَمَد الأسرة.. حينما يموت زوج يتزوج أخوه بزوجته، وحينما تموت الزوجة يتزوج الزوج من أختها.

- لست يهودياً.

- أعرف، ولكن المرحومة راحيل شهدت لك بحسن النقيبة.

- ربما. ثم إن حياتي معرضة للخطر. لا يمكن أن أُعرّض شخصاً آخر لما يعتري حياتي من مخاطر.

- كما تشاء يا ابني. أخبرتك بوصية راحيل.

وما لبث زيري أن أجهش بالبكاء. جلس على كرسي خشبي، ودسَّ رأسه بين ذراعَيه وهو يبكي بكاء مرّاً. كان حدث وفاة زوجته راحيل غضاً، وأهاج ذلك ذكراها... لم تنبس إستير ولم تتحرك من مكانها. وقف الحبر في مكانه ينظر إلى زيري وهو يبكي.. ثم أخذ صوت زيري يخفت. لم يعد يبدر منه سوى الفواق. مدَّ له الحبر منديلاً. مسح وجهه. أجال زيري النظر، كمن يستجدي مخرجاً... لماذا أوصت راحيل بذلك؟ كانت إذاً تستشعر الموت أثناء الوضع... كان حديثها مبهماً ولم يستشف زيري منه ما كانت تقصد إليه. هل قامت بوصيّتها كي يقترن زيري بإستير من أجل الوليد، أو من أجله، أم من أجل من؟ لماذا تُطوقه بهذا الوثاق؟ ولماذا تُطوق صاحبتها؟ وهل يستطيع أن ينكث بوصيتها؟ وكيف له ألا يبر بوصيتها؟

رفع رأسه مستجدياً الحبر:

- ولكن...

ولم يبدر منه قول.. ثم واصل في عسر:

- أعني، هل الفتاة تقبل بي؟

- نعم. هي قبلت.. لأن ذلك ما تقتضي به الأعراف، قال الحبر.

أراد زيري أن يقول إنه غير مستعد، ثم تدارك...

- أريد قدح ماء.

أتى له الحبر بالماء. ارتشف منه، واستدار نحو الحبر:

- أحتاج أن أطّلع الشخص الذي احتضنني.

وردَّ الحبر دون أن يستجدي رأي إستير:

- وإستير في حاجة كي تخبر مولاتها... عد متى شئت، سوى يوم السبت طبعاً...

ألقى زيري بنظرة إلى الفتاة، كمن يعتذر. خرج لا يلوي على شيء. قصد مكاري واستأجر زاملة[1]. غادر للتو إلى أستجة... بدأت معالم الصيف ولكن الجو ما يزال معتدلاً. قطفَ بعض المشمش من الحقول. توقف بنزل به خمارة... شرب كثيراً ونالَ بعض الطعام. راودته فتيات هوى. أعرض عنهنّ. نام في غرفة تنبعث منها رائحة البول والعرق... وقبل أن يسفر الفجر امتطى راحلته... بلغ أستجة قبيل الظهر... وجدَ مباركة خارج البيت وهي تحمل يوسف.. ما إن رأت زيري حتى هبّت نحوه وهي تصيح مبتهجة...

- زيري، زيري..

ثم عنّ باشكوال والبهجة على مُحيّاه.. حلت مرية وهي تقوم بإشارة الصليب... أخذ زيري يوسف من عند مباركة وقبّله على رأسه ووجهه ويده، ثم أعاده لمباركة. عانق باشكوال عناقاً حارّاً. كانت بالبيت فتاة في مقتبل العمر، تحمل صبياً... سأل زيري مباركة عنها:

- المرضعة... هي مع ابنها.

---

(1) الزاملة هي البغلة.

وعقّب باشكوال:

- شبريقو من أتى بها...

لولا ذكرى راحيل لكان البيت ينضح بالسعادة... وهل كان لهذه الآصرة أن تكون من دون ذكرى راحيل؟ وضع زيري صرّته بالمجلس. لم تطاوعه نفسه أن يحل بالغرفة التي احتضنته هو وراحيل.. استأذنَ زيري باشكوال في أن يقف على قبر راحيل. في ربوة بالمزرعة، دفنت راحيل... صحب باشكوال زيري إلى قبر راحيل. وقفا دون أن يبدر منهما كلام. أحنيا رأسيهما في خشوع... وفجأة انفجرَ زيري باكياً..

تعود تلك الصورة لزيري، كلما اختلى بإستير... ذلك أنه شعر حينها كما لو أن راحيل كانت تحدّثه من وراء الرمس وتلومه على التأخر والتخاذل فيما أوصته به.. كان كمن يود أن يسألها: لماذا يا راحيل؟ لن تُبعث راحيل لتجيب. العجز هو ما دفع به أن انفجر باكياً... حينما استدار نحو باشكوال وهما واقفان بالربوة على قبر راحيل، وجدَ أن عينَي هذا الأخير كانتا محمرّتين كذلك. ما جدوى أن يستشير باشكوال في الاقتران بإستير؟ لن يفيده في شيء. عادا إلى المجلس. حمل زيري يوسف. أخذ يلهو معه لبعض الوقت... أشاع فيه الصبي الحبور. أعاده بعدها لمباركة.. وعند الغد صباحاً غادر أستجة.. اكتفى بإخبار باشكوال بعزمه الاقتران بإستير.. واكتفى باشكوال بالردّ: صحبتك السلامة... فاجأته مباركة وهو على زاملته. نزل منها.. مدّت له صرة... كانت صرة تضم نقوداً ومجوهرات ونفائس..

- لماذا عتّي؟ لا أحتاج مالاً.

- بلى...

- يمكن أن أشتغل...

- هو لك... لا تغضب عمتك.

- لا يا عمتي.

- إذاً هو مال ابنك يوسف. أقسمت باللّه العلي العظيم إلا أخذته.

- سآخذه وأحتفظ به عند باشكوال.

وانصرف بعدها نحو قرطبة.. توقّف في السوق عند شبريقو عرفاناً لما قام به، إذ هو من قام بالجنازة، وهو من أتى بالحبر كي يقرأ الترانيم على روح راحيل...

بلغ زيري قرطبة عند الغد بعد أن توقف في نزل حيث أمضى الليلة. قصد الكنيس وعبّر للحبر بالإيجاب دون أن يعرف لماذا.. عند الغد حضرت إستير. أخذَ الحبر كأس خمر وأخذ يتلو أدعية بالعبرانية على الزوجَين، ثم نطق بها بالعربية عن قصد لكي يفهم زيري:

الحمد للّه العلي القدير ربّ العالمين
الذي خلق الفواكه والخمر والرياحين
الحمد للّه الذي طهرنا بوصاياه الحميدة
وأمرنا في الدين بالعفة والفضيلة
ونهانا عن المنكر والفحشاء والزنا
وجعل لنا في الزواج والحلال رباطاً متيناً

الحمد للّه ربّ الأراضي والسماوات
الذي جعل المجد من حظوة المخلوقات
الحمد للّه ربّ العالمين
الذي خلق الإنسان وأحسن تصويره
وجعل منه أثراً يخلّد اسمه وذكره
الحمد للّه ربّ العالمين
الذي خلق الإنسان
آمين.

ما الفرق بين ما قاله الحبر وأي إمام في أي ربع من ربوع الإسلام؟... ومع ذلك يتنابز الفريقان، ويعتبران كلاً منهما مالكاً للحقيقة، وهما يعبّران عن الحقيقة ذاتها. لا بدَّ للمرء أن ينسلخ عمّا ألف كي يرى الحقيقة... ما كان يمكن أن يكون سُبُلاً لحقيقة واحدة، أصبح سياجاً وسُجفاً.

منذ وفاة راحيل، لم يعد زيري يتستر في داخل نفسه عن هذه الحواجز التي ترسمها الأديان... لكنه كان ينبغي له أن يخاتل.

رشّهما الحبر باللبن، تيمُّناً وتبريكاً.. تركه يفعل.. ناما أول ليلة في جناح بالكنيس. واغتسلت إستير بماء المطر المدخر في الجبّ...

كيف يمكنه أن يعيش مع إستير دون أن يثير شبهات؟

تفتق ذهنه على تلك الحيلة كي يبقى قرب إستير بأن يتستر في صورة فقيه بالجامع غير بعيد من المكان الذي تنزل به حينما تفرّغ من خدمة سيدتها.. لم يكن ذلك هو الأصعب... في أسوأ الحالات قد يُضبط، ويُقبض عليه، ويُقتل... ولم يكن يخشى الموت.. الأصعب هو أن يعيش مع إستير من دون شبح راحيل... ذلك لأنه لكي تكون إستير إستير كان ينبغي لراحيل أن تندثر، وكانت راحيل تسكن شغاف قلبه... كلما اختلى بها حلَّ شبح راحيل...

5

يزدان الجو في الخريف بقرطبة، رغم ما يعتريه من تقلبات مناخية يُنسي الناس قيظ الصيف.. كانت الحركة الاقتصادية والتجارية في الفترة التي صادفت الغزوة الثالثة لابن عامر قد انتعشت، وكأن التجّار الصغار والحرفيين أخذوا يتنفّسون الصعداء من رجالات جعفر وأزلامه من أصحاب الشرطة والخدمة والحسبة، الذين كانوا يثقلون على التجّار والحرفيين بالإتاوات، منذ آلت أمور الشرطة الصغرى لابن أخ ابن عامر.

اتخذ الفقيه المعجزة مكانه في فناء المسجد، في ذلك الجو الخريفي المعتدل وقد أسدل، كالمعتاد، غطاء جلبابه على رأسه، وهو يرتل القرآن حين حلّت به امرأة مشتملة بإزار. توقّف عن التلاوة. همسَ بصوت خفيت:

- سلطانة، ما الذي أتى بك؟

- مولاتي، ستحلُّ عندك بعد قليل...

- هل اتخذتما الاحتياطات اللازمة؟... العيون منبثّة في كل مكان.

- تحل مولاتي كمن تترحّم على قبر زوجها بتربة قصر الخلافة،

ثم تُعرّج عليك كمن تتبرك... لن يشك أحد في أمرها... اسعَ ألا يقترب منك أحد، أو إن اقترب منك أحد، تغيّر موضوع الحديث.

- هل ستحل وحيدة أم مصحوبة؟

- سيصحبها خدمها، ولكنها ستختلي بك من دون مرافق... مساء أنتظرك... لا تتركني أنتظر طويلاً. لقد اغتسلت...

ثم مدت سلطانة بضعة نقود. استلمها الفقيه، كي توقع في الأذهان أنها تستجديه في خدمة، ثم وضعها دون أن ينظر إلى قيمتها تحت الهيدورة (جلد الخروف)...

عرف الناس السيدة الكبرى صبحاً وقد حلّت بالجامع، مصحوبة بخدمها ووصيفاتها، فأفسحوا لها... أكبروا لها وقوفها على قبر زوجها، ووفائها لذكراه، ثم عرّجت على الجامع، وأفاضت من جودها على الفقراء والمحتاجين، وقصدت بعدها الفقيه في زاويته. لم يتحرك الفقيه من مكانه، ولم ينزع غطاء جلبابه من رأسه، ورأى الناس وصيفة تسدل لبدة ثم تتوارى كي تحتبي عليها صبح في احترام للفقيه...

بادرَ الفقيه صُبحاً وقد احتبت حتى يزيح هواجسها ويشيع فيها الطمأنينة:

- عِمتِ صباحاً مولاتي...

وانبسطت صُبح. اندهشت لطريقة كلامه ممّا ينم عن معرفته لطقوس بيت الخلافة. ردّت:

- بورك فيك أن قبلت بملاقاتي.

- هذا شرف لي يا مولاتي.

- أطلعتك سلطانة من دون شكّ بالموضوع..

- نعم، والخيرة التصرف بحكمة. لا ينبغي إبداء أي مظاهر غضب.

- كيف والوغد استغلَّ سذاجتي حتى تمكن من الأمر. سيسعى أن يتخلص مني وقد تقرّبَ من غالب.. الخلافة مهدَّدة.

- لو بدر منك غضب يا مولاتي فسيسيء ذلك لصورتك... الجزع عند المصيبة مصيبة أخرى كما يقال.

- ما العمل؟

- تشرفين على حفل زفافه من أسماء بنت غالب. ينبغي أن تظهري بمظهر من يبارك زواجه، حتى تضعين حدّاً للإشاعات.. ينبغي أن تُظهري الفرحة لاقتران الرجلَين القويَّين.

- ماذا سيغيّر ذلك من الأمر؟

- تُفنّدين الإشاعات. تظهرين بمظهر المتعالية ذات الكلمة العليا، التي تؤثّر في الأشياء أكثر ممّا تتأثر بها، وتشيعين الإحساس بأن الخلافة في منأى عن الخلافات، وقوتها من قوة رجالاتها.

- أن أُظهر الابتهاج لاقترانه بأسماء وتحالفه مع غالب؟

- نعم، تظهرين خلاف ما تسرّين.. ثم تدبّرين الأمر في هدوء...

- بماذا تشير عليّ؟

- أن تستميلي القائد غالباً... هو القوة الوحيدة التي يمكنها أن توقف مد ابن عامر...

- كيف وقد أصبح صهراً للوغد؟

- غالب رجل دولة... هو قبِل بالمصاهرة مع ابن عامر حدّاً لنفوذ جعفر... لن ينقلب غالب على الخلافة. ولن يساير من قد يجترئ عليها... بعد حفل الزفاف تبعثين له بخطاب شفوي ممن تثقين به.. احذري الخطابات المكتوبة.

- سأبعث له أخي رائقاً إذاً.

- نِعم الاختيار.

استدارت صبح يمنة ويسرة، كي تتحسس إن كان شخص ما يستمع إليها.. ثم واصلت:

- قد أعود إليك إن احتجت إليك.

- يستحسن أن لا. سيثير ذلك الشكوك. المرة الأولى، لن يشك أحد، المرة الثانية ستساور الشكوك العيون، وما أكثرها. إن كان هناك شيء، يستحسن تبلغيه عن طريق سلطانة...

وتأهّبت صُبح للنهوض، ولم يتحرك الفقيه، ولم يُقدم على تقبيل يدها. أشارت صبح برأسها على خادم أقبل مهرولاً. قدّم صرة ممتلئة نقوداً للفقيه. عبّر الفقيه عن الامتنان بحركة من رأسه... ثم انصرفت صبح. نهض بعدها الفقيه... جمع هيدروته ولفَّ بها الصرة. تحلقت حوله نساء تستجدينه للتبرك منه. صرفهنّ بيده ممّا يفيد أنه ذاهب لتجديد الوضوء. وضع هيدورته والصرّة في موضعه وراء المحراب. قصد الميضأة. توضّأ ثم انزوى برحاب المسجد. صلّى ركعتَين ثم قعد يتملّى... ماذا لو عرفت صبح أنه الشخص الذي أخذ عن الحَكم حكيه وعرف عنه حقيقتها؟.. حتى سلطانة لا تعرف هذا الفصل من حياته ويستحسن ألا تعرف... في الحياة تقلُّبات غريبة، تجعل العدو صديقاً، والصديق عدواً... لا حاجة إلى إماطة اللثام عن اللغز... بقيَ الفقيه في مكانه حتى صلاة الظهر... ثم أفشى لمُقدّم المسجد أن تعود النسوة ممن يردن التبرُّك منه بعد صلاة العصر، وليس قبلها.

6

احتشدَ الناس في جنبات أزقة قرطبة وأروقتها منذ الصباح الباكر رغم البرد. كان النفير قد أقبلَ مؤذناً بأن جند ابن عامر على مرحلة من قرطبة، وسرَتِ الأنباء أن جيشه التقى بجيش الثغر بقيادة غالب بطليطلة وقصدا الشمال، حتى شلمنقة، ودوّخا الممالیك المسيحية، وسبتْ جيوش المسلمين الغنائم الوفيرة، وأسِرت الأعداد الكبيرة من المسيحيين. . . كانت الجموع شوقاً لترى جند المسلمين وقد عادوا مظفرين. . عند الضحى بدت طلائع الجند على جيادها، يتقدّمها الوزير ابن عامر، ومن ورائه فرسان يحملون على أسنّة الرماح رؤوس الكفّار من المسيحيين ومن ورائهم الأسرى مكبّلين بالأغلال من الأعناق، يمشون في عسر. . . وما إن اقتربَت الطلائع من باب طليطلة حتى ارتفعت الهتافات، فرحاً وبهجة، وتدافع الناس بالمناكب كي يروا ابن عامر وأسِنّة الرماح تحملُ رؤوس القتلى من المشركين. صدحت الحناجر بالتكبير والتهليل، وكان من الحشود من قطع الموكب ليلمس ابن عامر أو يقبّل يده، وابن عامر من عل حصانه يلوح بيده ابتهاجاً وحبوراً. ثم سارَ الموكب حتى باب الحديد، ولفَّ شمالاً على مستوى الجامع من باب القنطرة حتى باب ليون، ومنها سلك طريق الزهراء، حيث احتشدَ الناس من الأرباض، إلى قصر الزهراء، مروراً بالرصافة.

وسرت الأنباء أن الخليفة أعز اللّه أمره، هو من سيستقبل الجند من باب الأقباء. ولم يكتفِ الناس بالتهليل والتكبير، بل خرج أصحاب الغناء بالمزامير والطبول والدفوف، وكان منهم من يرقص بهجة، ومن يغنّي فرحة لنصر المسلمين على المسيحيين.

وظلَّ الناس في حالهم ذاك النهار كله، وعادوا إلى بيوتهم، ولا حديث لهم إلّا عن ابن عامر الذي قلّده الخليفة خطة الوزارتَين أسوة بالقائد غالب...

لم يبرح الفقيه مجلسه من الجامع الكبير، ولم يلتحق بالجموع، حتى إذ حلّت صلاة المغرب أقبلت الحشود على الجامع، وهي تبدي وتعيد، مبتهجة بنصر المسلمين. انزوى الفقيه في ركن من الجامع، وقد أحاطت به حلقة من مرتاديه، وأخذَ شخص يحدّث بفخر أنه أحصى رؤوس القتلى، ولولا ما ألقى ابن أخ جعفر من الرؤوس في النهر، حسداً منه لابن عامر، لكانت الرؤوس أكثر من ذلك بكثير. وحدّث آخر عن بطولات المسلمين في شلمنقة، وكيف أحيط مئة من المسلمين من قِبل عشرة آلاف من المسيحيين، لعنهم اللّه، فتحدّث فيهم ابن عامر، ونفث فيهم قوة لم يعهدوها من أنفسهم، فإذا هم كالطير الجارحة على البُغاث، وإذا كل فارس من فرسان المسلمين بمئة، فأثخنوا فيهم قتلاً، وفرَّت فلولهم.

وتنحنح الفقيه، فوجمت النفوس، ثم قال:

- الحمد للّه على نعمة الإسلام، وعلى النصر الذي منّ اللّه به على جند المسلمين، وليسمح لي المحدث الفاضل، أحضرَ الوقْعة كي يخبرنا النبأ اليقين؟

ردَّ الشخص وجلاً:

- كلا.

- هل أخذها من شخص حضر الوقعة؟

ردَّ:

- كلا...

- هل يُعقل أن مئة شخص يمكنهم أن يقضوا على جماعة من عشرة آلاف، وأسلحتهم متقاربة...

اضطرب المتحدث وأجال رأسه في الحلقة كمن يستجدي مددها... دفع قائلاً:

- اللّه فعال لما يريد.

- نعم، ولكن اللّه سبحانه وتعالى وضع سُنناً للكون.. فلا يمكن للرجل أن يحبل، ولا يمكن للشمس أن تشرق من المغرب..

- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾...

وتوقف الفقيه، كمن تبيّن عدم جدوى الخوض فيما يؤمن به الناس ويعتقدونه، فردَّ:

- صدقت.. قوموا إلى صلاتكم...

وصلى العشاء جماعة، فالشفع والوتر، ثم انحاش إلى مكانه وراء المحراب، ونزع جلبابه، ثم لفّه، ووضعه في فراشه، وانفتل للتوّ إلى الدهليز، غير عابئ بأي شيء، ولا خائف أن ينكشف أمره.. كان الناس في شغل... خرج الفقيه من باب بطليموس، وقصد بيت سلطانة... كان الباب مغلقاً... نقر عليه نقراً خفيفاً... لم يرِدْ رد. عاود النقر... تراجع نحو الزقاق.. كان فارغاً... أرسل صفيراً. لم يبدر ردّ، ثم أرسل في خفوت:

- سلطانة، افتحي...

أطلّت سلطانة من النافذة... ثم هرعت مسرعة لتفتح الباب... قالت وهو على عتبتها:

- زيري؟ كيف؟... لم تمهلني كي أترك الباب موارباً.

- دعيني أدخل أولاً.

صعد الدرج فيما أغلقت سلطانة الباب بالمزلاج...

ارتمى على البساط. وضع مخدة وراء ظهره ووضع نمارق بين ذراعَيه... سألته سلطانة:

- ما الذي دفعك أن تأتي قبل أن تهدأ الحركة؟

- الناس مشغولون... وأضيق ذرعاً بحديثهم واهتماماتهم. ثم أضاف: اسقيني خمراً...

- لا تبدو جيّداً حبيبي...

- تعبت... تعبت من هذه اللعبة... لا أدري لمَ أقوم بها...

- ليس هناك من بديل كي نبقى قريبَين من بعضنا...

- قدح خمر أولاً... أريد أن أنسى ما سمعت...

- ما الذي أغضبك؟...

- الناس تبتهج للقتل... لمنظر رؤوس القتلى... للأسرى، للسبايا. ابن عامر يحشد العامة بأسوأ شيء يمكن أن تحشد به. بالدعوة للدم والقتل، بدعوى الدفاع عن الإسلام... أشخاص لا يؤمنون بشيء، ويُقدّمون أنفسهم مدافعين عن الإسلام، وبأسوأ طريقة.. ثم عامة تعيش في الخرافات والأوهام..

- لو لم تكن تعيش في الخرافات لما استطعت أن تندسَّ بينها. ينبغي أن تعترف بالجوانب الإيجابية لذلك..

- صحيح، ولكني لا أفعل ذلك عن اختيار، بل اضطرار.. كي لا ينكشف أمري... ولم أعد أطيق اللعبة...

- لم تعد ملكاً لذاتك، مولاتي تعوّل عليك...

ثم أضافت:

- ألفتْك طيّب المعشر، وأحبَّت طريقة حديثك.. وانبهرَت لمعرفتك بالطقوس. كانت تتوقع شخصاً أجلف.

مدّت له قدح الخمر. أتى عليه...

- تعرف يا حبيبي بعد أن نكسب غالباً، يمكن أن نتخلص من ابن عامر. مولاتي تعتبر ذلك كابوساً، ولا تطيق حتى ذكر اسمه...

- ينبغي أن يعرف المرء عدوه، وألا يستهين به. ابن عامر ليس لقمة سائغة...

- معك، وبفضل غالب، وجنود الثغور نتخلص منه...

- أتمنى ذلك...

جذبها إليه. استكانت في حضنه. قبّلها على جبينها... استدارت نحوه كي تنظر إليه:

- لي إليك مفاجأة سارّة.

- أأخذ الناس يفكرون بعقولهم؟...

- قلة هي من تفكر بعقلها... هذا أمر لم يحن أوانه، وما أحسب أنه سيحل.. أتحدث عن شيء آخر... أخذت مولاتي بفكرتك، وهي من سيقوم بالعرس في بيت الخلافة، وتحرص على أن تحضر العرس...

- أنا؟

وقهقه زيري، ثم تساءل:

- بأي صفة؟

- اقترحت عليها أن تكون في جناح أهل الذمة مع اليهود والنصارى، ولكنها ارتأت أن تضعك مع المولدين من البنشكنس... لن يفطن لك أحد... وأصحاب الخدمة من بيت الخلافة هم من يقوم بالترتيب.. لن يقف رجالات ابن عامر على شيء...

- في الوضعية التي أنا عليها لم أعد أخشى شيئاً.. دثّريني من فضلك...

- ألا . . . ؟

- بلى، بعد لأي. . .

ثم ضمّها إليه وقبّلها وهو ساهٍ.

7

بدت علامات الربيع وتفتقت براعم الزهور، وصدحت زقزقة الطيور، وتأهّب الناس للاحتفال بيوم النيروز[1] لسنة 978 الميلادية الموافق لـ 368 للهجرة.. ارتدت النساء أحسن لباسها، وأخذ الرجال يترددون على الأماكن العامة التي صدّهم عنها البرد والمطر والريح، وأشعل الأطفال مواقد النار أمام البيوتات، يقفزون عليها كي يتطهّروا من الأرواح الشريرة، ويدرؤوا سوء الحظ... أما الفتيات فكنّ يذرعن الأزقة وهنّ ينقرن على الدفوف وينشدن الأغاني والأهازيج ويرقصن...

كانت قرطبة تعيش أجواء بهجة لحلول احتفالات النيروز والتهيُّؤ لحفل زفاف ابن عامر بأسماء بنت غالب. وقد ذهبَ العلية من أهل الأندلس أن يقيموا الأعراس في حفل النيروز.. وازدادت فرحة ساكنة

---

(1) انتظمَ زفاف ابن عامر بأسماء بنت غالب في النيروز، كما ورد في كتب التاريخ، وقد دأب الأندلسيون أن يقيموا حفل الزفاف في عيد النيروز، ولكن لم يتم تحديد ذاك اليوم. يذهب ليفي بروفنسال إلى أنه يطابق رأس السنة المسيحية. وأرى أنه يطابق عيد النيروز في الشرق، إذ كان تأثير الشرق حينها قوياً، والأندلس كانت تتأثر حينها ما يرد من بغداد خاصة، وإلّا فلمَ استعمال اسم النيروز، وكيف يستعمل في غير زمنه؟

قرطبة، لأن القصر سيُفتح وقد انغلقَ لسنين، ولم يفتح منذ وفاة الحَكم. وتردد أن غالباً قدِم من مدينة سالم في فوج ضخم من جنده وأتباعه، ليصحب ابنته أسماء لقرطبة في زواجها واقترانها. وقررت صبح أن تُنزلها بمُنية الناعورة. وترددت عليها فور حلولها، وأفاضت عليها من الهدايا... ونزل غالب في دارة له بالرصافة... أيقن الناس لما رأوه من تجند صبح وبهجتها، أن ما كان يتردد عن علاقتها بابن عامر بهتان وافتراء... وبعث الخليفة لأسماء بنت غالب بهدية من قلائد العقيان، والأحجار الكريمة، والأزياء الفاخرة، والحلل النفيسة...

أقيم حفل الحناء بمنية الناعورة، ودُعي إليه النساء من أزواج رجالات الدولة وأمهاتهم وإخوتهم، منذ الظهر حتى المغرب، وتأهّبت قرطبة لليوم الأعظم من الزفاف عند الغد والذي يقام في قصر الخليفة.

كان المدخل الذي يأتي منه الضيوف من الربض الغربي المعروف بالغربية. يمرّون بالمسارة حيث يدَعون دوابهم.. ثم يغشون السور المحيط بقرطبة من باب بطليموس، ومن ثمة حتى باب القصر، في أرضية مفروشة بالزرابي... بباب القصر يستقصي أصحاب الخدمة والشرطة أسماء الضيوف ورتبهم، ثم يتأكدون من أنهم لا يحملون سلاحاً، فيفسحون لهم... ومن باب القصر وحدائقه الغنّاء كانت فِرَق غنائية من مختلف مناطق الأندلس تصدح بالأهازيج، من إشبيلية وألمرية، والجزيرة، وقرطبة، من حُداء العرب، وأهازيج البربر، وموشحات المولدين والمسيحيين واليهود.. كان ذلك، ولو هو مُعبّر عن غنى الأندلس، يتم في غير اتساق، لتقارب مواضع الفِرق وتداخل أصواتها. رغم تنافر الأصوات والغناء، فقد كان يبعث البهجة والحبور. يتقدم الضيوف إلى حيث توجد حديقة كبيرة، كان يقف فيها رجلا الدولة المهيبان، القائد غالب وابن عامر، وهما يسلّمان على

الضيوف. عرفَ الناس غالباً شيخاً مهيباً جاوز السبعين من عمره بطُرطور أخضر على رأسه. بعد السلام على الرجلين، يستلم أصحابُ الخدمة الضيوف يجلسونهم في مقاعد حسب الرسم... لمّا فرغ الناس من السلام جلس الرجلان على كرسيَين متقاربَين قبالة الضيوف، وأخذت جحافل أصحاب الهدايا تغشى القصر يتقدمهم الزامر، وهو شخص يرتدي لباساً من الخز فاقع لونه، ويعتمر قلنسوة، يعزف بالمزمار، ويمتطي بغلة يجرها غلام ومن ورائه جحافل تدق الطبول.

كان من يحملون الهدايا الوصفان ذوي العضلات المفتولة، أو فتيات الخدمة، يحملن ما خفّ من الديباج والحرير... ثم بعدها الهدايا الثقيلة التي تُحمل على البغال. لم ينقطع سيل الهدايا حتى أزفت ساعة المغيب، وأذّن المؤذن لصلاة المغرب. إثرها انسحب الرجلان القويان، وأوقِدت القناديل، وأورِثت بالحديقة نار عظيمة أضفت بهجة على الحفل... عاد الرجلان بعد الأذان. أشار القائد غالب بيده، كي يوقفوا سيل الهدايا. وتقدم غالب وابن عامر على أثَره إلى قاعة فسيحة بداخل القصر، مزخرفة بالنقش، ومبلّطة بالرخام، رُصّت بها الموائد، كي يتخذ الضيوف مجالسهم بها...

كان من الضيوف شخص من المولدين، قُدم لرجال الخدمة بصفتة من البشكنس. وتقدم في صف طويل للضيوف، إلى أن بلغ غالباً، وسلّم عليه، ثم بعده على ابن عامر. تفحّصه ذاك الأخير، ونفذ نظر ابن عامر إليه. في ظروف عادية، كان ابن عامر سيتأكد من الشخص، ولكن الأعداد التي تنتظر للسلام ومراسم الحفل لم تمهله...

لم يكن ذاك الشخص سوى زيري. أُجلِس غير بعيد من الصفوف الأمامية، كي ينظر إلى كل شيء، دون أن يُنظر إليه. كان ما استرعى انتباهه جعفراً وقد بدا متضائلاً لا يعيره أي أحد أدنى اهتمام. ذاب في الجموع كما لم يكن هو الحاجب، وحينما تقدم للسلام على غالب،

افتعل غالب الحديث إلى مساعد له كي لا ينظر إليه، وسلّم عليه ابن عامر في جفاء. تقدم جعفر إثرها يبحث عن مكان يجلس فيه. سأل أهل الخدمة أن يدلّوه على مكان، وكلما سأل فتى من فتيان الخدمة، نفرَ منه. كان كالأجذم يتحاماه الضيوف وأصحاب الخدمة...

تقدّم زيري في أناة حينما نودي للدخول للقاعة.. أُجلِس في مائدة بها قس من المستعربين، وضيوف خليط. كان الحديث أغلبه ممّا استرقّه زيري، عن تعيين الخليفة القائد غالباً حاجباً، ممّا يعضّد مكانته، وتساءل الجلوس هل سبق في التاريخ أن تولى شخصان اللقب ذاته في الوقت ذاته؟ وسأل سائل عن دلالة ذلك، وهل يعني ذلك تهييئ جعفر لمهام أخرى، أعظم وأنبل... ردَّ رادّ، وهل يمكنه أن ينال أعظم مما سبق أن تقلد؟ لم ينبس زيري. تبيّن أن صبحاً أخذت برأيه بالتقرُّب من غالب... هي من عيّنت غالباً في الحقيقة، وليس الخليفة...

كان جوق يعزف من النوبات التي وضعها زرياب، ممتزجة مع الغناء المتواتر في الأندلس في الكنائس ودور العبادة، حتى يتأتّى للحضور اتخاذ مجالسهم. كانت تقطيعاً من دون كلمات.

وفجأة ارتفع نقر الطبول والمزامير مع صدح الأهازيج... كان ذلك إيذاناً بأزوف حضور العروس، فيما يُسمّى في بلاد المغرب والأندلس، بالبرزة، أي حين تبرز العروس للضيوف... ودخلت العروس وهي محمولة على طيفور يحمله وصفان، حتى بلغت باب القاعة الكبرى. كان برقع يغطي وجه العروس، وكان الحمَلة يتهادون بالطيفور وهم يمرون وسط الضيوف، إلى أن بلغوا مصطبة كان بها ابن عامر واقفاً، وتمَّ وضع الطيفور على الأرض، وتقدمت وصيفة وأزاحت من وجهها البرقع لكي تبدي وجهها ويظهر جمالها. بدت أسماء بنت غالب للحضور. كانت ذات جمال فاتن، يشع منها الدلال والثقة والحبور. تقدم ابن عامر نحوها. رفعها ثم قبّلها على جبينها. أمسكها

من يدها وأجلسها على كرسي مزيّن بالديباج والخز، ثم جلس قربها. إذّاك تقدم الفقيه أبو بكر الزبيدي إلى المصطبة قُرب الزوجَين وتلا خطبة كما ممّا قال فيها:

«الحمد للّه حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على نبينا عدد الأرضين وما أقلّت، والنجوم وما أظلت، أما بعد،

قال عز من قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾.

نحمده تعالى ونشكره حمداً كثيراً على نعمة الإسلام، الذي أحلَّ الحلال وحرّم الحرام، ونحمده في قطرنا هذا من حاضرة الإسلام أن قيّضَ لنا خليفة هماماً أمير المؤمنين هشاماً، إمام المقسطين، وموئل القانطين، همّه الذّب عن الإسلام ورفع رايته، والحض على البر وإعلاء شارته، ومن نِعم المولى علينا أن كلأنا بقائدَين فذَّين، يُقمع بهما أهل الشرك، ويمحق بهما أهل الضلالة. وشاءت العناية الربانية أن يقترنا، وقد زوج القائد اللوذعي غالب كريمته أسماء، إلى الوزير الهمام محمد ابن عامر المعافري، اقتراناً شرعياً، على سُنّة الهادي المهدي، ممّا من شأنه أن يعضد شوكة الإسلام، ويغيظ أهل البوار من الكفّار والمشركين، لعنهم اللّه إلى يوم الدين..

فإليك اللّهُمّ نفزع، وإليك أكُف الضراعة نرفع، أن تكلأ الزوجَين بسابغ منّك وجودك، تحت عناية من قلّدته أمر عبادك، الخاضع لجلالك، خليفة المسلمين، وإمام المهتدين المؤيد باللّه مولانا هشام بن الحكم بن عبد الرحمن... أدام اللّه نصره وخلّد في الصالحات ذكره. آمين، يا رب العالمين».

وما إن فرغ الفقيه الزبيدي من الدعاء، حتى ارتفع هدير النقر على الدفوف والطبول وارتفع الصّدح. وتقدم الوصفان وحملوا أسماء وهي بارزة على الطيفور، والوصيفات بقربها ومن حولها، ثم أخذوا يطوفون بها وسط الموائد والناس وقوف، وهي تحييهم برأسها، والناس تشير لها بأيديها. ثم أعيدت إلى المصطبة، وأنزلت بها. إثرها توقف النقر على الطبول. وسادَ الصمت سوى همهمة الحضور. وفجأة سُمع صوت مدوٍّ لوصيف:

- السيدة الكبرى، أم سيدي، بارك اللّه في عمرها.

ووقف الحضور، وعنّت السيدة صبح في أحسن شارة من الديباج والخز، ومن وراءها وصيفاتها، تظهر منهنّ سلطانة. ارتفع إثرها نقر الطبول، في تواتر وغير اتساق، وتقدمت صبح إلى حيث العروس، ونهضت العروس إجلالاً للسيدة الكبرى وسلّمت عليها في احترام. بدت السيدة الكبرى منشرحة، تبادلت الحديث مع أسماء، ثم كمن تعتذر لها انفتلت وخرجت من حيث أتت، والناس يحيّونها بأيديهم، وهي منشرحة تردُّ عليهم بابتسامة وإيماءة من رأسها. ما أن خرجت حتى علا صوت الوصيف ذاته:

- هدية مولانا أمير المؤمنين.

واشرأبَّ الحضور في وجوم، وهم وقوف، لمدخل وصيفَين يحملان طبقاً مغلقاً. تقدّما في يسر، على وقع الطبول والدفوف والمزامير، إلى أن بلغا المكان الذي تجلس فيه أسماء، ورُفع غطاء الطبق، وكانت قلائدَ من العقيان، مع الأحجار الكريمة واللؤلؤ والزبرجد، وأساور من الذهب. نهضت أسماء من مكانها، ثم أحنت رأسها للطبق، كما لو هي تنحني لشخص، إجلالاً لمكانة الخليفة، ثم تراجع الوصيفان، إلى أن خرجا.

إثرها بدأ الجوق يعزف من نوبة رمي الماية شعراً لحسان بن

ثابت، والموال يردد بيته في مدح الرسول:

لـمـا نـظـرتُ إلـى أنـواره سـطـعـتْ
وضعتُ من خِيفةٍ كفي على بصري
خـوفـاً عـلـى بـصـري مـن حـسـن
صورته فلست أنظره إلا على قدَرِ

بدأ الخدم يوزّعون الأطباق على الموائد وبها مناديل مبلّلة بالزهر، ثم أخذوا يطرحون البوارد وهي عبارة عن مقبلات... تحوّل الجوق إلى نوبة قدام غريبة الحسين يغني شعر قيس بن الملوح:

اللّـه يـعـلـم أن الـروح قـد فـنـيـت
شـوقـاً إلـيـك ولـكـنـي أمـنّـيـهـا
ونـظـرة فـيـك يـا سُـؤلـي ويـا أمـلـي
أشـهـى مـن الـدنـيـا ومـا فـيـهـا

طرح الخدم بعدها طبق الكامل[1] وكان الجوق حينها قد تحوّل إلى نوبة الحجاز:

إن شـكـوت الـهـوى فـمـا أنـت منّـا
أحـمـل الـصـد والـجـفـا يـا مُـعـنّـى
تـدّعـي مـذهـب الـهـوى ثـم تـشـكـو
أين دعواك في الهوى قل لي أينا

ابتهج الحضور للكلمات، فأخذ الجوق يردد اللازمة:

أين دعواك في الهوى؟ قل لي؟ أين دعوااك.

---

(1) الكامل طعام فاخر، منه كبش محشي جوفه بالدجاج والحمام واليمام والعصافير المحشوة باللوز، وهو ما نحيل إليه هنا، ومنه كذلك ثريد يصفف فوقه اللحم البقري والغنمي والدجاج. ابن رزين، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**.

وضُع على الموائد بعدها طبق المثلث[1]. تحول الجوق إلى نوبة الرصد. كان الانشراح بادياً على الحضور. اهتز صوت الموال:

ظبيٌ من العُرب سَبَى مُهجتي
بوفرة تُشرق فوق الجبينْ
يخاطبُ الناس على رِفعةٍ
كأنه موسى على طُورِ سنينْ
قد كُتب الحُسن على خدّه
إنا فتحنا لك فتحاً مبينْ

علت همهمة الاستحسان مشفوعة بالضحك، والموال يردّد «إنا فتحنا لك فتحاً مُبينْ»، ثم استزادوه، فأخذ يردّد مقطّعاً «ظبيٌ»، «ظبيٌ»، «من العُربِ»، «سبى مهجتي»، ثم يعيد «سبى مهجتي» في نوبات متعددة، والحضور يتأوّهون: «اللّه، اللّه».

طرح الخدم طبق الأسفيدباج أو التفايا[2]، ثم طبق السمك المعروف بسكبذج[3].

توالت الأطباق من المري[4] والثُّوردة والكسكس إلى أن طُرح

---

(1) المثلث حسب مؤلف مجهول حول الطبيخ في الأندلس، هو «كل لون يطبخ باللحم والزعفران والخل والبقل مثل اللفت والباذنجان والقرع والجزر ورؤوس الخس، فإنه يُسمّى مثلثاً». وكان طبق المثلث سارياً في الأندلس، وبخاصة في الحفلات والمناسبات.

(2) الأسفيدباج: تفايا بيضاء ساذجة، وهي إذا كانت من لحم الضأن تقطع قطعاً صغيرة وتخلط ببعض التوابل واللوز المقشر وتنضج على نار لينة. **الذخيرة**، ج 1، ص 519.

(3) Henri Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne musulmane*, Maisonneuve & Larose, Paris, 1999, T. 3, p. 420.

(4) المري (Muria): أنواع مستحضرات تتخذ في صنع أطعمة منها المري

الجشيش وهو سميد بالعسل، وأخيراً وضعت المجبنات[1]، ممّا يعني نهاية الخوان.

في تلك الأثناء غادرت أسماء وهي تمشي في خيلاء، ومن ورائها وصيفاتها، وهي تحيي الحضور بيديها ورأسها، وهم يصفقون لها ويشيرون لها. بعد إذ غادرت، كان وصيف يكلّم بعض الضيوف، ويهمس لهم بالمغادرة. كانوا من المحظوظين، ممن سينتقلون إلى منية الناعورة غير بعيد عن القصر. همس خادم لزيري أن يتأهّب للمغادرة. اعتذر زيري في أدب لباقي الضيوف في المائدة، وتوجّهَ توّاً إلى منية الناعورة. لم يدقق معه الحرس، وأشير عليه بقاعة وضعت بها الطنافس. ما استرعى انتباه زيري هو وجود أقداح الخمر. كان الحضور ممن سبق إلى المكان ينتشي بالشراب، وكان منه النسوة، وكانوا جميعاً يشنفون السمع إلى جوق يغني شعر الخمريات. عبثت الراح بالضيوف، فمنهم من كان يرقص، ومنهم من كان يحدث حديثاً لا رأس له ولا ذيل. صادف وصول زيري غناء الجوق من نوبة قدام الماية، من شعر أبي نواس:

دَع عنكَ لومي فإنَّ اللوم إغراءُ

وداوني بالتي كانت هي الداءُ

صفراء لا تنزَلُ الأحزان ساحتها

لو مسّها حجرٌ مسّته سرّاءُ

لم يكن هناك ترتيب ولا تنظيم بمنية الناعورة. كان الرجال مختلطين بالنساء. كان الضيوف وقوفاً، يتحركون من مكان إلى

النقيع، والطيب، ومري الخبز، ومري الحوت، وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب. الذخيرة، ج 4، ص 53.

(1) المجبنة عبارة عن عجين خاص يُحشى بالجبن ويقلى في الزيت، وقد ماثلها المقري في نفح الطيب بالزلابية والقطائف المشرقية.

آخر، يستسقون من زقفة[1] الخمر. شاهدَ زيري غالباً وهو يحمل قدح الخمر، ثم رأى ابن عامر يحتسي الخمرة. امتنع زيري عن الشراب.

توقف الجوق للحظة، ثم أخذَ يعزف من نوبة الماية. إثرها انبرت مغنية تغنّي من النوبة ذاتها بصوت جهوري:

أيها الساقي إليك المُشتكى
كم دعوناك وإن لم تسمعِ
ونديم هِمتُ في غُرّته
وبشرب الراحَ من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزقّ إليه واتكى
وسقاني أربعاً في أربعِ

طرب الحضور وتحلقوا حول المغنية، وما هي إلّا هنيهة حتى صعدت العروس أسماء مصطبة الغناء وقد غيّرت من لباسها. أشارت على المغنية أن تغني، فأخذت تردد: «أيها الساقي إليك المشتكى»، وردّت أسماء: «كم دعوناك وإن لم تسمع». ظلّ الغناء بينهما سجالاً، من صوت جهوري دافئ، وصوت أقل دفئاً، وجمالاً، ولكنه يفيض ثقة وجلالاً.

ذكّر صوت المغنية زيري براحيل وانتابه حينها حزنٌ عميق، لم يطمره جوّ المرح في عرس أسماء بنت غالب بمنية الناعورة.

(1) زقفة: جمع زِقّ.

8

لم يكن لقرطبة من حديث عقب زفاف أسماء بنت غالب إلّا حفل العرس. ولم تعرف قرطبة بل الأندلس فيما يذكر الذاكرون عرساً كعرس أسماء بنت غالب وابن عامر، فخامة وجلالاً. أبدى الناس وأعادوا فيما شاهدوا من الهدايا، ممّا لم يحصوا مثله، عدداً وفخامة وقيمة، ومن حشود الضيوف ممن أتوا من أصقاع الأندلس والعدوة، ومن مختلف الطبقات، من ذؤابة العرب من العدنانيين والقحطانيين والبلديين، ومن علية البربر، من صنهاجة وزناتة والمصامدة، والموالي، من المصطنعين وذوي العتاقة، ووجهاء المولّدين وأكابر المسيحيين والأحبار، فضلاً عن الوفود من المماليك المسيحية الحليفة. أفاض الضيوف فيما رأوا من حسن التنظيم وجميل الترتيب وأبّهة الحفل وعظمة الاحتفاء وروعة الغناء.. هذا سوى من حضر حفل منية الناعورة، ممن لم يكن قد استيقظ بعد، من صبيحة الجمعة كي يخبر بما شاهد من جميل الحفل، وبديع الغناء وفاخر الأكل، ومعتق الخمر...

ولم يشذّ المسجد الجامع عن ترداد ما رشح من الحفل، مع ما يذهب به الغلو، ممّا ينسجه خيال العامة، كما لو أنها تجدُ عوضاً لها في الخيال والمبالغة فيه، لما هي مذادة عنه، محرومة منه.

ورأى مرتادو الجامع الأطعمة يؤتى بها إلى صحن المسجد منذ

الضحى ممّا فضُل على الضيوف، ما لم يسبق للعامة أن عرفته من صنوف الأكل أو ذاقت منه...

وصلّى الناس الجمعة، وتلا الإمام خطبة عصماء فيما خصَّ به الباري جل وعلا، حاضرة قرطبة من الأفضال والنِّعم، أشرفها نعمة الإسلام، والتفاف أهلها على كلمة سواء، تحت لواء الخليفة المؤيد باللّه الذي لا يألو جهداً في الدفاع عن بيضة الإسلام، والاضطلاع بالأمانة التي قلّده اللّه إياها، والمسؤولية التي أناطه بها، ممّا يستوجب من العامة الطاعة، ومن الخاصة حسن النصيحة، وعدم الاستئثار بشيء من دونه، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

كان زيري، رغم الإعياء، يصيخ السمع في اهتمام لخطبة الجمعة. كان قد غادر منية الناعورة قبيل الفجر إلى باب بطليموس ومنه في السراديب المفضية للجامع، إلى مكانه قرب المحراب، حيث غيّر لباسه، وقصد كالمعتاد الفرن، وأمدّه بالحطب، وتوضّأ وصلى الصبح جماعة، وهجع بعدها، كي يتأهّب لصلاة الجمعة. اتّخذَ زيري مكانه بالجامع كما دأب في الصفوف الأولى، وتلا القرآن جماعة، ثم استمع في اهتمام إلى الخطبة.. استوقفته الآية على لسان الخطيب، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾. كان زيري يعرف بحكم التجربة أن الأئمة عموماً، وخطيب المسجد الجامع خاصة، لم يكن ينطق بقول من تلقاء نفسه، وإنما يعبّر عن توجهات الدولة. تُرى ما الذي يقصد له الخطيب من الآية، أو من أوحوا له بالخطبة؟

وما أن أنهى المصلون صلاتهم، حتى سرى كالنار في الهشيم خبر توقيف جعفر وعزله فور عودته من العرس بباب السُّدة، إذ ما أن حلَّ بقصر الزهراء فجراً، حتى أحاطت به عناصر من الشرطة، ومنعته ارتياد بيته، واقتادته إلى سجن المطبق... وعلت بالجامع الكبير دعوات التكبير بهجة لإقالة جعفر الرجل القوي إبّان الحَكم، ومدبّر الانتقال

إلى هشام، ورأى زيري أشخاصاً يتعانقون فرحاً بإقالة جعفر، كما لو أن جعفراً مسؤول مسؤولية مباشرة عن حالهم ووضعهم، وكأنما إقالته ستغيّر من واقعهم، وكما لو أن تعبيرهم ذاك، يمنحهم قيمة تُذكر، مع أنفسهم وتجاه الغير. . .

اتخذَ زيري مجلسه في الصحن غير معبّر عن شيء، ونالَ لقيمات من طعام الكسكس. ثم انزوى يرمق حال من حضر المسجد. أباح لنفسه أن يزيح غطاء الرأس بعض الشيء، ممّا يتيح له أن يرى الناس. كم تنقاد العامة لمن يَكْذبها؟ كم تحسب العامة الخلاص فيما هو موثقها؟ كم هي غريرة، تنصاع لمن يغازلها ولو افتراءً. . . هؤلاء الذين يتحدثون عن بيضة الإسلام، أو من يوحون الحديث دفاعاً عن الإسلام، كانوا قبيل سويعات غير بعيد عن الجامع يعاقرون الخمر، ويهزؤون من الإسلام، ومن العوام. . . ما يهمهم هو السلطة ومُتَعها. يأمرون فقهاءهم أن يتلوا ما يحلو للعامة أن تسمعه، ويتفضّلون ببعض الأعطيات كي يظهروا بمظهر البر والتُّقى والإحسان. . .

اضطُر زيري أن يظهر بغير حقيقته ويتنكر في فقيه، ليس عن خيار وإنما اضطراراً، خشية أن يقع في أيدي ابن عامر وقد ارتبط بالصقالبة، ثم لكي يحمي المرأة التي أحب وحملت منه وماتت مخلفة له ولداً ووصية وجرحاً. . . لا يمكنه أن ينفصل عن جرحه ولا ولده. هل كان من الضروري أن يرتبط بوصيتها؟ لو لم تُخلّف وصيتها له بالاقتران بإستير أو سلطانة لبقي في أستجة رفقة باشكوال. . كي يرتبط بسلطانة ويبقى باتصال معها، ابتدع حيلة التنكر في شخص فقيه، كي لا يشك أحد فيه، ويعرف ما يجري، ويبقى غير بعيد عن سلطانة. . . في علاقته بسلطانة لم يتحرّر من راحيل. . . لم تترك له راحيل الخيار الذي من شأنه أن يتيح للزمن أن يفعل فعله، ويلتقي بامرأة يحبها وتحبه. . أوثقته راحيل بامرأة والجرح غض. كلما اختلى زيري بسلطانة طالعه طيف

راحيل. أفعلَت راحيل ذلك عن قصد، كي تظل تسكن قلبه؟ ليس له الشعور نفسه ولا الإحساس نفسه تجاه سلطانة... هل يمكن أن ينفصل عنها كي يتحرّر؟ وهل يستطيع وقد أضحى جزءاً من لعبة صبح، من خلال وصيفتها سلطانة، وهما يعوّلان عليه في خضد شوكة ابن عامر؟

لو كان مختاراً لشيء لاختار أن يخلُص للمعرفة والتأمل بمعية باشكوال، أو أن يتردد على حلقات أصحاب العقل بالجامع الكبير، أو يغشى خزانة الحَكم. لا شيء يرقى بالمرء، ولا بالشعوب مثل المعرفة. هو ذا زينة الأندلس وبهجتها: معارفها، وفنونها، وآدابها، لا دسائسها واقتتالها...

شعرَ بالتعب والعجز. لم يكن فخوراً أن يتوزع في تلك الازدواجية بين ما يؤمن به وما يسلكه... وهل كان له الخِيَرة من أمره؟ أليس هو نفسه خديعةً من مكر التاريخ، كي يكون شاهداً على حقيقة الأندلس؟ أن يكون في تماس مع مكوناتها، وينتقل منها، ويقفز من تناقضاتها، كما يقفز المرء على أحجار من معبر نهر، كي يعبُر من جانب إلى آخر..

فاجأته امرأة تشكو هجر زوجها الذي اقترن بقَينة حتى أنسته أهله، وتستجديه الوسيلة كي يعود لأهله، والتميمة التي من شأنها أن تبطل مفعول سحر القينة...

لم تكن به رغبة أن يَكذبها، ويزعم لها بدعاء كذا وتلاوة كذا..

قال لها قولاً ارتاعت له:

- الذي يربط رجلاً بامرأة هو الحب، وإذا كفّ زوجك عن حبك، فلا تكفّي عن حب الحياة.. فمجالها أرحب ممّا يبدو لنا..

ردّت المرأة في دهشة:

- أريد أن أسترجع زوجي، وأنت تدعوني أن أتخلى عنه..

- أدعوك أن تتخلي عمن تخلّى عنك..

- قيل لي إنك تردّ الزوج الآبق...

- لا أستطيع إلّا ما يستطيعه الناس في أنفسهم. أساعدهم أن يفتحوا قلوبهم..

- أنت دجّال إذاً؟

- في عُرف من لا يستطيع أن ينظر إلى الحقيقة أنا دجّال... وفي عُرف من يأنس بحقيقة منمطة أنا عرّاف... وأنا لست لا هذا ولا ذاك..

- أتيت من أجل لا شيء إذاً.

- إن لم تسائلي نفسك، ولم تجدي الحل لما يعتور حياتك بنفسك...

- ليس لهذا أتيت... أتيت كي تكتب لي تميمة تُرجع لي زوجي.

- يمكن أن أكتب لك تميمة ولكنها لن تعيد لك زوجك. وقد يعود لك جسد زوجك دون قلبه.. وما حاجتك به من دون قلب.. أحبي الحياة، تحبك الحياة...

- لم أفهم عنك..

نفرت المرأة مغاضبة، ولم تنفحه أعطية.

قصده رجل من أهل الخدمة، يستجديه أن يكتب له تميمة كي يكون مقرّباً من ابن عامر. سأله:

- وما الذي تبتغي من القرب من ابن عامر؟

- الحظوة.

- السلطان مثل النار، إن اقتربت منه كثيراً أحرقك..

- كل من يقتربون من السلطان ينالون أفضاله.

- إن طلبوه كان كَلّاً عليهم، وإن طُلبوا إليه، أعينوا عليه... وأنت طالبه، وهو حتماً مُعنّيك.

ألقى الرجل بِصُرّة مليئة نقوداً ثم نفر...

لم يعد زيري يخشى قول الحقيقة، لأنه قرّر أن يغادر الجامع...

قبيل المغرب أتت امرأة تستجديه، ترتضخ لكنة، ولا تنطق حرف القاف. كانت ظاهرياً مولّدة. قالت له في عفوية:

- هل تستمع إلى شكاة الموتورين؟

- أنا مرآة.

- لا أفهم عنك.

- أعكسُ ما يعتمل في نفوسهم..

- أيمكنني أن أأتمنك على حقيقتي؟

- يمكن أن تجهري بها إن كنت لا تخشين أن تقوليها لنفسك.

- أنا أعيش مع الرجال. أبيع جسدي لهم. ولم أجد الرجل.

- تخلّصي من الرجال كي تجدي الرجل...

- منذا يحبني؟

- من تُطلعيه على قلبك لا على عورة جسدك...

- منذا يقبل بامرأة سفّ رحيقَها الرجال؟

- من يبصر بقلبه.

- وهل من الرجال من يبصر بقلبه؟

- لم تبحثي بما فيه الكفاية...

ثم دسَّ يده تحت هيدورته، وأعطى المرأة الصرة التي نفحها له رجل الخدمة.

- خذي هذه وانصرفي..

- لم أفهم عنك.

- ما يفيد الفهم قبل أوان الفهم؟

تساءلَ الفقيه، أو زيري، ألم تبقَ المرأة في العمق مسيحية رغم اعتناقها للإسلام؟ ألم تكن تبحث عن راهب تبثّه اعترافها، عوض فقيه

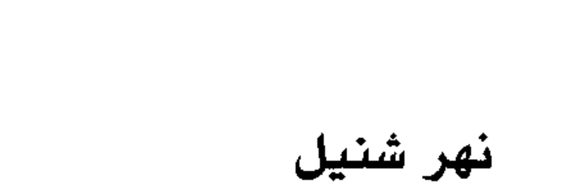
يملي عليها السيرة التي تنتهج أو الفقيه الذي يقرأ أحلامها وأوهامها؟ يحمل الناس خلال انتقالهم من لغة إلى لغة لكنة، ويحملون، حين انتقالهم من عقيدة إلى عقيدة، رؤى العقيدة الأولى وإن غلّفوها بطقوس الثانية... كان يود أن يعرف أكثر عن المرأة... سألها:

- أين تسكنين؟

- في درب النحّاسين قرب باب ليون... وما يعنيك من سكني؟

- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.

عند الصباح لم يجد المؤذن ولا الإمام الفقيهَ المعجزة، وظنا أن طارئاً ألمّ به أقعده، وبحث المؤذن في غرفته، فلم يجده وتفقّد حوائجه فلم يجدها، وظنَّ أنه تخلف لغرض بالحمّام أو عند الحجّام أو عند الطبيب... ولم يظهر له أثر النهار كله، ولم يظهر عند الغد ولا بعده.. وتوزّع الناس من قائل إنه في خدمة ابن عامر كان يستطلع الأخبار لصالحه، ومن قائل إنه كان في خدمة جعفر، وحقّ به ما حقّ بجعفر، من سوء المنقلب وأنه مثله يتمطّى في غياهب سجن المطبق.



نهر شنيل

1

كان باشكوال بالحقل يتفقّد، ضحى، في جوّ ربيعي، تفتُّق براعم الشجر، حين فاجأه زيري وهو يحمل على كتفه عصاً وضع عليها كيساً. هبَّ باشكوال نحو زيري وعانقه عناقاً حارّاً وهو يردد:

- زيري، أخيراً... أطلت الغيبة.

ردَّ زيري في ابتهاج بصوت متقطع:

- قرطبة، أنت أعرف بها مني. أغرقتني في أحابيلها.

أعجله باشكوال معاتباً:

- حتى أنستك ولدك.

- لم أنسَ لا ولدي، ولا أهلي.

- بورك فيك. هيا بنا إلى البيت. مباركة تتحرك شوقاً إليك، وكذا مرية. مرية لا تُبين. ثم إن عندنا جذعاً بالبيت، يؤنسنا ويمتّعنا، هو أيضاً يريد الالتقاء بك.

ثم يمما البيت، وباشكوال ممسك بيد زيري، وما أن بلغا مدخل البيت أو السطوان حتى صاحَ باشكوال:

- مباركة خمّني من حلّ؟

تناهى صوت مباركة من الصحن:

- زيري، قلبي كان يحدّثني...

وما أن بلغ زيري وباشكوال الصحن حتى كانت مباركة عند السقيفة وهي تهرع نحو زيري. ارتمت في حضنه وهي تردِّد بالأمازيغية:

- تنغايي تغوفينّش، أممّي (غلبني الشوق إليك يا بُني).

- أوْدْ نيتش أعتّي (وأنا كذلك عمتي).

ثم حلّت مرية وهي تحمل الصبي يوسف. احتضنها زيري وردّد كلمة الشكر بالرومانية، ثم أمسك عنها الصبي وأخذ يقبّله على وجهه ورأسه مراراً. توجّه إليه بالقول:

- يوسف. كبرت.. لم تعد صبياً..

رفعه من ذراعَيه، وما لبث الصبي أن أخذ يرغي، وهو يبرغم بالرومانية: «مادري (أماه)» مستديراً نحو مرية.

أمسكته عنه مرية وهي تبسم. سعت أن تتحدث إلى زيري، وهي تمزج كلمات بالعربية في حديثها بالرومانية، مشيرة بذراعها أن غيبته طالت. وزيري يردد:

- كوردوبا.

- Claro que si.

انتشله باشكوال من الحرج:

- هيا بنا إلى المجلس، ثم أردف: كيف أتيت؟

- استأجرت زاملة من مكاري حتى أستجة، وأسلمتها لوكيله... قطعت الطريق ليلاً في مرحلة...

- للّه درّك يا فتى... قطعت المسافة من قرطبة إلى أستجة في مرحلة؟

- كانت الليلة مقمرة... وفضّلت السفر ليلاً. توقفت على جنبات نهر شنيل مع الفجر... تناهى إليّ صوت المآذن... استرحت حتى بدا النهار واستأنفت المسير.

- وعند الصباح يحمد القوم السُّرى. لم تنم إذاً...

- لا، لم أنم. لم أعد أنام بقرطبة ليلاً. انقلبَ كل شيء. قصة مثيرة.

ثم أخذ يضحك..

أخذت مباركة الصبيَ عن مرية، فيما ذهبت الأخيرة إلى المطبخ..

احتبت مباركة وهي تمسك الصبي بذارعها اليمنى في حجرها، ووجهه مصوّب نحو باشكوال وزيري.. تفحصت زيري ثم نطقت:

- نحُلت يا ابني..

- لم يكن أكلي يا عمتي منتظماً ولا نومي...

- ينبغي أن تبقى معنا بأستجة. ليس لك ما تقوم به بقرطبة...

- ما شاء اللّه فعل يا عمتي.

- الآن طمأنتني...

وتأهّبت مباركة للنهوض. أشار لها باشكوال بيده:

- آخذ عنها يوسف..

لم يُبدِ الصبي أية مقاومة... بدا مطمئناً في حضن باشكوال. أخذ باشكوال يداعبه، وهو يصفر له، والصبي يبسم له ولُعابه يسيل من فمه.

مدَّ زيري ذارعَيه نحو الصبي، ما أن أمسكه حتى أخذ يبكي.. ضحك الرجلان. أرسل باشكوال:

- ها أنت ذا ترى، إنه يعاتبك على طول الغيبة..

- لم يكن الأمر عن اختيار.. كان ينبغي أن أسلِّم وديعة راحيل رحمها اللّه... ثم أخذت الأمور منحى غير متوقع..

- هكذا يقول أرسطو، اللّه هو الصانع الأول، ثم تصبح للكون أو للحياة حركية خاصة بها، لا نتحكّم فيها.

في تلك الفترة انفتل يوسف من باشكوال، وأخذ يمشي، يزِلّ ثم ينهض...

أخذ زيري ينظر إليه في استغراب:

- أخذ يمشي؟

- نابه مثل أبيه، ردَّ باشكوال..

- أبوه أنت، ردَّ زيري.

- لا، أنت... عقب باشكوال...

- لسوف نرى...

أخذ زيري ينادي في اتجاه الطفل:

- يوسف، يوسف، تعال عندي..

توقف الصبي. أخذ يحملق في زيري، ثم يحوّل رأسه نحو باشكوال.. ثم فجأة أخذ يعدو نحو باشكوال. تعثّر، ثم نهض، وما أن بلغ باشكوال حتى ارتمى في حضنه. انفجر باشكوال ضاحكاً.

في تلك الأثناء حلّت مرية تحمل مائدة عليها صنوف الفطائر والرغيف المعروف بالمسمن والمدهون بالزبدة والعسل... نظرَ زيري إلى مرية نظرة شكر، وبرغمَ بكلمة من العجمية:

- كراسيا ماريا...

- دي نادا ثيري..

أقبل على الأكل بشهية... ثم عقّب وهو يحدّث باشكوال:

- آه، كم هو لذيذ أكل البيت... أتعرف؟ كنت آكل من طعام المسجد، ممّا يبعث به المحسنون وهو متفاوت.. وقلّما تقع على طعام لذيذ..

- وهل كنت محاضراً[1] لحلقات الجامع؟

---

(1) محاضر هنا بمعنى يحضر الدرس، أي طالب، وليس من يلقيه كما هو متعارف اليوم، ومنها المحضرة في بلاد المغرب عموماً، أي الدرس.

- أخطر من حلقات الجامع. لن تصدق يا باشكوال... لا أدري من أين أبدأ.

حمل باشكوال يوسف ثم نادى على مباركة.. ما إن رآها الصبي حتى أخذ يبرغم: دادّا... أخذته بعيداً كي تغيّر ملابسه..

- حدثني عنك... سأل باشكوال.

أخذ زيري يبسم، ثم استرسل:

- أتيت لكي أنسى... وأنت تريدني أن أتذكر... كنت متنكّراً في صورة فقيه بالجامع الكبير ولذلك كنت أحضر دروسه. هل تعرف أني أصبحت عميلاً لصُبح؟

- لصُبح؟ لو علمت أنك كنت تختلي والحَكم لكانت أمرت بقتلك.

- للحياة ألغاز. الفتاة التي أوصتني بها راحيل وصيفة لصبح. اقترنت بها، وهذه قصة أخرى. تبيّنَت صبح أن ابن عامر غرّر بها... لا شكّ أنك سمعت باقتران ابن عامر ببنت القائد غالب...

- سمعت عن ذلك والبذخ الذي صاحبه. شبريقو حريص على تتبّع هده القضايا، وحين أنزل السوق، يخبرني بما يستجد.

- أتَت صبح عندي تستجديني كي تنتقم من ابن عامر..

- كيف ذلك؟

- الأمور معقدة. ليس ذاك فحسب.. التقيت بجعفر...

- جعفر المصحفي؟

- بعينه.

- تثير استغرابي يا زيري. هو في السجن.

- قبل أن يسجن بليلة. رأيته منكسراً. ولم يمهله الحظ، إذ عند الغد تمَّ توقفيه.. سأحكي لك كل شيء... أريد لو سمحت أن أقفَ على قبر راحيل كي أترحّم عليها.

2

لأكثر من أسبوعَين كان زيري ينام حتى الظهيرة. كان جسمه متعباً، وكانت الطمأنينة التي استشعرها بأستجة قد انعكست على جسمه الذي كان يلتمس الراحة. لم يلتئم إلّا بعد أسبوعَين، حيث انتظم نومه وأكله... كان مؤشر الالتئام هو الصبي يوسف الذي لم يعد ينفر منه...

في الليل كان يخلو لباشاكوال، ويحدّثه عمّا عاشه. لم يتمالك باشكوال من الضحك حين أخبره أنه تنكر في فقيه، يتلو القرآن، ويقرأ الغيب، ويكتب التمائم... كان زيري نفسه وقد أخذ ينأى عن الأحداث يرى فيما أقدم عليه مغامرة، وأنه جشّم نفسه عدة مخاطر من أجل أن يتنكّر... تُرى لو وقف المؤمنون على أنه كان يكذبهم، أو ضُبط في طريقه إلى بيت سلطانة أو إستير، هل كان سيأمن غائلة ذلك؟ تُرى لو خذله النوم مرة ولم يستيقظ وهو في حضن سلطانة، أو أصابته علة أقعدته ولو ليوم، أيبقى في بيت سلطانة؟ ألن يثير ذلك أسئلة عن علة غياب الفقيه، ومن سيورث نار الحمّام، ويوقد الشموع، ويقرأ الحزب، وينصح للناس؟ أم تراه يخرج من بيتها نهاراً حتى يتجنّب تلك الأسئلة؟ أفلا ينكشف أمره حينها؟ كان ضرباً من الجنون. كيف سوّلت له نفسه ذلك؟ وكيف استطاع أن يتردد على بيت سلطانة ويعود قبيل

الفجر إلى الجامع، ويحضر دروسه، دون كلل ولا ملل؟ تبيّن أن للإنسان قدرات خارقة أمام الأهوال والأخطار لا تخطر على بال، ولا هو يتوقعها في ظروف عادية.

كان الجانب الإيجابي لمغامرته تلك، أن أخذ جرح راحيل في البرء. مغامرته تلك بلسمت الجرح. لو بقي بأستجة بعد إذ ماتت راحيل لبقي الجرح غضاً، بالمكان الذي رحلت فيه، والمكان الذي ترقد فيه، والمكان الذي تسكنه ذكراها. كان لزاماً أن يرحل.. تعرّف إلى سلطانة، وعرف عوالمها، وأعانته على التئام الجرح، ولكنها لم تطمس ذكرى راحيل... لا أحد يمكن أن يعوّض أحداً. كان يود أن يجد راحيل من خلال سلطانة، ولم يجدها... أحياناً في حديثه مع سلطانة ينطق باسم راحيل وهو يعني سلطانة فتغضب منه سلطانة... ينام معها ويحسب أنه ينام مع راحيل، ويحلم براحيل. ويلفي نفسه يقارن دوماً... أي شيء يمكن أن يؤاخذ عليه سلطانة؟ لا شيء. جميلة. ذكية. على ثقافة واسعة. هادئة. ولكن قلبه لم يكن يخفق لها... لم تكن تسكنه.. كان قد تذرّع بابنه كي يقصد أستجة، وكان ذلك جزءاً من الحقيقة، ولم يكن الحقيقة كلها. كان يريد أن يقرأ علاقته بسلطانة، وينظر إليها نظرة هادئة.. مثلما كان يريد أن يتملى الأحداث التي انتظمت... انتهى إلى أن مساره كفقيه يُعزّم ويكتب التمائم بلغ حدّه، وقد ينكشف، ويحسن به أن يذهب إلى أستجة. إلى ما هو بمثابة مرفأ. استجمّ زيري ثم أخذ ينظر إلى الأشياء نظرة صافية. أخذت تتبدى له بشكلٍ أوضح وأنصع...

صحب زيري باشكوال في أشغال المزرعة. اصفرّت الحبوب، وأوشك موسم الحصاد. بعد أن يجولا صباحاً في المزرعة، كانا يركبان معاً فرسيهما، ويسيران على جنبات نهر شنيل، ويمعنان في اتجاه إشبيلية حتى ملتقى نهر شنيل والوادي الكبير... كان زيري يجدُ

لذةً لا تعدلها لذة وهو على صهوة الحصان، تنسيه كل شيء.. كانت تلك الجولات على ظهر الحصان بجنبات نهر شنيل حديثاً لنفسه.

بعد العصر وقد نالا حظهما من الراحة، يخلوان بالمكتبة ويستمتع بالحديث إلى باشكوال. وقف على اهتمامات باشكوال الفلسفية في هذا الأمر الذي حدّثه عنه مرة من فلاسفة كانوا يجتمعون في رواق، وسُموا لذلك بالرواقيين، وكانوا يهزؤون من الخطوب والنوائب والآلام، ويواجهونها بالثبات، وكان منهم فيلسوف، إبان الرومان، كان باشكوال مواظباً على قراءته، سينيكا، وُلد بقرطبة، وتدرّج في مناصب عليا وكان مؤدّباً لنيرون، ثم مساعداً له، قبل أن يفترق الرجلان، وكان من ثمرات ذلك الافتراق رؤى فلسفية عميقة، ونظرات حصيفة للحياة والسعادة والشأن العام، رغم ما بلا من عزلة وتضييق.

ثم اكتشف زيري ابنه، وتعلّق به ووجد متعة وهو يلهو معه، ويُربت عليه، ويشتَمُّ منه روح أمه راحيل. كانت راحيل تحيى في ابنها، وتنبعث من خلاله... ثم رأى زيري كيف أن حلوله بأستجة بعث البهجة في نفس مباركة. لم تكن تشعر بالغربة في بيت باشكوال، ولكنها تُضحي شخصاً آخر بمعية زيري... كانت كمن تكلّم ابناً لها... تحدب على زيري في حُنو، وتعاتبه في رفق. ثم كان هذا التواطؤ الذي يتيحه الحديث باللِّسان نفسه.. وكأنما تجد في الحديث بلسانها بهجة وقد حُرمت منه، فإذا خلت إلى زيري كلّمته بلسانيهما. كان الحنين إلى اللغة كالحنين إلى الأم، وكان اللقاء بها كاللقاء بالأم. كانت مباركة تسأل زيري عن أشياء لا تسأل عنهما إلا الأم أو من هي بمثابة الأم. كيف كنت تَطْعم؟ ومن يغسل لك الثياب؟ وكان هو كذلك يتصرف كابن، يقول الأشياء التي تَسُر، ويتستّر عن الأشياء التي قد لا تسر... ودَّ أن يكلم مباركة في شأن سلطانة، ولم تطاوعه نفسه.. لم يكن له نَجيٌّ في علاقته مع سلطانة إلّا نفسه، ولا صاحب إلّا الزمن...

كانت مرية مبتهجة كذلك لمقدمه، كما لكي يقف على طبيعة علاقتها وزوجها مع يوسف. هما أبوان له، ولكنهما لا يشتطّان على حقوق زيري، وكأنما حلوله حرّرهما.

وإذا نزل زيري السوق حلَّ عند شبريقو، يستمع منه، ويستمتع بحديثه. انتسجت صداقة بين زيري وشبريقو... وعرف زيري أستجة وأصحابها وحِرَفيها، إسكافيها وحجّاميها وخزافيها. كان يفعل مثلما يفعل باشكوال، يتردد على تلك الحِرف وأصحابها، وينظر إليهم ويتأمل صنيعهم، أو يتحول إلى أصحاب الحلقات فيستمتع بحكيهم وقصصهم. ثم يستمع إلى أخبار قرطبة ممّا يبثّه إياه شبريقو. أضحى ابن عامر الرجل القوي، وأضحى المستبدّ بالأمر وأخذ يشكّل خطورة على البيت الخلافي. هل يُلجم غالب شكيمته، ويحد من غلوائه؟ ثم أخذت قرطبة تتناءى. بدسائسها ومؤامراتها وشؤونها وهواجسها ومخاوفها.

3

دأبَ زيري بعد العصر أن يمشي بجنبات نهر شنيل يحدّث نفسه، ويحدّث النهر، ويحدّثه النهر... لم يكن يفهم عنه أول الأمر، ولكنه أخذَ يستجلي منه ما كان غامضاً، ويستوضح ما كان مضطرباً...

في مشي زيري قرب النهر، ساعات العصر، لم يكن يدرك حديثه إليه، سوى ما ينتهي إليه من خرير. ومع الزمن، تبيّن حديث النهر. يحسب الإنسان وهو يتردد على المكان ذاته، أن المكان أصمّ، ولن ينطق، ولن يسفر عن سرّه.. لم تكن الأمكنة لتنطق لمن ليس له قابلية للاستماع ولا قوة رصد لحديثها، ولا لمن هم مستعجلون، ممن لا يتحلون بالأناة والصبر، ذلك أن الأمكنة تمتحن مرتاديها وقدرتهم على الصبر قبل أن تتحدث إليهم، أو تدعوهم على الأصحّ للحديث إلى أنفسهم من خلالها...

كان من حديث مجرى شنيل لزيري أن الحب لم يستوثق في علاقته بسلطانة، وأنه يحسن أن يجاهرها بالحقيقة. ينبغي أن يفترقا، وكل تأجيل لسوف يضاعف من حجم الحسرة والغضب والموجدة والخيبة، ولكن كيف، وسلطانة متعلقة به، ومرتبطة به، وتجد في علاقتها به ما تبتغي، تبقي بعلاقتها مع صُبح، وترتبط برجل على علم بما يجري، ويفيد في علاقتها بصبح... لم تكن سلطانة تريد زوجاً وفق قواعد

الزواج، تنجب منه، وإنما رفيقاً في مغامرات السياسة... لم تسفر سلطانة عن ذلك، بل لربما لم تكن تدرك من نفسها ذلك، ولكن حديث النهر، بيّن ذلك الجانب المستتر... لم يكن ذلك ليزعج زيري في نهاية المطاف، لو كان يحبها... كان مسكوناً براحيل، وكان يحسب أنه يستطيع أن يبعث راحيل في سلطانة. كان ضرباً من العبث.

تذكّر المرأة التي حلّت عنده وهو متنكر في فقيه، وتشكو وضعاً لم تختره، وتريد أن تتحرر منه. كانت في حاجة إلى البوح، وإلى من يأخذ بيدها، لكي تخرج من وضع يثقل عليها ويقتضي منها إنسانيتها... تبيّن زيري أن الأشخاص يحتاجون دوماً إلى من يحضنهم، ويمهّد لهم السبيل، ويوطئ لهم الأكناف، ويأخذ بهم إلى الطريق القويم.. قد يجدونه بأنفسهم، ولكن ذلك يقتضي منهم وقتاً وثمناً، وربما يُعرّضهم للتيه وقد يخلف ذلك جروحاً وندوباً. وقد تصدُّ تلك الجراح عن الحركة أو تعطّلها أو تضحي سبباً للتعثر. الفلاسفة وحدهم يستطيعون أن يشقوا طريقهم لوحدهم في الأدغال والفيافي، بل هم لا يرضون طريقاً معبّدة، وقد لا يرون في السُّبُل المطروقة سبيلاً لهم، لا تستجيب لما يتشوّفون إليه أو يتطلّعون له. الفلاسفة هم مَن يستطيعون أن يجعلوا من الجراح معراجاً. ولكن العالم ليس كله فلاسفة.. كما الطعام ليس ملحاً، ولكن من دون ملح يكون الطعام سمجاً.

كان يرى أن هؤلاء الذين يَفزع الناس إليهم من مختلف الديانات كي يُرونهم السبيل، سواء أتسمّوا أحباراً أو كهنة أو قساوسة أو أئمة أو شيوخاً أو غورو، لا ينبغي أن يكتفوا بمعرفة النصوص وحدها، يؤوّلونها ويستنبطون أحكامها، ولكن يتعيّن عليهم معرفة النفس البشرية أولاً، ويتوجّب عليهم أن يعرفوا علاقة النفس البشرية بتلك النصوص، أو تفاعُلها، كي تكون النصوص في خدمة النَّفس البشرية، لا الأشخاصُ في خدمة النصوص. على تلك النصوص ألا تجافي

حاجات النفس وما يعرض لها من أحوال... لا ينبغي للتحريم أن يكون أداة للتجريم، ولكن مَعلَماً في الطريق، يظهر الخطر، ولا أن يصبح النهي زجراً، ولكن موعظة. ينبغي أخذ الناس بما هم، في أُفُق أن يرتقوا لما ينبغي أن يكونوا. تذكّر حديثاً من الأثر مفاده أن المرأة، أو أي إنسان في موقع ضعف، هو كضلع إن رام المرء تقويمه كسره... ينبغي أخذ الضعاف بالرفق وإلا كُسروا وانكسروا. لم يكن زيري يرى أن هناك أشخاصاً أو شرائح ضعيفة بالفعل ولا بالقوة، بل هي أوضاع تجعل أشخاصاً يعيشون حالات ضعف، بل حتى الأقوياء لا يسلمون من ضروب الانكسار، وينبغي التعامل برفق مع هذه الحالات حين تعرض، من غير شدة، ولا تنفير، ولا غلظة، ولا عجرفة أو غلواء، بدعوى أن المتكلم باسم الله، قد يكون أجرى شرع اللّه، أو حُكم الربّ، أو ما شابه ذلك... لأن الشدّة والتحريم والتجريم والعقاب هو بمثابة كسر للضلع..

لم يدرِ زيري لمَ طرقت ذكرى المرأة التي كانت تلتمس سُبُل التوبة شغاف نفسه وهو يمشي قرب نهر شنيل. كان خرير النهر ينساب ويحدث بما لم تحدث به السيدة «المذنبة»... هل يحتاج بعض الأشخاص كذلك إلى من يهدون؟ هل يجدون أنفسهم منجذبين إلى من يلتمسون الهداية، كما المرأة تنجذب إلى الرجل، والرجل إلى المرأة. في علاقة تكامل. ألا يمكن تصور علاقة تكامل ما بين الحاكم والمحكوم، عوض التصادم؟ والعالم والمتعلّم، والهادي والمهتدي.

كان حديث النهر يفعم خاطر زيري..

بدت له الأشياء أكثر وضوحاً... أستجة هي الجذور التي يستقي منها نسغه، وقرطبة هي الأغصان الوارفة التي تظله. كان مشدوداً إلى قرطبة. واعتزم أن يعود إليها. أن يعود عوداً آخر. أثنته مباركة... ثم لمّا رأت من عزمه ما رأت دعته لحاله...

ساعد زيري باشكوال في أعمال الحصاد، وابتهجت مباركة لذلك، واغتبطت مرية لأجواء الحصاد والدِّراس.. وغنّت للجمع مع الفلاحين غناءها الأثير لمّا فرغوا من الحصاد، وشاركتها مباركة في الجؤار والتبتل والصلاة على النبي والحمدلة... ورددت مرية مقالة مباركة: « أولي، أولي (اللّه، اللّه)...»، وبرغم الصبي يوسف: «أكوى، أكوى» وهو يسمع باشكوال يردد «أقوى، أقوى».. ثم وهو يصفق بكلتا يديه. وبعدها ترحّموا جميعهم على روح راحيل، في لحظة تبتُّل وخشوع سادها الوجوم.

بعد الحصاد عادَ زيري إلى قرطبة وهو يحمل في ذهنه حديث النهر.



الحي المسيحي

1

كان قوميز يمتهنُ الحِجامة. اتخذ حانوته بالحي المسيحي المجاور للحي اليهودي، غير بعيد عن باب ليون، لأن الإيجار به رخيص. كان أغلب زبائنه من فقراء المسلمين ومن بعض اليهود، ومن المولَّدين. كانوا يقصدونه لأن المقابل الذي يقتضيه أرخص بكثير مما يقتضيه الحجّامون الآخرون. بل كان لا يقتضي أجراً ممن ليس له نقود، فيؤدّي الزبون نسيئة، أو إن كان من المعدمين تجاوز عنه قوميز. كان يَحلق الشعر ويقوم بالفَصْد، ولم يكن يمتنع إلّا على الختان، ذلك أنه مثلما كان يردد لا يقوى على بكاء الأطفال. ولم تكن حانوته مكاناً للعمل فقط، بل كانت محل سكنى. بها لحاف صغير، يسدله حين الليل، ويجمعه في الصباح. ثم تأتي عليه فترة يغيب فيها لأيام عن مكان عمله وسكنه. وكان يأكل من مطاعم المدينة التي يرتادها عابرو السبيل أو وضيعو الشأن من الدهماء. وينتقل في يسر من مطاعم المسلمين إلى مطاعم اليهود فالمسيحيين. ولم يكن يعرف محرمات الأكل، وإذا عابَ عليه أحد ذلك، ردَّ أن الإثم هو ما يخرج من الفم وليس ما ينفذ إليه. كان خفيف الروح، حاضر البديهة. والشيء الطريف أنه كان لا يشتغل إلّا إن راقه الشغل. ولذلك يصرف الزبائن إن لم تكن به رغبة للشغل فيقعد على كرسي أمام حانوته ينظر إلى

السابلة وهي تنتقلُ من نقطة تماس ما بين الحي اليهودي، وأحياء المسيحيين. وإذا راقته فتاة عابرة لم يتورّع من التشبيب بها والتغزُّل فيها، ممّا يحفظه من الشِّعر أو ممّا ينظمه.

وقد رأى البعض أن الرجل مخبول، لأنه يخلط كثيراً من الأشياء، ولا يأتي ما يأتي الناس من التصرف، حسب كل طائفة. كان يختلط في تصرفه الإسلام والمسيحية واليهودية، بل الإيمان وعدم الإيمان. وكان لا يقيم علاقاته بناء على العقيدة، ولا يسأل أحداً دينه، ولا معتقده. كان حين المساء يضع زِقّاً من الخمر ويأخذ في الشراب منه. وإذا عاب عليه أحد ذلك، ردَّ: وهل رأيتم مسيحياً لا يشرب؟ ثم إذا حلَّ رمضان صام الشهر الفضيل، ولزم المسجد، وصلى التراويح مع المصلين إلى الفجر، وإن جابهه أحد بفرية ما يقوم به، ردَّ: وبالصيام يعرف المسلم. وبالسبت يعرف اليهودي حين يسبت. ويرد على منتقديه: اقرؤوا الوصايا العشر.

كان يغشى الكنيس والكنيسة والمسجد، وينتقل بينها بلا أدنى حرج. ويحتفل بالأعياد الدينية كلها ويمتنع عن الشغل فيها... عيد الفصح وكيبور وراش الشنة، وعيد الميلاد، وعيد الفطر وعيد الأضحى.

وما يحل يوم الجمعة حتى يتطيّب، فإذا أذّن الظهر قصد مسجداً صغيراً، غير بعيد من حانوته من أحياء المسلمين، وفتح القرآن وقرأه في تمعُّن، أو تلاه مع المؤمنين قبل الأذان الأول للصلاة. ثم يصلّي الجمعة بالمسجد، ويتشبّب بعد العصر، ويضع زِقّ خمره أمام حانوته. وكان لا يشتغل يوم السبت، ويقصد الكنيسة يوم الأحد. احتار أهل قرطبة في أمره. اشتكى منه المسلمون لأنه يشرب الخمر، وتضايق منه المسيحيون لأنه يقصد المسجد يوم الجمعة ويصوم رمضان، وتأفّف منه اليهود لأنه لا يحترم الموانع التي فرضها أدوناي على شعبه. نادى عليه

فتى من الشرطة الصغرى، فأغلظ عليه في القول، فردَّ قوميز بابتسامة بلهاء. وعاود صاحب الشرطة الوعيد، فردَّ قوميز في نكاية:

- نحن أدوات اللّه. واللّه أسمى من أدواته.

عزّره فتى الشرطة، فردَّ عليه:

- ألا تخشى أدوات اللّه؟

ارتاع الفتى. عُزل بعدها، وردّد الناس ذلك، وأيقنوا أنَّ له كرامات.

كان حسب ما تواتر من المُولّدين. ولعلّ أجداده كانوا من سدنة الكنيسة، فحافظ على لقبهم وهو قوميز وأضحى له عَلَماً، وكثير ممن يحملون هذا الاسم هم من دون مرتبة دينية.

وكانت تلصق به بعض الإشاعات من أنه حينما يختفي فلكي يقصد الساقطات من النساء. وكان يتردد على امرأة تعيش وحيدة، وكانت تستقبل في بيتها الرجال، ويتقول الناس في شأنها الأقاويل. وردد آخرون أنه كان يختلي بيهودية تسكن الحي اليهودي... وربما شاهدوه يغشى بيتها ويخرج منه...

كان قوميز حالة نادرة، لا تسترعي الانتباه إلّا من حيث شذوذها عمّا تعارف عليه الناس، والمدن الكبرى تحبل بالحالات الشاذة.

2

شوهد قوميز يغشى بيت سيدة تعيش وحيدة بدرب النحّاسين. ملامحها لا تُبِين أنها عربية. لم تكن شقراء كما هو حال البشكنسيات أو نساء نافار، وإنما كانت ذات ملامح أهل البلد، من الأندلس، بشعر فاحم، ولون يميل إلى الحمرة، وأنف دقيق، وشفتَين ممتلئتَين وعينَين وضّاحتَين. كانت ذات جمال، ولكن شحوبها طمس جمالها.

كانت تُعرف بجُمانة القنسرينية، أو الأنسرينية حسب نطقها، لأن الشوام من قنسرين نزلوا جيان، وكانت أصولها من جيان، وارتبطت عدة أُسر بالولاء للوافدين الجُدد، فأصبحوا ينتسبون إلى مَواليهم. وكانت إذ تتكلم العربية ترتضخ لكنة، وتحمل عُجمة أصولها، واختلاسها لحرف الراء ومنها نطقها حرف القاف همزة... وكان ذلك الإبدال سارياً في صفوف المولدين، وهم من أسلموا، ومن المستعربين وهم من لم يُسلموا واتخذوا العربية لساناً لهم.

يعرف الناس عنها أنها كانت تبيع الإسفنج، ولكنها إلى ذلك كانت تستقبل الرجال في بيتها. لم يكن جيرتها يخصّونها بالاحترام، لما شاع عنها من سوء السيرة، ولم يستغرب الناس ممن عرفوا قوميز أن يغشى بيت امرأة سافلة، فهو نفسه لم يكن يبين على رُجحان عقل، ويخلط بين العقائد، ولا يأتمُّ بحلال، ولا يرتدع بحرام... كان يقصد

بيتها بعد الظهر، ولا يخرج منه إلّا وقد خفّت الحرارة، ثم يؤم الحانوت حتى المغيب، فيعود لبيت المرأة ويخرجان من باب القنطرة حتى مجرى الوادي الكبير، فيقتعدان على شُرْف يرمقان جريان النهر على ضوء القمر والنجوم، مستمتعين بتلطُّف الجو قرب النهر، وحفيف أغصان الشجر... والذين اقتربوا من المرأة ألْفوها ذابلة تخفي جمالاً ولّى، قد أخذ وجهها في التجعُّد، رغم أنها في الثلاثين من عمرها. وكان قوميز على خبله، وسيماً، ولم يفهم الناس سرّ تلك العلاقة... كان قوميز وجمانة يبدوان متعلّقَين ببعضهما، وأيقن الناس أن المسألة أعمق من نزوة لِما كان يواظب من التردد عليها، ولا يتحرّج من الخروج معها، ولما يبذله من عطف عليها، ولما تبديه هي من تعلّق نحوه... ولله في خلقه شؤون، ردّدَ غالبية الناس.

قيل عن المرأة إنها تتحدر من بني غرسية، وهم من أهل البلد، ممن أسلموا، والوا بني أمية، وأصبحوا يعرَفون ببني غرسية، وأحياناً القنسرينيين، نسبة إلى فرع بني أمية ممن والوا ونزلوا جيان.. وغالب الظنّ، أن بني غرسية لم يكونوا من موالي الاصطناع، وأغلب موالي الاصطناع من العلية، ممن تربطهم وبني أمية أواصر ومصالح، وإنما كان بنو غرسية من موالي العتاقة، أي من والوا فرعاً من بني أمية كي ينعتقوا ويتخلّصوا من إسار الاستعباد والحفاظ على بعض من أراضيهم... إلا أن الدوائر دارت بأهلها، فنزحت صغيرة مع أبويها من كورة جيان إلى قرطبة... تطوّع أبوها مع جيش الحشود إبّان عبد الرحمن الناصر فمات في غزوة. نشأت يتيمة الأب، ونالت أمها من ديوان صاحب العَرض أعطية جزاء عن وفاة زوجها في غزوة، اشترت بها بيتاً متواضعاً في الحي المسيحي ممّا تسكنه الدهماء. كان البيت في الحقيقة، غرفة من الطابق الثاني، يُنتهى إليها من دُرج. ولم يكن للبيت صحن، ولا بئر، ولذلك كانت الأم تستقي من نافورة، ممّا يوقفه

المحسنون في سبيل اللّه للمحتاجين والمستضعفين والمسافرين.. وكانت تشتغل في البيوتات.. تعبت من ذلك، ثم أخذت تصنع الإسفنج وتبيعه في الزقاق.. بعثت الأم بالبنت إلى دير كي تتعلم الخياطة والطرز، ثم اضطرت أن تستخدمها معها لمّا شعرت بالوهن.. ولم تقفل جمانة السادسة عشرة من عمرها حتى ماتت الأم.. تكفّل بعض المحسنين بالكفن والدفن... كانت الأم تود أن تدفَن في مقابر النصارى مثلما أوصت ابنتها وهي على فراش الموت. ولم تعترض البنت حينما حلَّ محسنون دفنوا أمها في مقبرة المسلمين بالربض. وجدت جمانة نفسها وحيدة بعد وفاة أمها. عاشت لفترة ممّا كان ينفحها إياها المحسنون. ثم نضبت ذخيرتها، وسعت أن تبيع الإسفنج كما كانت تفعل أمها. سنّها وجمالها أغرى بها الرجال. حل عندها رجل كبير السنّ وهي بالزقاق تحضّر الإسفنج، أخذ يسألها عدة أسئلة وهي تجيب ببراءة... أيقن أنها بلا سند ولا تجربة... عرض عليها الزواج... قبلَت. اصطحبها إلى بيت له صغير، وسألته في براءة عن العدلين، فردَّ عليها أن اللّه هو الرقيب على حسن الطوية. افتضَّ بكارتها، وعند الصباح طردها... أخذت تصرخ... تجمهر الناس حول بابه، ودفع بأن بنتاً ساقطة تتحرّش به. حلَّ أصحاب الشرطة... تحدث الرجل حديث الواثق وهو يرصّع كلامه بآيات القرآن، واكتفت البنت بالصراخ والبكاء والدفع بأن الرجل وعدها بالزواج ثم ألقى بها. صحبها رجال الشرطة. جسّتها العريفة ووجدت أنها ليست بعذراء.. هدّدها رجال الشرطة أنها إن عادت تتحرش بالرجال المحترمين فستنال الجزاء الذي يليق بالساقطات مثلها. عادت مهيضة الجناح، كسيرة الفؤاد. بكت وحيدة، ولم تجد مواسياً ولا مؤنساً...

تحرّشَ بها آخرون، وعرضوا عليها الذهاب معهم، فقبلت مقابل مال، كي تعيش... ورأى البعض ممن ليس لهم بيت، أن تأخذهم إلى

بيتها.. فكانت تفعل، إلى أن سمعت بالفقيه الذي يبلسم جراح المنكسرة قلوبهم، فحلّت عنده... عادت مكتئبة من شخص يبدو أنه دجّال أكثر منه شيئاً آخر، ولو هو نفحها بعض المال. لم تعد إليه، وتردد أنه تبدد، وأيقنت أنه دجّال، كما قدّرت. وآلت على نفسها ألا يقربها رجل، مهما كانت حاجتها إلى المال. ونسيت الفقيه، إلى اليوم الذي سمعت نقراً متصلاً على الباب بعد أن فرغت من بيع الإسفنج في يوم حارّ من أيام الصيف... نزلت الدرج وفتحت للطارق. بادرها:

- مولاتي أنا في حاجة إليك.

وصفقت الباب في وجهه... عاودَ النقر. صرخت في وجهه:

- لئن لم تذهب لسوف أنادي على الشرطة...

كانت تعرف أن رجال الشرطة لن يستمعوا إلى امرأة فشا أنها ساقطة... لم يخشَ الطارق تهديدها.

- يمكن أن تساعدينني. بورك فيك... مولاتي، هل لك في أجر... أبحث عن محل للكراء... حاجتي عندك سيدتي...

كان يتكلم باطّراد، دون أن يترك لها المجال للحديث. خشيت أن يطول به الوقوف، ويفاجئهما عابر فيتأكد ما فشا عنها من سوء السيرة، مع أنها قررت ألا يقربها رجل... كانت تحلمُ برجلٍ. رجل يحبها وتحبه...

عاد الرجل للحديث:

- حاجتي عندك مولاتي... واللّه. أبحث عن بيت...

- ولمَ لا تذهب عند سمسار؟

- وايم اللّه، هذا عين العقل... هل السمسار يفتح الأبواب؟ وهل لكل باب مفتاح، وهل كل مفتاح يفتح الباب؟ باللّه، أبحث عن بيت أسكن إليه ويسكن لي، ولا أرى السمسار يساعدني في شيء ممّا أرومه.

تأهّبت أن تغلق الباب دونه وتَصرفه صرفاً غير رفيق...

- مولاتي، الجو حارّ. هل لك أن نقتعد قرب النهر ونتحدث...

ألا يستحسن أن تصحب الرجل قرب الشط على أن يبقيا واقفَين يثيران الشبهات؟... ترددت هنيهة. ورضيت أن تصحبه على أن يقبع واقفاً في عتبة البيت. أغلقت الباب ثم رافقته. استرسل في الحديث.

- حينما يفتح الرب باباً، فإثم ألّا نغشاه...

بادرته بالسؤال:

- هل...

ثم تراجعت.. كانت تريد أن تسأله عن عقيدته، ثم أحجمت، لأنها اعتبرته مسلماً، ثم لمّا أخذ يتحدث عن الرب، بثَّ في ذهنها الشك...

- هي أسماء لحقيقة واحدة. اللّه، الرب، أدوناي... وهي سُبل للمحبّة.

ارتاعت... كما لو أنه قرأ ما كان يجول بذهنها. ألفته يتكلم كالقساوسة، وكان يروقها ذلك، لأن أمها بقيت مسيحية. فاجأها:

- مولاتي، بعد إذنك، أريد أن آكل... أريد أن نجلس في هذا المطعم لو تفضّلت... تتلمظ شفتاي للحم الغريض... نقعد هنا...

نادى على النادل وطلب أكلاً كثيراً... سأله النادل:

- هل أنت متأكد من طلبتك؟

- زدْ زِقّ خمر... خمراً معتقة. أليس كذلك يا مولاتي...

لم تتمالك من الضحك. ذهب عليها زمن لم تضحك. شرّ البلوى ما يضحك...

أثار أسلوب الرجل في الحديث ولباسه ارتياب النادل. جهر النادل في وجهه:

- ينبغي أن تؤدي مسبقاً...

ردَّ قوميز في وثوق:

- هذا فكرة جيّدة... كم؟

- عشرة مثاقيل...

- خذ عشرين.. عشرة لك..

وأخرج قطعتين نقديتين وأسلمهما للنادل. تفحّصها وأيقن أنها صحيحة...

- الخمرة أولاً..

- لكن...

- الشر ما يخرج من الفم، لا ما ينفذ إليه...

- لا نسقي الخمرة للمسلمين...

- لا ينبغي. لا ينبغي... دعهم يسقونها لأنفسهم...

لم تتمالك جمانة من الضحك... الرجل مجنون...

ثم أشار إلى النادل وهمسَ إليه في صوت مسموع:

- ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾...

ويتلو القرآن.

أتى النادل بزقّ خمرة مع قدح... انتهره قوميز:

- وهل يحلو الخمر من غير نديم ولا سمير.. لا يبدو أنك من الأندلس؟

- بلى.

- إذاً قدحان، بل ثلاثة... قدح لك أنت...

وأخذ الرجل يشرب. مدّ لجمانة قدحاً. ترددت ثم أقدمت على الشرب...

- اسمي قوميز، من الموالي. ممن اصطنعهم بنو لخم، وهم

قحطانيون... ولا علاقة لي بالعدنانيين... شكراً لك يا فتى... مسلم. نعم. والمسلم من سلمَ الناس من يده ولسانه...

وضع النادل الأكل ولم ينل منه الرجل. أكلت جمانة بشهية... لم تعد تتوجّس منه. كان بادي الجنون... استرسل في الحديث:

- غريب أمر الأندلس، زينة الدنيا التي جمعت هذا الحشد المتنافر، أهل البلد والعرب من البلديين والشوام، والعدنانين واليمينين، ثم البربر، أتعرفين البربر؟ شعوب لا يحصيها عد، من زناتة وصنهاجة، وحتى المصامدة، ثم الموالي، من ينتسبون إلى العرب، من العتاقة وأهل النِّعمة والمصطنعة، والمولدين وأهل الذمة...

ثم طرح السؤال:

- أسألك ما الذي يجمع هذا الجمّ المتنافر؟ خمّني..

ولم ينتظر الجواب:

- طريقة عيش الأندلس. من يريد أن يتعبّد فليفعل، في دير أو مسجد أو كنيس.. ومن يريد أن يمرح ويفرح كان له ذلك... هي ذي الأندلس، لا الذين يفرضون تصوراً معيّناً.

أكلتْ بشهية، ولم ينل هو من طعام.

غادرا بعدها المطعم في اتجاه باب القنطرة إلى جنبات النهر. استمعا إلى شدو المحبين، وتشبيب المتغزّلين... بالعربية الفصيحة، وبالعربية العامية.

ثم رافقها إلى بيتها... كان يجرّ رجلَيه من السكر. خشيت أن يعرض لها أن يغشى البيت.

صاحَ وقد بلغ الباب:

- عِمتي مساء مولاتي.. سأبقى أسفل الدرج إلى أن تصعدي إلى البيت...

3

درج قوميز أن يأتي عند جمانة بعد أن تخف الحرارة، ويأكلان بمطعم، ثم يتسامران قرب الوادي الكبير. . إلى أن أخذ يغشى بيتها جهاراً، ويبيت به.

ضاقت جيرة جمانة بتردد قوميز عليها، ومبيته عندها دون مراعاة لمشاعر الساكنة. . . كانوا يتحاشون سيرة امرأة ساقطة كانت تستقبل الرجال خُفية، وابتهجوا أنها كفّت عن ذلك، ولكنها عادت سيرتها مع الحلّاق بشكلٍ مفضوح، ولم يكن هو ليتستّر. . واتفقَ المسيحيون والمسلمون على إدانة سلوك جمانة والتبليغ به، وأخبروا من أجل ذلك أصحاب الشرطة. وقد أضحت الشرطة في عهد ابن عامر غيرها في عهد جعفر، إذ لم تعد تتورّع من إيقاع أشد العقاب ممن يخالف تعاليم الإسلام من المسلمين.

كان قوميز في حضن جمانة ليلاً حين توالى الطرق بشدّة. . أطلَّ قوميز من النافذة المشرفة على الزقاق وصاح:

- مَن الطارق؟

- افتح.

- وما في الأمر؟. .

- الحسبة. . . افتح.

- واللّه، لا أحتاج حسبة، ولم أسعَ إليها.

- أسرع بفتح الباب وإلا كسرناه.

خرج قوميز بتبّان يخفي عورته غير خائف ولا وجل، ثم صاح في الشرطة وقد تكوّف الناس يستطلعون الخبر:

- عليكم أن تحرصوا على طمأنينة الناس، لا إزعاجهم..

- أنت متهم بالزنا.

- الزنا؟ ما الزنا؟

- أن تختلي بامرأة ليست امرأتك..

ولم يتمالك قوميز من الضحك، ثم نادى بأعلى صوته:

- جمانة، ضعي شيئاً علي جسدك، لتحدّثي هؤلاء. لا يرونك امرأة لي.

ثم تحوّل إلى الشرطي:

- جمانة امرأتي..

- أنتما ترتكبان الفاحشة.

- ما الفاحشة؟..

- تزنيان. الناس من ساكنة الزقاق اشتكوا منكما، وينبغي أن نخفركما إلى الشرطة..

وأمسك رأسه بيده ثم صاح:

- ليس لي رغبة أن أذهب إلى الشرطة الآن. كنت في حديث شيق مع جمانة... كانت تحكي لي قصة حياتها... غداً إن تشاؤون.

- أنت متّهم بارتكاب معصية، ولا بدَّ أن تُعرَض على القاضي كي ينطق بحكم الشرع ويقام عليك الحدّ...

- يا ألله، الحدّ لأني أحب امرأة؟

- لأنك ترتكب الحرام.

- ما الحلال وما الحرام... جمانة قلتها لك، هؤلاء لا يفقهون إلا ظاهر الأمر لا باطنه... جيئي بالصكّ، فوق المائدة..

نزلت جمانة وهي متدثرة وأسلمت صكاً إلى قوميز من الدرج إلى الباب، دون أن تخرج، أو يراها من هم بالزقاق. استلمَ قوميز الصكّ وأسلمه للشرطي..

محّصه الشرطي وكأنما لم يصدق، ثم أسلم الصك إلى كبيره... قرأه، ثم أرسل في استغراب:

- عقد نكاح؟

وردَّ قوميز:

- على سُنّة اللّه ورسوله، مع الصداق وشهود عدلين، من قاضي خطة المناكح. القاضي جزاه اللّه خيراً تولّى الولاية لأن والد زوجتي قضى في الجهاد. رحمه اللّه وأسكنه فسيح جنانه. وأمها ماتت، دامت لها الراحة الأبدية.

ردَّ كبير الشرطة:

- أتستغفلني؟ ومن يضمن أنك قوميز، وهي جمانة...

وردَّ قوميز:

- صدقت، إن هي إلا أسماء... ولكن الذين وشوا بنا يعلمون أني قوميز وزوجتي جمانة... وهل تشك فيما وضعه العدلان؟

نظرَ الشرطي إلى مساعده، يدعوه إلى المغادرة:

- سخر منا الرجل، وهزأ منا الجيران....

ردّدَ قوميز:

- لا بأس. كان ينقص العقد الإشهار وقد تكفّلتما به جزاكما اللّه خيراً، مع الساكنة... أحسنَت من حيث كانت تريد الإساءة. جزاها اللّه خيراً.

وردَّ كبير الشرطة في اتجاه المتجمهرين في غلظة:

- انفضّوا.

منذ ذلك اليوم أخذَ الشكّ يساور جمانة في من أصبح زوجها. حينما قال لها قبل أن يختلي بها إنه يريد أن يتزوجها حسبته يخادع كي يستدرجها كما فعل من افتضّها. ثم ما لبث أن أخذها إلى عدلين وكتبا عقد النكاح. كانت تشك في صدق الوثيقة، ولكن لمّا رأت قوميز يحاجُّ الشرطة، أدركت أن الرجل غير ما يُظهر...

لمّا ذهب رجُلا الشرطة، وهدأت الجلبة نظرت إلى قوميز على ضوء فانوس وهما بالفراش. قالت له في توجُّس:

- كنت ذهبت عند فقيه، وقال لي سأجد زوجاً، وحسبته دجّالاً.
- قرأ من نفسك ما لم تقرئي.
- ما تنبأ به تحقق.
- نبّأ بما تحقق.
- لم أصدّقه حينها...
- صدقي نفسك.
- وددت الذهاب عنده لكنه رحل.
- رحل طيفه.
- كان بالجامع الكبير... قصدته وبثثته شكاتي...
- لا شيء يضيع.

رسمت قطعة زمنية، ثم قالت:

- وهل يعود ما ذهب؟
- يعود في شكل آخر. كل شيء يتحول.
- لا أفهم عنك يا قوميز.
- المهم أن تفهمي عن نفسك.
- الرجل صاحب كرامات.
- لا تؤمني بالخرافات.

4

كان قوميز بالحانوت وقد حلَّ بها أربعة زبائن ينتظرون دورهم للحلاقة، يبدون من لباسهم أنهم من الدهماء. جلسوا على مقاعد، فيما كان هو يحلق لرجل شاب. كان قوميز غير مستعجل في شغله. يضرب بمقصّه ضربتَين في شَعْر الزبون، ثم يتوقف، متحدثاً إلى الزبائن الآخرين:

- فعلها أتباع جعفر. كادوا يبطشون بابن عامر.. نعم، كادوا يقتلونه..

ردَّ الجليس الأول:

- لا علاقة للأمر بأصحاب جعفر. جعفر انتهى، وأصحابه تفرّقوا وأخذوا يخشون على أنفسهم..

ردَّ الثاني:

- لا تستهن بقوة جعفر. جذوة نار يمكن أن تستعر..

عقّب الأول:

- انتهى جعفر. هو وصحبه. جعفر يقبع بسجن المطبق، يبكي ويشتكي، ويتوسّل لابن عامر..

ردَّ رجل مطرق:

- يبدو لي أن صُبحاً هي مَن دبّر العملية...

- صبح؟ والله إنك لأنوك، كيف وهي صاحبته..

- احذروا العيون.. للجدران آذان...

ردَّ الثاني:

- والله لا أرى في الأمر ما يزعج. امرأة أحبت رجلاً، ورجل أحب امرأة..

قال الأول:

- كيف تزعم ذلك؟ أحبته وهي في عصمة رجل آخر.

- وما العيب؟ لم يعد الزوج زوجها. شاخ، وهي في مقتبل العمر. ثم... أرخى رأسه وهمس: كان لا يأتي النساء.

- حسِّنْ ألفاظك. الزوج كان خليفة... خليفة المسلمين.. وللملوك حرمة.

- حرمة إن رعوها، أمّا إن استبدوا، وغاروا في الملذات، ولم يراعوا حرمة الأمانة، فأي حرمة يحاطون بها؟

دفع الثاني:

- تنظرون إلى المسألة نظرة عاطفية. ابن عامر وظّف صبحاً كي يبلغ مأربه، ثم تخلّى عنها لمّا بلغ مراده وهي من سعى في قتله...

عادَ الأول للحديث:

- يبدو أن ليس لكم علم بما وقع... المسألة لا علاقة لها لا بجعفر ولا بصبح. هي ضربة الصقالبة... محاولة الاغتيال كانت تستهدف الخليفة نفسه، وقد أحبطها ابن عامر، وتمَّ إيقاف الفتى فائق وأُعدم. ويجري البحث عن كاتب للخليفة الحَكم، هو العقل المدبّر.

ردَّ الثالث:

- احذروا العيون... ألا تعرفون بطش الشرطة؟

ضرب قوميز ضربة مقص على رأس الزبون، ثم عقّب:

- الكاتب؟ يفعلها. عسى شرطة ابن عامر أن تضع اليد على رأس الحربة هذا الكاتب الملعون. تبّاً له.

قال الأول:

- سيلقى القبض عليه. مسألة وقت.

قال الثاني:

- واللّه... إن لابن عامر هذا أكثر من سهم في كنانته... ألم تلحظوا حلول جيوش البربر بقرطبة؟...

قال الزبون، من يحلق شعره، وكان يخفي ضجره:

- رأيتهم، إنما رجاء أسرعْ يا قوميز. نصف ساعة، وما زلت تحلق جانباً واحداً من رأسي.

ردَّ قوميز:

- هوّن عليك. سأحلق شعرك، إن لم يكن اليوم فغداً..

وانتفضَ الرجل:

- ماذا؟ أأخرج من هنا برأس كما لو هو الثوب الرقيع؟

- لا عليك، سأحلق شعرك... قوميز لا يشتغل تحت الضغط... ما تقولون يا جماعة في البربر ممن حلوا بقرطبة؟..

نطق الرابع الذي كان يبدو أكثر تتبّعاً لما يجري:

- بعد محاولة اغتيال ابن عامر، استقدمَ جندَ جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي من عدوة البربر، من المغرب الأوسط...

سألَ الأول:

- وهل هو في حاجة إلى ذلك وقد ارتبط بمصاهرة مع القائد غالب؟

عقّب الزبون في حنق:

- رجاءً، شعْري.. رجاء أسرع في حلق شعري.. رجاء..

لم يحفل أحد بملاحظة الزبون، ولم يجد قوميز غضاضة في أن يُعرض عنه، أو يأبه لاعتراضه. تحدث الثاني:

- يبدو لي أن ابن عامر يهيّئ شيئاً بدعوته للبربر...

ردَّ الأول الذي كان يستهين بشأن البربر:

- وفيمَ يفيده جمع من حثالة القوم، ليس عليهم حتى ما يلبسونه...

عقّب الثاني:

- ومن يصنع التاريخ سوى الدهماء؟

صدح الثالث في نفور:

- واللّه إن استمررتم على هذا المنوال، ستجدون أنفسكم في المطبق.. أنتم لا تعرفون شرطة ابن عامر، ولا تعرفون سجن المطبق، ولا تعرفون ابن عامر.

تحدّث الرابع:

- ومن يأبه بحديث الدهماء في حانوت حجّام؟... وهل نحن من العلية حتى يَهتمّ بنا أحد؟

عقب قوميز، وهو يضرب ضربة مقص:

- معك حق. لسنا من العلية.

عاود الزبون تأففه:

- رجاء، على هذا الوتيرة لن تكمل حلق شعري إلّا عند الغد...

ردَّ قوميز:

- واللّه إني لأجد فيك عجَلة، والعجلة من الشيطان. أكرهت جمعنا هذا؟

ردَّ من يحلق شعره في نفور:

- لم آتِ للجمع، وإنما لحلق شعري...

ونهره قوميز:

- خذ مثقالك وانصرف. لم أعد متمماً حلق شعرك...

قام الرجل من الكرسي متأفّفاً:

- وكيف تتركني هكذا، جهة مُجزّة، وأخرى منفوشة؟

- قل لهم هذا ما انتهى إليه ابتداع قوميز في شأن الحلاقة... جهة حليقة، وجهة منفوشة... وستصبح بقدرة قادر المنوال الذي يكلَف به الناس.

ولجّ الزبائن في الضحك.

أخذَ قوميز يهزأ:

- طوبى لك هذا المنوال الجديد الذي انتهت إليه الحلاقة. لسوف ترى الجمع من قرطبة يتحدثون بشأنك، وبشأن هذا المنوال العجيب.

أخذ الزبون يُرعد ويزبد:

- أنتم المولّدون شرّ ما تمخّض عن الأندلس، كالثوب الرقيع...

وجمع قوميز مقصه ونطعه:

- أسمعتم ما قال؟ يعير المولّدين. أشهدكم اللّه، فيما قال...

ونطق الثاني:

- نحن أهل البلد، فيمَ تعير المولّدين؟

قال من يحلق رأسه:

- لأنكم شرّ الخليقة.

- كيف؟ ردَّ قوميز.

- لم تعودوا كما كنتم، ولم تصبحوا كما نحن.. لم تعودوا قوطاً، ولستم عرباً.

أجاب قوميز:

- لو علمت يا مغفل، تلك من ميزاتنا. أخذنا المجد من أطرافه.

- وأي مجد أن يتبلّغ المرء بوضيع الأشغال؟

- لأن الأشغال التي تستهين بها هي ما يخلق الثروة. . . أما من هم في السؤدد فلا ينتجون شيئاً.

- ليس الناس سواء. . اللّه ميز بين الناس مراتبهم، وليس العرب كالمولَّدين.

صاح قوميز مقسماً بمغلظات الإيمان:

- واللّه لن أحلق رأسه وقد عيّر المولّدين.

أخذ الزبائن يهدئون من روعه، ويستجدونه أن يكمل شغله:

- وهل أحنث؟ ردَّ قوميز.

عقّب الزبون مع من تشاجر:

- وهل المولّدون مسلمون أقحاح كي لا يحنثوا؟

تدخّل الزبون الثالث، ممن كان يخشى ظلّه، محدثاً الزبون غير عابئ بقوميز:

- ألا تعرف قوميز؟ شخص غير راجح العقل، نأتيه لأن السعر الذي يقتضيه رخيص. . وهل رأيت حلاقاً بمثقال؟ اصطبرْ عليه. . .

هناك ردَّ قوميز:

- أصبحت مختلاً، أليس كذلك؟

وتأهّب لينزع قميصه، كمن يريد العراك. ونهض الثاني والرابع كي يفضّا الاشتباك، أما الأول من المولدين فقد تأهّب كي يميل في اتجاه قوميز.

هدأت ثائرة قوميز، بعد أن سعى الرابع في الصلح. . . اشترطَ ألّا يستعجله الزبون، ثم استأنف الشغل. حوّل قوميز الحديث:

- يجول أتباع جعفر الأندلسي في قرطبة ويصولون.

ردَّ الرابع:

- أقاموا بالأرباض، في أخبية...

- ولكني شهدتهم في قرطبة وهم يرطنون بلسانهم البربري... ردَّ قوميز.

- قلّة قليلة... قال الرابع.

تدخّل الأول:

- لعلّ ابن عامر يريد أن يغيّر بنية جيش الحضرة، حتى يكون في مثل قوة جيش الثغر.

- ولمَ؟ سألَ قوميز..

- بعد محاولة الاغتيال، لم يعد يثق في أحد...

ونطق الزبون وقد ضجر:

- رجاء، أسرعْ.

وهمس الثالث:

- لسوف أنبئكم بشيء ولكن لا ترووه عني.

- وما ذاك؟ سأل الرابع، وقد راعه أن يعلم الثالث شيئاً لا يعلمه.

وهمس الثالث:

- ابن عامر يعتزم بناء مدينة جديدة، في الجانب الغربي من قرطبة. لم يعد يأمن الزهراء وأهلها...

وصاح الزبون الذي يحلق شعره في حنق:

- أتريدون أن تعرفوا اسمها، الزاهرة... وأنا أشتغل في ديوان الأبنية مع ابن عامر. أهذا ما تريدون؟

ووجمَ الجمع. سادَ بينهم الصمت. قطعه قوميز متوجّهاً للزبون الثالث:

- معك حقّ، قوميز مختل لا يُحمل محمل الجدّ.

ردَّ الزبون الثالث:

- أنا لم أقل شيئاً... لم أنل ابن عامر بقول.. وفّقه اللّه، وسدّد خطاه..

- أستأذنكم اللّه، قال الرابع..

استوقفه قوميز:

- إلى أين أنت ذاهب ولم تحلق شعرك بعد؟

- لم أصلِّ العصر.

- صلّه هنا.

- الصلاة مع الجماعة أتم.

- وأي صلاة مع الجماعة للعصر وقد اقترب آذان المغرب؟

ولم يجب الزبون الرابع، وانفتل في يسر.

وأطنب الزبائن المتبقون في سجايا ابن عامر، وأكبّ قوميز على شعر الزبون، حتى إن انتهى، تحوّل نحو الزبائن الآخرين قائلاً:

- انصرفوا، لا طاقة لي بالشغل اليوم.

وانصرفوا غير متبرّمين وقد رضوا من الغنيمة بالإياب.

5

توجد بين الجامع والقنطرة ساحة النصر، وهي ساحة رحبة دأبَ الناس أن يؤموها بعد العصر، لكي يستمعوا إلى حلقات القصص والنوادر، ويلهوا بالألعاب ويمرحوا بالمستملحات. ومن أصحاب الحلقات من له مكان قار، ومنهم من يتجول في الأسواق، ينتقل ما بين إشبيلية وقرمونة وأستجة وحتى إلى جيّان. وكانوا يتكاثرون يوم الجمعة عصراً. وقد دأب قوميز على حضور تلك الحلقات. وكان يصطحب معه زوجته جمانة، يضع لبدة على الأرض، ثم يحتبي ويستمع إلى القصص التي يحكيها الرواة. ولم تكن جمانة، إذ تخرج، تضع شيئاً على رأسها، كما شأن المسيحيات، وكان يشاع عنها أنها كانت بَغية اصطادت رجلاً غريراً، ويتردّد بشأنيهما: «وافق شنّ طبقة».

كان قوميز وهو يستمع إلى قصص الحلقات يمعنُ الاهتمام كطفل، ويستغرق في الضحك كمخبول. وقد تلكزه جمانة كي يغادرا، لأنها لم تكن تفهم ولا تهتم، فيستدير نحوها متوسّلاً:

- جمانة، حبيبتي إلى أن تنتهي القصة..

- لا أفهم كثيراً..

- اسمعي، الرجل المنكسر يمثّل دور جعفر، والرجل الممشوق القوام، هو ابن عامر، وهو يجري الحُكم على جعفر وسط خاصته.

استمعي إلى الحاكي يمثّل دور جعفر..

كان حاكٍ يمثل رجلاً خائراً يمشي منكسراً وظهره منحنٍ بلباس رثّ، والمتفرجون من الحلقة يلمزونه:

- تكلم يا سارق... رُدّ ما اختلست. أحسبت أن ليس هناك حساب.. خسئت يا جعفر، أيها الوغد.

ثم يلجّ المتحلّقون حول الحلقة في الضحك، فينظر إليهم الرجل المنكسر:

- رفقاً بعزيز قوم ذل. ألا ليت للموت سعراً، ولكن اللّه أغلى سومه..

فيعجله رجل من الحلقة:

- تقدّم يا لئيماً. أتستبطئ مولاي ابن عامر؟

يظهر فتى جميل المُحيّا عليه شارة السلطان، وهو يقتعد على كرسي، وعن يمينه وشماله مساعدوه، يشير بيده إلى رجل يخفر من يمثّل جعفراً، فيلكزه، إلى أن يقف أمام من يُمثّل ابن عامر فينحني، ثم يُقبّل الأرض، ويأخذ في التلاوة:

لئن جلّ ذنبٌ ولم أعتمده	فأنت أجلُّ وأعلى يدا
ألم ترَ عبداً عدا طوْرُه	ومولى عفا ورشيداً هدى
أقِلْني أقالك من لم يزل	يقيك ويصرفُ عنك الردى

تنفجرُ الحلقة بالوعيد:

- لا تعفُ عنه يا فتى الأندلس. أرِه من صنوف العذاب ما أذاق به العباد..

ثم أخذ من يمثل جعفراً ينتحب:

- وما ربك بظلام للعبيد. هذا وقت إجابة الدعوة. كنت قد حكمت ظلماً على رجل أيام الخليفة الناصر. سار بعض الوشاة

بالسعاية ضدّه، ولم أتبيّن الأمر ولم أستبن، فأمرت به في السجن، واستخلصت أمواله.. فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ أتاني آتٍ، فقال لي: أطلق فلاناً، فقد أجبتُ دعوته فيك...

ثم اشتدَّ نحيب من يمثل جعفراً. وتعالت أصوات الحلقة:

- إن اللّه يمهل ولا يهمل.

- اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين اللّه حجاب.

- ها قد حلَّ يوم الحساب يا جعفر.. أنسيت يوم كنت تصول وتجول بلا حسيب ولا رقيب.

تحوّل نحيب من يُمثل دور جعفر إلى نشيج... ثم أخذ في القول:

- أحضرت الرجل وطلبت أن يتحرر من دعوته فأبى، وكان ممّا دعا به إلى اللّه أن يميتني في أضيق سجن سجنته فيه حقبة...

وتعالت الأصوات:

- عليه ببيت البراغيث في سجن المطبق..

- لا تأخذكم فيه شفقة ولا رحمة..

- لا تقتلوه حتى يلظى بما عذّب به الأبرياء.

- القتل أرحم به.

ثم رفعَ شخص من وسط الحلقة يده يشير إلى من يمثل جعفراً بأن يتقدم، ولكزه الخفير بعصا صغيرة، وتقدم من يمثل جعفراً منكسراً إلى حيث يجلس من يمثل ابن عامر ومساعديه. انفجر في وجهه واحد من المساعدين ممن يمثلون دور الوزير:

- ألا تُفشي السلام، ألا تنطق بجميل الكلام، يا لُكَع.

أطرق من يمثل جعفراً لا ينبس. ثم عاوده الشخص:

- أحدّثك ولا ترد. لمَ لا تلقي بالسلام؟

ردَّ جعفر بصوت خفيت:

- أوَنسيت برّي بك يا محمد بن حفص؟ لقد منّ اللّه عليك بأن جعلك وزيراً لمولانا ابن عامر، ونسيت ما أسديتُ إليك، لولاه ما كنت حيث أنت، ولكن هو السلطان، من أدبر أمره انقلب عليه من كان يتمسّح به، ثم انبرى يردّد:

والناسُ من يلقَ خيراً قائلون له
ما يشتهي ولأُمِّ المخطئ الهبلُ

وأعجله من يمثّل دور الوزير محمد بن حفص:

- هذا هو البهت بعينه. وأين أياديك الغرّاء التي مننت بها عليّ؟

- وهل هذا ما يفشى؟ ردَّ من يمثل جعفراً.

و نهض من يمثل الوزير محمد بن حفص، يهم به كمن يريد أن يضربه وهو يصيح:

- أتُعرّض بي يا وغداً؟

فردَّ من يمثل دور الحاجب جعفر:

- كادت يدك أن تُقطع ومنعتها.

- أتتهمني بالسرقة؟

فهز جعفر رأسه مستجدياً:

- أُنشدُ اللّه من له علم بما ذكرت أن يتكلم.

حينها تقدّم واحد من مساعدي ابن عامر متحدثاً إلى من يمثل جعفراً:

- قد يكون ممّا قلت نصيب، إنما أنت من يُقاضَى لا من يُقاضِي.

فانتحب جعفر. . .

واهتز الملأ ضحكاً، ثم اعتلى صياح المتفرجين:

- لا تأخذكم فيه رحمة.

- اقطعوا يده ورجله من خلاف.

- اسملوا عينَيه.

- استخلصوا أمواله كلها...

- ذق يا عدو اللّه ممّا أذقت به العباد.

ونقر رجل على دفٍّ عدة نقرات، وبعدها صاح:

- هل تريدون أن تعرفوا بقية القصة؟

رددوا جماعة:

- نعم.

فعقّب صاحب الحلقة:

- فجودوا ببعض ما منّ اللّه به عليكم، قلّ أو جلّ.

ثم أخذ يستدير وهو يحمل دفّه. يلقي بعض المتفرجين بالنقود في الدفّ، والبعض يدسها في راحته... بعد أن استكمل الدورة، عدّها، ثم انبرى في اتجاه الحلقة:

- دامت لكم أيام السعد، وزادكم اللّه من فضله، إنما الحاجة كبرت، والمؤونة ثقلت، فهلا أعنتمونا على صروف الدهر، ونحن ما علمتم، سبعة أنفار، ولكل نفر عيال.

عاود الرجل الدورة، ولكن أريحية المتفرجين كانت أقل.. أخذ يردد:

- أما من مجير؟ أما من جابر لعثرات الكرام... يا أهل قرطبة الأبرار.

ثم فجأة ألقى رجل بصرّة مليئة بالنقود.

توقف صاحب الحلقة، وقد رأى الصرّة، فاستدار نحو مساعده:

- ما تقول فيمن أفرحنا يوم تعسنا؟

فانبرى المساعد بالقول:

- اللّهُمّ اجعل له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همّ فرجاً.

وردَّ صاحب الحلقة:

- آمين.

- اللّهُمّ اجعل خزائن الأرض في قبضته، ينفق منها بغير حساب. كلما أنفق منها زكت بإذن ربها.

ردَّ صاحب الحلقة:

- آمين.

قاطعه صاحب الصرّة:

- ادعُ للحاجب ابن عامر.

فهمَ الحاضرون أن المتفضّل من أصحاب الخدمة التابعين لابن عامر، وأن الأعطية أتت من ديوان الأعطية لابن عامر. وانبرى صاحب الحلقة يدعو للحاجب:

- اللّهُمّ اجعلنا لمولانا محمد بن عامر سدّد اللّه خطاه سنداً في الأرض والسماء.

واهتزت الحلقة تردِّد:

- آمين.

- اللّهُمّ امحق به الأعداء.

- آمين.

- اللّهُمّ حقّق على يده الرجاء.

- آمين.

- اللّهُمّ ارفع به الإسلام، وأعز المسلمين.

- آمين.

- اللّهُمّ أذل به الكفّار والمشركين.

- آمين.

- اللّهُمّ كُن له ولا تكن عليه.

- آمين.

ثم أشار صاحب الصرّة برأسه لصاحب الحلقة أن يكمل العرض.

استأنف الممثّلون عرضهم. نطقَ من يمثّل الوزير محمد بن حفص في اتجاه من يقوم بدور جعفر:

- كيف يا عدو اللّه، تدخل ولا تلقي بالسلام. وكيف يكون المسلم مسلماً إن لم يفشِ السلام. أخرجت عن الجماعة وصبأت عن الملة؟

تدخّل من يمثل دور الوزير محمد بن جهور قائلاً:

- لم يكن له أن يلقي بالسلام، لأنه لو فعل لدفع الناس إلى ردّ السلام، فيُغضبون إذّاك صاحب السلطان، وإن لم يفعلوا أغضبوا اللّه. وجعفر ممن يدركون الرسم، وما يجب وما لا يجب.

حينها تدخّل من يمثل ابن عامر. تنحنح. وجمت النفوس إثرها. أرسل:

- دعونا من الرسم، وما يجب في القول وما لا يجب. نحن أمام قضية عويصة، لأن جعفراً لم يترك شيئاً من أموال المسلمين إلا احتجنه.

سألت جمانة قوميز وهي تكِزُه بمرفقها كما لو أنها أخذت تدرك مجريات القصة:

- ما معنى احتجنه؟

ردَّ قوميز بسرعة كما لو يخشى أن يضيع منه حبل القصة.

- أخذه. استأثر به.

واهتزت الحلقة:

- رُد أموال المسلمين إلى بيت مال المسلمين.

ونطق رجل في الحلقة يحمل الصليب:

- رد الأموال إلى أصحابها...

أردف قوميز:

- أي والله. مسلمين وغير مسلمين.

قبّل جعفر الأرض، ثم قال بصوت كسيف متوجّهاً إلى ابن عامر:

- لم يبقَ لي طارف ولا تالد. ولا أطمع لشيء سوى عفوك يا مولاي.

ردَّ ابن عامر:

- وددت ذلك، ولكن الأموال أموال المسلمين، وينبغي أن تعود لأصحابها.

فردَّ جعفر مستعطفاً:

- لقد استصفى رجالك يا مولاي كل ما أملك، وليس لي إلّا هذا الثوب الخلق على جسدي.

عقب ابن عامر:

- السرقة جرم.

واهتزّت الحلقة:

- أي نعم.

وأضاف ابن عامر:

- هذا فضلاً عن جرائمك التي لا تحصى. ومن الناس من دخل السجن بسببك...

وردّت الجماعة:

- أي والله.

واسترسل من يقوم بدور ابن عامر:

- ومنهم من مات.

فردّت الجماعة:

- أي نعم.

أضاف ابن عامر:

- ومنهم من ضاع ماله.

فصدحت الجماعة:

- هو ذاك.

أخذَ جعفر ينتحب.. ثم نطق بصوت متهدج:

- هل لمولاي أن يتّخذني مؤدّباً لبنيه، وقد عرف معرفتي بالآداب والرسم والطقوس؟

صاحت جموع الحلقة:

- إياك يا فتى قرطبة أن تأخذك فيه شفقة..

- حذار أن تدخله بيتك.

رفع من يقوم بدور ابن عامر يده مشيراً إلى الجمع بالصمت، متوجّهاً بحدّة نحو جعفر:

- أتريد أن تستجهلني يا لئيماً؟ أتريد أن تسقطني في أعين الناس؟ عرفوني واقفاً ببابك، ثم يرونك بالدهليز معلّماً؟ الزمن غير الزمن يا جعفر.

ورددت الجموع:

- أحسنت يا أسد الشرى. الزمن غير الزمن.

وردد آخرون:

- أرِه أيها الغطريف ما أنت قادر عليه من بأس.

تعالت الأصوات إلى أن أخذت تخفت، إثرها أخذ من يمثل دور جعفر في الإنشاد:

صبرتُ على الأيام لما تولتِ
وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجبا للقلب كيف اصطبارُه
وللنفس بعد العزّ كيف استُذلتِ

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى
فإن طمعت تاقت وإلا تسلتِ[1]

لمّا أتمَّ تلاوة الأبيات صاح واحد من الجموع:

- إنه يريد أن يسحركم بشِعره. إياكم أن تأخذكم فيه شفقة.

وفجأة انبرت جمانة متوجّهة إلى الجمع قائلة بلكنتها:

- أد (قد) طلب الصفح، وانفطر (مع اختلاس الراء) ألبه (قلبه) اغفروا له. اغفروا له، فالربّ صفح.

حدّقت فيها العيون في استغراب... ساد الصمت. ثم فجأة ندَّ صوت لا يُدرى أين انبعث:

- اخرسي يا بَغية، ما أنت وذاك.

وعلَت همهمة بين من يؤيد القول ومن يستنكره. أطرق قوميز لحظة، كمن تلقّى ضربة موجعة، ثم نهض، بعد لأي، وغشي حلبة الحلقة. أمسك الممثلون، وانسحبوا إلى الخلف حتى اختلطوا بالمتفرجين. أجال قوميز النظر في الجموع. نطق في هدوء:

- أنا زوج البغية، ورضيت بها زوجاً. هل يضير ذلك أحداً منكم؟

سادَ صمت ثقيل. ثم استرسل وسط همهمة الجموع:

- ألا ترددون آناء الليل وأطراف النهار في الجوامع والبيوتات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؟

وانفلت صوت خفيت وسط الجمع:

- بلى.

---

(1) عن ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 268 وما يليها، بتصرّف.

- ألا تقرؤون قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ردّد البعض في استحياء:

- بلى.

أضاف قوميز:

- من لم يذنب قط، فليلقِ أمَة اللّه هذه بالحجارة...

ساد الصمت. عاد قوميز للحديث وكأنما قد تحول شخصاً آخر:

- ما لكم كما لو أن على رؤوسكم الطير؟ ألقوها بالحجارة. ما تنتظرون؟ أم أنكم عاودتم أنفسكم، وأقررتم بذنوبكم...

أتى صاحب الحلقة عند قوميز، وأمسكه من لباسه يود أن يجره خارج الحلقة، ولكن قوميز كان حاسماً:

- لا يا سيدي، لن أنسحب قبل أن نعرف من الآثم حقاً... أخذتكم العزة بالإثم ضدّ امرأة لا حول لها ولا قوة. لم تسألوا أنفسكم وقد قُتل والدها دفاعاً عن بيضة الإسلام من يكفلها... لم تسألوا أنفسكم حين أغواها الذئاب واستغووها من سيحميها. استغلّوا سذاجتها، واستحلّوا طهارتها. أين كنتم حينها، حينما لم تكن تجد ما تسد به الرمق؟ والآن تأخذكم الحَمِيّة ضدّ أشباح لم تعد من الأحياء، وتنفثون في رماد وقد خبت النار. وددت لو أن هذه الحَمِيّة بدرت منكم أيام صولة جعفر. أما الآن، فيحق فيكم قول القائل:

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

اعتلت همهمة ما لبثت أن تحولت إلى صخب:

- ماذا؟ مولَّد يعيرنا بالجبن، ويعلّمنا لساننا...

ردَّ قوميز في هدوء، وكأنما قد تحول شخصاً آخر:

- لا أعلّمكم شيئاً مما لا تعلمون، وإنما أذكّركم دينكم ولسانكم... وددت ألا أفعل، ولكن منكم من مسّ عرضي، فأردت

أن أظهركم على حقيقتكم... العهر ليس أن تضطر امرأة بيع جسدها، العهر هو أن يبيع المرء مبادئه وقِيَمه... العهر هو البهتان، هو النفاق، هو الزعم بشيء، وإتيان ما يخالفه. العهر هو الدفع بالإسلام علناً، واقتراف ما يخالفه سرّاً.. حاكمتم جعفراً وحكمتم عليه، وتستّرتم عن أشياء... لمَ لم تؤاخذوه على مقتل المغيرة؟... لأن قيل لكم إن المغيرة خنقَ نفسه. حتى الصبيان لا تثق بذلك. أو لأنكم لا تريدون أن تغضبوا أصحاب الحظوة خشية من بطشهم.

ارتفع صوت وسط الجموع:

- كفى. أوقفوا المُولَّد عند حدّه... كنا نتغاضى عن شطحاته لأنه مخبول رُفع عنه القلم...

ردَّ قوميز في رباطة جأش:

- قد تخرج الحقيقة من لسان المخبولين والمعتوهين والشاردين والشواذ. ينبغي أن أقول لكم الحقيقة، ولو أغضبتكم. لأن البلد بلدي... منه أستقي نسغي، وأريده حقاً زينة الدنيا. وكيف أن يكون وأنتم تنقمون ممن ليس عربي الأرومة أن يتساوى مع العربي؟ وكيف وقد فرّقتم الناس شيعاً بناء على معتقدهم؟ وكيف، وليس لغير المسلمين نفس الحقوق التي للمسلمين؟

ردَّ رجل:

- أتريد أن تغيّر ديننا؟

- دينكم هو ديني، وهو هدى ورحمة للعالمين. ليس من الإسلام في شيء أن يأكل المرء لحم أخيه. ليس من الإسلام في شيء التنابز بالألقاب. الإسلام يأمر بالعدل والإحسان... وأين أنتم من العدل والإحسان؟

صاح رجل:

- وكيف لمعتوه أن يقول كلاماً مرصوفاً؟ لعلّه سكران. اشتمّوه، وأقيموا عليه شرع اللّه...

وترددت همهمات:

- لا، ليس بالسكران... لا تفوح منه رائحة الخمر.

ردَّ قوميز على الرجل الذي اتهمه بالسُّكْر:

- الإثم ما يخرج من الفم، لا ما يلجه....

- تتحدث بلسان المسيحيين. تضمر التثليث.

- ما قولك فيما ورد في محكم التنزيل: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

تقدم الرجل الذي قدّمَ الصرّة نحو قوميز. همسَ إليه:

- أريد أن أتحدث إليك.

- لكي تقول لي ماذا؟ رد قوميز.

- هناك أشياء لا يمكن أن تقال على الملأ.

- أما سمعتهم يعيرون زوجتي بالبغية جهاراً؟

- أخطؤوا، وسنقوم بالمتعيّن... لا ينبغي أن تتحول فرجة إلى فضيحة. البلاد معرّضة لكَلَب المسيحيين، ولا يحسن أن تبدو الفرقة في صفوف المسلمين.

- سيدي، أتيت للفرجة، ولم آتِ للشجار، وقد استمعتَ إليهم وهم يعرّضون بزوجتي ويعيروني بالمُولَّد، ويريدون أن يقيموا عليّ الحدّ لشيء لم أقترفه.

- سنعاقب المذنبين، يستحسن أن تنصرف الآن.

نظر قوميز حوله. تقدم نحو جمانة. كانت مطرقة ودموعها تسيل على خديها. أمسكها بيد ورفعها إليه. ما أن استوت حتى ألقت بنفسها في حضنه، وقد غلبها النشيج. ثم قبّل يدها على مرأى من الجميع. لم يسبق أن قبّل يدها أحد، ثم غادرا الحلقة وهو يمسك يدها.

6

منذ حادثة الحلقة توارى قوميز. لم يخرج من الحانوت إلّا ليوم الجمعة إلى الجامع الكبير. استمع إلى خطبة الخطيب وما وردَ فيها من تشنيع على أصحاب الفتنة، ممن يُسرّون رغواً في احتساء، يزعمون الدعوة للحنفية السمحة، ويضمرون الحسيفة، ويبتغون الأهواء، من التعابير المتداولة، ثم أثنى على جند المسلمين القائمين بالحضرة ممن يحمون حياض الإسلام، ويدرؤون عنه غوائل الأعداء بفضل من قيضه اللّه للمعالي وجعله سيفاً بتّاراً للإسلام ونكالاً للكافرين، القائد الهمام ابن عامر، تحت قيادة أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، المؤيد باللّه، سدّد اللّه خطاه الذي آثر الآخرة على الدنيا، وفوض الأمور كلها لوزيره ابن عامر، كي يخلص لربّه، ويتعبّد له. لم يشر الخطيب لجند الثغور، ومن ثمة للقائد غالب.

انزوى قوميز بعد الصلاة في صحن الجامع، ونال ممّا يأتيه المحسنون من طعام، ثم غشي المسجد وتمدد في فنائه، إلى أن أذّن المؤذن لصلاة العصر، فصلّاها، ثم غادر المسجد، من باب الساباط، ولفّ يميناً إلى الحي اليهودي الجديد، حتى إذا بلغ بيتاً في باحة، أدار بلج الباب ولم يكن مغلقاً. انفتل منه وصعد الدرج، إلى أن بلغ

السقيفة، وتنحنح. انفتح باب من غرفة، وبدت منه فتاة، أشارت إليه باليد بالدخول. انفتل بسرعة.

- كان لزاماً أن أراك..

قال قوميز، كما ليقطع دابر مؤاخذتها.

- تعرف أنني لا أخرج يوم السبت.. ردت الفتاة.

- ولذلك أتيتك قبل غروب الشمس.

- ما في الأمر؟... سألته الفتاة بلهجة حادّة.

- ابن عامر يهيّئ شيئاً ما. أرى أنه يريد أن ينقلب على غالب.

- لا يستطيع شيئاً من دون غالب.

- لعلّه يريد أن ينفصل عنه. طلب في القائد جعفر بن علي الأندلسي الذي أتى من العدوة من المغرب الأوسط. وقد حلت جيوشه بالأندلس. ابن عامر يغدق عليه وعلى صحبه. وقد أنزله بدارة العقاب، وهما لا يفترقان. ولهما مكان في الرصافة يقصفان به. أرى أنه لم يعد يريد أن يبقى تحت ظلّ غالب... الأمر جلل. إن لم يُحسم الأمر من الآن، ولم يقطع غالب دابر ابن عامر، فأخشى أن يتعذّر الأمر بعدها، بل أن يستحيل... ينبغي أن تخبري مولاتك بالأمر..

- بمَ تنصح؟ عقبت الفتاة.

- ينبغي للسيدة الكبرى أن تُطلع غالباً بتحالُف ابن عامر وجعفر الأندلسي.

- مولاتي تشتكي من حجره للخليفة.

- هذا موضوع آخر. أول شيء ردع ابن عامر، إن لم يردع غالب ابن عامر، فلن يردعه أحد... ينبغي للسيدة صبح أن تبعث رسولاً إلى القائد غالب. ويستحسن أن يكون أخاها رائقاً.

سادَ صمت بينهما. قطعته الفتاة بالسؤال:

- كيف تعيش حالتك الجديدة؟

ردَّ قوميز:

- تنكرت في صورة حجّام، ويعتبرني الناس معتوهاً... هذا أحسن. العته يحميني.

استرسل:

- تعلمت الحلاقة، ولكني لا أقدر على الحجامة ولا حتى الفصد.. أنفر من الدم. والذي كان يهمني هو أن أتنكر وأستقي الأخبار من خلال الحجامة... ثم تأهّب للنهوض.

- فيمَ أنت ذاهب؟ سألته.

- ستسبتين ويستحسن أن تكوني لوحدك، ردَّ عليها.

- ألا تنتظر كي تنير لي الغرفة؟

- يمكنك أن تنيري الغرفة من الآن.

ثم حوّل الحديث:

- أتأهّبُ للذهاب إلى أستجة. طال عليّ زمن لم أرَ ابني. ثم لم يعد مقامي مأموناً.

- أتذهب وحيداً؟

راعه السؤال. لم يكن يتوقعه. ردَّ كما لو لم يفطن لمرادها:

- ومع من تريدينني أن أذهب؟ لست أحتاج خفيراً.

- أعرف أنك لا تحتاج خفيراً ولا نفيراً. ولكنك قد تحتاج إلى من يعينك. رجل مثلك لا يمكن أن يستغني عن الرفقة. كنت تأتي كمن يخطف لحظة، ثم وأنت شارد، ولا تجامعني... معناه أن لك امرأة..

لم ينبس. ثم استجمع قواه ونطق:

- كنت أود أن أخبرك بالأمر يا سلطانة.

- لم تفعل. كان يخلق بك يا زيري أسلوب غير هذا.

لم ينبس. استرسلت سلطانة:

- تقترن بامرأة أخرى، ولا تخبرني؟

- سارت الأمور بغير اتفاق، ولم أستطع الحديث إليك، لأنني لم أكن أعرف أنا أيضاً.

- ولماذا يا زيري؟ وهل هنتُ عندك إلى هذا الحدّ. منذ حللت من أستجة لا تأتي إلا لماماً.

- الحقيقة، أني..

- أنك ماذا؟ كان يخلق بك أن تخبرني، أن نضع حدّاً لعلاقتنا باتفاق... اقترن بمن شئت بعدها ولكن لا تستبلدني يا زيري... لا تحتقرني.

- كنت..

- كنت ماذا؟ تضيف سبية إلى حريمك.

- لماذا تتحدثين بسوء عن امرأة لا تعرفينها، ولم تنلك بسوء.

- أشفق لحالها. لأنها لا تعرفك كما أعرفك...

- منذ البداية لم تكن الأمور بيني وبينك على ما يرام.

- كان ينبغي أن تقولها. أن تصدع بها. هل تحسب أني لم أشعر بذلك؟ آلمتني يا زيري.

- لم أقصد لذلك.

- لم تتصرّف كما يليق برجل شَهْم.

- لم أنسَ راحيل. كنت أجدها في تجاويف علاقتنا.

- كان ينبغي أن تفصح عن ذلك، لا أن تغيب أو تتوارى... شعرت بالمهانة حين سألتني عنك السيدة الكبرى ولم أعرف ما أرد به.

اقترب منها زيري كما لو يهم بأن يضمّها إليه.

- لا تقترب مني. لو تفعل لسوف أصرخ... ولينفضح كل شيء... علاقتنا، وشأنك.

توقف. يعرف أن سلطانة قادرة أن تشفع التهديد بالفعل. تحدّث بنبرة هادئة:

- ألا يمكن أن نشتغل سوياً؟

- لا يا زيري... انتهى كل شيء بيننا. يمكنك أن تنصرف الآن... لا أحتاجك في إنارة الشموع أو إيقاد النار... لم يكن لنبدأ منذ البداية. أنا كذلك مسؤولة... بررت بوصية راحيل، وتحررت منها الآن. اخرج قبل أن تغيب الشمس..

خرج دون أن يسلّم عليها. لم ينبس بشيء. تمشّى دون أن يحفل بالمارة ولا النظّارة. صادفه آذان المغرب... غشي الجامع الكبير. توضّأ، ثم صلى الجماعة. انزوى بعدها في طرف من المسجد. عاشَ بذاك المكان زهاء ستة شهور متنكّراً في فقيه... رأى وجوهاً كان قد عرفها، ولم يبدُ أنها تعرّفت إليه... وفي المكان ذاته كان يحضر دروس المنطق والكلام... وبصحن المسجد زارته جمانة، من أصبحت له زوجاً... شعر بالانقباض، ممزوجاً بالراحة. كان منقبضاً لأن كل شيء انتهى مع سلطانة، ولأنها جرّحت به، وكان يشعر بالراحة لأن سلطانة أو إستر صرمت حبلاً متآكلاً كان سينفصم مع الزمن... كان كلّما اختلى بسلطانة حلَّ به طيف راحيل... كان يسعى أن يبعث راحيل في كل شيء. عبث. وأحست منه سلطانة بذلك... لم تُبن. إبقاء على كرامتها، ثم هجرها... إلى أن كان عليه أن يخبرها بتحرُّكات ابن عامر، وحلول جند جعفر الأندلسي، لأن سيدتها طلبت منه مساعدتها، وارتأى أن يفعل.

هل ينبغي أن يخبر جمانة بحقيقته، أم أن على جمانة أن تكتشف الحقيقة بذاتها؟ تذكر ما قالته له راحيل يوماً من أنه كان ينبغي له أن يكتشف الحقيقة بنفسه. أن يشعر من نفسه الرغبة في المعرفة، أن تنبثق

من نفسه أسئلة تحرّكه، وتستحثّه. هو ذا مبدأ المعرفة، السؤال. وشرط السؤال، الاستفهام. وحافز الاستفهام الاندهاش. الأفراد والمجتمعات التي لا يسكنها الاندهاش لا يمكن أن تبلغ المعرفة. المعرفة الحقيقة التي ينتهي إليها الإنسان بذاته، لا معرفة الآخرين التي تُخزَّن وتُنقل كبضاعة.

صلّى زيري العشاء جماعة، وانسلَّ من المسجد إلى الحي المسيحي، إلى أن بلغ البيت الذي يقطن فيه مع جمانة. طرق الباب. خرجت جمانة ملتاعة وهي تلهج:

- قوميز، أين تأخرت؟ ما الذي جرى لك؟... ارتعت، خشيت أن يحيق بك مكروه.

لم ينطق بشيء... طلب في أكل. أخذ لقيمات ووضع الطبق جانباً. نزع ملابسه وانغمر في الفراش... التحقت به جمانة.

- حبيبي، لا تبدو طبيعياً. أساءك شيء؟

ظلَّ يحملق في الغسق على ضوء شمعة، وهو مستلقٍ على ظهره. تطامنت جمانة في حضنه، وقد طوقت جسده بذارعيها، وهي تبرغم:

- لن تذهب حبيبي. لن تتركني لوحدي. قوميز، عِدني أنك لن تتخلّى عني. ليس لي إلا أنت في هذه الدنيا... لا أريد أن تصرفك امرأة عني.

نطق كما لو كان يحدث نفسه:

- لست قوميز.

وانتفضت جمانة:

- كيف؟ لست قوميز.

- اسمي، زيري.

ثم أردف:

- الفقيه الذي حدّثتني عنه هو أنا. ينبغي أن تعرفي الحقيقة الآن، لأننا مقبلون على مرحلة جديدة.

اعتقل لسان جمانة.. ثم بعدها أرسلت:

- السيد المسيح، كما كانت تفعل أمها، ثم تداركت: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم.

أردفَ زيري:

- ينبغي أن نغادر إلى أستجة.

نفث على الشمعة. عمَّ الظلام. أغمض عينَيه، وما هي إلّا هنيهة حتى استغرق في نوم عميق. أما جمانة فلم تنم ليلتها.



شقندة

1

من نَزْل بشقندة كان زيري يرمق من خلل النافذة خيوط المطر يهطل مدراراً من السماء مصحوباً بعواصف هوجاء. تنسكبُ السيول جداول منهمرة تصبُّ في الوادي الكبير فيضحي صبيبه كالمَوْج الهادر خرج عن مجراه. أصبحت الطرقات معطلة بسبب السيول والوحل حتى امّحى رسمها. كان من المستحيل السير. كان زيري قد غادر قرطبة مع زوجته جمانة يريدان أستجة. حملا معهما من المتاع ما خفّ، مع بعض الألبسة، لفّاها في صرة، وأغراض الحلاقة التي كان زيري يشتغل بها، مع كُتُبه ودفاتره. كان الجوّ بارداً والسماء ملبّدة، والرياح قوية تهبُّ في صخب حين غادرا قرطبة عند الصباح. ما كادا يبلغان شقندة، بعد أقل من ساعة من السير على راكبتيهما، حتى بدأت زخّات المطر. أيقنَ زيري أن من قبيل المجازفة الاستمرار في السير فالتمس نزلاً. ثم اشتدَّ المطر. واستمرت العاصفة لأكثر من أسبوع، ولم يجد زيري وزوجته مناصاً من المكوث في النزل. في ظروف عادية كان سيتريّث بقرطبة إلى أن تنقشع السماء، ولكنه كان مستعجلاً مغادرة قرطبة منذ حادثة الحلقة، حين اضطر أن يخرج ما في صدره دفاعاً عن كرامته وكرامة زوجته. أدركَ أن نظرة الساكنة إليه تغيّرت أو ستتغير، وليس ببعيد أن ينكشف أمره. لم يعد شيء يمسكه بقرطبة. وكان ما كان من الانفصال عن سلطانة.

كان يخيل لجمانة أن الرجل الذي معها بنزل شقندة ليس الشخص نفسه الذي عهدت، وبه اقترنت، مع أن قوميز هو زيري. كان قوميز مهذاراً إلى حدّ الثرثرة، يتحدث بلا اتساق، أما زيري فهو صموت، وحينما يتحدث يزن كلامه، كما لو أن تغيير الاسم يغيّر من الشخصية. منذ حادثة الحلقة أدركت أن الرجل غير ما عهدت أو قدّرت. كانت أحبّت قوميز لعفويته، وسذاجته، ولما يبدو منه من خبل، وكانت ترى أنها كامرأة ساقطة، أو يُنظر إليها كذلك، أنه لا يمكنها أن تقترن إلا بشخص من الهامشيين، أمّا الآن فهي تكتشف أن زوجها شخص آخر. منذ حادثة الحلقة، أخذ قوميز يثير فيها الدهشة مشفوعة بالرهبة، إلى أن عرفت أن اسمه الحقيقي زيري، واستفاقت لتكتشف أن الفقيه الذي حسبته دجّالاً، لم يكن إلّا زيري، والحلاق المهذار لم يكن إلّا الفقيه. وانبثقت ألغاز كثيرة وأسئلة عديدة.

كانت تود أن تقول له كلمة تُعبّر عن شعورها تشي بالحب والامتنان يوم أن امتُهنت كرامتها يوم الحلقة، ولم تستطع. لم ينطع لسانها. ولم تعرف لماذا لم تستطع أن تُبين. وكأنه شعرَ منها بذلك، فضغط على يديها وهما يتوجّهان إلى البيت في الحي المسيحي... أشعرَتها تلك الالتفاتة بالثقة، ونزعتها من شعور الدونية والارتياب، والتبكيت والخوف. شعرت بأنها إنسان. ليست أقل إنسانية من أي كان وكانت قبلها تشعر أنها أقل من الآخرين، ولأنها كانت كذلك، كانت ترضخ لإغوائهم وتتأذّى من نظرتهم وتخشى سطوتهم، أما الآن فلا. بفضل رجل أحبها. لم ينطق هو كذلك بكلمة الحب، ولكن تصرّفه معها كان كله حباً خالصاً. عارضَ ما تواضع الناس حوله، فاقترن بمن كان يُنظر إليها كساقطة. لم ينثنِ حينما مسّها البعض بسوء، فانبرى مدافعاً عنها. هي مدينة له لأنه نقلها من طور كانت أقل فيه من إنسان، إلى طور تشعر فيه أنها إنسان. لذلك كله كانت تريد أن تعرف حقيقة

هذا الرجل. ولكنها كانت تشعر بالحرج أن تسأله عمّا بدا لها لغزاً، رغم أنه الرجل الذي تنام بقربه، وتقترن وإياه في علاقة حميمية.

كان زيري يشعر بأسئلتها. بل هو من أوقد زنادها. لم تكن لتُقْدم على المعرفة لو لم تُقدح بداخلها أسئلة.

كان هو نفسه في ذلك الصمت الثقيل يجري تساؤلات على نفسه.. عرف اليتم صغيراً. كان يتحدّر من قبيلة زواغة التي تتحلق بأرباض فاس. غزت حياً منها جماعاتٌ من القبائل المحيطة بها، وقتلت والدَيه وإخوته. وتلقّفته خالة له تسكن فاس بعدوة القيروان وهو بعدُ طفل. كانت تعطف عليه، ولكن زوجها لم يكن يخصّه بالمودّة. أدخلته خالته الكُتّاب، وتدرّج به إلى أن حفظ القرآن ومتون اللغة والآداب. كان يشعر أنه ضيف ثقيل على زوج خالته. كان هذا الأخير يوبّخه لغير سبب، ويعنّفه لأتفه الأخطاء، ولم يكن أبناء خالته يخصونه بالحب... كان الكُتّاب هو الحمى الذي يحتمي فيه من نظرات زوج خالته، وسوء تعامل أبناء خالته.. وكان إلى ذلك يألم من الجوع والخصاص.. يذكر وهو صبي أن حبراً كان ينادي عليه، كلما مرّ من قبالة الكنيس، فيدس إليه الطعام.

التمس من خالته، وقد بلغ السادسة عشرة أن يرتحل إلى قرطبة كي يستكمل تعليمه وطلباً للرزق. لم تمانع، لأنها نفسها تعبت من وضع لم تعد قادرة فيه أن تعارض زوجها... أعطته بعض المال يكفي بالكاد للسفر.. سار إلى سبتة مع ركب، ومنها قطع الزقاق إلى عدوة الأندلس، إلى أن بلغ قرطبة.. قصد جامعها. أخذ يَطعم ممّا يأتي به المحسنون، وينام في جنباتها. وانتظم في حلقاتها، ونال بعضاً ممّا يجود به المُحَبِّسون على الطَّلَبة، من طعام، وكسوة، وسكن في حي قريب من الجامع، به غرف للطلبة...

لم يكن يعرف من قرطبة إلا جامعها وحلقات الدرس، وما يحيط

به... نهل من معارفها، وآدابها، وبزّ أقرانه ممن كانوا ينتظمون في الحلقات... كان مضرب الأمثال في النباهة والجدّ، ولذلك انتهى به الأمر كاتباً للخليفة، لتبدأ مرحلة جديدة من حياته، زاوج فيها إلى الجد، المخاتلة والتستر، من أجل الإبقاء على حياته.

تساءل دوماً، ألم يكن وقوعه في هوى راحيل برّاً بالحبر الذي كان يعطف عليه بفاس؟ أليست التوجهات التي يُدل بها الإنسان نتاج أحداث تتحول إلى أفكار تؤثر في مساره بعدها؟ الأفكار ليست خواطر، وتوجهاتُ الأشخاص ليست نزوات. الواقع ما يصوغها، وهي ما يسِم تصرفات أصحابها ويطبع سلوكهم.

كان الصمت يبين عن الكلام ما بين زيري وجمانة في نزل شقندة. أضحى كل واحد منهما مرآة للآخر. كان الآخر يدفع الأنا ليغور في ذاته، ويكتشف ذاته... لم تكن جمانة متعلّمة، وكانت بسيطة، ولكنها انتصبت مرآة لرجل تقلّب في عدة أدوار، وعرف الحياةَ أوجهها، ومشى في سُبل محفوفة بالمخاطر، ولازمَ العلية والدهماء على السواء. كان، على غنى تجربته، محتاجاً إلى مرآة تظهره على نفسه. انتصبت جمانة مرآة لهذا الرجل لأنه يحبها، وانتصب مرآة لها لأنها تحبه... هل يمكن أن نستغني عن الآخر في اكتشاف ذواتنا؟ وما يحق على الأفراد يحق على الجماعات. حينما يغيب الآخر، تضمحلّ الذات. تذوي.. وقد تقع في حالة مَرضية، هي تضخّم الذات والعُجب ورفض الآخر، مع ما ينجم عن ذلك، من إسراف وغلو وزيغ في الفعل والسلوك والرأي.

كانت قراءات زيري المحبّبة في نزل شقندة القرآن الكريم والعهد القديم.. كان منذ الفجر يقرأ هذين النصّين اللّذين طبعا وجدان المؤمنين، وتفرّقوا حوله في عدة قراءات، وفهم مختلف، ومدارس متضاربة... اختلفوا وذهب بهم الاختلاف حدّ التناحر والتباغض.

كان يقرأ النصَّين بشغف، وكل مرة يقف على النتيجة ذاتها، وهي مصدر قوة تلك النصوص، أسرارها التي لا تنتهي. كل مرة هي بداية. كل مرة هي كشف جديد. لأنها تحدث دوماً بتوق الإنسان نحو المتعالي... لأنها تنطلق من كرامة الإنسان، وتهفو لها، وإضفاء معنى على الحياة.

لم يكن زيري في فهم تقليدي للدين، ولم يكن يبتغي من الطقوس وشيجة للخلاص، أو اقتضاء ثواب ليوم الدين... كان خرجَ من الدين من أجل أن يدرك كنهه. ولأنه أدرك كنهه لم تعد حواجز تنتصب ما بينه وبين الإنسان.

تذكر زيري وهو يحدّث مرة جمانة في مطعم كيف انبرى يشرح ما تواتر عن زينة الدنيا، وهو التعبير الشائع عن الأندلس. كان يُنظر إليها كذلك لمائها وهوائها وأرضها... وكان ينظر إليها كذلك لأنها ضمّت عدة أجناس، ومللاً مختلفة، في عقد فريد، استطاعت من خلاله مِلَل مختلفة أن تتعايش... ولكن الحقيقة أن زينة الدنيا تلك، كانت تخفي هجيراً لافحاً، باسم ديانات متناحرة، وعقائد جامدة، وأحقاد متجذّرة... العقد الفريد كان ينفرط دوماً أمام فهم ضيِّق للدين وللسياسة والمزج بينهما. زينة الدنيا هو ما يمكن أن تكونه أجناس مختلفة، وديانات متعددة، تعيش متواددة في رقعة واحدة. زينة الدنيا ألّا يُفتن امرؤ في دينه وعقيدته أو يُهزأ بلسانه. زينة الدنيا أن يتحول من شاء عن عقيدة إلى أخرى دون أن يتعرض لمحاكمة أو افتتان أو مضايقة، لأن الناس حينما يُفتنون، يضطرون أن يخادعوا، وأن يأتوا من الأمر ما لا يطابق طبيعتهم وينافي سجاياهم. زينة الدنيا أن يسود العقل دون أن يستبد، وأن تقوم العاطفة دون أن تغلو، وأن يتعايشا في وئام. زينة الدنيا أن ينال الناس من العيش ما يصون كرامتهم، ويحفظ مروءتهم. زينة الدنيا ألا يتحول الغِنى إلى بطر، والفقر إلى كُفر. زينة

الدنيا ألا يقع انشطار في علاقة يفترض أن تكون متكاملة، بين الرجل والمرأة، والحاكم والمحكوم، والعالم والمتعلّم، والبالغ والصبي، والإنسان والطبيعة... زينة الدنيا مشروع في مسار الإنسان، يتقدم نحوه، ويدلف إليه كلما فضح ما قد يحيطه من زيف، وما يتهدّده من هجير، ولا يتستر عمّا قد يطبع حياة مجتمعه من غلو وفساد وزيغ.

هدأت العاصفة بعد أسبوع، وانقشعت الشمس ولم يجد زيري ولا زوجته جمانة الرغبة في المغادرة. بقيا شهراً كاملاً في شقندة، عرفت فيه جمانة نفسها، وأخذت تعرف بعضاً من زيري، وتتحرق شوقاً كي تعرف أُسرته هذه التي حدّثها عنها، باشكوال ومرية ومباركة، وابنه يوسف من زوجته راحيل، من يشكّلون جميعهم في تواددهم عيّنة من زينة الدنيا أو عقدها الفريد.

كانت جمانة تشكو وضعاً يثقل عليها. بقيت أمها مسيحية، وماتت مسيحية... ودُفنت في مقابر المسلمين. لعجز. كانت جمانة تألم لأنها لم تبرّ بوصية أمها... واستوى عندها حينها كل شيء. أو هان كل شيء. وحينما أخذت تكتشف ذاتها بفضل رجل تحبه ويحبها، لم تعد الأشياء مستوية لديها، وأخذت تسترجع معناها وقيمتها... أرادت أن تبر بوصية والدتها، ولكي تبر بها، أرادت أن تتبع ملّتها. كانت مسلمة لأنها ولدت مسلمة، لأن أباها كان مولّداً، ثم لمّا مات أبوها بعثت بها أمها لبعض الأديرة كي تتعلم حرفة... لم تسأل نفسها حينها أهي مسلمة أم مسيحية، ولكنها اليوم تريد أن تصبح مسيحية... لأن صوت أمها يكلّمها، ولأنها إن لم تدفنها في مقابر المسيحيين كما أوصت، فهي تسكن وجدانها، وعلى وجدانها أن يكون مسيحياً كي تقرّ روح أمها.

تجرّأت وكلمت زيري في الأمر، وأسرّت إليه أنها تريد أن تصبح

مسيحية. نظر إليها وسألها: هل فكرت في الأمر مليّاً؟ ردت أنْ نعم... أجاب: لا ضير، ولكن احذري، التمسي لك اسماً جديداً، فقد تُرمين بالردّة. نظرت إليه قائلة:

- أنت من يسميني.

وردَّ على البديهة:

- هل تقبلين أن أناديك بالرُّمَيْكيّة؟

وذهب عليها منذ شقندة اسم الرميكية.

2

كان البرد شديداً حين بلغ زيري والرميكية أستجة عصراً وقد أخذَ المغيب يسبل رداءه على القرية. أغذّا السير من ظهر راحلتيهما كي يبلغا ضيعة باشكوال قبل الغروب. لمّا وصلا، نزلا من بغلتيهما في الساحة المفضية للبيت. انسرب زيري في خفوت إلى البيت. فتح الباب ولم يكن مغلقاً بالمزلاج، دون أن يحدث ضجيجاً، كي يفاجئ أهل الدار. كان باشكوال واقفاً أمام المدفئة وقد أزند نارها وبقربه طفل صغير ممسك بجبّته كما لو أنه يخشى أن ينفلت عنه ينظر معه إلى التماعات النار. تسرب زيري في خطو صامت دون أن يفطن له باشكوال ويوسف، فيما بقيت الرميكية متسمّرة في مكانها، حتى اقترب منهما وصفق. ذُعر الصبي، حينها استدار باشكوال. حدق فيه كي يتأكّد منه ثم صاح مبتهجاً:

- زيري! أية مفاجأة سارة؟

تعانقا عناقاً حارّاً. بعدها رفع زيري يوسف وأخذ يقبّله على وجنتَيه وجبهته وشعره...

لم تتمالك الرميكية فخذلتها دموعها.. قدّمها زيري بعدها لباشكوال زوجاً له. تقدمت إليه في أدب وسلّمت عليه دون أن تنبس. ردَّ عليها بحنو:

- حللت أهلاً يا بُنيتي..

- لا أحتاج أن أقدم لك باشكوال، قال زيري للرميكية، مضيفاً: حدثتك طويلاً عنه، والصبي يوسف ابني...

لم يفارق الصبي باشكوال، وظلت يده مستمسكة بتلابيبه، كما لو يخشى أن ينفلت عنه. وما هي إلّا هنيهة حتى أقبلت مرية مسرعة. سلّمت على زيري بحرارة.. سرى بينهما حوار متقطع، هي بعربية مكسّرة، وهو ببعض الكلمات الرومانية، مستعيناً أحياناً بالإشارات. ثم قدّم لها الرميكية. ردّت مرية بالقليل الذي تعرفه من العربية:

- مبروك.

ثم تشاجنَ الحديث بين مرية والرميكية بالرومانية.

صاحَ باشكوال على أثَر زيري:

- هيا بنا إلى المجلس.

وابتدره زيري:

- أين عمتي مباركة؟

حينها نطق الصبي وقد سمع اسمها:

- دادّة، دادّة...

- هي طريحة الفراش لأيام، ردَّ باشكوال، ناولَتها مريةُ بعض الدواء عسى أن تبلّ...

- أريد أن أسلّم عليها...

قاده باشكوال حتى غرفتها، ثم توارى. انفلت منه الصبي وغشي الغرفة. طرق زيري الباب، ولم يسمع ردّاً.. عاود الطرق، من دون ردّ.. فتح الباب، فوجد الغرفة مظلمة لم يوقد بها المصباح بعد، وتناهت إليه هامة مباركة، وهي في الفراش مسندة ظهرها للحائط تصلي صلاة المغرب... وقفَ زيري في مكانه، في الوقت الذي ارتمى عليها الصبي، وهو يصرخ:

- دادّة، دادّة....

أمسكته بذراعها اليسرى، وأتمّت الصلاة. كانت حينها ترفع إبهام اليد اليمنى للشهادة، إلى أن سلّمت، إيذاناً بنهاية الصلاة. قبّلت رأس يوسف أولاً، ثم رفعت ذراعها كما لو هي تنادي زيري، وتصدح بالأمازيغية بصوت خفيت:

- أيا عزّيم إينو (أيا بُشراي)...

وتقدم إليها زيري واحتضنها، ثم أمسك يدها وقبّلها...

في تلك الأثناء أتَت مرية بمصابيح، ووضعتها في جنبات الغرفة. عمَّ الضياء الغرفة. ظلَّ الصبي متعلّقاً بمباركة. كلمته مرية بالرومانية كي يدع دادّة مباركة وأدار رأسه علامة على النفي. ردّتها مباركة برومانيتها التقريبية:

- دعيه، لم أرَه منذ الصباح...

سألت مرية مباركة إن كانت تريد منها أن تأتيها بالدواء، فأشارت برأسها بالإيجاب. بقيَ الصبي في ذراع مباركة، وقد جلس زيري بحافة فراشها. تحوّل زيري للحديث لمباركة إلى العربية. قدم لها زوجته.

- عمتي، هذه زوجتي.

ردّت وهي تفصح عن بهجتها:

- بارك لك في زوجتك، وجعل بينكما مودّة ورحمة.

وتردد زيري قبل أن يسفر عن شيء، وأخيراً جهر به:

- إنها تدين بالمسيحية.

- اللّه سبحانه وتعالى ربّ للعباد أجمعين.

وتقدمت الرميكية في استحياء نحو مباركة وقبّلت رأسها. أشار عليها زيري بالجلوس. جلست في الطرف حُذاءَه، والطفل في حضن مباركة ينقل نظره بينهما.

- خيراً؟ قال زيري مستفسراً عن الوضع الصحّي لمباركة.

- لا أدري يا ابني. لمّا أقف أشعر بالدوار، وجسمي مترهّل لم يعد يقوى على نشاط، وليس لي شهية للطعام.

- إن شاء اللّه ستُبلّين. تحتاجين إلى بعض الراحة. كنت تُجهدين نفسك.

- لم أجهد نفسي قط ها هنا. كل شيء قمت به هنا قمت به بحب. هي السنّ.

- بعد عمر طويل.

- هو الأجل يا بُني. حدثني عنك.

- المهم أنت. أنا بقرطبة. أخذتني قرطبة كنهرٍ جارف.

كان الصبي قد نام بقرب مباركة. نظرت إليه في حنو، وأخذت تُربت على رأسه، ثم متوجّهة إلى زيري:

- كيف تستطيع يا زيري أن تبقى بعيداً عن هذا الملاك؟ أنت محتاج إلى ابنك، كما هو محتاج إليك.

- أي نعم. ردَّ بحرج.

- كنت وعدتني بالاستقرار معنا بأستجة.

- ظروف حالت دون ذلك، يا عمتي. . الذي يهم الآن هو صحّتك.

- صحّتي بيد اللّه، يا ابني. ليس للمؤمن أن يعترض على ما قدّره اللّه.

دخلت مرية حينها وهي تحملُ طبقاً عليه بعض الأعشاب ومحلولاً من العسل والحليب الساخن والزنجبيل. قالت متوجّهة إلى زيري بالرومانية:

- البانيو (الحمّام) جاهز.

فهم أن باشكوال زاد من حطب وقود الحمّام، وملأ صحنه

بالماء. راعَ مرية أن يوسف نام قبل أن يتناول العشاء.. أرادت أن توقظه فصدّتها مباركة..

- ستقطعين نومه، دعيه إلى أن يستيقظ تلقاء نفسه...

كانتا كما لو أنهما أُمَّين للصبي.

تشاجن الحديث بالرومانية ما بين مرية والرميكية. فهمَ زيري كلمة حمّام، وأدرك أنها هيّأت لها الجناح الخاص بالنساء، وأن العشاء سيكون بعد الاستحمام. بعدها طبعت مرية قُبلة على وجنة يوسف، وهو بحضن مباركة ثم انصرفت.

هل يستطيع زيري أن يستقرّ بأستجة دون أن يخلخل العلاقة القائمة بين ابنه يوسف وباشكوال ومرية، وقد أضحيا أبوَين للصبي؟ ألن يتأذى الطفل من ذلك؟ هو وضع لم يختره زيري، مذ ماتت راحيل. وباشكوال ومرية يقومان بدور الأب والأم خيراً ممّا قد يقوم به... ومباركة تحضن الصبي وتعطف عليه كأم ثانية. أحياناً يقع انشطار بين الإنجاب والاحتضان، وينبغي القبول بالأمر. لأن من يحتضن قد يكون أقدر على الرعاية ممن أنجب. يحدث ذلك للأفراد، ويقبلون به عادة، ويقع للمجتمعات، وقلّما يقبلون به. ينبغي أن تتهيّأ الجماعات لقبول ما هو مشترك عوض التناحر، في سعي منها للاستئثار به.

- سأعود إليك عمتي بعد أن أستحم. قال زيري لمباركة.

- لا تتأخر. أريدك أن تتلو عليّ القرآن الكريم.

3

كان الوضع الصحّي لمباركة يزداد سوءاً. لم تعد تغادر الفراش، وتستعين لقضاء حاجتها بالرميكية التي خلَفت مرية في الاعتناء بها. كانت مباركة تحب من زيري أن يبقى معها بعد الظهر. كانت لا تنام إلّا إن قعد بقربها نهاراً، لأنها قلّما تنام ليلاً، أو تنام نوماً متقطعاً. وكان إذا تخلّف، سألت عنه. أدرك أن قربه منها يريحها. وقد تسأل أحياناً عن يوسف، فيؤتى لها به وينغمر الصبي في فراشها، إلى أن ينام، فتغفو مباركة حينها...

كانت مقلّة في الأكل، ولذلك هزلت، فلم تعد تمشي إلّا متثاقلة، ولا تقف إلّا مترهّلة، ولا تصلي إلّا قاعدة. حتى إذا صلّت صلاة المغرب، نادت على زيري كي يقرأ عليها القرآن وقد أمسكت أصابع يده كما لتستوثق من حضوره... كانت تتضاءل يوماً عن يوم، وتذوب كما تذوب شمعة.

نزل باشكوال وزيري بأستجة عند الطبيب شمعون، وحضر الطبيب وجسّها، ونصح بأعشاب، ونصح بدلكها.. ودلّكَتِ الرميكية مفاصلها، وتحسّنت لبعض الشيء، ثم ما لبثت أن انتكست... وعاد الطبيب شمعون مرة أخرى، ووضع يده على جبينها، وضغط على معصمها، وقال بأسى:

- ينبغي الدعوة لها. ما أستطيع أن أفعله قد قمت به. الجسم وهن، ولم تبقَ إلّا رحمة الله.

الشيء الذي كان يؤنس مباركة هو أن تستمع إلى القرآن الكريم...

ثم دخلت مرحلة أخذت تهذي فيها، وتبيّن زيري خطورة الأمر حين كفّت عن الصلاة، وأضحت تصلي في غير أوقات الصلوات، وكيفما اتفق... وتشفع الصلاة بالحديث، ممزوج بالعربية والأمازيغية.

أخذت تنظر إلى الوجوه نظرة ساهية، ولم تعد تَطعم إن لن تُطعم، ولم تعد تضبط أمورها، وأصبحت تقضي حاجتها في الفراش... كان على الرميكية أن تنظفها قبل أن يدخل زيري. لم تعد تتعرّف إلى أحد، وتخلط بين الأسماء، وإذا حدثها زيري ردت عليه بـ«حميم»، اسم أخيها الذي اختُطف وهي صبية... ما إن تسمع صوت زيري، حتى تأخذ في الهذيان بلسان البربر:

- لماذا تأخرت يا حميم؟ أبي غاضب منك...

ثم تشفع:

- أنت يا حميم، لا تفكر إلّا في نفسك، لا تفكر في من يلظى في هواك، أبواك وأختك تودة.

ثم أحياناً تأخذ في الصراخ:

- حميم، لماذا اختطفتم حميم؟..

ثم تصدح بصوت يصطك له المكان:

- حميم، حميم، كما لو هو صدى لصرختها حينما اختُطفا وفُصلا عن بعضهما.

تبدو هادئة أحياناً، فتكلّم زيري في هدوء:

- حميم، ينبغي أن تعتني بيوسف. هو محتاج إليك... راحيل

سافرت، وستتأخر، وطلبت مني أن أعتني بيوسف، ولكني لا أستطيع من دونك. . .

وفي أخرى كانت تنادي على الرميكية براحيل:

- راحيل، عدت أخيراً. راحيل يا ابنتي، لم أصطبر لفراقك. . لم أضفر شعري مذ غادرت. . هيا، هل حضّرت المشط؟ مذ غادرت لم أمشط شعري حزناً على فراقك.

سمعها مرة تُعرّض بالخليفة هشام:

- لماذا تسيء التعامل معي يا هشام؟ ألأني من الدهماء؟ الظلم مرٌّ يا هشام، وقد تلظى به يا هشام، وتعرف حينها ما الظلم. لا يعرف ألم الظلم من لم يكتوِ به.

ثم تغلبها قهقهة، يعقبها هذيان:

- لا أؤاخذك يا هشام. . عفوت عنك. . . إن أردت أن أصفح عنك، لا تعد لعبثك. أعرف أنك أنت ضحية، ولكن لأنك ضحية لم يكن لك أن تؤذي الآخرين. . .

كان زيري يألم لما آلت إليه مباركة، أو تودة. . . استرجعت في هذيانها اسمها القديم، وهو إدغام لتغودة بلسان البربر، وتعني الجميلة. حدّث زيري باشكوال عن حسرته لوضع تودة، ونصحه باشكوال بالبقاء معها والاستماع إلى بوحها. . يمكن أن يكون في ذلك الهذيان تعبيراً عن حقائق مستترة. يمكن أن يكون مُعبّراً عن خلجات في النفس عميقة لم يعفّ عليها الزمن. . . يمكن لذلك البوح أن يساعدها على تجاوز محنتها.

وفعل زيري، وحاول أن يفك خبل الخيوط المتشابكة لهذيان تودة. . لم تبرأ من جرح طفولتها حينما تمَّ اختطافها مع أخيها، ولم تبرأ من موت مَن كان زوجَها الجندي مرجان ونَزعه منها الموت. . . أضحى زيري بالنسبة إليها أخاها الذي تبدد، وزوجها الذي مات،

والولد الذي لم ترزق.. كانت نفسها قد انشطرت منذ اختُطفت، والتأمت شيئاً فشيئاً. التأمت في حضن رجل فاضل وزوجة مثله بفاس، وبمعية جندي من غدامس، ومع زوجها الصقلبي... ماتوا جميعهم فبقي الإنجاز معطلاً، إلى أن تعرّفت إلى راحيل. راحيل التي لم تتأذّ من تنظيفها، وتمشيط شعرها، وتلبيسها ثيابها والحديث إليها وهي في أوهى حالة وأسوأ وضع نفسي. راحيل من ضمّد جراح نفسيتها ورممها. هي من رتقت خرْقها بالحب والعطف والاحترام.

ولم تكن راحيل لتفعل لو لم تكن مثلها جريحة، ولا أن تُفلح لولا أنها كانت تحمل ندوب الاحتقار..

استعادت مباركة إنسانيتها بفضل راحيل. لم تقبل أن تغادر راحيل... وحوّلت حبها لراحيل إلى يوسف...

كان ذلك ما ينضح به هذيانها، أو بوحها المستتر... استرجعت اسمها. في هذيانها.

كان زيري يألم. ويشعر بالعجز. ويسعى أحياناً أن يسلو مع باشكوال في أحاديث عن الآداب والفلسفة والسياسة.

حلّ موسم جني الزيتون وكان أول مرة تتخلف عنه تودة أو مباركة مذ حلّت بأستجة. كان موسماً حزيناً، ولم تغنِّ فيه مرية حين انتهت أشغال الجني، كما كانت تفعل.



4

انسلَّت أشعة الشمس ضحى في يوم ربيعي دافئ يغري بالنشاط من نافذة غرفة تودة. . كان يضوع في الغرفة أريج الزهور ونفح الورد ودفء الربيع ووضاحة النهار وإشراق الحياة. . . كانت البسمة تجلّل شفتَي تودة وهي ممددة في فراشها، ومن حولها الأشخاص الذين أحبت، زيري وباشكوال ومرية والرميكية، عدا يوسف. . . كانت قد أسلمت الروح ذاك الصباح. ولو كان لها أن تختار لاختارت أن تكون راحيل كذلك في الوداع الأخير. . .

لم تترك وصية، لأنها لأكثر من ثلاثة شهور كانت غائبة عن الوجود. . كان حديثها هو هذيانها، وكان هذيانها هو بوحها، وبوحها لسان حقيقة لمن يستطيع أن يفكَّ طلاسمه. . .

طبع زيري قُبلة على جبهتها، ثم سجّى الغطاء على وجهها. رسمت كل من مرية والرميكية علامة الصليب، وصلّتا في سرّ على روحها. غادر باشكوال الغرفة، وتلاه زيري.

- ينبغي أن ندفنها اليوم، قال زيري في هدوء.

- نعم. هذا رأيي. ردَّ باشكوال.

- وفق طقوس المسلمين.

- كانت مسلمة صادقة الإيمان. . عقّب باشكوال.

- سنُغسّلها هنا، وندفنها في الربوة... قرب راحيل... أردفَ زيري، أحتاج إلى من يحفر القبر، قرب راحيل.

- سأكفيك ذلك.. هل تريد أن أبلّغ بوفاتها في القرية لتشييع جثمانها؟

- لا حاجة، المهم أن تكون أنت حاضراً ومرية والرميكية... هيّأتُ الكفن.

كان زيري هادئ النفس، لا يبدر منه اضطراب، كما لو أن مرضها المتصل هيّأه للحظة الفراق.. كان الذي يهمّه قبل كل شيء، قبل الحزن، قبل الأسى، أن تدفن وفق طقوس المسلمين. كان ذلك برّه بها.

طلبَ من المرأتَين أن يُغسّلاها. ألحَّ على الرميكية أن تبدأ من اليمين، وفق طقوس المسلمين. كان يعرف أن المسألة غير ذات أهمية، ولكن برّاً بمباركة، أو تودة، وهو الاسم الذي ستُشيَّع به، ينبغي احترام طقوس العقيدة التي آمنت بها. أسلم الرميكية الكفن كي تلف فيه جثمانها، وذهب هو نفسه ليستحم. كان يريد أن يكون طاهراً ليودّع تودة... اغتسل ولبس جلباب أهل المغرب، والتفَّ ببرنوس من وبر، ووضع عمامة، كما دأب البربر أن يفعلوا..

مع الظهر كان كل شيء جاهزاً. كانت جثة تودة مغسّلة وملفوفة في الكفن. وُضعت على خشبة تقوم مقام نعش، وحملها زيري وباشكوال والخادمان، مَن حفرا القبر، إلى الربوة، تتلوهم مرية وهي تحمل في ذراعها يوسف، مع الرميكية. رسمت المرأتان مسافة من القبر، ولو أنهما كانتا قريبتَين منه. كانتا تتابعان من بعيد. كانت مرية متماسكة، في حين لم تثبت الرميكية فكانت دموعها تسيل.

وضعت جثة تودة قرب حفرة، محاذية لقبر راحيل. كبّر زيري، ثم أقام الصلاة، وتلا اللازمة: جنازة امرأة. ثم أخذَ يتلو في صمت:

«اللّهُمّ إن هذه أمَتك، ابنة عبدك، تشهد ألا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، اللّهُمّ إن كانت محسنة فزد في إحسانها، وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيئاتها...».

أتمَّ صلاة الجنازة، ووضع الجثة في القبر، ووجهُها يؤمُّ القِبلة، وبدأ يهيل عليها التراب رفقة الخادمين. كان باشكوال واقفاً لا يريم، يعبّر في صمته عن حزنه. توقف زيري، فيما استمرا الخادمان في حثو التراب. أخذ يتلو القرآن. تلا سورة ياسين، وسورة المُلك، وسورة الفجر. وردد غير ما مرة الآية: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

انتهى العاملان من حثو التراب على جثمان تودة. وضع زيري شاهدة على الكثيب، كان كتب عليها:

«وافى الأجل المحتوم الفاضلة تودة، المولودة في عدوة المغرب، وقد قبضها اللّه إليه بأستجة العامرة، من أرض الأندلس، زينة الدنيا، في جمادى الثانية 370 للهجرة، تغمّدها اللّه بواسع رحمته وأسكنها فسيح جنته».

ثم ختمَ بقراءة الفاتحة، والدعاء عليها بالرحمة.

إثرها مباشرة، انبرى محدّثاً حديثاً آخر قال فيه:

«أيها الأحبة، أسرتي التي لا أسرة لي سواها، نعم نحن اليوم قِلة، وعسى أن نكون يوماً ما جِلّة. نحن اليوم في وداع امرأة طاهرة، يملؤنا جميعنا شعور واحد من الحب والتقدير لها، نستقيه من عمقنا الإنساني. المرأة التي أسلمت الروح مسلمة، وترقد قرب أخرى يهودية، وارتبطتا قيد حياتهما بالحب والمودة... لم تكن العقيدة حاجزاً بينهما، لأن البُعد الإنساني أسمى، فهو الثابت، أما سواه فمتحوّل. وهذه هي الرسالة التي ينبغي أن نحرص عليها،

وهي أن البُعد الإنساني أسمى من كل شيء.. حينما غادرتُ موطني من عدوة المغرب، كان ذلك سعياً إلى زينة الدنيا التي تطفح بها الأندلس، ولقد حسبت أني واجدها في جوامعها، ومعمارها وحدائقها، وقصورها، ومعارفها... ولكني بعد تقلّبي في عدة مسارات، وجدت أن زينة الدنيا فكرة يمكن أن تسكن أي زمن، وأي مكان. وهي هنا قائمة في هذا المكان الذي يجمع الأشتات ويؤلف القلوب.

هي ذي رسالة تودة المسلمة التي ترقد جنباً إلى جنب مع راحيل اليهودية، وتشيّعها امرأتان مسيحيتان، ورجل يؤمن بالإنسان.. الإنسان أسمى من كل شيء. كل شيء ينبغي أن يصب في خدمة الإنسان، لا الإنسان في خدمة تصورات جاهزة قد تكون واهية.

لتكن قلوبنا سكناً لها. لتنبعثْ في سلوكنا ورؤيتنا للحياة».

قصده باشكوال وعانقه عناقاً حارّاً. هنالك سالَت دموع زيري غزيرة. لم يثبت في النهاية.

5

تسرّب الحزن إلى نفس زيري. كان البيت حزيناً، وكلٌّ يعبّر عنه على شاكلته. كان باشكوال لا يبين، وكانت مرية توقد الشموع في غرفة تودة، وتضع بها الزهور، أما الرميكية فلم تكن تتوقف عن البكاء، وحتى الطفل يوسف أحسَّ بالفراغ، وسأل عن دادة، وألحف في السؤال. كان سؤاله يزيد من أسى الكبار.

كان أكثرهم حزناً زيري، لأن تودة كانت بمثابة أم له. كان يناديها بعمتي، احتراماً لذاكرة أمه، ولكنها كانت أماً ثانية له. وتبيّن ذلك حين غادرت...

كانت هناك أشياء تربطه بتودة لا تربطه بأي أحد آخر، لسانهما، ودينهما، وموطنهما... وكان يرى في نفسه تعبيراً لها، بشكلٍ آخر.

كان يتمالك ظاهرياً حينما يجتمعون أثناء الأكل، أو حين يكون بمحضر باشكوال، ولكنه شعر أنه لم يعد الشخص نفسه، ذلك أن تودة تسكنه، ولذلك انتهى إليه أن هناك أشياء كثيرة كان يأتيها لم يعد من الممكن أن يأتيها. كان في الإحساس ذاته الذي انتاب الرميكية، أو جمانة، حين أرادت أن تبر بذكرى أمها، وقررت أن تعتنق عقيدتها... على زيري أن يبرَّ بذكرى تودة، ليس بأن يكون في نفس السلوك ذاته، كما فعلت الرميكية وفاء لروح أمها، ولكن بطريقة أخرى. قرَّ قراره أن

يكف عن شرب الخمر. كان ذلك جزئية بالنسبة إليه... ولكنه لم يجد وسيلة للتعبير عن العلاقة التي تربطه بتودة والوفاء لها سوى تلك...

حينما يخلو لنفسه، يمشي بمحاذاة نهر الشنيل، يحدّث نفسه. يؤوب إلى البيت فيرى يوسف يلهو ويمرح فيعاوده برد الراحة. كان يسلو معه، ويلهوان سوياً، ويجد في ذلك روح كل من زوجته الراحلة راحيل والفقيدة تودة.

ألحَّ عليه باشكوال أن يخرجا، وقصدا مع بداية الصيف شبريقو بسوق أستجة.. جلسوا كما اعتادوا، على طاولة، وطلبوا الأكل.. لم تكن لزيري الشهية. كان يستمعُ إلى حكي شبريقو عن آخر مستجدّات حكّام الأندلس. غضب غالب من تصرفات ابن عامر الذي استقدم القائد جعفر بن الأندلسي مع جيوشه من بربر زناتة بالمغرب الأوسط، كي يخلخل التوازُن القائم. استدعى غالب ابن عامر وأقام وليمة فاخرة له بأنتسة، ثم اختلى به وأغلظ له في القول. ردَّ ابن عامر بكلام اعتبره غالب مساساً بشخصه وهيبة الدولة، فرفع السيف وضربه به. أخطأه ولم يصب إلّا صدغه وأصابعه. فرَّ ابن عامر، وقفز من عل برج، وقاد هجوماً على قاعدة القائد غالب بمدينة سالم فعاثَ فيها الفساد...

كان زيري ينصت لحكي شبريقو من دون تعقيب. كان الحزن يثقل على زيري كي يبدي تحفّزاً، ومع ذلك حاول أن يبدي الاهتمام باستفسار شبريقو:

- هل متأكد أنت من أن الصراع نشب بين الرجلَين؟

- وهل عرفت من شبريقو هزلاً أو تخرصاً... الصراع محتدم بينهما. القوة بجانب غالب، والحيلة بجانب ابن عامر... واحد منهما سينتصر.

- سينتصر من له حسّ سياسي، قال زيري.

- بمعنى؟

- ابن عامر.

- لا، يا رجل، غالب له قوة ضاربة.

- لم يقضِ غالب على ابن عامر حين كان ينبغي أن يفعل. العسكريون يترددون دوماً في استعمال القوة، ولا يجنحون إليها إلا بعد فوات الأوان.

- ستكون كارثة لو ينتصر ابن عامر.

- لا أميل إلى ابن عامر طبعاً، ولكن له حسّ سياسي أكثر من غالب، ومن سيحسم في النهاية هي السياسة، أو الحظ.

- لا، يا زيري، لا تقل هذا الكلام..

- لا أدري يا شبريقو، ليست لدي كل المعطيات... شعوري هو أن غالباً تأخّرَ في الضرب على يدَي ابن عامر. ثم إن العسكريين يؤمنون بالشرف، والذي يحسم الأمر غالباً هو النذالة.

لم يكن زيري في حالة نفسية ليتوسّع في الحديث عن السياسة. بعد الغداء طلب من باشكوال أن يغادرا...

هل لكل هذه الصراعات السياسية من أهمية أمام الأسئلة الوجودية التي تنتاب الإنسان، وضرورة البدء من الأفكار الخاطئة التي قد يتلفع بها وتدفعه إلى الخسران؟ كان هذا ما يستأثر باهتمام زيري أكثر من أي شيء آخر منذ وفاة تودة.

6

كانت الليلة حارّة، والسماء مرصّعة بالنجوم، حين كان صوت مرية يرتفعُ شجياً، فيموج في البراري، يحمله النسيم بعيداً.

كان باشكوال وزيري، وقربهما شبريقو، جالسين على حصير، وكانت الرميكية تمسكُ الصبي يوسف في حجرها، وهم يستمعون إلى مرية تغني الفلامينكو، ترحُماً على تودة. تعبّر عن أنّتها وألمها بجُؤار الجريح، وصرخة المستغيث، والحركة الغاضبة، والنظرة الشامخة، والرأس الأشم، ولباس الفرح، وتسعى أن تستعيد تلك الكلمات التي كانت تودة ترصع بها قولها، من الفاتحة والصلاة على النبي، والحمدلة. كانت مرية تستعيد شجن تودة، وهي تُرجّع بالعربية، وتدرجه في متن شدوها، بلكنتها... كانت تنسج الخلود، من عبق الذاكرة والألم والوفاء. كانت ترسم آصرة. آصرة قد يتاح لها أن تتحدّى الأزمنة وتسكن التاريخ.

هل سيتاح يوماً أن يعرف المستمع إلى الفلامنكو أنّة زنجية ضمّنته شكاتها وابتهالها؟.. قد تكون تودة معبِّرة عن كل الزنوج والزنجيات. وكل المسلمين والمسلمات. وقد تكون جراحها صورة لجراحات كل جريح. لو يتاح ذلك، فمعناه أن تودة لم تمت. أو أنها انبعثت، أو تنبعث في كل غناء للفلامينكو. كان ترنيم مرية كما هو غزْل تغزله، من

نسيج أصوات وحيوات ومسارات، يضم كلاً من أنّة الغجري، وابتهال اليهودي، وصلاة المسلم، باللسان العربي، وأنين الزنجي. الفلامنكو صورة لزينة الدنيا.

كانت مرية تردِّد اللازمة التي كانت ترسلها تودة، اللّه ربّ العالمين، والصلاة على النبي، واللّه، اللّه، وقد أضحت على لسان مرية أولي، أولي، مشفوعة بـ«أقوى»... كما لو أنه نداء يستنهض تودة. لتُذكِّر مرية أنها لم تنسها وأنها تسكنها، وأنها تُبعث فيها.

كان زيري يشعرُ بالسكينة لذلك الصوت القوي، لتلك النبرة الدافئة، وهي تحمل ذكرى تودة وأثرها. الفنّ هو سبيل الخلود. هو التعبير عن زينة الدنيا. هو الذي يهزأ من الموت. هو الذي يُمشط جدائل الحب، وهو الذي يُضمّد جرح الجريح، ويستحث همة الطموح. هو لحام الإنسان. هو بلسم الروح...

أشار زيري على الرميكية بيده، وفهمت قصده فأسلمته يوسف. أمسكه بذراعَيه، كما يمسك الحياة ونظَرهما منصرف نحو مرية. استكان الصبي لهذا الفتى الذي يحدب عليه، ويشترك في حبّه له مع أبيه باشكوال وأمه مرية.

لا حاجة إلى أن يعرف الصبي الآن...

ما زالت الحياة تنادي على زيري. ما زال لغزها يستدرجه... بلسمَ الفنُّ جرحَه. بعث فيه العزاء، واستحث فيه إغراء الحياة. قرطبة تناديه.

كان شبريقو قد أخبره أن القائد غالباً مات في مواجهة مع ابن عامر، وأن ابن عامر أطبق بيده على كل شيء.

اللّه ربّ العالمين. كانت مرية تصدح بلكنتها:

- Ya allá arriba el limón.

يعيدُ زيري النداءَ الذي كانت تودة تردّده في تقطيعها مع مرية:

- لا إله إلا اللّه.

تردد مرية:

- Olé, olé Holanda.

ويبدر من زيري النداء:

- أقوى، أقوى...

تعيد مرية النداء:

- Agua, Agua.

ثم يغمض زيري عينَيه في تبتُّل.

ربض البُـرج
المدينـة العتـيقة

1

بعد هزيمة غالب ووفاته حوّل ابن عامر جهده ضدّ راميرو الثالث ملك ليون لمساندته لغالب. حشد إليه قواته وحاصر قلعة سمورة، وأحرق ما حولها. ونفرَ راميرو الثالث إلى ملك قشتالة غارسية، وسانشو ملك نافار، وتشكّل حلفٌ ثلاثي مسيحي في مواجهة ابن عامر. ونشب قتال شديد بين الجبهتَين في ظاهر بلدة الروضة[1]، وهُزم النصارى وقُتل منهم عدد كثير، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش[2]، وسار ابن عامر إلى مدينة ليون، ولم يوقفه عنها إلا تهاطل الثلوج. ودخل ابن عامر إثرها قرطبة مظفراً، يجلله الفخار، وابتهج المسلمون لذلك أيما ابتهاج. لم يعد أحد يطاول ابن عامر في السلطان أو ينازعه السؤدد، ولكنه لم يكن يأمن العصبيات العربية ففسح للبربر من العدوة، فنزحوا إلى حي ربض البرج من المدينة العتيقة.

حلَّ بالحي ذاته في تلك الفترة رجل لم يكن ليثير الاهتمام سوى ما بدا منه من بلاهة وسرى عنه من بلادة. ولم يكن يُعرف عنه، أهو من المولَّدين أم من البربر. وقد عرفت المدينة نزوح أعداد كبيرة من

---

(1) Rueda.

(2) Simancas.

البربر ممّن حلّوا بالحي، واختاروا حي ربض البرج لأن الإيجار، أو الكراء، وهو المصطلح المستعمل بالأندلس، به رخيص. وكان من هؤلاء من كان منتظماً في الجند، ومنهم من حلَّ طلباً للرزق، وكان ابن عامر قد اصطنع البربر كي يفُل من العصبية العربية.. كان أغلب ساكنة المدينة العتيقة من المستعربين، وهم من المسيحيين الذين تحولوا إلى اللغة العربية دون أن يتخلّوا عن عقيدتهم. كانت البناياتُ أغلبُها بالمدينة العتيقة متآكلة، وبعضها آيل إلى السقوط. لم يكن بها ما يميز البيوتات بقرطبة من زليج وزخرفة ونقش وصحن بداخل البيت. ولعلّ بيوتات المدينة العتيقة أن تكون أقرب للطابع القوطي القديم قبل حلول المسلمين، الذين لمّا حلّوا بالأندلس صاغوا فنّاً معمارياً جديداً، ممّا نقلوه من الشام، وممّا استنسخوه من بيزنطة، وممّا تأثروا به من القبط وقد حلّ بها أعداد كثر من بنّائيها ومعمارييها أو عرفائها[1]. هذا المزيج هو ما تطور كي يصبح الهندسة الأندلسية، وتبدّى طرازها مع جامع قرطبة والقصر الأموي، واستوت معالمها مع الزهراء...

كان الرجل الطارئ يكتري غرفة محاذية لفُرنٍ معروف باسم فرن بريل. ليس بالغرفة إلا الحيّز الذي ينام به، مع كنيف ملاصق. كان يُعرف بالمغيرة، ولأنه لم يكن يتكلم كثيراً، فلم يكن يُعرف أهو اسمه، أو لقبٌ لُقِّبَ به... كان يتبلغ ببعض الأعمال البسيطة التي لا تحتاج دربة، لأنه لم يكن يُبين عن حذق أو يحسن صناعة. وكان ممّا يقوم به نقل الخبز إلى الفرن، أو لما تُسخّره بعض الأسر لبعض المهام أو للتسوق. كان يبدو منه البلاهة، من خلال ابتسامات بلا معنى، أو حينما يحك وجنتَيه بلا سبب. ولكن الناس عرفوا له شيئاً آخر، جعلهم

(1) جمع عريف، وهو المصطلح المستعمل بالأندلس.

يتجاوزون عن بلاهته وغرابة أطواره، هو أمانته. ذلك أن الكثيرين اختبروه في بعض المهمات، وبعثوه كي يشتري لهم بعض الأغراض، فلم يأخذ دانقاً واحداً، وعزوا ذلك لعدم معرفته بالمال. لم يسبق له قط أن نازع شخصاً في أجر عن عمل قام به، أو شاكس في أمر. إن أدى الشخص، فذاك، وإن لم يؤدِّ، لم يُلحف الرجل. لم يكن في منافسة كي يستثير الغيرة، ولم يكن يؤذي أحداً، كي يستوجب الموجدة. لا يختلط بأحد ولا يلازم أحداً سوى القيّمَين على الفرن، صاحبه بُلقين وخادمه إيغموراسن... يواظب الشخص على صلواته في المسجد، منذ الفجر، ويخرج من غرفته ضحى، ويمرُّ على بعض البيوتات، وينقر نقراً خفيفاً، فتُخرَج له وصلات الخبز. يحمل الواحدة على رأسه، وقد وضع عليه منديلاً كي لا يؤذيه خشب الوصلة، وثانية على راحته اليمنى، وثالثة على راحته اليسرى، ويستمع لتوجيهات ربّات البيوتات، ممّا اختمر عجينها وينبغي أن يُلقى للتو في الفرن، أو ما يحتاج إلى وقت يسير للاختمار، أو من تريد الخبز رقيقاً، أو من تفضّله منتفخاً، أو من تستحبه مائلاً إلى المحروق، ثم يأخذ الوصلات إلى الفرن. وكان يسعفه في عمله ذلك ذاكرة خارقة.. ينتقل لثلاثة أفواج، وينقل طلبات البيوتات بدقّة. وكان بلقين صاحب الفرن يرسم على قصيرات العجين علامات، كل علامة، تحيل إلى صاحب البيت ونوع الطهي، ثم يقتعد المغيرة بداخل الفرن، يستند إلى الحائط، ويرخي رأسه، ويغمض عينَيه، إلى أن يباغته بلقين بالعربية:

- المغيرة، لقد نضج خبزك.

فينهض المغيرة ويردُّ باللسان العربي:

- بورك فيك سيدي.

كان المغيرة يتكلم دوماً بأدب، كما شأن الأندلسيين عموماً.

كان بلقين من بربر زناتة، قد جاوز الأربعين من عمره وقد أتى من

المغرب الأوسط طلباً للرزق، ولم تكن بنيته الجسدية تهيئه للجندية، فاستعاض عنها بالخدمة في فرن، وهي مهنة خسيسة لا يرتادها إلا من قصّرت به الحيلة، ولم ينل مراناً، إلى أن أصبح مالكاً لفرن بريل... وكان يساعده فتى بربري مثله من المغرب الأوسط يدعى إيغموراسن، في العشرينات من عمره، هو من يوقد النار ويضع الخبز في الوصلات إذ يخرجه بلقين من الفرن، ثم يلفّه في مناديل كي يحافظ على دفئه... كان بلقين ثرثاراً، وكان إذ يفرغ من الشغل يتردد على خمارة، ومنها يستقي أخبار ما يجري، فيتباهى بما يستقي، وكان إيغموراسن ذا ذكاء حادّ، على علم بما يجري، إلا أن هواه كان للنساء ولا حديث له إلا عن مغامراته معهنّ. كان بلقين يتكلم عادة بالعربية، ويتحول إلى الأمازيغية في حديثه إلى إيغموراسن إن لم يرد أن يفهم عنه المغيرة.. وكذلك كان يفعل إيغموراسن حينما يريد أن يُسر بشيء لبلقين لا يريد للمغيرة أن يعرفه. يغوران في الضحك حينما يُغرق إيغموراسن في الحديث عن أشياء حميمية من مغامراته النسائية، ويرتفع ضحكهما حين ينظران إلى المغيرة، وهو لا ينبس لأنهما يتكلمان بلسان البربر... أحياناً يحذّرُ بلقين إيغموراسن:

- قد يفهم عنا هذا العجل..

فيرد إيغموراسن:

- لن يفهم، أولاً لأنه عجل، وثانياً لأنه أبله.

ثم يستغرق في الضحك... وكانت كلمة العجل أو إيزكر بالأمازيغية هي ما يستعمله البربر لنعت العرب للحطّ منهم والقدح فيهم والزراية بهم.. وكان إيغموراسن يهزأ من المغيرة بلسانه البربري، فيسأله منذ متى لم يقرب النساء... فيرده بلقين ردّاً خفيفاً:

- دع الرجل وشأنه، لماذا تريد أن تستثير غريزته.

- لأَغوينّه.

- وما يجديك أن تغويَه؟

- للاشيء. أريد أن أنتقم من العجول.

فإذا طها الخبز، حمله المغيرة إلى صاحباته من ربّات البيوت، ومنهنّ من تتفضّل عليه بكسرة خبز، أو ببعض الطعام... ثم يعود إثرها إلى الفرن، وقد أخذ معه ما أُعطي، فيقدمه لإيغموراسن. وكان المغيرة بعد أن ينهي شغله يضع بزير صغير أطراف من اللَّحم والشحم، ممّا يشتريه من عند الجزار، مع الخضار والثوم، ويخلطه ببعض الماء وقليل من زيت الزيتون، وشيء من الملح، ثم يحكم إغلاق فوهتها بثوب، يلفّه عليها، ويحكم إغلاقها بعجين، ويضع الجرة في جذوة نار الفرن، فتنضج على نار هادئة الليل كله. فإذا حلَّ النهار كان منها غذاؤهم. كان من ألذّ ما يأكلون. يجلسون سوياً ويُقبلون بنهمٍ على الطعام الذي يهيّئه المغيرة. فإذا انتهوا من الأكل قصد المغيرة غرفته، وتمدد في فراش صغير حتى العصر، وبعده يخرج يمشي بلا انقطاع في أزقّة قرطبة حتى صلاة المغرب. وقد شوهد غير ما مرة في ساحة الحلقة وهو ينظر إلى جثة القائد غالب من دون رأس، معلقة على سور وقد حُشيت بالقطن.. كان ابن عامر قد أمرَ أن تعلّق جثته كي تكون عبرة. كان الأمر يثير فضول العامة، وكان العابرون يحملقون في جثة رجل كانت تهتز له أركان الدولة خشية، أضحى بضاعة، وأصبحت ذكراه تثير الشفقة وتبعث على السخرية، وضنَّت عليه أحابيل السياسة بقبر.. كان البعض يود أن يرى رأسه، كما ليستنطقه، ولكن ابن عامر ارتأى أن يعلّقه بالزاهرة ليخيف به أعوانه، كما لو أنه فرّق بين الجسد ليرهب العامة، والرأس ليردع الخاصة... وشاعت أخبار أن زوجته أسماء، ممن أقيم زفاف لم تعرف قرطبة نظيراً له، قد توسّلت إلى زوجها ابن عامر أن يُسلمها رأس أبيها كي تبكيه، وعبّرت في الوقت ذاته عن ولائها لزوجها... وقد كحّلت عينَي والدها، ونظفت أسنانه

بالسواك، كما يليق بحي، ثم بكته ورثته... واستلم ابن عامر الرأس منها كي يعلقه على باب الزاهرة. كان يروق للمغيرة أن يقف عند جثة غالب... وقد سأله مرة سائل ما يرى فأجاب:

- جثة من غير رأس.

وأضاف السائل:

- ولماذا؟

فأجاب المغيرة:

- لأن الرأس من غير جثة.

فاستغرق الرجل في الضحك، لبلاهة المغيرة..

ثم استرسل المغيرة:

- وجسد من غير روح.

وأتمم المسير، وهو يبسم لوحده، ويحك وجنته، ويردد أمام لا مبالاة السابلة:

- روح تبحث عن جسد. فكرة تبحث عن عمَد.

بعد أن فرغ بلقين وإيغموراسن والمغيرة من الشغل، طلب إيغموراسن من المغيرة أن يريه ما لديه من نقود. أراه إياها. إثرها اقتضاها منه إيغموراسن. فمدّها له المغيرة بلا تردد ولا مقاومة... ثم نطق إيغموراسن:

- لسوف أريك بها ما لم ترَه في حياتك.

سأل بلقين بالأمازيغية كم لدى المغيرة، فرد إيغموراسن:

- عشرة دنانير.

فردَّ بلقين بالأمازيغية:

- هذا كثير، لن تقتضي منه كل هذا المال كي تأخذه لخراجية (ماخور).

- هو لا يعرف من شأن المال، ولن يحسن إنفاقه. أنا به أولى.

- حرام عليك أن تأخذ له ماله كله.

- كل ما يمكن أن تستخلصه من العجول فهو جيّد.

- الرجل أَنوك وليس يحق لك أن تخدعه.

- ربي (اللّه) يعطي الفول لمن ليس له أضراس، مثلما نقول في مَثل عندنا. اسمع، سآخذ خمسة دنانير وأعطيك خمسة...

- الخيرة ألا تعطيني شيئاً، ولكن تؤدي لي شراب اليوم من ماله في الخمارة التي أرتاد، وتأخذه بعدها للخراجية.

- نِعم الرأي. صاح إيغموراسن.

كانت خمارة الزقاق، والزقاق اسم الممر البحري بين العدوتين، توجد في أزقة ملتوية، بالمدينة العتيقة، وسط المستعربين، وهم من المسيحيين، مَن يتكلمون العربية ويَدينون بالمسيحية. وكان القيّم على الحانة مستعرباً يُدعى الحارث. كانت غالبية الزبائن من البربر مع أعداد قليلة من المستعربين. لم يكن البربر ممن يحلون بالخمارة يتنكرون، إذ كان لباسهم يفضحهم، ولم يكن يخلق بمسلمين أن يرتادوا خمارة، ولكن قواعد المدينة القديمة كانت رخوة، والشرطة متغاضية. كان لباس البربر يشي بهم. كان الرجال من البربر يلبسون البرنوس، ويعتمرون العمامة، ولم يكن أحد يلبس العمامة بالأندلس، عدا النساء من يلبسن عمامة حمراء للتميز والزينة. وقد يضع بعض البربر من صنهاجة لثاماً على وجوههم. لم يكن بخمارة الزقاق مصطبة للغناء كما في خمارات الأندلس أغلبها، حيث يقصدها الزبائن لا للشراب وحده ولكن للاستمتاع بالغناء. أما بخمارة الزقاق، فلم يكن للزبائن من غاية سوى الشراب وتجاذب أطراف الحديث، من دون غناء ولا قيان.

غشي بلقين صحبة رفيقَيه إيغموراسن والمغيرة الخمارة وقد أناخ الظلام. كان المكان قميئاً، ليس به طاقة ينفذ منها الهواء ولا الضياء، سوى بعض الذبالات التي بالكاد تُري الوجوه. . . اتخذ بلقين مكاناً معتاداً على حصير ومائدة صغيرة. وضع نمارق على حائط، استند عليها، ودعا صاحبَيه للجلوس. نادى على النادل. كلّمه بالعربية. كان مثلما بدا من المستعربين:

- غسّان، علينا بخمرة معتقة.

- حاضر، دّا بلقين..

هكذا دأب غسان أن يناديه، مع لقب دّا، وهو من ألقاب التوقير عند البربر، كما آگ هي للتجلّة عندهم.

- أين آگ حمو؟ سأل بلقين.

- هو خائض في حديث مع صحبه من البربر، ردَّ غسان. أتريد أن أنادي عليه؟

- لا حاجة. سيلتحق بي فور أن ينتهي، هو يعلم مكاني.

وأتى النادل بزِقّ خمر، مع ثلاثة أقداح...

أفرغ بُلقين منه وتذوّقه. استحبه. ثم أفرغ قدحاً لإيغموراسن، ثم ثالثاً للمغيرة. أشار المغيرة برأسه بأنه لا يشرب. نهره إيغموراسن:

- أندلسي ولا تشرب الخمر؟

- اللّه حرّم الخمر.

- والإنسان حللها... ألم تكلّ من وصلات الخبز تحملها على رأسك؟... ألم تتعب من هجير الفرن؟ اشرب... نحن هنا في مأمن من الشرطة. عناصرها لا يأبهون بخمارة الزقاق، وابن عامر أعطاهم تعليماته كي لا يضيّقوا على البربر.. أنت اليوم في حمى البربر...

- جزاهم اللّه خيراً. ولكني لا أشرب.

- وهل ترافقنا كي تشرب الماء؟ اسمع، الناس تشرب الخمر لكي تنسى ما تلظى به، لكي تكسر الحواجز بينها... لكي تتعارف... ومن دون شراب لا يمكنها أن تكسر الحواجز.

- الخمر رجس من عمل الشيطان...

- وتحفظ القرآن! لم تجد مكاناً تستشهد به سوى في خمارة؟ من أجلي يا مغيرة، ستشرب قدحاً واحداً... لسوف تبدو لك الحياة بمنظار آخر.

- دعه، نهره بلقين. . .

ردّ إيغموراسن بلسان البربر:

- أقسمت أن أدفعه للشراب. . . الشراب وحده يمكن أن يحل لغز هذا العجل.

فاجأه المغيرة كما لو أنه فهم قوله:

- يمكن إذا أردت أن أضع القدح أمامي دون أن أشرب منه.

تدخّل بلقين بالأمازيغية:

- اقبْل منه أن يضع القدح أمامه. لا تُلحف في شأن رجل أبله.

وأقبل رجل يرتدي برنوساً ويعتمر عمامة، وعلى رقبته لثام أزاحه من وجهه ولفّه في عنقه. كان لثامه يُبِين أنه من بربر صنهاجة. ارتمى في حضن بلقين. واسترسلا في الحديث بلسان البربر. ورغم الاختلاف في النطق والمعجم ما بين لسان صنهاجة وزناتة، فكانا يتفاهمان:

- ما استبطأك أگ حمو؟ سأل بلقين.

- واللّه يا بلقين، ليس هناك ما يسر. . . أما علمت بوفاة جعفر بن علي الأندلسي؟ كان هو الحاضن للبربر ومَوْئِلهم.

- كيف؟ مات؟

- قُتل. تردّد أن بعض قُطّاع الطريق اغتالوه ليلاً. لكنني أشك في ذلك. . .

- وهل مثله من يتحرك من دون خفير كي يتجرأ عليه قطّاع الطريق؟

- أقيمت اليوم جنازة كبيرة، حضرها ابن عامر نفسه، وقد ظهر بادي الحزن. . .

- كان صديقَه وحميمَه، ومن الطبيعي أن يحزن. . .

- رأيي... وأدار آگ حمو رأسه يمنة وشمالاً، ثم أردف: اقتربْ مني..

وقرّب بلقين أذنه:

- أرى أن ابن عامر من أمر بقتله.

كان إيغموراسن منصرفاً إلى المغيرة، يلح عليه كي يشرب. وكان نظر المغيرة منصبّاً على بلقين، كما لو أنه كان يفهم قول بلقين وآگ حمو ويتابع حديثهما.

عقّب بلقين:

- كيف أن يقتله؟ كان صديقَه، وبه استعان كي يقضي على غالب.

- ليس لابن عامر صاحب، ردّدَ آگ حمو. استعان بالحاجب جعفر كي يقضي على الصقالبة، واستعان بغالب كي يقضي على جعفر الحاجب، وبجعفر الأندلسي على غالب، واليوم يتخلّص من جعفر الأندلسي.

- في الحقيقة ليس هناك ما قد نشتكي منه مع ابن عامر. أفسح للبربر، ووطأ لهم الأكناف. قال بلقين.

- لأنه كان محتاجاً إليهم، أما اليوم فلا أدري، عقّب آگ حمو.

- واللّه، أضاف بلقين، وضع البربر مع ابن عامر أحسن من ذي قبل. لهم الكلمة في الدواوين. أنظرْ من أتوا من العدوة، كانوا لا يملكون شيئاً وأصبحوا يملكون الدور بل منهم من أضحى يملك الضّياع. وحتى ملبسهم تغيّر، ومنهم من يلبس الديباج الطراز والخز. وهل كنت سأملك هذا الفرن لولا ابن عامر وسياسته نحو البربر؟

- السؤدد يبقى للعرب... البربر موالي فقط.

- البربر غير قادرين أن يتّحدوا...

- ولا العرب. يتوحّدون ظاهرياً باسم الإسلام...

- وضعنا هنا بالأندلس أحسن يا أگ حمو... بالمغرب نتناحر فيما بيننا، المغرب الأقصى ضدّ المغرب الأوسط، وزناتة ضدّ صنهاجة...

- ليس قدراً أن نبقى مشتتين. أترضى يا بلقين أن تبقى تشتغل في فرن؟ لو كنا أصحاب هذا الأمر، لما كنا لنوظَّف من لدن أي قبيل. ضعفُنا في تفرُّقنا، وقوتنا في توحُّدنا.

حينها وقف إيغموراسن متأهّباً للمغادرة:

- دّا بلقين، أگ حمو، عليّ أن أذهب. ينبغي أن ألتحق بالخراجية، قبل أن ينفد السوق... من يتأخر ينال ما يفضُل. هي القاعدة. تولهتُ ببشكنسية حلت الأسبوع المنصرم، أخشى أن يضع عليها أحد اليد... أنستني تولُّهي بالأندلسيات.

ردَّ عليه أگ حمو:

- ألم تتعب من مغامراتك النسائية يا إيغموراسن؟ البربر في حاجة إلى شابّ نابه مثلك...

- اسمع يا أگ حمو، تركت لك النضال. تصرّفْ فيه كما تشاء. المعركة الوحيدة التي أؤمن بها هي النساء، ولو أني أقدّر فيك كرهك للعجول. وهذا أمر نلتقي فيه نحن البربر، من لم يُغوهم الإسلام. وهذا ما يُحمد في خمارة الزقاق، أننا نظهر كما نحن، بلا زخرف.

ثم في اتجاه المغيرة بالعربية:

- تعال كي نذهب لمكان أجمل يمكن أن تستمتع فيه.

فاجأه المغيرة:

- أريد أن أبقى هنا...

وردَّ إيغموراسن باستغراب مشفوع بحدّة:

- ماذا؟ أنت لا تشرب فما الذي يستبقيك بالخمارة؟

- الدفء...

- المكان مع البغايا أدفأ. هيا بنا.

- أفضّل أن أبقى هنا.

- ما أنت وذاك؟ أنت لا تشرب، ولا تفهم لسان البربر، على الأقل يمكنك أن تمتع النظر بالغواني... وقد تنال منهنّ.

- لا أريد أن أذهب إلى هناك. أريد أن أبقى مع بلقين...

ونظر إليه بلقين كما لو يحدث طفلاً يريد أن يتخلص منه:

- يستحسن أن تذهب يا مغيرة مع إيغموراسن... عندي أشياء ينبغي أن أنظر إليها مع آگ حمو.

كان بُلقين مستغرقاً في تسعير النار، بعمود قبضته من خشب، ومشطه من حديد، حين كان إيغموراسن يحكي عن سهرته بالخراجية، وقد جلس على حرف الحفرة التي بها الفرن، فيما استندَ المغيرة على الحائط، بعيداً عن حفرة الفرن، وقد مدد رجليه مستمتعاً بالدفء. لم يكن الوقت الذي يؤتى فيه بوصلات الخبز قد حان.. كان بلقين وإيغموراسن يتكلمان بالأمازيغية.

- العجل مغلق كقفل صدئ. قال إيغموراسن وهو يتحدث عن المغيرة.

ثم استرسل:

- تحلقت به فتيات كثيرات، من الصقلبيات، والأندلسيات، ومن نافار والبشكنس، وحتى البربريات، وفي كل مرة يعرض عنهنّ.. وكلهنّ، ما شاء اللّه، اللاحقة تنسيك في السابقة. لا أدري كيف يصنع هذا العجل... ليس متزوّجاً، ولم يمسس غانية أمس ولا أعرف له صاحبة.

لم يعقّب بلقين. كان منشغلاً بالفرن. يمسح بين حين العرق الذي يتفصد من جبينه. استرسل إيغموراسن:

- تركته وشأنه، وانصرفت لبشكنسيتي... ليتك رأيت شعرها

الأسيل، وصدرها المكتنز، وجسمها البض. آه، لو سمعت صوتها وبحّتها، ثم حديثها بعربية معوجة، تزيدها ملاحة... والله، أنستني الأندلسيات، ممن أكلف بهنّ. أعطيتها كل ما أخذته من العجل.

كان بلقين منشغلاً بالفرن. لم يعقّب. أغلق باب الفرن كي تزند النار وتشتد الحرارة بداخله.. ثم جلس بعدها على حرْف الحفرة التي يقف بها عادة، كما فعل إيغموراسن، ونطق كما لو أن ما أسرَّ له به إيغموراسن لا يعنيه:

- الأمور سيّئة بالنسبة إلى البربر..

- ومتى كانت الأمور جيّدة بالنسبة إليهم؟ عقب إيغموراسن... يقومون بالعمل الشاق لفائدة الآخرين... والآخرون يقطفون ثمار عملهم. منذ طارق بن زياد..

- تتكلم كما آگ حمو...

- آگ حمو يجري وراء سراب. يحسب أنه يمكن توحيد البربر يوماً ما... البربر لن يتوحّدوا، ويحسن بهم الاستمتاع بملذّات الحياة. وليس هناك مكان أمتع من الأندلس كي يفعلوا. لكي يتوحّدوا، ينبغي أن يتوحّد لسانهم، ولكي يتوحّد لسانهم ينبغي أن تكون لهم قضية، ومن المستحيل أن يتوحّدوا حول قضية.. الأمور معقدة. لا ندري أين تكون البداية، ومَن السابق الدجاجة أم البيضة؟ القضية أم اللُّغة؟

- قطع ابن عامر بقتله لجعفر بن حمدون الأندلسي شأفة البربر.

ولم ينتظر بلقين ردّ إيغموراسن، فأخذ يحكي مجريات ما حدث كما لو كان حاضراً:

- قتله غيلة. أقام ابن عامر حفلاً فاخراً بدار العِقاب بالرصافة، وحضره بارعو الغناء والرقص والطرب، وأحضر ابن عامر أجود أنواع

الشراب والخمور، احتفاء بجعفر الأندلسي، حتى طرب هذا الأخير وأخذ يرقص... ولمّا رأى ابن عامر أن الخمر فعلت فعلها، طلب من الساقي أن يسقي من زجاجة أحب الناس إليه، فسقى الساقي جعفراً بن حمدون.. وكان بذاك الشراب ما ينهك، حتى خرج جعفر الأندلسي عن طوره.. وغادر ليلاً، وهو يتهادى سكراً.. اعترضته كتيبة يترأسها الأحوص بن معن التجيبي... ولم يكن جعفر بن حمدون في الحالة التي كان فيها ليقدر على المقاومة.

- تباً لجعفر بن حمدون لأنه وثق من عربي. وهل هناك عربي يوثق به؟ ليس هناك من خيار، إمّا أن نكون أصحاب الأمر، في بلاد المغرب كلها، وإمّا أن نستمتع بملذات الحياة، لا أن نكون موالي... أنظرْ إلى هذا العجل، لأنه مؤلى، وضعه أحسن منا. ولو كان عربياً، لكان له بيت في الرصافة، وينال نصيبه من بيت المال، من الفيء والخراج والغنائم والسبي، دون أن يشتغل...

- تحدثني نفسي أن ابن عامر لسوف يتخلص من الأحوص بن معن. مسألة وقت. قالَ بلقين.

- كل عربي ميت، فهو جيّد. الغاية عند ابن عامر تبرر الوسيلة. يضرب هذا بهذا حتى يصفو له الجو.. تبّاً له، وللعرب عموماً.. عقّب إيغموراسن.

كان المغيرة متكئاً على الحائط ومغمضاً عينَيه... كان يبدو ذاهلاً عمّا يجري من حديث...

- أنظرْ إلى هذا العجل. لا يأبه لشيء. قال إيغموراسن وهو يعني المغيرة.

- في الحقيقة أغبطهُ، ردد بلقين... يأكل ويشرب ويعمل دون أن يتساءل عمّا يجري...

- هو أسوأ من الحيوان... الحيوان ينزو... وهو يأبى حتى أن يضاجع النساء...

- ربما يحب الولدان..

- حتى هذه ليست فيه... نحن البربر نكره ذلك، ولكنهم في الأندلس لا يرون ضيراً في الأمر. الشيء الإيجابي في هذا العجل هو أنه لا يعرف قيمة المال... لم أكن لأظفر ببشكنسية لولا ذخيرته لأمس. دعني أسأله.

تحوّلَ إيغموراسن إلى العربية وهو يحدث المغيرة:

- المغيرة، المغيرة.. أتسمعني؟ وأضاف مستهزئاً: المغيرة، يا هوى قلبي وقرة عيني. روحي فداك.

وردَّ المغيرة:

- لا فُضَّ فوك، ثم أخذ يحك وجنته، مع ابتسامته التي لا تفارقه.

- لماذا لم تُرد أن تضاجع إحدى حسنوات أمس؟

حكّ المغيرة وجنته مرة أخرى، ثم ردّ:

- لأن العلاقة بين الرجل والمرأة ينبغي أن تقوم على الحب، والحب هو أجمل شيء في الدنيا.

- أحسنت يا مغيرة. ثم ماذا؟

- فإذ ارتبطا بالحب ازدادت العلاقة توثقاً وجمالاً حينما يفضيان لبعضهما...

- للّه درك يا مغيرة..

- وإذا لم يرتبطا بالحب، أضحت العلاقة سمجة، ونفر الواحد من الآخر، بمجرد أن يقضي وطره.

- بورك فيك يا مغيرة. ثم ماذا؟

- حينما نحب شخصاً يكون كالماء الزلال، كلما اغترفنا منه

ازددنا عطشاً إليه، وحينما لا نحب الشخص، يصبح كماء أُجاج، قد نرشف منه رشفة ثم ما نلبث أن نعافه..

- أحسنت يا مغيرة. هل سبق أن أحببت يا مغيرة؟

- وما الحياة من غير حب؟

- اسمع يا بلقين، المغيرة سبق أن أحبَّ ويفتي في الحب.. ثم ماذا يا مغيرة؟

- حينما تحب شخصاً يسكنك وتسكنه، فتصبحان وحدة..

- وما القول يا مغيرة حينما لا تجد الشخص الذي يسكنك أو تسكنه، وتستبد بك الرغبة؟

- الرغبة قوة جامحة كالفرس، يمكنها أن تُبلّغك مأربك إن أحسنت قيادها، ويمكن أن تُطوّح بك كظهر الفرس.

- أحسنت يا مغيرة.

- لك الفضل أنك منحتني الفرصة لأعبّر عن أفكاري يا إيغموراسن.

- ألك أفكار يا مغيرة؟

- كل الناس لديها أفكار، ولكن لا يتاح لها التعبير عنها، وقد يتاح أن تعبّر عنها، ولا يُستمع إليها لأنها لا يُعترَف بها.. من المهم الاعتراف بالإنسان، أياً كان، كي يعطي أحسن ما عنده، ويصبح فاعلاً في جماعة.

- حتى البغايا؟

- البغايا لم يخترن وضعهنّ، ولذلك ينبغي التجني على الظروف التي دفعتهنّ إلى البغاء.

- حتى اليهود؟

- حتى اليهود.

- حتى الزنوج.

- نعم.
- حتى العرب؟
- نعم، حتى العرب.
- هذه مسألة فيها نظر.

ونهض المغيرة وهو يردد:

- ينبغي أن آتي بوصلات الخبز الآن حتى لا تغضب مني ربّات البيوت.

وعقّب إيغموراسن هازئاً بلسان البربر:

- يوفاش أيزيكر (أحسنُ لك يا عجل).

4

كان إيغموراسن يتحدث بالفرن إلى بلقين بالأمازيغية غير عابئ بوجود المغيرة وقد فرغوا جميعهم من تناول الغداء. انزاح المغيرة إلى الحائط، واستند عليه، والآخران مستغرقان في الحديث. أسدل المغيرة غفارته على وجهه، كمن يريد أن يغفو لبعض الوقت.

- أتعرف ماذا فعل ابن عامر بجعفر بن حمدون؟ سأل بلقين، ثم استرسل دون أن ينتظر ردّ صاحبه:

- أمر بقطع رأسه. أقام حفلاً فاخراً، ووضع رأس جعفر بن حمدون في صحن بيته بالرصافة، وبين حين وحين، يأمر ضيوفه أن يكلموا جعفراً بن حمدون ويسألونه حاله، فيأتمرون، ويُقدمون على الحديث إلى رأس جعفر الأندلسي، وابن عامر غارق في الضحك، وأحياناً يحمل ابن عامر رأس جعفر بن حمدون، كما لو يحمل صولجاناً... هذا منتهى النذالة.

- بلقين، ردّ إيغموراسن، قلتُ لك أمور ابن عامر، والعرب عموماً، لا تهمّني. حدثني عن الغواني. ألم تلحظ الأندلسية التي أقامت في زاوية الزقاق؟ أعشق الأندلسيات.. يفتنني بلون بشرتهنّ القمحية، وشعرهنّ الأسود المسدل، وعيونهنّ النجلاوات... لا أدري إن كانت متزوجة. لا يهم... حتى لو كانت متزوجة.

وفجأة نطق المغيرة، دون أن يرفع غفارته عن عينَيه:
- هي متزوجة.
بُهت الرجلان. نظر كلاهما إلى الآخر في استغراب. صاح إيغموراسن:
- كيف أدركت قولنا؟
- لأنني أفقه الأمازيغية.
- كيف تفقه الأمازيغية؟
- هي لساني.
- كيف هي لسانك؟
- لأني بربري.
- بربري؟
وردّد بلقين:
- بربري. أجادٌّ أنت؟
- نعم.
- إذاً كنت تفهم ما كنا نتداوله أنا وإيغموراسن.
- نعم.
- ولماذا لم تخبرنا بذلك؟
- لم تسألاني.
استوى بلقين واقفاً، ثم انفجر في وجه إيغموراسن:
- قلتها لك يا إيغموراسن، حذّرتك.. . الرجل يخفي شيئاً ما. سخر منا.
وتوجَّه إيغموراسن إلى المغيرة بالأمازيغية، وقد وقف هو أيضاً:
- لستَ عجلاً إذاً؟
- لم أكن عجلاً قط.
- أعني عربياً.

- لا أدري إن كان العرب عجولاً. هم ككلّ بني البشر.

عقّب بلقين:

- كنت تتجسّس علينا.

- ما معنى أن أتجسّس؟

- تستمع إلى ما كنا نقوله وتنقل أخبارنا.

- كنت أستمع إليكما، لأنكما لم تريا ضيراً في الحديث أمامي.

نهض بلقين متوعّداً المغيرة:

- اسمع يا مغيرة لو يفشو شيء ممّا قلته عن ابن عامر لأقتلنك. أسمعت؟

اقترب المغيرة من بلقين، وضمّه بذراعَيه ضمّةً قوية اربدّ لها وجهه، حتى جحظت عيناه وكادتا تخرجان من حدقتيه. أخذ في السعال. نطق بجهد جهيد:

- المغيرة، كنت أمزح معك... المغيرة، أرجوك...

ثم نطق المغيرة وهو محكم قبضته ببلقين، باللسان الأمازيغي:

- كيف تريد أن تقتلني وأنت لم تستطع حتى أن تدافع عن نفسك؟... لا ينبغي للفعل أن يجافي الخطاب. ثم أضاف مستشهداً بآية: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وخلى سبيله، فيما بقي بلقين يسعل.

أخذَ إيغموراسن يصفر صفير تعجُّب:

- المغيرة بربري! أنا الذي حسبته عجلاً. ويستشهد بالقرآن، أنا من خلته غُفلاً. ويتحدث لسان البربر. لم أرَ في حياتي حدثاً عجيباً مثل هذا، ولا خدعة مثل هذه...

ثم انتصب واقفاً متحدّثاً إلى المغيرة:

- قل لي يا مغيرة هل أنت حقاً بربري؟

- أي نعم.
- وتفهم لسان البربر؟
- أفهم لسان زناتة...
- وهو اللِّسان الذي نتكلم به. إذاً كنت تفهم قولنا أنا وبلقين.
- نعم...
- حينما... حينما كنا بخمارة الزقاق.
- نعم.
- وبالخراجية.
- نعم.
- وحينما كنت أعيِّرُك بالعجل؟
- نعم.
- وحينما كنت أهزأ منك.
- نعم.
- وحينما.. أعني حينما كنت آخذ منك مالك.
- نعم.
- ولم تَرُدَّ بشيء. ولم تفصح عن شيء.
- لم أشعر بالحاجة إلى الردّ حينها...
- ولماذا تريد أن ترد اليوم؟
- لأن المرأة التي تريد أن تتحرّش بها زوجتي... وارتأيت أن أطلعك على الأمر، إذ لو تحرّشت بها لهشّمت وجهك، ولم أرد أن أمسَّك بسوء.
ونفثَ إيغموراسن نفثة قوية...
- بلقين، تداركني، قبل أن أسقط. الأرض تميد بي...
انكمشَ بلقين بعد أن ضمّه المغيرة. بقي مترقّباً لا ينبس. نطق إيغموراسن:

- اسمع يا مغيرة، أليس لك اسم غير هذا؟ المغيرة اسم عربي قحّ، وأنا أنفر من أسماء العرب لأني أنفر من العرب. لا علينا. وقع سوء تفاهم، وهي أشياء تقع في الأسرة نفسها. ستصفح عنا، وسنطوي الصفحة. لسوف أرد لك مالك ما دمت غير عربي. أمهلني بعض الوقت، وسأرد لك مالك نسيئة. ستفكر معنا ملياً في شأن البربر. يمكن أن تختار خيار بلقين الذي يرضى بالوضع القائم، ولا يريد أن يزعزع البنية. خيار واقعي يمكن أن تنال منه بعض الفتات، كعامل في فرن، أو قائد كتيبة ينتهي به الأمر بالقتل غيلة كابن حمدون. يمكن أن تختار خيار الثورة، كما عند أگ حمو الذي يحلم بتأليف زناتة وصنهاجة والمصامدة. أحذرك، ليس هناك أدنى ضمانة للنجاح في هذا المسعى، لأن الحرية، أو الفوضى بالأحرى، جِبِلّة راسخة عند البربر، وهم يأنفون من الخضوع لأي كان منهم. وهناك خياري، الخيار الأمثل، لأنك ترفض الوضع القائم، ولا تغور في الأحلام ولا تستبد بك الأوهام، ثم تستمتع بالحياة.. هذا لا يُغيّر شيئاً من طبيعة هيمنة العرب، ولكن على الأقل يجعل من هو مثلي لا يقبل بالاستلاب. يمكن أن تختار واحداً من هذه الخيارات، وإلّا، يمكن، وأنت لست بعجل، وهو الأمر الذي اكتشفته ويثلج صدري، أن تتصدّر خياراً رابعاً.

- أختار الفهم، ولكي يفهم الإنسان عليه أن يعرف..

- هل يمكن أن تُبسّط يا مغيرة؟ لم أفهم عنك. هذه أشياء معقّدة في ذهني.

- الحقيقة توجد عند كل طرف، وليست حكراً على واحد منها.. ليس هناك أناس جيّدون، وآخرون أشرار، أو جماعة ذكية، وأخرى بليدة، أو أقل ذكاء.

- نظرياً نعم. لكني لم أقف على عربي جيّد.

- بعض العرب ممن نعيش معهم يعتقدون كذلك أن البربر شرّ البرية، وهو شعور موجود عند الذين لا يتفكرون في الأمور، ولم يتح لهم أن يفهموا، لأن لهم معرفة سطحية... وهو شعور طبيعي عند شعوب متجاورة ومختلطة.

- قل لي يا مغيرة، هل أنت هو المغيرة؟

- نعم أنا هو أنا. المغيرة هو اسم استعارة، أما اسمي فهو زيري.

- المغيرة، أو زيري، من هو الحقيقي؟

- كلاهما. المغيرة وزيري دالّان للمدلول ذاته.

- لا يمكن. قبل أن تسفر عن هويتك كنتَ المغيرة، وحديثك مغايراً، وكانت نظرتي إليك مختلفة، والآن وقد أصبحت ذاتك أضحيت شيئاً آخر ونظرتي لك مغايرة.

- الشخصية لا تتغير، ولو تغيّرت معالم الهوية.

- أنت من يحمل وصلات الخبز للفرن، من يقول هذا الكلام؟

- نعم.

- ولكنك تتحدث حديث من لا يحمل الخبز للفرن.

- الذي يحمل الخبز للفرن يمكن أن يفكر كذلك. الفكر ليس حكراً على جماعة أو مجموعة. حينما أخلو لنفسي أتفكّر، وأتفكّر بناء على ما أحمل من معرفة وأستقي من معلومات، وأستزيد معرفة كي أزداد فهماً، وكلما ازداد المرء فهماً كلما انهدمت الحواجز التي يقيمها الناس ليفاضلوا بين بني البشر. بين العرب والبربر، بين المسلمين والمسيحيين واليهود، بين من يؤمنون ومن لا يؤمنون... لدينا فرصة فريدة هنا في الأندلس لأنها تعيش فيها عدة أعراق وديانات مختلفة، وينبغي أن نجد الآصرة الجامعة بينهم، لا على ما يفرّقهم، كي نجعل منها زينة الدنيا.

كان كل من بلقين وإيغموراسن يصيخان السمع باهتمام للمغيرة، وكانا قبلها يعرضان عنه ولا يأبهان به. وفجأة قطع المغيرة الحديث:

- أستأذنكما في الالتحاق بزوجتي، فقد أتَت قبل أسبوعَين، ولم ننهِ شؤون ترتيب البيت.

ثم في نبرة حازمة:

- استمرّا بالمناداة عليّ بالمغيرة، ما زلت أحتاج هذا الاسم لغرض.

5

في صباح ربيعي خرج المغيرة، وهو يحمل عصاً على كتفه بها صرّة، ماشياً في الطريق نحو الزهراء. كانت الشمس قد أشرقت، والجو ازدان، ولو أن لسعات البرد ما تزال تنفذ بين حين وحين. لم يصادف زيري عابرين كُثْراً. مشى زيري لساعتَين دون أن يغذّ السير، حتى تبدّت له الزهراء، من باب المحفل. راعه أشغال حفر حول الزهراء كلها... دخل من باب الأقباء. ترك عن يمينه قصر جعفر، وعرّج على الشمال، ثم سار في سراديب قادته إلى سجن المطبق. وجدَ به جنديين من العَسَس. أوقفاه. سألاه بغيته. ردَّ بهدوء:

- أريد أن أزور الحاجب جعفر المصحفي في سجنه.

نظر الحارس الأول إلى زميله. ثم ردّد طلب زيري متعجّباً:

- يريد أن يزور جعفراً!

أتى الحارس الثاني، وسأل زيري:

- ألديك ترخيص من الشرطة؟

- كلا.

- هل لك علاقة نسب بجعفر؟

- كلا.

- ولماذا تريد أن تزوره إذاً؟

ردَّ زيري في هدوء:
- لأنه قتلني.
حسب الحارس الثاني أنه أساء الاستماع، فأعاد السؤال:
- ماذا؟
- قتلني... قلت لك قتلني.
وانفرجت أسارير الحارس الثاني، منادياً على زميله، الحارس الأول:
- تعال. اسمع. قتله جعفر، ويريد أن يزوره. ثم استرسل في الضحك...
ردَّ الأول:
- اسأله إن كان قد مات حين قتله جعفر..
فسأل الحارس الثاني:
- هل مت حين قتلك؟
- نعم.
- وهل أنت حي الآن؟
- نعم.
ثم غارَ الحارسان في الضحك... وجدا تسلية تنسيهما الملل الذي يشملهما، فأخذا يهزآن من الزائر. سأله الحارس الأول:
- كيف هو طعم الموت؟
- مُر. مُر حين تموت غدراً. حين تُقتل غيلة. ثم حين يُكذَب عليك.
شفع الثاني:
- وكيف هي العودة؟
- تأتي في صورة أشباح، تسكن أشخاصاً، فإذا وجدت الحقيقة هدأت تلك الأشباح، وإن لم تجدها، أخذت تهب في البراري، وتئنّ

في الليالي، تمتزج وهوج العواصف ولمعان البرق ولعلعة الرعد... وأحياناً تسكن الطيور، وحتى الأزهار، حتى تستمسك بأشخاص وتسكنهم يبحثون عن الحقيقة...

تدخّل الحارس الأول:

- الرجل أخرق... ينبغي أن نصرفه.

- كيف يمكن أن نصرفه، ردَّ الثاني، قبل أن نعرف حقيقته... لا بدَّ لنا من تقرير. تصورْ لو يبلغ الأمر الحاجب المنصور ابن عامر ونُسأل عن ذلك.

- الرجل أخرق. ومن يأبه برجل أخرق؟

- ولو... دعني أسأله.. ردد الحارس الثاني: كيف قتلك جعفر؟

- أمر بخنقي بوسادة أمام زوجتي وأهلي... تشفّعت لجنده. بكيت، استعطفت، ولكن أوامر جعفر كانت صارمة، ولم يهدأ جعفر حتى بلغه مقتلي.

نفرَ الحارس الأول:

- الرجل أخرق، قلت لك. اصرفْه. لن يحاسبنا أحد...

- أنت لا تعرف الحاجب ابن عامر، ردّد الثاني، يحاسب على الشاذّة والفذّة. لا، لا. ليس بنيّتي أن أصرفه ما لم أستكمل البحث معه...

تحوّل نحو المغيرة الذي كان يتكلم بهدوء:

- طيب. لا بدَّ أن نعرف اسمك..

- طبعاً...

- إذاً ما اسمك؟

- اسمي المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خليفة المسلمين...

وصاحَ الحارس الأول:

- ألا ترى أن الرجل أخرق؟ لسوف تتم مؤاخذتنا أننا أضعنا وقتنا مع معتوه...

وردَّ المغيرة على الحارس الأول:

- الحقيقة يمكن أن تسكن رجلاً مخبولاً أو معتوهاً. ليس لها سنن.

عادَ الحارس الثاني:

- ماذا فعلت بعدها حينما قتلك جعفر؟

- لا شيء أول الأمر. بكيت كثيراً، لأنه أشيع عني أني قتلت نفسي، ثم أخذت أنتقل في الأسواق والقرى والكور... أحدث بأمري، وأجعل من ينتقلون من المطربين، لسان حالي. هدأت نفسي حين علمت أن الناس لا تثق في رواية قتلي لنفسي...

- والآن ماذا تفعل؟

- الآن... الآن، أريد زيارة جعفر...

- أعني أين تعيش؟

- ليس لي مكان قارّ، ولا وضع ثابت... أضرب في مناكب الأرض إلى أن أجد الحقيقة...

- أتيت من مكان ما هذا الصباح.

- أي واللّه. من ربض البرج... آه، تريد أن تعرف ماذا أصنع؟ أبحث عن الحقيقة، وأبتغي لذلك عدة وسائل، منها أني الآن أشتغل حمّال الخبز إلى الفرن كي أنفذ إلى الحقيقة، وهي لعَمري مهنة نبيلة لمن يتفكر في الأمر.

- حدثني عن مهنتك؟

- النساء يعجنَّ الخبز. والعجين عمل جبّار يستلزم الأناة والجلَد. وهو يحتاج إلى الخميرة، والخميرة، رفع اللّه قدرك، شيء أساسي، من دونه لا يصلح العجين لشيء... ثم تصنع النساء من العجين

قرصات، وتتركنه يختمر... إثرها أحملها للفرن إلى أن تطهى، ثم آتي بها في شكل خبز. لا أقوم بشيء ذي بال، لأن اللواتي يعجن هنّ من يقمن بالعمل الأساسي، مع من يوقد النار، ثم صاحب الفرن، من عليه أن يحرص على نضج الخبز حتى لا يحترق، وأن يقلبه على وجهيه، ولذلك عليه أن يبقى يقظاً. أما أنا فأقبع أنتظر إلى أن يكتمل نضج الخبز. لا ينبغي أن أتأفّف من الانتظار... إثرها أحملُ الخبز وقد نضج لأصحابه. العمل الجبّار هو العجين، ثم الفرن، وأنا الوسيط بينهما..

- أين يوجد الفرن؟

- قلت لك ذلك، بربض البرج، فرن بريل. أشتغل مع بلقين وإيغموراسن.

- دعنا من عملك. أين تسكن؟

- أسكن في زوجتي، وتسكن في...

- أعني المكان الذي تعيش فيه...

- أعيش في الدنيا..

وانفجر الحارس في وجهه:

- البيت الذي تسكنه؟

- بالفرن، غرفة به... قبل أن تلتحق بي زوجتي. اقتنينا بيتاً صغيراً في الطابق الأرضي، ونحن بصدد ترتيبه.

- اسمع، سأنقل المعلومات التي قدمتها، وننتظر بعدها التعليمات، والآن انصرف، وبسرعة.

- ألا يمكن أن أرى جعفراً الآن؟

- لا يمكن.

- يا اللّه. ومتى يمكن أن أراه؟

- لا أدري، سأنقل المعلومات وأنتظر التعليمات...

- إذاً أعود للفرن؟

- للفرن وأي مكان، سوى هذا المكان. . ينبغي أن تغادر الآن. . .

- قل لي، قبل أن أذهب، ما سرّ هذه الخنادق حول الزهراء؟

- وما شأنك؟

- شأني أن أطرح الأسئلة حول ما يريب.

- اذهب لحال سبيلك، قبل أن يطوّقك الحاجب ابن عامر كما طوّق الخليفة. . . لو كنت عبّرت عن رغبتك زيارة الخليفة، لاعتقلناك للتوّ. لم تفهم شيئاً من هذه الخنادق؟ حتى لا يحل أحد عند الخليفة، وحتى لا يهرب الخليفة.

- شكراً على الإفادة، شكراً على كل شيء. بورك فيك، بورك فيكما. سأعود.

وانفتل المغيرة، أو زيري، على عقبيه إلى أن اجتاز باب المحفل. كانت أشغال الحفر مستمرة. توقف وقد جاوز الزهراء إلى أن بلغ عيناً جاريةً. أخرج زاده من جراب، به خبز وجبن، نال منه، وشرب من ماء العين، ثم استأنف المسير في اتجاه قرطبة.

6

كانت مجموعة من النسوة مجتمعات أمام الفرن يصرخن ويتوعدن، بالعربية ولسان البربر، منهنّ البربرية، والمولَّدة والعربية، وبلقين يهدئ منهنّ...

- لن يتكرر ما حدث، أعدكنّ...

صاحت امرأة:

- كان عليكم أن تخبرونا كي نتدبّر الأمر. تجاوز العجين مرحلة الاختمار حتى فسد...

صاحت أخرى متوعّدة أصحاب الفرن:

- تباً لكم، مجموعة الكسالى. لم نتناول الغداء أمس بسببكم... بقي أكلنا من دون خبز...

- سنعوضكنّ، قال بلقين، وهو يدفع النسوة اللواتي أردن أن يغشين الفرن.

في تلك الأثناء حضر المغيرة. راعه منظر النسوة يصرخن وبلقين يسعى أن يهدئهنّ، وإيغموراسن مستغرق في الضحك.

سأل المغيرة بلقين وسط جمع النساء:

- ما الذي جرى؟

- الذي جرى هو بسببك، تخلّفت عن مهمتك، ولم تخبر أحداً.

ثم متوجّهاً إلى النساء ومشيراً إلى المغيرة:

- هو الذي لم يحضر، ولم يخبرنا...

ردَّ المغيرة:

- صحيح، لم أحضر أمس، ولم أخبر أحداً، لأني اعتبرت أني لم أكن ضرورياً. آسف، لو علمت أني ضروري لأخبرتكنّ. لم أتخلف عن قصد...

وصاحت امرأة في وجه المغيرة:

- عهدناك معتوهاً، لا تخرج قيد أنملة عمّا سُطر. خذلتنا حتى فسد العجين..

وصاحت امرأة ثانية:

- خنتَ الأمانة. من يخن الأمانة، تُسحب منه الثقة...

تقدّم المغيرة إلى أن بلغ باب الفرن، وسط مناكب النساء، وهنّ يقذفنه بالشتم ويقذعن فيه، ومنهنّ من تلقيه بالنظر الشزر... حكَّ المغيرة وجنته، ثم أمسك أرنبة أذنه. صاحت امرأة في وجه النسوة:

- أنتنّ من يتحملن المسؤولية لأنكن عهدتنّ بخبزكنّ لمعتوه. أنظرْنَ إليه، هل هو أهل للثقة؟

تركهنّ المغيرة حتى هدأن، وتوجّه إليهنّ بالقول:

- أيتها النساء الفضيلات، واللّه إني لسعيد جداً أن تنلني باللوم، وقد حسبتُني حشواً بينكم جميعاً. سعيد جداً، أن تتبينّ في النهاية، ومن خلالكنّ أزواجكم، مكانتي، وأنا نفسي لم أكن أعرفها. أمس حدّثت حارساً لا يتساءل عن غاية ما يفعل، ويفعل ما يؤمر، أسوة بالكثيرين، أن العمل الجبّار هو أنتنّ، وكل من يقوم بالعجين... أنتنّ تعجنَّ الطحين، ومن الناس من يعجن واقعاً. وكل عمل هو صياغة للواقع، كما العجين... كنت أنظر دوماً إلى عمل زوجتي وهي تعجن من أجل أن تصنع الإسفنج، فأتملى أناتها، بلا تأفُّف أو ضجر.. ثم

وهي تضع فيه الخميرة كي يربو. . . وهل الحياة كلها إلّا عجين؟ وهل يصلح العجين من دون خميرة؟. . نحن نصوغ من عجين حياتنا تصوُّراً كما تصنعن قرصات الخبز، ونحتاج إلى خميرة من ذوي الفضل والرأي، ثم يُحمل العجين إلى الفرن كي ينضج. والحياة فرن، كذلك. لم أقدّر أن عملي ذو أهمية، إلّا يومي هذا. والذي صرفني عنكنّ شغل لا يقل أهمية عن حمل الوصلات. . . كنت أريدني مرآة لشخص. كنت أريده أن ينظر إلى نفسه من خلالي، لأن من لا ينظر إلى نفسه لن يعرف الحقيقة، ولكي ينظر إليها فهو يحتاج إلى مرآة. والمرآة هي الآخر. أعتذر لكنّ، ولكني أدركت معكنّ أهمية من يحمل الوصلة. أدركت أهمية الحلقة الرابطة من العجين إلى الفرن. أعدكنّ أنني لن أتخلف، وإن طرأ طارئ أُبلّغكن. لا تثريب أيتها الفضليات. . . عفوكنّ.

ردت امرأة:

- لم أرَ أعته ممن يثق في معتوه.

وقالت أخرى:

- ابحثن لكنّ عن شخص آخر يحمل عجينكنّ. . . فرن البربر كشأن البربر، جعجعة ولا طحن.

وعقبت أخرى:

- ولكنه ليس من البربر. . . هو مُولَّد. . .

- سيّان، ردّت سابقتها. تخلّق بأخلاقهم.

ونطقت أخرى:

- امنحوه فرصة أخيرة، نحن كذلك لم نكن نؤتيه أجره.

7

استضاف إيغموراسن وبلقين المغيرةَ لخمارة الزقاق. أخذ منهم المغيرة أن يبقوا ثلاثتهم، من دون طرف رابع.

جلسوا جميعهم في المكان الذي اعتاد بلقين أن يقعد به، وأتى النادل غسان، كي يأخذ الطلبات. سأل بلقين عن آگ حمو، فأجاب غسان من أنه مع جمع من البربر... ردَّ بلقين:

- أنا من سيذهب إليه.

قصده كي لا يلحق بهم.

تحول كل من بلقين وإيغموراسن في تعاملهما مع زيري، أو من كان يُعرف بالمغيرة، وأضحى ما كان يهزآن به منه، خشية وتوقيراً، لأن له سلاحاً لم يتوقّعاه ألا هو المعرفة... أدركا أن ما عرفاه هو الجانب الظاهر، وأن زيري أو المغيرة يخفي أشياء أعمق. كانا يتحرّقان شوقاً لمعرفة سريرة المغيرة، أو زيري.

- هزأت منا، قال إيغموراسن، وهو يشرب الخمر من قدح.

- لم أهزأ منكما، ردَّ زيري، هزأتما بنفسيكما. حكمتما قبل أن تعرفا.

- على كل أنا سعيد أن من غرّرَ بي بربري، وليس عربياً...

- ما الفرق حين تكون ضحية؟

- بالنسبة إليّ هناك فرق. على كل حال أنا سعيد أنك بربري. . .

- لست بربرياً فقط.

- كيف؟

- أنا أندلسي، أعيش بأرض الأندلس، وكل ما بها جزء مني. . .

- تتحدث يا مغيرة، ولو أنه يعسر عليّ أن أناديك بالمغيرة، بأشياء لا أدرك كنهها.

- الزمن كفيل بتبيانها. ما زلتُ محتاجاً إلى اسم المغيرة. .

في تلك اللحظة حضر بلقين، وعلامات الارتياح بادية عليه، وقد تخلص من أگ حمو، محدّثاً رفيقه:

- أگ حمو يريد أن يرتحل إلى المغرب الأقصى كي يستنفر بربر صنهاجة. . . يرى أنه لا يمكن الاعتماد على أي كان هنا بالأندلس. . .

- دعه في ضلاله يعمه، ردَّ إيغموراسن. ماذا يمكن لبربر صنهاجة أن يفهموا في الأندلس؟ يريدون أندلس صافية، أي لا خمر فيها، ولا تلاقح ولا تفاعُل. وهل تستقيم الأندلس من دون خمر، ومن دون مِلَل ونِحَل وتفاعل؟ كيف يستطيع بربر صنهاجة أن يوفّقوا بين واقع الأندلس، ونظرتهم المتزمتة للدين.

ثم أضاف:

- أعدكما أني لن أتحدث عن الغواني الليلة هذه. . . لأنني أريد أن أستكنه أشياء حجبتها عني يا. . مغيرة.

- وما هي؟ ردَّ المغيرة.

- أولاً، لماذا لا تشرب؟ لا أفهم كيف لشخص مثلك ألا يشرب.

- كنت أشرب، ردَّ المغيرة، كنت أحب الخمر، وأقلعت عنها...

- ولماذا؟

- وفاء لشخص لم يعد من هذه الدنيا. وفاء لشخص كان يسكنه سمت المسلم المؤمن... عرفت امرأة فاضلة، هي من احتضن ابني ورباه، سكنها سمت الإسلام... أسلمت الروح وهي بين يدَي، ولذلك كان وفائي لها وفاء لما تمثله. من يموتون ممن نحب يسكنوننا. تصبح نفوسنا مثوى لهم.

- لماذا تسترت؟ سأل إيغموراسن.

- كنت أحتمي...

- وممَّ تحتمي؟

- ممن قد يتهدد فكرة. أحمي فكرة.. كمن يحمل شعلة، وينبغي أن يحيطها بيده، كي لا تطفئها الرياح... أحمل زينة الدنيا.

- أعترف أنك لغز، استرسل إيغموراسن، ولن أطلب أن تسفر عمّا تريد أن تخبئه. لماذا تسمّيت بالمغيرة؟

- لأني أريد أن أتقمّص شخص المغيرة الذي قُتل غيلة... الذين قتلوه حسبوا أنهم انتهوا من شأنه يوم خنقوه، وصلبوه، وحزوا رأسه... لذلك كله، اخترت اسم المغيرة، كي أؤبّد ذكراه. لسوف أسرُّ لكما بسرٍّ، ذلك اليوم الذي تغيّبت فيه ذهبت إلى سجن المطبق كي أرى جعفر المصحفي...

- أتمزح؟ قاطعه بلقين..

- لا أبداً..

- لو ينتهي الأمر إلى ابن عامر، لسوف يقتص منك، أضاف بلقين.

- سينتهي الأمر إلى ابن عامر بالتأكيد، ولا أرى ما سيفعل ضدّ شخص حكمَ عليه حرّاسه بالعته.

- وكيف كانت زيارتك للمطبق؟ سأل إيغموراسن.

- سألني حارسان أسئلة معتادة، ولم أكن أتوقع شيئاً غير ذلك، وتحدثت لهما بلسان الحقيقة، بطريقة مواربة... لم يفهما عني، وسخرا مني حين قلت لهما إن جعفراً قتلني، وحين سألني واحد منهما إن أنا حي... المغيرة الشخص مات، ولكن المغيرة الفكرة لم يمت... أحملها، وقد يحملها آخرون... وقد تسكن أشياء، كما زخارف ومنمنات وأشعاراً وحكايات...

- ولماذا تريد أن تتلبّس شخصية المغيرة؟

- بحثاً عن الحقيقة... الحقيقة هي الشمس التي تنير، وما لم نبحث عنها سنبقى نخبط في الظلام. وسنعشو... أليس من الأفضل أن يتحرك المرء في فضاء جَليّ، على أن يخبط في الظلام، من غير هدى؟

- ألا تُعرض نفسك للخطر؟ سأل بلقين.

- بلى، لكن هو ثمن الحقيقة.

- ألا تخشانا؟ أعني أن نفضحك، سأل إيغموراسن.

- لن تقدرا. ستعرّضان نفسيكما للخطر، ثم أنتما كذلك بطريقة لا شعورية تبحثان عن الحقيقة... يسكنكما البحث عنها. لم أكن لأجهر بحقيقتي لو لم أطّلع على حقيقتكما... لن تفضحاني.

- صحيح، لن نفعل، وبخاصة أنك لست عجلاً... قال إيغموراسن وهو يضحك...

عقّب المغيرة أو زيري على الأصح:

- التقيت في حياتي بأناس متميّزين، من مختلف الأعراق والملل والنحل، عرباً من القيسيين والعدنانيين، والبلديين، ومن الصقالبة، ومن البشكنس ومن القوط، ومن المسلمين، ومن اليهود، ومن المسيحيين. والذي يؤلف بين الناس هو قِيَم مشتركة. هو توقهم للعدل

والكرامة... وهو دعوة الأديان كلها، ولكنها حين تحسب واحدة منها أنها وحدها تحمل تلك القِيَم فإن ذلك يضعف من دعوتها. لا ينبغي للأديان أن تكون بحيرات مغلقة، ولكن بحاراً متداخلة، يربط بعضها بعضاً.

- تتكلم كاللاأدريين، عقّب إيغموراسن.

- ليس مبنى الفلسفة إلّا الوقوف على ضعفنا، أو جهلنا، من خلال الشك، وسعينا تدارك ما نجهل... ولعلّ هذه النظرة ما قد يؤلف ما بين هذا الجمع المتنافر من الأعراق والمعتقدات. العقل هو اللحام في مجتمعات متعددة، كما الأندلس.

- للأسف، أنك لم تعد تشرب، عقب إيغموراسن، كان يمكن أن نطرب جميعاً.

- تودة اسم المرأة التي حدثتكما عنها، تسكنني، وأريد أن أبرّ بذكراها... لما حملَته من جراح، وعذاب، وحرمان، وقِيَم... هو ذا المهم، ليس أن أشرب أو ألا أشرب. الإقلاع عن الشرب، هو رمز فقط..

تجرّأ بلقين وقال:

- دعني أسالك سؤالاً.

- تفضل.

- هل يمكن أن تبقى على هذه الوتيرة بين ظاهر تبديه، وباطن تخفيه؟ ألا يمكن لهذا التناقض أن يظهر، ويكشف حقيقتك وقد يُعرّضك من ثمة للخطر؟

- لكل أجل كتاب... وأتفق معك أن التمايز ما بين ظاهر تبديه وباطن نخفيه متعِب، ولكنه مرحلي...

نهض زيري متوجّهاً لكليهما:

- أهذا ما تريدان أن تعرفا؟ ينبغي أن ألتحق بزوجتي، وهي

مسيحية، وينبغي أن أخبركما أن أم ابني، وقد قضت في الوضع، يهودية. . . تدركان لمَ لا أستطيع أن أختزل نفسي في جانب، لأن كل هذه الجوانب تسكنني. . . لا يمكن أن أكون بربرياً صرفاً، ولا مسلماً صرفاً. . . الذي أتوق إليه هو أن أكون إنساناً، تعيش فيه كل أبعاد الإنسان، وأن يجد كل إنسان فيما أحمله ذاته. أستأذنكما، ولو تفضّلتما، تنوبان عني في إخبار النسوة أني سأتغيّب غداً.

8

غادر المغيرة عند الغد إلى الزهراء مع الصباح، ورأى أشغال حَفْر الأنفاق على قدم وساق، إلى أن انتهى إلى سجن المطبق. بدا أن الحراسة مشدّدة، أكثر ممّا بدت عليه أول الأمر. استوقفه حارس غير الذي استوقفه المرة الأولى، بغلظة:

- توقف.

لم يُبدِ المغيرة حراكاً. أتى الحارس إليه:

- ما بُغيتك؟

- بُغيتي، بُغيتي، لدي عدة بغيات، بُغيتي اليوم أن أزور جعفراً المصحفي.

ردَّ الحارس:

- انتظر.

تحول الحارس نحو شخص آخر، كان يبدو أنه رئيسه.

قصد المغيرة. سأله:

- أأنت من أتى الأسبوع المنصرم؟

- بلى واللّه، ردَّ المغيرة.

- صاحب الوصلات بفرن البربر؟

- صدقت.

- التعليمات التي لدينا أنه يمكن أن تزور جعفراً، لنصف ساعة، مرفوقاً بحارس..

وأخذ المغيرة ينط فرحاً، ويصفق بكلتا يديه، ويردد:

- أبشرْ يا مغيرة، لسوف تلتقي بجعفر.. أبشرْ...

نظر إليه الحارس في استغراب، ثم التحق به شخص ليس عليه لباس الجندية، وأمره أن يتبعه. تقدم الشخص والمغيرة على إثره.. نزلا دهليزاً يفضي إليه درج من تراب، غير مرصوف، إلى أن غشيا باباً من حديد ينتهي إلى نفقٍ مظلِم. كانت كُوّات من السقف تبعث نوراً خافتاً. كان الجو بالنفق رطباً ومظلماً، وتنبعث منه رائحة كريهة...

أرسل المرافق، متأفّفاً:

- سجين مات، تحللت جثته. لا يمكن أن نثبت لهذه الرائحة...

وعادا أدراجهما، إلى أن خرجا إلى النور... أمر المرافق بصفة حازمة بتنظيف المكان. نفر رجلان، يضعان على وجهيهما دثاراً، يقيهما الرائحة الكريهة، ونزلا سراديب السجن.. خرجا بعد حين يجران جثة متحللة...

أمرهما المرافق:

- اسحباها بعيداً، بعيداً عن الزهراء...

سأله واحد منهما:

- أندفنها سيدي؟

- لا، ليس لدينا الوقت.. ألقيا بالجيفة في مكان بعيد، في الوهدة، ناحية جبل العروس...

ونفر الرجلان يجرّان الجثة..

ثم عاد المرافق ومن ورائه المغيرة. كانت الرائحة الكريهة قد خفّت ولكنها لم تندثر... كانت الكوة تنير القبو بالكاد، إلى أن بلغا غرفة، بها شبّاك من حديد... تراءى منها جسد مستلقٍ على الأرض،

متدثّر بثوب خلِق، وتنبعث من الغرفة رائحة الغائط، مما يفيد أن الرجل يقضي حوائجه في المكان ذاته.

- هو ذا صاحبك، ألقى الرجل المرافق، ثم توارى إلى الخلف، حتى يبتعد من الرائحة الكريهة، مع أن يتاح له متابعة الحديث.

أرسل المغيرة بصوت رخيم:

- جعفر، عمت مساء، مولاي، طاب نهارك..

وتناهى صوت جعفر، كمن ينسلخ من النوم.

- عفوك، عفوكم، عفواً مولاي ابن عامر.

- لست ابن عامر. هل لك في أكل يا جعفر؟

- واللّه لم أذق طعاماً منذ أمس سوى كسيرة خبز..

- اقترب..

وانزاح جعفر على بطنه يعتمد على ذراعَيه في جهد، حتى اقترب من السياج الحديدي.. ألقى له المغيرة قطعة خبز محشوّة بقطعة من الدجاج، كان دسّها في ثوبه. لمّا ألقى بها وقعت على الأرض. التقطها جعفر، مسح عنها التراب، ثم انهال عليها كوحش ضارٍ، حتى أتى عليها. ثم تحول إلى قدح ماء، وولغ منه كما يلغ الكلب.

أعجله المغيرة بتلاوة بيتَين من الشعر:

صفراء تبرقُ في الزُّجاج فإن سرَتْ
في الجسم دبّت مثل صَلٍّ لادغ
خفيت على شُرّابها فكأنما
يجدون ريّاً في إنساء فارغِ

ما أن أنهاهما المغيرة حتى أخذ جعفر في البكاء.

سأله المغيرة:

- و ما يبكيك يا قوي زمانه؟

- ذكّراني البيتان الزمن الذي ولّى.

- ألست صاحبهما؟
- بلى.
- فما يبكيك؟
- تذكّراني سابق السؤدد، تذكراني غرور الإنسان.

ثم أخذ جعفر في الإنشاد:

فللّهِ أيّامٌ مضَت لسبيلها
فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا
وما هذه الأيام إلّا سحائبٌ
على كل أرض تُمطِرُ الخيرَ والشرا

ردَّ المغيرة:

- ألا تذكرك الأبيات من أذنبت في حقهم؟
- بلى، ولكن ليس عن اختيار... أغواني السلطان. كنت أحسبني مدبّراً لحكم بني أمية، ولم أكن آبه لمن قد يعترض بنيان الدولة.
- ألم تكن تفكر في ذاتك وأهلك قبل أن تفكر في بني أمية؟
- ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.
- وهل بلغت المرام الذي تزعم؟ لقد نُزع بنو أمية من كل شيء...
- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.
- حسناً. ألست مسؤولاً عن تردّي بني أمية؟
- لا تحرّك المواجع يا بني.
- ألم تكن الحاكم الفعلي إبّان الحَكم؟
- بلى...
- ألم تتخلّص من كل من اشتممت منه الريادة والنباهة كي يخلص لك الأمر؟

- تلك ضريبة السلطان. .

- الأعمال بخواتيمها يا جعفر. أنظرْ أين أنت وأين بنو أمية؟

- أذنبت في حقّ البعض. من أجل سؤدد الدولة. من أجل رفعة بني أمية.

- ما قولك في المغيرة؟

وارتاع جعفر، وأخذ يتلعثم، ثم يردد:

- المغيرة، المغيرة. . .

وأعجله المغيرة:

- أنا المغيرة.

إثرها أخذَ جعفر يصرخ. اعترته نوبة هلع كما لو هو الصرع:

- خذوه عني، لا أريد أن أراه. اسحبوه. . .

ثم أخذ يضرب براحتيه الأرض، حتى هدّه التعب، ثم تهاوى وأخذ في النشيج. استمرَّ المغيرة في الحديث:

- لمَ لمْ ترع حرمتي يا جعفر أمام زوجتي وأهلي؟ لمَ وأنا أستعطف جندك وأتشفع بك وأنت مُصرّ على قتلي، رغم أني قدمت البيعة لهشام. لم أكن أنازع أحداً، وكل ما كنت أبتغيه هو أن أُبقيَ وديعة اللّه في خلقه، ألا وهي الحياة. أتدري يا جعفر ما معنى أن يُقتل الإنسان خنقاً بالوسادة؟ أتدري الألم الذي يحيق بالإنسان، وهو يتخبّط، بحثاً عن نسمة هواء، والعذاب الذي يعتري ذاك الألم؟. . لم تسأل نفسك قط هذا السؤال. قبل أن آتي مررت بقصرك الفخم. أتدري ما سينتقل للأجيال، من كل ما قمت به، ومن زعمك خدمة الدولة؟ لن ينتقل إلى الأجيال القادمة سوى مقتلي، ولسوف أتربّص بقصرك أخبر عن صنيعك عبر الأجيال والعصور. ولم تكتفِ بقتلي. أمرت بصلبي في فناء بيتي، أمام زوجتي وبني. وأمرت بقطع رأسي،

وقدمته صولجان الحكم للخليفة هشام... لمَ هذا التمادي في الشرّ يا جعفر؟

اعتلى صراخ جعفر يعبّر عن هلعه...

ردَّ عليه المغيرة:

- جعفر، لسوف أزورك كل يوم. ولست في حاجة أن أحضر من لحم ودم. لسوف أنغص عليك محبسك. بل حتى لمّا تموت... لن أمهلك...

ظلَّ جعفر يبكي وينشج...

وتقدم الحارس نحو المغيرة، وسحبه من جبته:

- انتهى وقت الزيارة...

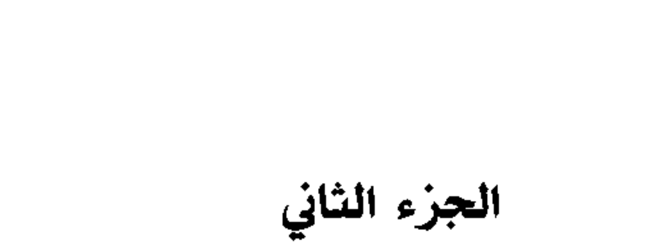
انسحب المغيرة، ومشى على أثَر المرافق، إلى أن خرج من سراديب السجن. استنشق الهواء النقي.. أشار برأسه للحارسَين امتناناً، ثم يمم قرطبة... بلغها مع المغيب. صلّى المغرب بالجامع الكبير.. ثم قصد بيته بربض البرج. استقبلته الرميكية. ضمّته إليها.. فاجأها:

- غداً باكراً نرحل إلى أستجة.. احملي ما خف... لا تعبئي بالحوائج، ولا بصائر الكراء.. لقد أدّيت لشهور ثلاث مسبقة...

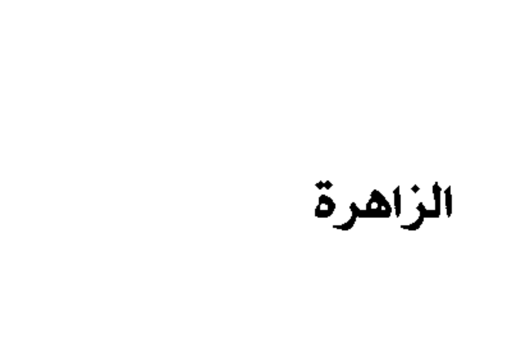
- ألا تستقر بمكان يا عزيزي؟

- وددت ذلك... علينا أن نغادر.





الجزء الثاني



الزاهرة

1

كان ابن صمادح من الأعلام المبرزين في حضرة قرطبة. وقد انتقل في فترة وجيزة من الغُمرة إلى الشهرة بفضل قصيدة مدح بها الحاجب ابن عامر، بعد النصر المؤزر الذي حقّقه على مملكة ليون بعد التحالف الذي أجراه ملكها راميرو الثالث مع ملكَي قشتالة ونافار.

وعلى إثر هذا النصر اتخذ ابن عامر سمة المُلك، وتسمّى بالحاجب، وتلقّب بالمنصور، وفرضَ تقبيل اليد، وأمر بالدعاء له في المنابر. وقد هبَّ العلماء والفقهاء، من كل حدب وصوب، مادحين لمن رفع راية الإسلام، وذبّ عن حماه.

كانت القصيدة التي مدح ابن صمادح بها ابن عامر ما فتح له أبواب الزاهرة، إذ غشي ديوان الندماء، وما لبثَ ابن عامر أن جعله من خاصته، وقد رأى منه، فضلاً عن واسع معرفته، إدراكه للقضايا السياسة، وآراءه الثاقبة، فجعله وزيراً.

وكانت الزاهرة قد ضمّت الجِلّة من رجالات الدولة. وكانت الطبقة الأولى من الوزراء تسكن بحي دار النعمان، ومنهم ابن حزم وابن جوهر وابن حدير، وعيسى بن سعيد من الذؤابة (الأرستقراطية) العربية الكبرى. أما من هم دونهم من برز نجمهم مع ابن عامر، وكان

منهم ابن صمادح، فكانوا يسكنون حي الرياض بطريق السكّة. وكان ابن عامر قد أغدق عليه ببيت بالزاهرة.

وقد شاعَ عن الحاجب المنصور ابن عامر، منذ استفرد بالحُكم، تقريبه للأدباء وعطفه على الشعراء، وإغداقه العطاء.

كان الرسم بالزاهرة يقضي بأن يحل رجالات الدولة والفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء، يحتشدون عند الصباح بجناح منية العامرية كي يُسلموا على الحاجب ابن عامر حين يخرج للديوان، ضحى، إذ الشائع عنه أنه يصل الليل بالنهار، وينظر في شؤون الدولة الليل كله، ولا يهجع إلّا بعد صلاة الفجر.

عرفت الحاشية لابن صمادح سعة معرفته، وحصافة رأيه، وزَكَانَة طبعه. نما أنه من الجزيرة الخضراء، وقال البعض إنه من سبتة من المغرب الأقصى. ولعلّ ذلك ما يفسر معرفته للسان البربر، وعوائدهم وشؤونهم. كان نسيجَ وحده في معرفة اللغة وأسرارها، لا يبزه إلا الفتى فاتن. وقد ارتبط منذ التحق في خدمة المنصور بعلاقة مودة مع هذا الفتى الصقلبي، الذي عرف أسرار العربية، وبزَّ فيها الأقران والأشباه. وكان الفتى فاتن يُدلّ بأخلاق عالية وأدب جمّ. ويعزو البعض أدبه إلى مثليته، إذ كان لا يأتي النساء، وعُرف عنه أنه ينقاد. كان البعض من الحاشية يتحاشى فاتناً لذاك السبب، ولم يكن ابن صمادح يرى أن من شأن ميول فاتن الجنسية أن تؤثر في صداقته به.

أغاظ البعض انتقال ابن صمادح من كاتب إلى وزير، ولكن مكانته من ابن عامر دفعت عنه الضربات المكشوفة، ولم تعد الغيرة إلّا مستترة. وارتفع نجمه منذ أهمّت أمور المغرب ابن عامر، وكان ابن صمادح على علم بشؤون المغرب الأقصى ودراية به. كان الشيعة يحرّكون أتباعهم في بلاد المغرب، ويريدون أن ينقضوا حكم بني أمية ويستخلصوا منها المغرب الأقصى خاصة، وقد فشت فيه دعوة الشيعة

مع الأدارسة. لم يعد الخطر يأتي إلى الأندلس من المماليك المسيحية في الشمال فحسب، ولكن من الجنوب كذلك، من لدن الشيعة. وكان العزيز باللّه الفاطمي، حاكم مصر، وقد وضع حدّاً لخطر القرامطة بالشام، حوّل اهتمامه إلى المغرب، وأمرَ عامله على أفريقيا بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي أن يسير بقواته غرباً، إلى أن بلغ المغرب الأقصى، واستولى على فاس، وهزم أمراءها من الزناتيين، وهُم موالون لبني أمية، فبعث هؤلاء إلى الحاجب المنصور ابن عامر يستصرخونه. فعهد ابن عامر إلى جعفر بن حمدون من المغرب الأوسط أن يوقف زحف الفاطميين. واضطر المنصور أن ينادي على جعفر بن حمدون إلى الأندلس كي يشد عضده ضدّ القائد غالب. إثرها خلا الجوّ لدعوة الشيعة.

واستفحل الأمر حين بعث العزيز باللّه من الفسطاط، وقد تسمّت بالقاهرة، الشريفَ الحسن بن گنون زعيم الأدارسة وكان منفياً بها، إلى فاس. رأى العزيز باللّه أن الظرف سانح كي يبعث الحسن بن گنون من أجل أن يسترد ملكه بالمغرب الأقصى، ومن ثم يناكف دولة بني أمية، انطلاقاً من المغرب الأقصى على خاصرة الأندلس.

كان الحاجب المنصور يرى أن المغرب الأقصى امتداد للأندلس. ولو يتاح للفاطميين أن يضعوا اليد على المغرب الأقصى، فإن ذلك يشكّل خطراً على الأندلس كلها. كانت المسألة بالنسبة إلى ابن عامر مسألة حيوية، وكان حلول الحسن بن گنون بفاس مصدر إزعاج يقضّ مضجعه...

كان المنصور بادي الانشغال حين سلّمت عليه الحاشية وهو خارج من قصره بمُنية العامرية بالزاهرة.. تقدّم عبد الملك ابنه البكر وهو غلام في الحادية عشرة من عمره، للسلام عليه، وتقبيل يده، ثم تلاه الوزراء والقواد والأدباء. التفت المنصور فهرع إليه وصيف وهمس

إليه بشيء دون أن ينظر إليه، كما لو أنه يحدّث نفسه. أتمَّ مسيره إثرها نحو جناح محاذٍ لقصره يتخذه مكاناً للعمل. ما لبثَ الوصيف يعدو نحو الحاشية، وهو يردد بصوت عالٍ:

- عسكلاجة، فليتقدم إلى سيدي..

وتقدم فتى بلباس عسكري، بخوذة وساعد وساق، من دون سلاح، وهو يعدو إلى جناح عمل الحاجب ابن عامر. كان الفتى عسكلاجة ابن عم ابن عامر... كانت له معرفة بفنون الحرب وكان إلى هذا موضع ثقة من ابن عامر...

ظلت الحاشية قابعة حيث هي تنتظر أن ينتهي ابن عامر من اجتماعه. ثم ما لبث أن انفرط عقدها، وانتظمت في حلقات صغيرة، الوزراء فيما بينهم، والقوّاد العسكريون مع بعضهم البعض، والأدباء والشعراء فيما بينهم. كان عبد الملك واقفاً مع رجالات الدولة، وقد تحلق حوله بعض القادة العسكريين والوزراء، وهم يقهقهون.. كان عبد الملك يتلو عليهم النوادر والنكات، فيما كان ابن صمادح يخوض مع الشاعر فاتن في الحديث. أعجله فاتن بالسؤال:

- ما رأي ابن صمادح في ما يعتمل بالمغرب؟

رسم ابن صمادح لحظة زمنية كمن يتملّى، ثم نطق:

- الخطب جلل يا فاتن. لو يتمكن الفاطميون من المغرب الأقصى، فسيكونون على مرمى حجر من الأندلس. الخطورة ليست الحسن بن گنون، وإنما الفاطميون.

- وهل لهم أتباع بالمغرب؟

- أهل المغرب لهم محبّة لآل البيت، ولكنهم لا يدركون الدوافع السياسية التي تحرّك ذوي الأطماع، فهم ينساقون بسهولة لقضايا قد لا تكون قضاياهم بالضرورة.

في تلك الأثناء حلَّ وصيف، ونادى بصوت جهوري:

- سَمي سيدي، ليتقدم إلى جناب سيدي.

كان لقب سَمي، أي مثيل وعديل، هو ما يطلق على عبد الملك الابن البكر لابن عامر.. هبَّ الغلام مسرعاً إلى جناح الحاجب ابن عامر.

نظرت الحاشية بعضها إلى بعض، كما لتستجلي أبعاد المناداة على غلام...

وما لبث وصيف أن صاح:

- ابن صمادح فليتقدم لحضرة سيدي..

وتقدم ابن صمادح نحو الوصيف، وهو يغذّ السير وراءه، فيما تسلطت عليه الأنظار... مشى على أثَر الوصيف، إلى أن بلغ جناحاً صغيراً، يُسمّى بالدويرية، فاستوقفه الوصيف، ينتظر أمر غلام الرسم. انتظر برهة إلى أن خرج وصيف آخر، وأومأ برأسه. إثرها صاح الوصيف الذي شيّعه:

- ابن صمادح فليتقدم لحضرة سيدي..

ودخل ابن صمادح، وطأطأ الرأس للحاجب المنصور. كان الحاجب جالساً على سرير ملوكي، وعن يمينه ابنه عبد المالك في كرسي وحيد، مخصّص له، وعن شماله عسكلاجة، مع كراسي فارغة... تقدم ابن صمادح وقبّل يد الحاجب، ثم تراجع للوراء.

كان ابن عامر يبدو شخصاً آخر غير الشخص الذي بدا شارد البال حينما خرج من مُنيته. كان في الدويرية حاضر البال، متوقّد الذهن. بادر ابن صمادحَ:

- تفضّل يا ابن صمادح، اجلس قرب عسكلاجة...

جلس دون أن ينبس. إثرها نطق ابن عامر في أدبٍ ورقّة:

- لا نستغني عنك يا ابن صمادح، ونتعبك، إنما فيما نراه صالحاً لراية الإسلام. وقد شاءت العناية الربانية، أن تكلأنا بهذه المهمة

الجسيمة، كي ندفع عن قطرنا خطر الرافضة، ونحفظ لأهل السُّنة والجماعة أمرهم. وقد نادينا عليك لكي تُطلع عسكلاجة على وضع البربر، لأننا أمرنا في أن يسير إلى المغرب الأقصى، على رأس قوة عسكرية حتى يقضي على حركة الحسن بن گنون المدعوم من قِبل الفاطميين. وستدعمها فرقة يترأسها ابننا البار عبد الملك. سنعلن ذلك قريباً في المساجد، إنما ينبغي قبل ذلك أن تُطلع عسكلاجة على الوضع في المغرب الأقصى.

- سمعاً وطاعة يا مولاي... ردَّ ابن صمادح.

استرسل ابن عامر:

- أنت تعرف يا ابن صمادح أن القوة العسكرية جزء من السياسة، كما أن السياسة جزء من القوة العسكرية... ينبغي أن نزاوج بينهما.

- الرأي رأي مولاي، ومنه نستقي ثاقب النظر.

- حبَّذا يا ابن صمادح لو تُعرّف كذلك ابننا البار عبد الملك بشؤون المغرب والبربر..

- هذه مكرمة من مكارم مولاي يخصني بها..

- سنولّيه فرقة تدعم عسكلاجة.

ثم توجّه ابن عامر نحو عسكلاجة متحدّثاً إليه في هدوء:

- استعمل قواك الحربية كلها..

تجرّأ عسكلاجة بالسؤال:

- وماذا إن طلب ابن گنون الأمان؟

- أمّنه. ينبغي حقن دماء المسلمين.

وأومأ عسكلاجة برأسه:

- سمعاً وطاعة..

هزّ الحاجب رأسه، وهرع الوصيف الواقف على الباب نحو ابن عامر:

- نعم سيدي..

- نادِ على الوزير أحمد ابن حزم..

وما هي إلّا هنيهة حتى حضر الوزير ابن حزم. انحنى لابن عامر، ثم قبّل يده، وتراجع للوراء ينتظر تعليمات الحاجب. نطق ابن عامر في هدوء:

- وزيرنا الأرضى ابن حزم، ينبغي أن تهيّئ مرسوماً يذاع في مساجد الحضرة لخطب الجمعة وكل حواضر الأندلس عن دعوة الدّعي ابن گنون، وينبغي أن تُشنّعوا فيه على الرافضة... أنت أعرف بما ينبغي أن يقال. استشر الفقيه أبا بكر الزبيدي، واستمع إليه إنما لا تأخذ برأيه...

ردّ الوزير أحمد ابن حزم، وهو من الوزراء الذين لهم حظوة لدى ابن عامر:

- سمعاً وطاعة يا مولاي...

ورفع المنصور رأسه نحو الوزير، فأقبل عليه وقبّل يده وانسحب. كانت الإشارة دلالة على أن المقابلة انتهت..

ثم توجّه المنصور نحو ابنه عبد الملك:

- ستلازم ابن صمادح، وتسمع كل ما يُطلعك عليه بشأن البربر والفاطميين.

وردّ عبد الملك في خشية:

- نعم سيدي..

أردف المنصور متوجّهاً لعسكلاجة:

- بادر من الآن في تهييئ البعوث والسرايا وجمع السلاح. سنعطي الأوامر لكي يفسح لك من بيت المال لكل ما تحتاجه. سأكلّم صاحب العَرض. نمدك بالوسائل ونقتضى منك النتيجة.. والنتيجة هي

النصر ولا شيء سوى النصر. هي محق دعوة الفاطميين. لا نريد موطئ قدم للفاطميين في خاصرة الأندلس.

- سيكون ما يريده مولاي...

تنحنح ابن صمادح، ثم قال في صوت خفيت:

- لو يأذن لي مولاي، والسداد من سيدنا، أن أشير بشيء لعلّه أن يفيد، وهو استمالة القائد زيري بن عطية، وهو من قوّاد المغرب الأقصى وله الكلمة الطولى في قبائل مغراوة، وهي في عداوة مع بني يفرن، وبنو يفرن يدعمون الفاطميين، ولا يسوغ أن يحل جند مولاي، والرأي رأي سيدنا، بلا سند من أهل البلد.

لم يعقب المنصور، وبدا وكأنه استحسن الفكرة. كان لا يود أن يظهر بالمدين لأي أحد.

ورفع المنصور رأسه، فحضر الوصيف الواقف بالباب. كان الحاجب يريد أن يغيّر موضوع المقابلة كيما يفكر فيما بدر من ابن صمادح. سأل الحاجبُ الوصيف في صوت هادئ:

- من حضر من ديوان الندماء؟

- نعم سيدي، حضر زياد اللّه بن مضر، وابن العري والتياني، والفتى فاتن.

- أضيفوا الوزراء إلى مجلس النزهة... اصرفوا القادة العسكريين كي يجتمعوا مع عسكلاجة.

ثم كمن تذكر شيئاً:

- نادِ على أبي دراج الصقلي، فهو شاعرنا. ستحضر معنا يا ابن صمادح مجلس الأنس بعد إذ تفرغ مع عسكلاجة.

كانت تلك إشارة من ابن عامر أنه استحبَّ رأي ابن صمادح. ردّ هذا الأخير:

- هذا فضل من مولاي.

استدار ابن عامر نحو الوصيف يسأله:

- أين وضعتم السرادق؟

- على شط الوادي الكبير كما أمر سيدي..

- حسناً.. أريد من ديوان الندماء أن يحدثونني عن قصص العرب ونوادرهم وأمثالهم... لا بدَّ أن نرعى لسان العرب بحاضرة الأندلس.. من سيتحفنا بـ **النوادر** التي جمعها أبو علي القالي؟

- التياني يا مولاي.

- أضف إليه ابن صمادح.

وأحنى ابن صمادح رأسه عرفاناً. سأل ابن عامر ابن صمادح:

- أحضرتَ دروس أبي علي القالي في الجامع؟

ردَّ ابن صمادح في أدب:

- لا يا مولاي، إنما أدركت من عرفه.

- فلتتحفنا بحديثه. لا نستغني عنك في شؤون السياسة ولا في شؤون الأدب يا ابن صمادح. بورك فيك.

2

خرج المنصور في موكب مهيب يترأس حركة الجند المتوجّهين إلى قطالونيا لمحاربة المماليك المسيحية... فصلَ الموكب من فحص السرادق من ربض قرطبة صوب إلبيرة (غرناطة) في حشدٍ كبير، كما جرى بذلك الرسم، في حُلَل بهية، وترتيب عجيب، ونظام رائع، وسلاح وافر، وسط الطبول والمزامير. كانت إلبيرة المرحلة الأولى حيث استجمَّ الركب، ثم يمّم بسطة، وهي المرحلة الثانية، فلُورقة وكانت المرحلة الثالثة، وتدمير المرحلة الرابعة، وكان بها حاكم الأقاليم الشرقية أبو مروان عبد الملك بن شُهيد الذي خصَّ الركب باستقبال عزّ نظيره، وسار مع الركب نحو مُرسية.

نزل الموكب مع كل الجند بمُرسية في ضيافة أحمد بن عبد الرحمن وولده أبي الأصبغ موسى، وكانا يبتغيان من خلال ذلك التقرب من الحاجب المنصور ونيل حظوته.

لم تكن مرحلة مُرسية للاستجمام فحسب، ولكن لحشد القوى، واستنباط الرأي، من خلال استعراض مكامن قوى الجيش، واستجلاء كافة المعطيات عن العدو والوقوف على ثغراته... وكان ابن عامر قد بثَّ العيون، واستحضر من الثغور القوّاد إلى مرسية، لمن يمده بمعلومة أو يشير عليه برأي. كان أسلوب المنصور المزج بين الجدّ واللهو..

فلقد كانت ساعات اللهو لا تخلو من جد، وكانت ساعات الجد تمتزج بالهزل. . وكان مساعدو المنصور يعرفون منه ذلك، ولذلك كانوا على حذرٍ ساعة الهزل، وكانوا لا يقنطون ساعة الجد من بارقة لهو.

حلَّ المنصور بمُرسية، وهي من القواعد المتقدمة في اتجاه الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة. أمضى زهاء عشرين يوماً بها، حتى حسبت الحاشية والجيش أن المنصور قد تراجع عن غزوته. لم يسفر عن نيته أيّان سيرحل عنها. لم يكن يخبر أحداً بتاريخ المغادرة إلى أن يفاجئ المقربين بها سويعات قبل أن يفصل الموكب، ولذلك كان عليهم أن يكونوا دوماً على الأُهبة تحسُّباً لكل الاحتمالات.

كان الجوّ بمرسية رائقاً وقد بدت بوادر الصيف. اختار أحمد بن عبد الرحمن مكاناً وسط الجنان محلة للموكب. كانت الساعة ساعة الغروب، وقد شرع الخدم في إيقاد المصابيح. اختلى الحاجب المنصور ببعض القوّاد العسكريين، فيما خلا الوزراء والأدباء والعلماء في خباء، وهم حلقات، منهم من يتجاذب أطراف الحديث، ومنهم من يلعب الشطرنج، ومنهم من يُحدث في الأدب ويتطارح الشعر. . وكان البعض منهم قد انزوى عن الجمع وأخذ يعاقر الخمر. .

بعد ساعة عنَّ الحاجب وهو يرتدي جبّة خفيفة، وكان قد تحلل من لباسه العسكري ومن ورائه بعض القوّاد العسكريين، وغير بعيد عنه المضيف أحمد بن عبد الرحمن. وقفت الحاشية جميعها لمّا ظهر الحاجب المنصور ابن عامر. أشار إليهم بيديه مردّداً:

- اجلسوا. . . اجلسوا. . .

ابتدرهم المنصور ممازحاً:

- هل أحسن أحمد بن عبد الرحمن وفادتكم؟

وعقّب أحمد بن عبد الرحمن:

- ما أنا إلا خادم مولاي، وهم ضيوف مولاي المنصور دام علاه.

فردّوا جميعهم:

- لم يُقصّر في شيء يا مولاي..

وابتدر الكاتب عيسى بن سعيد بالقول:

- أطعمنا كالبهائم، وحرمنا كالرهبان. وما أكلٌ وشُربٌ من دون غواني؟

كان عيسى بن سعيد ذا حظوة لدى المنصور ومن المقرّبين إليه، ممن يحضرون مجلس أنسه. كان سليط اللسان، لا يتورع من الوشاية ولا يستنكف من السعاية، ولذلك كانت الحاشية تخشاه وترضّاه وتسعى أن تأمن شره.

علت الهمهمات مشفوعة بابتسامات، والجمع ينتظرُ رد المنصور. نطق وابتسامة تجلل ثغره:

- خلتكم نفرتم للجهاد في سبيل اللّه.

ردَّ عيسى بن سعيد:

- هذا لا يتعارض وذاك... نجاهد في الكفّار وفي الغواني على السواء.

عقب المنصور بحسن بديهته:

- إن تنتصروا تأتوا بالسبايا... أحسن أحمد بن عبد الرحمن صنعاً أن حرمكم الغواني حتى يستثير حميتكم..

وتقدم المنصور حتى وقف على الجمع المنزوي. وقفوا لمّا حضر، وقبّلوا يده كمن يستجدي صفحاً ما:

- بدأتم الخمرة قبل صلاة العشاء. سأنادي على الفقيه الزبيدي لينظر في أمركم...

أرسل ابتسامة. واتجه نحو وصيف:

- أين الفقيه الزبيدي؟
فردَّ الوصيف:
- في جناح الفقهاء، يا مولاي. مع الجمهرة الثانية.
- نادِ عليه.
ونفرَ الوصيف يعدو طلباً للفقيه الزبيدي..
واستمرَّ المنصور في الحديث:
- سنرى معه الحكم الواجب فيمن يشرب الخمر أثناء الجهاد في سبيل اللّه، وسنرى أين سيقام عليكم الحدّ هنا أم بالحضرة...

كان ظاهرياً يمزح، لأنه هو نفسه يشرب الخمر وإن كان يتورع من شربها أمام الملأ، ولا يشربها إلا في مجالس الأُنس، ليلاً بعد صلاة العشاء، مع خاصته ومنهم عبد الملك بن شهيد، والكاتب عيسى بن سعيد وابن طفيس. قبّلوا يده من جديد، ثم نادى على وصفان كي يجمعوا زِقّ الخمر والأقداح.

حضر الفقيه الزبيدي وهو يلهث. قبّل يد المنصور، ثم بقي منحنياً، إلى أن أذن له ابن عامر بالاستواء. ثم أشار ابن عامر برأسه على وصيف، وقد فهم إشارته، فأتى للمنصور بمقعد وثير من ريش النعام. جلس عليه، والحاشية وقوف. وضع رجلاً على أخرى، والفقيه الزبيدي أمامه ينتظر ردّ المنصور. استرسل المنصور:

- نادينا عليك يا أبا بكر وأنت أعلم الناس بالفِقه، وبمذهب الإمام مالك، أن تُنير بصيرتنا فيما نقوم به من حركة ضدّ الممالك المسيحية في الشمال.

وجدها الفقيه الزبيدي فرصة كي يُطري على المنصور:
- واللّه إنها لمكرمة ما بعدها مكرمة، يا مولاي، ويوم أغر لا يجود الزمن بمثله، رفع فيه جنابكم المنيف به راية الجهاد في الثغور، فطوبى لمن اختصّه اللّه بهذا الأمر العظيم.

- بورك فيك يا أبا بكر، ولا بدَّ أن تعيننا على هذا الأمر..

- لا أنفكُّ من الدعاء لمولاي المنصور دام سناه، ولجنوده الغطاريف بالنصر المؤزر.

- هذا ظننا فيك.

- اللّه سبحانه وتعالى الرقيب على طويتي.

- ونعرف غيرتك على جيوش المسلمين.

- أفي اللّه شك؟

- ونحتاجك في هذا الأمر العظيم.

- فليأمر مولاي بما يشاء.

- واللّه، يا أبا بكر اقتضى نظرنا أن نوليك قيادة الميمنة من جندنا، وتتقدمها ساعة النزال.

واصفرَّ الفقيه الزبيدي، ثم تنحنح قائلاً:

- مولاي، لا علم لي بفنون الحرب..

- ببركاتك ودعائك تحارب الأعداء..

أخذ الفقيه الزبيدي يتلعثم:

- الدعاء وحده لا يكفي يا مولاي.

- كيف؟ ألا يمكن للدعاء أن يزيح خطر الأعداء؟

- لا بدَّ من التمرس بفنون الحرب...

- لا نستغني عن بركاتك أيها الفقيه. وأردنا أن تنال حظك ممّا خصّه به الباري النافرين للجهاد... وقد أمرنا أن يُهيَّأ لك اللباس العسكري، من خوذة ودراق وطرس، وما ينبغي للقائد من سلاح، من سنان وسهام ومنجنيق..

- مولاي...

- ماذا يا فقيهاً؟ أليس هذا اليوم يوماً أغر؟

- إنما...

- ماذا؟

- لا أقوى على القتال...

- لا أحد يقوى على القتال يا أبا بكر...

- لو يُعفني مولاي...

- من الجهاد في سبيل اللّه؟ أنت يا فقيهاً من يقول بذلك!

كانت الحاشية تتابع الحوار ما بين المنصور والفقيه الزبيدي، وكانت تعرف شغف المنصور بالمزاح...

- كُلٌّ لما خُلق له يا مولاي. خلقت للكلام وغيري للفِعال. ردَّ الفقيه الزبيدي.

- كما تشاء، إن أردت أن تحرم نفسك من الجهاد في سبيل اللّه، إنما أقتضي منك أمراً...

- فليأمر مولاي، عدا القتال.

- أن تبيح الخمر لجندنا المحاربين في الثغور...

- الخمر؟

- أو تتقدم كتيبة للجهاد؟

- سأفعل ما يراه سيدي، ممّا أستطيعه، ومنه السداد.

- الخمر تقوي في الجند الحمية على القتال وتذكي فيهم الشجاعة...

- في سبيل اللّه. لسوف أفعل يا مولاي. ما يجب به الواجب فهو واجب، كما في القاعدة الفقهية للمذهب المالكي.

- بورك فيك يا فقيهاً. أصليت العشاء؟

- ليس بعد.

- اذهب فصلِّها، بعيداً عن رهط الزنادقة هؤلاء. سيخرجونك عن ملّتك. وغداً اجتمعْ مع الفقهاء، كي تصدروا فتوى تحلّل الخمر لجندنا المحاربين.

- حاضر يا مولاي..

وأكبَّ الفقيه الزبيدي يقبّل يد المنصور، ثم تراجع إلى الخلف. وانصرف. حينها استدار المنصور نحو الجمع ممن كانوا يشربون:

- لقد أذن لكم الزبيدي بالخمر... يمكنكم أن تشربوا ولو أنكم لستم مجاهدين.

تقدّموا إليه مُقبّلين يده. وعلت الهمهمة مشفوعة بالقهقهة... وانبرى الكاتب عيسى بن سعيد يمدح ذكاء المنصور وهو يتلو البيت الشهير:

إقدامُ عمرو في سَماحةِ حاتم

في حلم أحنفَ في ذكاء إياس

بدا وكأن المنصور لم يعر اهتماماً لما نطق به الكاتب. كان يظهر عدم الاعتناء بالتقريظ مع كلفه به. تنحنح المنصور ووجمت الحاشية. اتخذ وجهه معالم جادة لا يخالطها هزل:

- في الحقيقة، لا أسعى في الغزوة على قاطلونيا إلّا تأمين خاصرة الجنوب.. يحسب المسيحيون أني وقد بعثت بالجند إلى المغرب الأقصى، قد أفرغت الجبهة الشمالية ويتحيّنون الفرصة كي ينقضّوا علينا. إذا لم أعجلهم أعجلوني... لست كسابقي ممن اختاروا الدفاع... أحسن الدفاع هو الهجوم، وخير الهجوم ما يبث الرعب في العدو. قاطلونيا لا تشكل خطراً ولكن منذ اندمجت بأراغون، أصبحت أراغون هي مصدر الخطر ويمكن أن تتحالف مع ليون وقشتالة. لست أضرب قاطلونيا، ولكني أضرب التحالف الممكن من خلال ضربي لقاطلونيا. ليس بنيّتي أن أبقى ببرشلونة. ولكني عازم على بثّ الرعب في ساكنتها وفي الممالیك المسيحية كلها.. هي رسالة لقشتالة وليون وأراغون.

وصاحَ الكاتب عيسى بن سعيد:

- للّه درّك يا فتى الأندلس. بارك اللّه في عمر سيدي.

ورددت الجموع من الحاشية:

- بارك اللّه في عمر سيدنا...

كان ذلك أسلوب المنصور أن يشاركهم تصوّراته كي يشعر عناصر حاشيته بأنهم جزء ممّا يقوم به.

إثرها تحوّل المنصور يسألُ عن المضيف:

- أين هو ابن عبد الرحمن؟

وصاح هذا الأخير:

- ها أنذا يا مولاي.

- لم تسقِ حاشيتي. اسقها من خمورك المعتقة. حلوقها جفت..

- حاضر يا مولاي..

وهرع ابن عبد الرحمن كي يأتي بالسِّقاء. نطق المنصور فجأة:

- ما لي لا أرى ابن صمادح؟

واهتزَّ ابن صمادح:

- حاضر يا مولاي.

- لم نسمع صوتك، ولا وقفنا لك على أثر منذ أن فصلنا من الزاهرة..

- أنهل من حكمة مولاي وسديد نظره وثاقب رأيه.

- وأين أبو مروان بن شُهيد؟

وهبّ أبو مروان عبد الملك بن شُهيد، وكان شيخاً يجرُّ رجلَيه في تثاقل:

- ها أنذا يا مولاي.

- أنت لست ببعيد عن الأقاليم الشرقية، حيث حكمك؟

- وهل هناك مكانة أسمى من أن يكون العبد قرب مولاه؟

- لا نستغني عنك في بلنسية وتدمير.

- لو تفضّل مولاي كما تفضّل عليّ بأن أكون من خاصته، أن يعفيني من الأقاليم الشرقية.

- سنرى يا أبا مروان.

- ويشملني بفضله كما فعل أمس.

وانبرى عبد الملك بن شهيد يتلو أبياتاً من نظمه:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
فبنفسي أقيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم في الفيء
لمن لم يحث فيه المطايا

وردَّ المنصور على البديهية من قريضه:

قد بَعثْنا بها كشمس النهار
في ثلاث من المَها أبكار
فاتّئدْ واجتهدْ فإنك شيخ
قد جلا ليله بياض نهار
صانك اللّه من كَلالك فيها
فمن العار كلّة المسمار

وانبرى الجمع مطرياً المنصور على حسن بديهته وجميل قريضه:

- للّه درّك يا مولاي.

- لا فُضَّ فوك.

إثرها انبرى عيسى بن سعيد قائلاً:

- دمعة من عوراء غنيمة باردة. مَن لأبي مروان بالمسمار الذي يدق؟

ورد عبد الملك بن شُهيد:

- ثكلتك أمك، يا عيسى. وهل تريد أن أشهر عليك سيفي البتّار أمام الملأ؟

- أو حبلك الذاوي؟

حينها تلا عبد الملك بن شهيد البيتَين:

قد فضضنا ختام ذاك السوار

واصطنعنا من النجيع الجاري

وقضى الشيخ ما قضى بحسام

ذي مضاء عضب الظبا بتّارِ

إثرها نطق المنصور:

- إن كذبتنا يا أبا مروان، استوثقنا من الجارية.

فصاح ابن سعيد:

- واللّه أنصفك.

- ومن ينصفني من غير مولاي.

ابتسم ابن عامر، ثم تحول إلى عيسى بن سعيد:

- ما أخبار مولانا أمير المؤمنين؟

علقت قهقهة تفيد الاستهزاء. شجّع ذلك عيسى بن سعيد فبادر بالقول:

- هو مهموم في شأن بغلة، وهذا من فرط اهتمامه بشؤون البلاد والعباد، ذلك أن أهل الخدمة وضعوا على فرج بغلة له أخراساً، حتى لا تواطئها الدواب، فسأل الخادم، فعرّفه بالعلة، فقال مولانا، سدد اللّه خطاه، فاجعل على دُبُرها أخراساً فقد يكون من سواس الدواب لاطة. فقال الخادم، إن البغلة إن خيط فرجها قدرت أن تبول منه، أما إذا خيط حجرها فلن يخرج رفثها. قال أمير المؤمنين: صدقت.. سأكلم الحاجب في الأمر.

وخرَّ الحاجب ضاحكاً، ثم عقب:

- لم يكلمني بعدُ في هذا الأمر الجلل.

وانبرى عبد الملك بن مروان محدّثاً حتى لا يبزه غريمه عيسى بن سعيد:

- كانت لمولانا الإمام أمير المؤمنين جارية لم ترَ العين أحسن منها، فأراد أن يفتضها، فلما فعل وجدها ثيّباً. فسألها أمرها، فقالت إنها كانت نائمة تحت شجر بستان، فبينما هي كذلك إذ نزل عليها مَلَك، فجامعها وافتضها فلمّا استيقظت وجدت أنه طار للسماء. وكتمت الجارية الأمر، حتى أتاها من أمر مولانا، قوّم به اللّه العباد، ما أتاها، فلم يسعها إلا أن تبلغه بأمر السماء. فسجد الخليفة شكراً أن أتت الملائكة إلى بستانه وافتضت إحدى جارياته، وجعل لها مكاناً يتعبّد فيه.

- عليك بها، صاح عيسى بن سعيد، عسى أن تشملها بركاتك.. فينهض منك ما خار، ويستقيم ما هوى.

- بحمده ومنه، يقوم إجلالاً حيثما رأى حسناً. ليس مثل صاحبك، لا يميز بين جميل وقبيح.

إثرها نطق ابن عامر، وقسمات وجهه جادة:

- هذا من فضل ربي على الأندلس، ذلك أن السلطان لا يصلح إلّا باثنين، إما سلطان قاهر ذو رأي، عارف بما يأتي ويذر، ولو استبد بالأمر، وإما سلطان تُدبّر الدنيا باسمه. أما المتوسط فهو شرّ على نفسه وعلى الرعية، يُهلك ويَهلك.

وصاح عبد الملك:

- وقانا اللّه شر المتوسط..

نهض المنصور، وسار إلى حيث سرادقه. بعدئذ جاء وصيف وتلا أسماء مجلس الأُنس، ممن يقصف معهم المنصور ويشرب. ولم يكن ابن صمادح من ذلك المجلس. وهي مجالس قصف وغناء مع الجواري والقيان.

3

أحرز المنصور في غزوة قطالونيا نصراً كاسحاً. دمّر مدينة برشلونة تدميراً حتى تركها قاعاً صفصافاً، ولم يسلم منها أهلها، فقتَلهم تقتيلاً، وأسرَ أكابرها وأخذهم معه إلى قرطبة، وشدد في حراستهم، ثم أتَتِ الأخبار أن عسكلاجة هزم الحسن بن كنون بالمغرب الأقصى، وقضى من ثمة بذلك على دعوة الأدارسة. كانت الانتصارات تأتي تباعاً على المنصور.

في تلك الأثناء ألمّت نازلة أقعدت ابن صمادح وألزمته الفراش. أخبر أهل الرسم، كي يرفعوا إلى جناب الحاجب المنصور ما حلَّ به من وهَن. لزم بيته، تطبّبه زوجته، وكانت نصرانية، فشا عنها ترددها على الكنيسة وتعبّدها.

فوجئ ابن صمادح وهو بالفراش بوصيف يطرق بابه. فتحت له زوجته، وأفسحت له إلى صحن البيت. قام له ابن صمادح وهو يرتدي قميصاً يُسمّى عند أهل الأندلس بالتشامير. كان الوصيف يحمل طعاماً فاخراً وحلوى، من مطبخ الحاجب، ويخبره أن طبيبه الخاص سيحلّ عنده كي يفحصه. التمسَ ابن صمادح من الوصيف أن يُقبّل يد الحاجب، ويُبلّغه امتنانه وولاءه..

وما هي إلّا هنيهة حتى حضر الطبيب ابن خلفون وفحص ابن

صمادح، وسأله أسئلة عمّا أكل، وما قد يكون شرب. أمره الطبيب بحِمية، مع تناول بعض الأدوية المستقاة من الأعشاب.

في الغد حضر وصيف يبلغ ابن صمادح الالتحاق فوراً بمنية العامرية، عند المنصور... ولم يكن من ابن صمادح إلّا أن ارتدى لباسه على عجل، ثم ركب زاملة أتى بها الوصيف، وذهبا سوياً لمنية العامرية بالزاهرة...

دخل ابن صمادح قاعة صغيرة، تُستعمل كقاعة انتظار للحاشية قبل أن يخرج المنصور. لم يجد بها أحداً، وظنَّ أن الحاشية عن قريب ستلتحق. ودام انتظاره، ولم يحضر أحد. وجاوزت الساعة الظهر، ولم يحضر أحد أو يكلّمه وصيف، حتى جاوزت الساعة العصر، ونهض ابن صمادح، نحو وصيف يوجد بالباحة كي يسأله:

- هل مولاي المنصور بمنية العامرية؟

فردَّ الوصيف:

- لا أدري.

سأل ابن صمادح:

- لمَ لم تحضر الحاشية؟

فكان جواب الوصيف دوماً «لا أدري..»، ثم تجرّأ ابن صمادح بالسؤال:

- هل سيحضر مولانا المنصور الديوانية؟

كان الجواب دوماً «لا أدري»، وأيقن ابن صمادح حينها أن الوصيف تمّت برمجته على الجواب ذاته، ولا يحسن به أن يضيّع وقته معه... تساءل أأخطأ الاستماع إذ حضر؟ ولكن وصيفاً اصطحبه إلى منية العامرية. لماذا يُنادَى عليه، ولا يتم استقباله؟ هل طرأ طارئ شغل المنصور؟ لا يمكن أن يكون إلا أمراً جللاً... فهل ينتظر ابن صمادح أم يغادر؟ كانت الشمس على أطراف المغيب، ونهض ابن صمادح،

وقد أنهكه الانتظار والجوع، ثم غادر المكان، وخرج من دورية منية العامرية، ومشى في حديقتها، حتى البِركة المفضية لدور الوزراء بدار ابن نعمان.. وصادف الكاتبَ عيسى بن سعيد. بادره عيسى بن سعيد بحدّة:

- أين كنت يا ابن صمادح، مولانا المنصور لم يترك مكاناً لم يسأل فيه عنك؟

- كنت بمنية العامرية يا ابن سعيد.

- أوَما علمت أن الرسم يقضي بترتيب اللقاء بالقبة؟

- مولانا المنصور لا يلتزم بمكان لأي نشاط، ثم إنه أوتي بي إلى منية العامرية...

- وكيف لا تحضر رسم تعيين الحسن بن أحمد بن عبد الودود وزيراً على المغرب الأقصى؟

- كيف؟ مولانا عَيّن وزيراً على المغرب الأقصى؟

- أي واللّه، وكان يجدر بك أن تحضر، وأنت من عهد له مولانا بشؤون المغرب الأقصى..

- اصطحبني وصيف يا ابن سعيد إلى مُنية العامرية، وعرف مكاني، وكان من السهل المناداة عليّ لو أريد لي أن أحضر...

- هذا خطأ لا يليق بك يا ابن صمادح. وما ظنّ مولانا بك؟ أنك تتكبّر؟

- كيف أتكبّر؟..

- وما على الرسول إلّا البلاغ.. لا بدَّ أن تستميح عفوه، لا بدَّ أن تُقبّل الأرض أمامه...

عاد ابن صمادح إلى بيته شارد الذهن.. رأت منه زوجته ذلك، فراعها الأمر. طلب طعاماً. نال منه. ثم لزم غرفته. لا يمكن للوصيف

أن يخطئ. هو من أجلسه بدويرية بمنية العامرية. لماذا يتم تعيين وزير لشؤون المغرب الأقصى، ولا يحضر الرسم؟ وكيف يلتقي فجأة بابن سعيد كي يخبره بكل ذلك؟ لا يمكن أن تكون المصادفة هي التي وضعت ابن سعيد هناك. لا بدَّ أنه كان يرصده، ولا بدَّ أن الوصيف بالباحة بلّغ بمغادرة ابن صمادح، كيما يخبر وصيفاً آخر يخبر ابن سعيد. كان هذا هو الاحتمال الوحيد الذي برقَ في ذهن ابن صمادح لمعرفته بشؤون بيت المنصور. وهل يمكن أن يقع ما وقع من دون إذن المنصور؟ وهل يجرؤ أحد أن يقوم بذلك من دون أمر منه؟ وما الذي دفع بالمنصور أن يأمر بكل ذلك؟ أوشاية؟ أسعاية؟ أم مؤامرة؟ ولمَ بعث له بالطعام والطبيب؟ ظلَّ ابن صمادح مضطرب البال، ولم يعرف أيقصد عند الغد الرسم، أم يختلي في بيته، والجميع يعرف أنه متعَب يحتاج إلى الراحة... وقرَّ قراره أن يحضر. هناك شيء ما يعتمل ولم يتبيّن ابن صمادح مراميه.

تردد ابن صمادح غير ما مرة على منية العامرة حيث تجتمع الحاشية، يحضر بقاعة الاستقبال، وينادي الوصيف على أسماء الحاضرين، من دون ابن صمادح، ثم يهبّون للسلام على الحاجب المنصور. لم يعد أحد من الحاشية يكلّم ابن صمادح، أو يتبسّط معه في الحديث... كان ظاهراً أن المنصور ناقم منه. وما تراه الشيء الذي ينقمه منه؟ حدّث عيسى بن سعيد وسأله ما الذي جعل الحاجب ينأى عنه، واستمع ابن سعيد دون أن ينبس بكلمة، كما لو يخشى أن يُحسب شيء عليه. فكر ابن صمادح في أن يكلّم الوزير ابن حزم، وهو رجل راجح العقل، ثاقب الذهن، فردَّ ابن حزم في رفق:

- لا علم لي إلّا ما علمني، يا ابن صمادح. كل يوم هو في شأن.

انفتح على الفتى فاتن، وكان طيب المعشر، رقيق الحاشية، فلم يحر جواباً:

- هكذا هي الأمور في الحاشية، يغضب صاحب الأمر لغير سبب، ويرضى لغير علة. قد تكون هناك وشايات وأراجيف...

لمّا رأى ابن صمادح من ازورار الحاشية عنه، قرّر أن يلزم بيته. لم يحضر الرسم ليومَين، وعند اليوم الثالث حضر وصيف إلى بيته،

يبلغه ضرورة الالتحاق بدار الملك في أمر يطلبه فيه المنصور. سأل ابن صمادح عن المكان، دفعاً لكل لبس، وردّد الوصيف بدار الملك.. وسار معه إلى أن بلغ المكان. وما أن بلغه، حتى أُذِن له بالدخول. كان المنصور مكبّاً على قراءة بعض الصحائف المختومة ممّا يرده من العمّال وأصحاب الشرطة. قبّل ابن صمادح يد المنصور وهو مستغرق في قراءة الصحائف، غير آبهٍ به.. تراجعَ ابن صمادح وبقي واقفاً، إلى أن أنهى المنصور قراءة الصحائف... رفع رأسه مستغرباً:

- ابن صمادح، أأنت هنا؟

وردَّ ابن صمادح:

- مولاي طلب فيّ.

- أمرنا بحضورك يا ابن صمادح، لأن زيري بن عطية سيحل بحضرتنا. قبائل بنو يفرن انحاشت إلى الفاطميين، وينبغي أن نؤلّب أعداءهم من مغراوة ضدّهم. وقد أعطينا أوامرنا كي يتم استقبال زيري بن عطية كما يليق به مع وفده، وأمرنا كي ترافقه وتقوم بالترجمة في لقائنا به.

- سمعاً وطاعة يا مولاي...

كان المنصور يعيد ما كان نصح به ابن صمادح، وكان على ابن صمادح أن يتصرف كما لو أنه يعلم ذلك من المنصور. ثم وقف المنصور. تمشّى لخطوتين ثم استدار نحو ابن صمادح:

- لم نسألك عن صحّتك.

- بخير، بفضل مولانا ورعايته..

- أخبرنا الطبيب بذلك، وكان ممّا قال إن ليس هناك ما يستدعي القلق.

- وهل يَقلق من هو في رعاية مولاي؟

- أعانك اللّه يا ابن صمادح وأصلح بالك.

وأقبلَ ابن صمادح فقبّل يد المنصور، ثم تراجع كي لا يدير ظهره للحاجب، حتى إذا بلغ الباب، فوجئ بالمنصور يكلّمه:

- كان لزاماً قتل الحسن بن گنون. نعم كنت وعدته الأمان ونقضته، لأن ليس هناك من خيار.

توقف ابن صمادح، كما ليستوعب ما قاله له المنصور.

- نسيت أن أخبرك يا ابن صمادح. مات عسكلاجة... كان قد أعطى الأمان لابن گنون ورفض أن يخفر العهد. لم يكن لي من خيار يا ابن صمادح. أمرت بقتل عسكلاجة. كان من قوّادنا المبرزين. لكن لا هوادة حينما تنتهك قواعد الانضباط..

تقدّم ابن صمادح أدراجه الهوينى وقبّل يد المنصور ظاهرها وراحتها. كان المنصور ناقماً منه لأنه أنس منه النفور بعد إذ نقض الأمان، ولم يكن من شخص حضر اللقاء حين وعد به المنصور، سوى ابن صمادح وعسكلاجة، وقرأ المنصور من مرض ابن صمادح تمرُّده عليه.

غادر ابن صمادح قصر الحاجب ثم قصد بيته وحُمّى تسري في جسده. علمَ المنصور من نفسه ما كان يخفي. كان ابن صمادح يأسى في قرارة نفسه للتقتيل الذي يقترفه المنصور والتدمير الذي يقوم به، ولمنظر الأسرى يساقون في الأغلال، وكان أوغر صدره حقاً ما حقّ بالحسن بن گنون، لأن المنصور أمّنه ونكثَ العهد. لم يكتفِ المنصور بأن أمر بقتل ابن گنون، بل طلبَ في رأسه. قرأ المنصور ما كان يجول بخاطره إذاً. لم يكن نبذه إياه اعتباطياً بل مقصوداً، كي يوقع في روعه أنه أدرك ما يجيش في صدره، واعتبر ابن صمادح نداء المنصور له تحذيراً. أدرك حقاً أن المنصور داهية، وعليه أن يبقى على حذر.

5

كان المنصور يخوض معركة واحدة على واجهتَين، وكانت كل واجهة هي لتعزيز الجبهة الأخرى. كان يخوض حرباً بالمغرب الأقصى ضدّ الفاطميين وغايته تأمين الأندلس. كان يتصدى للممالك المسيحية في الشمال، كي يصرف عنه تحرُّش الفاطميين. كانت الغاية هي الحفاظ على الإسلام بالأندلس في صيغة مذهب السنّة والجماعة.

لم يستطع المنصور أن يحقق ما كان يصبو إليه عبد الرحمن الناصر ولا الحَكم من أندلس تتعايش فيها الأعراق والملل والنحل. كانت هناك أيديولوجية تحملُ المنصور، أكثر ممّا كان هو صاحبها تقوم على صفاء العقيدة، لذلك جاهرَ أهل العقل بالعداوة، وناصبَ غير المسلمين بالعداء، ووسّع دائرة الناقمين عليه، ولم يكن من مستند يستند عليه سوى البطش والحيلة.

كانت سياسة عبد الرحمن والحَكم تقوم على أمرَين، التربُّص لكل خطر يبدر من الممالك المسيحية، والتصدّي للخطر الشيعي جنوباً، ولكنهما استنكفا من فتح جبهتَين في الوقت ذاته، وحاربا طراداً. اعتبرا خطر الفاطميين أشد من خطر المسيحيين، في حين كان ابن عامر يحارب على واجهتَين في الوقت ذاته. اختلف ابن عامر عن سابقيه في الغاية (الاستراتيجية) والخطة (التكتيك) والأسلوب كذلك. كان يحارب

شمالاً وعينه على الجنوب، ويحارب جنوباً دون أن يغفل الشمال، ولا يجنح للدفاع. اختار المواجهة واتخاذ المبادرة. وكان، وهو ما حقّق له عدة انتصارات، يُحسن توظيف تناقضات العدو. كان يعرف التناقضات القائمة ما بين بربر بني يفرن، الذين شايعوا الفاطميين، وبربر مغراوة، أعداءهم التقليديين ممن ظلّوا أوفياء لبني أمية. استمالَ مغراوة ضدّاً على بني يفرن. وكان يعرف كذلك التناقضات بداخل الممالك المسيحية. وأدركت هذه الممالك خطته فنبذت خلافاتها وسعت أن تتّحد ضدّه، وقامت بينه وبينها معارك سجال، عرف فيها المنصور طعم الهزيمة، ولكنه استطاع أن يعيد النظر في خططه، وينتصر.

استنَّ المنصور شيئاً جديداً في معاركه مع المسيحيين وهو إقامة حاميات بها، حين يهزمها، وكانت عبارة عن قلاع، وعيون، وقوة ردع، بيد أن تلك الحاميات بعقر بلاد المسيحيين استثارت مشاعرهم لأنهم رأوا في ذلك انتقاصاً من سيادتهم وألّبتهم ضدّه. انتفضت مملكة ليون بعد أن أمر بحامية بها، وقامت حرب ضروس معها، كاد أن يُقضى فيها على جيش المنصور، بيد أن استماتة المنصور دالت له من برمدو ملك ليون الذي اضطر للفرار، ودخل ابن عامر وجنوده مدينة سمورة وعاثوا فيها الفساد، إلى أن دانت له المدينة بالطاعة والولاء، عامتها وأشرافها.. كان سند المنصور القوة والحيلة. حتّام يمكن أن يعتمد عليهما لأنهما في عالم السياسة زئبقيتان، يمكنهما أن تتحولا إلى أعدائه. كانت القوة الحقيقية هي أن يقيم المنصور نموذجاً تتعايش فيه الملل والنحل. كان ملوك بنو أمية، أو على الأقل عبد الرحمن الناصر والحَكم المستنصر أقرب إلى ذلك وإلى واقع الأندلس من ابن عامر. غاض النسغ الذي كان يجري في قضيب دولة بني أمية مع الحَكم. قام عود صلب، ولكنه من دون نسغ.. كانت النتيجة التي انتهى إليها ابن صمادح أن الحكم الوراثي قد يحافظ على النسغ، ولكنه ما يلبث أن

يذوي، أما الحُكم الفردي، فقد يبين عن صلابة، ولكن من غير نسغ. . كان السؤال الذي ملك على ابن صمادح نفسه، أليس هناك من بديل لنموذجَين يُبينان عن عيوب بنيوية؟

غزوات المنصور كانت هروباً من هذه الحقيقة البنيوية. وكان الشعور الذي تولد لدى ابن صمادح هو أن تلك الانتصارات العسكرية عابرة، فهي كلمح البرق، تنهك العدو، ولكنها تنهك جيوش المنصور كذلك، وتثقل كاهل الرعية، ولا تحقق نتائج عملية، ولا تغيّر أمراً على أرض الواقع. كانت لربما ترضي غرور من يقوم بها، من دون نتيجة عملية. شعر ابن صمادح أن أسلوب المنصور لن يستمر على المدى الطويل، وهو ما يستلزم من ابن عامر التأهب في كل حين، وعدم التغاضي لأية هفوة، والتصرفات المزاجية. لم يكن المنصور أو ابن عامر شخصاً وإنما نموذجاً. نموذج يستمر، في أشخاص آخرين، وأماكن مختلفة، وأزمنة متباينة. وكان سبب التصرفات الرعناء لابن عامر، أو أي مستبد على شاكلة ابن عامر، ضغط نفسي قوي يرين على كل متسلّط. كان تعبيراً عن الضعف والخوف. كان اللجوء إلى القوة والبطش والعنف، احتماء من الخوف. من الهلع الذي يسكن كل متجبّر.

كان ابن صمادح يتستر عمّا انتهى إليه ولم يكن ليسفر عنه لأحد حتى للفتى فاتن وكان ممن يثق فيهم. صحب ابن صمادح ابن عامر في غزواته منذ التحق بخدمته، ووقف على جوانبه المشرقة والأخرى المظلمة. كان صاحب ذكاء خارق، ومعرفة بالطبيعة البشرية، حلو المعشر، واسع المعرفة، لأنه كان في الأصل أديباً، ولكنه ما يلبث أن يتحول إلى وحشٍ ضارٍ حينما يتهدد أمر ما سلطته. جوانبه المضيئة، وما أكثرها، كانت تخفي جوانب مظلمة لا تظهر إلّا لمن لازمه. وأتيح لابن صمادح أن يعرف شخصية ابن عامر، خلا ما تواتر من صفات

المجاهد في سبيل اللّه، الذي يريد أن يفرض شرع اللّه، مما كان يذاع في الجوامع، ويتناقله الفقهاء، ويدبّجه المؤرِّخون. كان الذي يهم ابن عامر هو السلطة، ولم يكن الإسلام إلا غطاء أيديولوجياً. كان لا يتورّع من الالتجاء بمن يستطيع أن يُبلغه مأربه، ثم يتخلّص منه، بأبشع وسيلة. أضحى، وقد دان له أكابر قرطبة، يأبى الاستماع إلى أي صوت غير صوته. ملكه الغرور واستبدَّ به العُجب.

وتحوّلَ ابن عامر أو المنصور. غاضَ منه الجانب الإنساني، ولم يعد يهتم إلّا بما يمكن أن يحفظ سلطانه ويرضي غروره. عدة تطورات، منها انتصاراته، ومنها ما كان يرى من خروج الجماهير تهتف باسمه، ومنها المدائح التي تتلى عليه، ومنها انكساراته كذلك، كلها محت منه الجانب الإنساني حتى أضحى وحشاً ينقضّ على من يقف أمامه، وآلة تشتغل من غير إحساس، وهي الصفات التي انتقلت إلى مساعديه، كي يصبحوا هم كذلك، على شاكلته، وحوشاً ضارية، أو آلات طيّعة. لم يعد هناك جانب إنساني في عملهم، ولم تعد العلاقة تنبني بين الحاكم والمحكوم إلا على الخوف والمصلحة، شأنها شأن كل نظام استبدادي أو طاغية كما كان يقال حينها. لم تكن العلاقة تنبني كما عند الإغريق أو كما عند الرومان، على عقد اجتماعي، يقوم على الثقة، أو كما في فلسفة الإسلام، التي تجعل من كل شخص راعياً، وهو لذلك مسؤول، أي محاسَب، حتى الحاكم وهو ظلّ اللّه، أي يحيط الرعية بعطفه، لا أن يحجبها، كما ذهب الكثيرون في تأويل الظل. كان نموذج ابن عامر هو عهد أردشير الفارسي، وليس نظام الإغريق ولا فلسفة الإسلام في الحكم.

التحول الذي طرأ على المنصور جعل البعض من الحكّام والولاة يتخوفون من هذا الانزلاق. أخذ حاكم سرقسطة عبد الرحمن بن

المطرِّف يتوجّس خيفة من أطماع المنصور. كان حكّام سرقطسة من التجيبيين يحظون بنوع من الاستقلال ويرتبطون بولاء معنوي مع سلطة قرطبة. كان ابن المطرف يوالي السلطة المركزية التي يمثّلها الخليفة ظاهرياً، ويزاولها ابن عامر فعلياً، ومذ فشا بطش ابن عامر واستبداده، أخذ ابن المطرف يأخذ حذره منه. فكّر أول الأمر في التحالُف مع المسيحيين ضدّ المنصور ولكنه لم يأمن ردود العامة وموقف الفقهاء. استمالَ عبدَ اللّه، الابن البكر للحاجب المنصور على أن يقتسما الأندلس بينهما. كان عبد اللّه أكبرُ أبناء المنصور، صاحب حزم وعزم وإقدام، وهي سجايا تخوّله للرياسة، ولكن أباه لم يكن يعهد له بشيء، وكان يؤْثر عليه أخاه عبد الملك الذي يصغره والذي لم تكن له الخصال ذاتها.. انتفض عبد اللّه وقصدَ حاكم سرقسطة، عبد الرحمن بن المطرف، وتوسّعت دائرة المؤامرة كي تضم كل المعارضين للمنصور، من القوّاد ورجال الدولة، وممن لم يكونوا يرضون بأن يُحجَر على الخليفة. وكان ممن انحاش إليهم حاكم طليطلة عبد اللّه بن عبد العزيز المرواني، الذي لم يقبل بسجن الخليفة. وعلمَ المنصور بالمؤامرة قبل أن تقع، ووظّف السياسة كي يُحبطها. بعثَ برسالة إلى المرواني حاكم طليطلة، يتلطّف فيها إليه، حررها ابن صمادح. كان ما وردَ فيها:

«الوزير الحبر، والعالم البحر
عبد اللّه بن عبد العزيز المرواني،
وزيرنا بطليطلة حرسها اللّه وأبقاها ذخراً للإسلام،
أمّنك اللّه ورعاك، أما بعد،
فإنك لتعلم مكانتك في الحضرة، مع علو كعبك،
وشامخ محتدك. وقد عفونا عنك، فيما سلف من زيغ.
ولكل جواد كبوة».

قرأها على المنصور، فأمره أن يضيف:

«فاستمر فيما أنت بصدده بحضرة طليطلة، كما عهدناك، إلى أن يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً».

ثم أضاف ابن صمادح الجملة المقرَّرة لما يقتضيه الرسم:

«المنصور باللّه وفقه اللّه

حُرّر بالمحروسة الزاهرة غُرّة محرم الحرام سنة 379».

ثم أوفد المنصور ابنَ صمادح رفقة الوزير ابن فطيس إلى سرقسطة، تخفرهما مقنبة. ولم تكن العلاقة بين ابن صمادح وابن فطيس على ما يرام. وكان ابن عامر لا يعهد لشخص بمهمة إلا وضع بجانبه شخصاً آخر، ممّن لا يرتبط معه بعلاقات جيّدة. كانت المهمة أن يلتقي ابن صمادح بعبد اللّه، ابن المنصور، ويتلطف إليه، ويستدرجه بالحيلة، وأن يفعل الشيء ذاته مع عبد الرحمن بن المطرف.

أحسن عبد الرحمن بن المطرف وفادة الوفد، وأنزل وزيرَي المنصور بقصر عبّاد بضاحية سرقسطة. واختلى ابن صمادح بعبد الرحمن بن المطرف بمحضر بابن طفيس، الذي كان لا يزيد على الحضور ولا ينطق بشيء، وذكّر ابن صمادح سوابق التجيبيين في الذب عن الثغور، ولواحق والده، وأفضال المنصور في الدفاع عن بيضة الإسلام، ولا يسوغ، والحالة هذه، نقض حبل المسلمين، وفل شوكتهم، أمام كلَب المسيحيين، والمنصور لن يستغني عنه، ويطلب مدده في دفع المسيحيين. ثم أشار ابن صمادح على عبد الرحمن بن المطرف بألّا يتأخر في الردّ على المنصور. استمع عبد الرحمن بأناة والتمس مهلة للتفكير.

ثم التقى ابن صمادح بعبد اللّه، بمعية ابن طفيس، وأثنى عليه، ثم واخذه في شقّ عصا الطاعة على والده ممّا لا يسوغ لابن بار. واشتكى

عبد اللّه من ازورار والده عنه، وعدم تخصيصه بالعطف وإحاطته بالرعاية والحُكم عليه بالخمول. كان ابن صمادح يستمع إلى عبد اللّه، وهو ينظر إلى ملامحه كما لو هي ملامح ابن عامر، عدا شقرته لأن أمه بشكنسية. كان صورة والده في الذكاء من غير دهاء... كان يُبين عن حسن الطوية، بله عن سذاجة. عقّب ابن صمادح، وهو يتوخّى الحيطة حتى لا ينقل عنه ابن فطيس قولاً مجانباً للحقيقة:

- إلحق بوالدك، لأنك لن تجد عنه عوضاً، وهو يخصك بالمودة... وهل كان ليوفد وزيره ابن فطيس، وهو من هو، والعبد الضعيف، لو كان يستهين بالآصرة التي تربطه بك؟

وثق عبد اللّه بما قاله له ابن صمادح، ورأى عبد الرحمن بن المطرف، ممّا قدمه له ابن صمادح من وعد، أن يجنح إلى ما دعاه إليه المنصور، خاصة وقد لان موقف عبد اللّه. وكان الجزء الثاني من تعليمات المنصور، إن انصاعا لدعوته، أن يلحقا بالمنصور بوادي الحجارة. كان ابن صمادح على يقين أنه لو لم يقبلا المثول بين يدي المنصور، لكان سيبعث لهما جنده، ويدكّوا سرقسطة دكّاً، وهو ما كان ابن صمادح يخشاه ويسعى أن يتجنّبه.

انتسجت علاقة صداقة ما بين ابن صمادح وابن المطرف. كان ابن المطرف رجل أدب، حسن الأحدوثة، فضلاً عن جوده وكرمه. دعا ابن صمادح وابن فطيس للقنص، ووقف ابن صمادح حينها على مناقب ابن المطرف، وبرّه بخدمه وحدبه على ساكنة سرقسطة.

شعر ابن صمادح بالسرور وقد نجح في المهمة التي أوكلها إليه المنصور، واعتزم الالتحاق بوادي الحجارة. أبدى عبد الرحمن بن المطرف بعض التردُّد، ولكن ابن صمادح طمأنه، وألحَّ عليه في الذهاب.

وادي الحجارة

1

أقامَ المنصور معسكره بوادي الحجارة، بعد أن قضى أياماً بمجريط، وكان وادي الحجارة قاعدته كي يكون مشرفاً على كل من الثغر الأعلى المحاذي لسرقسطة، من مملكة نافار، وعلى الثغر الأوسط، المشرف على مملكة ليون، وعلى الثغر الأدنى المجاور لقشتالة. كان وادي الحجارة هو سُرّة الأندلس، على مقربة من مدينة سالم، وهي حصن المقدمة، ومصدر المدد.

رجع ابن صمادح مبتهجاً من مهمته بسرقسطة إلى وادي الحجارة وقد صالح بين المتنازعين، وحقن الدماء. بعث الطلائع لمّا كان على مرحلتَين من وادي الحجارة، يخبر فيها المنصور بحلوله مع الضيفَين.

بلغ الموكب معسكر المنصور بوادي الحجارة ضُحى. كانت عدة أخبية تجلل المكان، يتوسّطها سرادق المنصور، به خباء ضخم، عليه قبّة من كتان، وسياج من ثوب. نزل الموكب عن مطاياه، وانفصلت المقنبة التي كانت تخفره عنه. ترجّل وزيرا المنصور مع عبد اللّه ولد المنصور وابن المطرف، ثم أُدخلوا خباء صغيراً تعرضوا فيه للتفتيش، حتى لا يكونوا حاملين لسلاح. ثم بعده وقف كل من عبد اللّه ابن الحاجب وعبد الرحمن بن المطرف، مع ابن فطيس، وابن صمادح، بساحة واسعة. بقيا صفّاً في الساحة المفضية للخباء الأكبر. ظلوا

واقفين ينتظرون تحت لفح الشمس ما سيصدره الحاجب المنصور من تعليمات. وأخذت عناصر الحاشية تحتشد من وزراء وقوّاد وعلماء وفقهاء. بعد ساعة، حضر وصيف نادى على ابن طفيس. انفصلَ عن الجمع ودخل الخباء الكبير كيما يُطلع الحاجب المنصور على المهمة. ثم عاد ليشير على ابن صمادح بالانزواء، وينقل أمر المنصور لكلّ من عبد اللّه وعبد الرحمن بالانحناء عند مظهر الحاجب المنصور، ثم التقدم إليه وتقبيل يده... كانت كلها علامات الخضوع والإذلال. كان الرسم يقضي بوجود الوزراء والقوّاد والفقهاء ليشهدوا تذلُّل كل من حاكم سرقسطة، وخضوع عبد اللّه ابن المنصور، الابن المتمرد.

التحقَ كل من ابن فطيس وابن صمادح بالحاشية في المكان المعلوم لكل واحد، مع الوزراء، يتقدّمهم ابن شهيد وأحمد بن حزم، مع جوهر بن حدير. كان الجمع يهنئونهما على حسن السلامة. بقوا جميعهم كذلك تحت لفح الشمس، إلى أن بلغت سمتها، حينها نادى وصيف بصوت جهوري:

- مولانا المنصور باللّه وفّقه اللّه..

وعلت أصوات أخرى، تردد ثلاث مرات:

- مولانا المنصور باللّه وفّقه اللّه.

وبزغ من باب الخباء، صاحب مزمار، عزف عزفاً يشي بأن الحاجب المنصور قد أذِن بالخروج. ثم أعقبه صاحب طبل. وما هي إلّا هنيهة حتى عنّ المنصور من عل صهوة حصان، عليه لباس مزركش بالديباج والأثواب المذهّبة والطراز. كان يلبس شارة الملك، يحيط به الوصفان والحشم والفتيان من الصقالبة، والقادة العسكريون من البربر. كان بعض الوصفان يمسكون بركاب الفرس ولجامها، حتى نقطة معلومة، حينها توقفوا بالفرس. كان يحيط بكل من عبد اللّه وعبد الرحمن بن المطرف وصيفان. وما أن توقف الموكب، حتى لكزا، كل

واحد من جهته، عبد اللّه وعبد الرحمن. انحنى هذان الأخيران، ثلاث مرات، كما جرى بذلك الرسم، ثم بعدها دفعاهما الوصيفان للجُثُوّ أرضاً. أبدى عبد اللّه بعض المقاومة، كما لو أنه يعترض لما اعتبره غلواً في الإذلال. ولم يسعه سوى أن جثا على الأرض وقد دفعه الوصيف، أسوة بعبد الرحمن بن المطرف.

وتردد صوت جهوري لوصيف، بلسان عربي مبين، لشخص لا يرتضخ لكنة:

- عفا عنكما سيدي، قال سيدي، وأصلح بالكما، قال سيدي.

تقدم عبد اللّه، ابن المنصور، وعبد الرحمن المطرف وقبّلا يد المنصور تباعاً. إثرها أمسك المنصور لجام حصانه، ووكزه بركابه، وانبرى في خَبَب نحو الجموع، والحاشية من ورائه تتبعه، وقد انضم إليهم عبد اللّه الذي كان يمشي في استخذاء، وعبد الرحمن المطرف وهو ذاهل عن كل شيء.

كان عبد اللّه يؤمل أن يستقبله والده على انفراد، ويبثّه مآخذه إن شاء، لا أن يهينه أمام الملأ. كان ابن صمادح قد قال له من أجل أن يستدرجه، إن أباه لن يستغني عنه، وما زاد أبوه إلّا أن انتزع منه الخضوع وأذاقه الذّلة، وأشهد الناس على ذلك. أما عبد الرحمن فقد استسلم، كما لو أن الأحداث تجاوزته. وخرج المنصور من المعسكر وقد احتشدت الجموع بجنباته. وما أن رأت المنصور حتى أخذت تهتف وتجأر بالدعاء. ارتفعت يد المنصور تحيي الجموع، وهو على فرسه يتقدم نحوها، والفتيان من الصقالبة وجند البربر يصدونهم.

كان ابن صمادح يرقب المشهد. هو نفسه لم يكن يتوقع أن يقتضي المنصور من المتمردين انصياعاً من دون مقابل... وفجأة فوجئ بجماعات، تحمل لباس سقرسطة، ترفع صوتها مندّدة بعبد الرحمن بن المطرف، من مسكَ عنها أرزاقها، وأساء التصرف فيها،

واشتطّ في الأمانة التي وضعها فيه الخليفة، وتشكوه إلى المنصور كي يأخذ لها حقّها. لم تكن طقوس الإهانة من رضوخ وجثو كافية بل كان يلزم نزع الشخص من كل كرامة وتجريده من كل مصداقية... كان ابن صمادح يدرك أن المتظلمين لم يكونوا يتحرّكون من تلقاء أنفسهم، وفهم أن ابن فطيس لم يصحبه كي يكون عيناً عليه فقط، بل استنفر في غفلة منه، بعض الناقمين بسرقسطة لكي يشكوا ابن المطرف للمنصور. كان هو الجزء الغائب عن التعليمات التي أصدرها الحاجب المنصور.

شعرَ ابن صمادح بقشعريرة في جسمه تحوّلت إلى حمّى... ذكّره الأمر بما جرى مع الحسن بن گنون، وكيف نقض ابن عامر الأمان. غضب حينها، وأفهمه المنصور أن ليس له أن يغضب، وإنما أن يأتمر وذكّره سابقة عسكلاجة. عاشَ ابن صمادح محنة الحسن بن گنون كشاهد، أما الآن فهو طرف، لأنه من أمّن حاكم سرقسطة عبد الرحمن ابن المطرف، ووعده بالعفو. لم يكتفِ المنصور بإهانة عبد الرحمن بن المطرف، أمام الملأ، بل مرّغ مصداقيته في التراب، بتأليب الطغام ضدّه، الذين كانوا يرددون ما قيل لهم أن يفعلوا... كاد عبد الرحمن ابن المطرف أن يهوى وهو يرى شرذمة من الطغام تنال منه وتُعرّض به. كان معروفاً عن عبد الرحمن بن المطرف كرمه، وشموخ نفسه، وتنزيهه عمّا رُمي به. تماسك. كان يدرك أن الأنظار منصبّة عليه. إلى أن أنهى المنصور جولته، ثم قفل بفرسه نحو السرادق. توقف وتمتم كلاماً. دخل الخباء، ثم توارى عن الأنظار. صاحَ وصيف إثرها يدعو الحاشية للغداء. وانتظمت الحاشية والضيوف في أخبية وقد مُد سماط الأكل. كان كل خباء يضمُّ طبقة من الضيوف حسب رتبهم ورسمهم.

كان ابن صمادح ضمن جمهرة العلية بالمائدة التي ضمّت الوزير أبا مروان بن شهيد، والوزير أحمد بن حزم، والكاتب عيسى بن سعيد، فضلاً عن عبد اللّه بن المنصور وعبد الرحمن المطرف.

كان أبو مروان بن شهيد شيخاً طاعناً في السنّ، ولم يفتأ يتحدث عن مغامراته الجنسية، وكيف أن المنصور بعث له بسبيّة وافتضّها وأسال دمها، حتى كاد ألا ينقطع، وهو يزهو بذلك. أما أحمد بن حزم، فقد التزم الصمت.

ظلّ عبد الرحمن بن المطرف صامتاً، ولذلك أعرض عن الطعام حين وضع. وُضعت خراف مشوية على الموائد. حاولَ ابن صمادح أن يخرج عبد اللّه بن المنصور عن صمته، وتحدث عن أشكال الأطعمة بالأندلس. كان يعرف أن عيسى بن سعيد سينقلُ كل شيء إلى الحاجب المنصور في مجلس الأنس، ولذلك ظلّ حديثه منصبّاً على الأكل، وعلى أمور تافهة. ثم وضع الكسكس. إلى أن أتى الوصفان بالجبائن، وهي خاتمة الأكل. فاجأ وصيف حينها ابن صمادح. همسَ له بشيء، فنهضَ من مكانه. وجد بباب الخباء ابن فطيس ينتظره. امتقع لون ابن صمادح حين التقى به:

- خير إن شاء اللّه؟ سأل ابن صمادح.

- ستخبر عبد الرحمن بن المطرف بعزله جرّاء شكاة الرعية منه، وتُبلغ بتعيين ابن عمه يحيى المعروف بسماحة خلفاً له، وسيبقى عبد الرحمن بن المطرف بوادي الحجارة إلى أن تخفره مقنبة إلى سرقسطة...

لم يثبت ابن صمادح، فانتهر ابن طفيس:

- وهل من المروءة أن أخبره بالعزل وقد كنت نقلت له تثبيته في منصبه؟

- هي تعليمات مولانا المنصور، وتعليمات مولانا المنصور لا تناقَش، وأنقلها إليك كي تنطق بها، على المائدة، أمام الملأ.

قال ابن فطيس ذلك ثم انصرف دون أن يترك خياراً آخر لابن صمادح.

لو أمر المنصور ابن صمادح مباشرة، لسعى أن يراجعه في الأمر، مستعطفاً إياه في لين ورفق، ولكن المنصور لم يعد يستمع إلى أحد، وأخذ يضع حيّزاً بينه وبين مساعديه، وينقل إليهم أوامره عبر وسائط. ابتلع ابن صمادح ريقه. عاد إلى الخباء. جلس مكانه كأن لا شيء طرأ. كان عبد الملك بن شهيد يحدّث عن جارية تولّه بها، وعيسى بن سعيد يهزأ منه ومن قدرته على الباءة، وابن حزم ينظر إليهما في استخفاف. التمس ابن صمادح قدح ماء من وصيف. ارتشف منه. كان يعرف أنه يغامر بحياته لو يمتنع من تبليغ ما أمِر أو حتى إن تلكأ. وقف. تنحنح. ثم نطق في صوت رتيب، وأنظار الحضور منصبّة عليه:

«معشر الوزراء والعلماء والفقهاء،

اقتضى نظر مولانا المنصور وفّقه اللّه، أن يعزل عبد الرحمن بن المطرف لما فشا عنه من سوء التدبير، وخيانة الأمانة، والاستخفاف بالرعية، وقد ولّى المنصور أعز اللّه أمره ابن عمه سماحة على ثغر سرقسطة، فضلاً منه ومنّا وعرفاناً، لما لأسرة التجيبيين من سابق الفضل، ومتواتر العمل، ولم يأخذهم بجريرة من ضيّعَ الأمانة.

وبهذا ورد أمر سيدنا، وليُبلغِ الحاضرُ الغائب، واللّه المستعان».

رفع عبد الرحمن بن المطرف نظره نحو ابن صمادح، في نظرة استغراب. أأنت يا ابن صمادح من يقول هذا الكلام؟ أأنت من فتحت له قلبي وأحسنت وفادته، واطمأن لي وطمأنني، ووعدني بطيّ الصفحة؟ أهذا ما وعدت به؟ أنت أعرف بالحقيقة، وأن ما يتلى تخرص وأراجيف.. حتى أنت؟ أنت، ابن صمادح، جزء من عملية الإعدام. الإعدام المعنوي.

أدار ابن صمادح رأسه كي لا تلتقي عيناه بعينَي عبد الرحمن بن المطرف. ثم عاد إلى مكانه بمائدة الطعام. وما هي إلّا هنيهة، حتى

دخل رهط من الجنود اقتادوا عبد الرحمن بن المطرف خارج الخباء. تبادلَ الجلوس النظر بينهم دون أن يبدر عنهم أي ردّ.

سأل عيسى بن سعيد أبا مروان بن شهيد كما لو أن اقتياد رجل من العلية، إلى وجهة غير معلومة ليس ممّا يؤبه به:

- قل لي يا أبا مروان، كيف تصنع مع الغيد وقد غدت العصا ثعباناً؟

فردَّ أبو مروان في غضب:

- عليك اللعنة يا عدو اللّه، لو كنت آتي الولدان، لطعنتك بسيفي البتّار.

2

استيقظ ابن صمادح من خبائه مع الفجر بعد نوم مضطرب. خرج من الخباء بعيداً عن المعسكر كي يتوضّأ. حملَ معه إناء ماء ثم أوغل بعيداً. كان المعسكر لا يزال سادراً في الظلام، ولا يتراءى من بعيد سوى ذبالات العَسَس، وبعض مواقد النار، ولا يُسمع إلّا نحنحة الخيل. لشهر والمنصور مرابط بوادي الحجارة. لم يكن أحد يعرف خطة المنصور، وما هو مقدم عليه، أيستمر في غزوات الصوائف، وأين؟ أإلى الثغر الأعلى بقطالونيا، أم الثغر الأوسط بجليقية، المجاور لمملكة ليون، أم الثغر الأدنى المحاذي لمملكة قشتالة؟...

كانت الأيام رتيبة بالمعسكر. كان المنصور لا يخرج من سُرادقه. يستقبل به القوّاد والخُلّص من رجاله، ويخلو ليلاً في مجالس أنسه. لم تكن هناك أنشطة، ولم يكن هناك مكان لتجتمع الحاشية كي تصرف الوقت. كان الجوّ مضطرباً، لأن أنباء سرت بأن عبد اللّه بن عبد العزيز المرواني، بعد أن سمع بما حاق بعبد الرحمن بن المطرف، هرب من طليطلة والتحق ببردومور ملك مملكة ليون.

لم يتسرّب شيء عمّا قد يكون حقّ بعبد الرحمن بن المطرف. المرجّح أنه سجين، وسيُخفر إلى سرقسطة، وسيترك وشأنه بعدها. كان ذلك ما يعتقده ابن صمادح، وما نضح من تعليمات المنصور، أو على

الأصحّ ما كان ابن صمادح يُمنّي به نفسه. كان غير راضٍ عن نفسه منذ نطق بقرار عزل عبد الرحمن بن المطرف أمام الملأ، وشهَّر به. لم يكن له من خيار، أو لم يُترك له الخيار. كان يألم لذلك النظر الحادّ الذي ألقاه عليه عبد الرحمن بن المطرف، بعد إذ سيق إلى مكان مجهول. وكان ابن صمادح يألم كذلك للطريقة التي عومل بها عبد اللّه، ولدَ المنصور. جُرّد من سلاحه، ومُنع الرّكوب، وفُصل عن غلمانه، وحُرم النزهة إلّا بداخل المعسكر، ومُنع أن يغادره. كان عَسَس يرقبون خبائه، ويراقبون من يختلي بهم، لذلك كان يكتفي بأن يدور وحيداً في ساحة المعسكر دون أن يحدّثه أحد. مرة صادف فيها ابن صمادح في ساحة المعسكر، قال له:

- يا ابن صمادح، لقد أتيت إلى هنا، بإيعاز منك، لأنك وعدتني بأن والدي لن يستغني عني، وها هو ذا لم يستقبلني، ولا أعرف مكانتي عنده ولا مآلي... ألا تستحي يا ابن صمادح ممّا فعلت؟ استدرجتني كي أظل منعزلاً ومنبوذاً.

كان ابن صمادح حين التقى بعبد اللّه مصادفة، يعرف أن الأنظار منصبّة عليه، وأن ذلك سيُبلّغ إلى المنصور، وكان يشعر كما لو أن عيون المنصور ترقبه، لذلك نطق بما لا يكون موضع ريبة:

- مولاي، إن هي إلّا مسألة وقت. مولاي المنصور، وفّقه اللّه، مشغول البال بما يحيكه المسيحيون، وعن قريب يستقبلك.

- ألم تقل لي إنه يتعيّن رصّ الصف حتى لا تُفَلَّ وحدة الإسلام؟ فهل من الوحدة أن أعزل، وهل من المروءة أن أنبذ بعد الضمانات التي أعطيت لي؟

- لمولاي المنصور عدة اهتمامات، وبمجرد أن ينهيها يستقبلك.

- قلتَ الشيء ذاته لعبد الرحمن بن المطرف. أين هو عبد الرحمن بن المطرف الآن؟

- لا مجال للمقارنة بينك وبين عبد الرحمن بن مطرف. ثم إن عبد الرحمن بن المطرف، في حماية مولاي..

- لا يليق بك أن تقول قولاً كهذا يا ابن صمادح.. أنت أسمى من الافتراء.

منذ التقى ابن صمادح بعبد اللّه بسرقسطة وعرفه، أحبه. أحب عمقه، وأعجب بنبله، المتأتّي من المعاناة، والتشوُّف للمعالي.

أَسَفَّ ابن صمادح حتى أضحى يردّد كلاماً لا يؤمن به. لأنه الخطاب الساري. كره ابن صمادح نفسه يومها. وكرهها قبلها حين نطق بقول لا يؤمن به، وتجنّى ظلماً على عبد الرحمن بن المطرف. بل كرهَ نفسه منذ التحق بخدمة المنصور، وكرهَ اليوم الذي مدحه والقصيدة التي قرّبته إليه. كان يعتبر قربه من السلطان حظوة، لأنه كان يريد أن يعرف دائرة السلطان ويأمل أن يؤثّر في الأحداث. كان يمتلكه الغرور أنه يستطيع أن يحافظ على مسافة مع الأحداث، والأشخاص، والظواهر، وأن يُبقي من ثمة على نزاهته وحريته. كان واهماً. كل التجارِب التي مرَّ منها، وما أكثرها، لا ترقى إلى تجربته كشخص من خاصة المنصور، كشخص في معمعان السلطان. شخص يتأثّر بالأحداث أكثر ممّا يؤثّر فيها.

منذ التقى ابن صمادح بعبد اللّه في ساحة المعسكر، لم يعد يخرج من الخباء إلا لماماً، لضرورة، خشية أن يلتقي به. ماذا عسى ابن صمادح أن يقول لعبد اللّه لو التقى به؟ يَكذِبه، ويكذب نفسه ويُعرّض نفسه لأزلام ابن عامر. كان ابن صمادح يكبُّ على القراءة من نُسخ لكُتُب حملها معه يقرؤها أو يخلو لنفسه متأمّلاً. كان يؤمن بأن العقل نور، وما يفيد العقل مع مستبد يحكم حكماً مطلقاً؟

توضّأ وهو مستغرق التفكير فيما آلت إليه حياته، وعاد أدراجه إلى

داخل المعسكر بخطى ثقيلة. حياته كلها أضحت رهن المنصور. حتى زوجته لم يعد يراها إلا لماماً، لأنه دائم الأسفار مع المنصور، في غزواته، وصوائفه، ومهماته.. شعرَ بالعجز وهو في أسلاك السلطان وكان يحسب نفسه قوياً قبلها.. بل حسب نفسه أقوى وأذكى من المنصور. أن يكون المنصور الأقوى، فلا مراء، ولكن أن يكون أذكى، فهو ما لم يصطبر عليه ابن صمادح... كان المنصور يُبين عن ذكاء خارق، ومعرفة بالنفس البشرية، وميل إلى توظيف الجوانب الخسيسة منها، والإيقاع بمن يبين عن سلامة الطوية.

دخل ابن صمادح الخباء وصلّى ركعتَين، وقبع ينتظر آذان المؤقت لصلاة الصبح... استنَّ ابن عامر سُنّة خلفاء بني أمية في اصطحاب مؤقت ينادي للصلاة في أوقاتها أثناء تنقلاته. سمع ابن صمادح آذان الفجر بعدها. تكاسل كي يلتحق بخيمة تقوم مقام مسجد يصلّي بها عناصر من الحاشية. صلى في خبائه، ثم غفا. وما هي إلّا لحظة حتى اهتز على صوت النفير ينادي بالرحيل... قرَّ قرار المنصور أن يرحل إذاً. وعمّت جلبة المعسكر. نهض ابن صمادح. جمع حوائجه، من ملابس في صرّة وكُتُب، في صندوق. وضع جانباً جراباً فيه بعض اللوز والجوز والتين المجفّف والزبيب، ممّا يتناوله أصحاب الركب في الطريق. ثم تأهّبَ كي يقصد راحلته. جنود الخدمة لصاحب العرض هم من يتكفّل بتفكيك الأخبية وحملها.

كانت الجلبة أكبر خارج المعسكر. اختلطَ أعضاء الحاشية بجمهرة المرافقين والجنود، مع الدواب. كل يبحث عن دابته، ومن وجدها، كان عليه أن يسرجها، يضع عليها الحِلية، إن كانت فرساً، أو يضع عليها بردعة إن كانت زاملة. كان ابن صمادح يفضّل الفرس، ولو أن البغال أكثر جلَداً وأقوى على تحمُّل الأثقال والمسافات.

سرّج حصانه، ووضع عليه الحلية ثم ركبه، وقصد المكان الذي

تجتمع فيه الطبقة الأولى من الحاشية. لم يجد إلا عناصر من الجند، ممن يخفر الكوكبة. كان أولَ شخص يصل من الحاشية. بقي لأكثر من ساعة قبل أن يحضر ابن حدير، ثم تلاه ابن جوهر.. . وبعدهما ابن حزم. وأخيراً أقبل عبد الملك بن شهيد، يرافقه فتى يعينه لسنّه إلى أن بلغ الجمع. حياهم، ثم انبرى يحدّث عن جارية كانت له من وادي الحجارة، عرفها أيام شبابه. اعتادَ الجميع على قصصه، ولم يعد أحد يهتم بها. كان ابن طفيس وعيسى بن سعيد، من أصحاب مجلس الأُنس. كانا لا يحضران إلا متأخّرَين. كانا يلازمان ابن عامر ليلاً، وينادمانه، ويسمران معه، ويخبرانه بما يريدان، ويؤثران فيه، ولذلك كان الجميع يرهبهما.. كانا أعلم بقرارات ابن عامر. ودَّ ابن صمادح أن يسأل أي وجهة هم سائرون، أقافلون إلى الزاهرة، أم نافرون في غزوة، وأين. عدلَ. قد يُؤوَّل سؤاله على أنه ضائق بحضرة المنصور. التزم الصمت عدا السلام، وتبادل كلمات مجاملة.

كانت الساعة ضحى حين برز عيسى بن سعيد وابن فطيس. كان التأخر دليلاً على أنهما بقيا حتى ساعة متأخّرة من الليل مع المنصور، وأن أمراً جللاً استبقى الحاجب المنصور يقظان. أقبل عيسى بن سعيد صوب ابن صمادح، وبادره:

- عِمت صباحاً يا ابن صمادح.

وردَّ ابن صمادح دون أن يخفي ضجره:

- عمت صباحاً يا عيسى.

- سبق السيف العذل.

- ماذا يا عيسى؟ أبنْ؟

- حقت كلمة مولاي على الغويّ عبد الرحمن بن المطرف.

- ماذا؟

- حُز رأسه فجر هذا اليوم.

ومادت الأرض بابن صمادح. وكأنما حصانه شعر بما به، فأخذ يقمص.

لماذا قصده عيسى توّاً دون غيره؟ أليس الأمر مقصوداً مِن المنصور نفسه، كي يهزأ بوساطته، وبما قد يكون ارتبط به من شعور مع ابن المطرف؟ شعر ابن صمادح أن من قُتل ليس عبد الرحمن بن المطرف وحده، وإنما ابن صمادح كذلك. لستَ إلا أداة، وبّخ ابن صمادح نفسه. أداةٌ وظفت لتكذب، من أجل أن تستدرج معارضاً، فلما فعلتْ، لم يُؤخذ بما قدّمت. كانت تبلغه نتف ممّا يتلوه عيسى بن سعيد، وذهنه مضطرب.

انتابت الرغبة ابن صمادح أن يتقيّأ. تماسكَ، لأن أي تعبير عن لواعجه، سيُعتبر تضامناً مع الضحية، وتمرُّداً على قرار المنصور. كان يدرك أن استفاضة عيسى في الحديث مقصودة، كي يستفزه، ويدفعه من ثمة للخروج عن طوره. كان ابن صمادح مخطئاً حين اعتقد أن الحاجب لسوف يُبقي على حياة ابن المطرف. وكان مخطئاً حين برّر نطقه بالعزل بالأمل في الإبقاء على حياته. كان يأمل أن يتاح له الالتقاء يوماً بعبد الرحمن بن المطرف، والاعتذار له، لأن الأمور تتجاوزه، ولم يكن لابن المطرف إلّا أن يفهم عنه، لأنه متمرّس بشؤون البلاط. أما الآن، فلمن يعتذر ابن صمادح وقد قُتل ابن المطرف؟

لم يغادر الموكب وادي الحجارة إلّا بعد الظهر بعد أن استيقظ ابن عامر. فصلَ الموكب صوب مدينة سالم وسط الطبول والمزامير وخفق البنود. كان ابن صمادح كما لو هو بضاعة فوق الفرس لا يتماسك إلّا بجهد، يمكن أن تهوى في كل لحظة. كان ذاهلاً عن كل شيء... لم ينبس بشيء. فليؤوّلْ عيسى بن سعيد وابن طفيس صمته كما شاءا. ليذهبا إلى الجحيم، وليذهب معهما المنصور. كان ابن صمادح في مرحلة رمادية في علاقته بالمنصور، وأضحى الآن، بعد

مقتل عبد الرحمن بن المطرف في لبّ سواد قاتم. كان من قبل ينظر إلى شيء متناء. أما الآن، فهو جزء من لعبة السياسة، جزء من أحابيلها. لعبة التهمته. كما لو هو أخطبوط وضع إحدى أذرعه عليه وأحاط به، والتقمه. أخطبوط يهزأ به وبمنظومته وقِيَمه. أجهزت عليه السياسة.

توقف الموكب بعد مرحلة. كان هناك معسكر قد ضُرب حيث سيقيم المنصور والحاشية وكتيبة من جنده. يُنصب المعسكر على العادة في أماكن بها الماء، عين جارية، أو نهر، أو بِركة، أو بئر. كانت النيران موقدة، وعليها الخراف تشوى. كان ذلك هو الأكل المحبّب للمنصور أثناء تنقلاته. نزل الموكب من مطاياه. اختلى من يريد أن يقضي حاجته في الخلاء. كان أصحاب الخدمة قد هيّؤوا أواني الماء لمن يريد أن يتوضّأ. اتخذت الحاشية مجلسها بالخباء الكبير تنتظر المنصور لما أن يفرغ من غسيله، وتحلله من اللباس العسكري، وتبذّله، واستجمامه...

وعنّ المنصور في لباس خفيف وهو يرتدي جبّة بصدرية مفتوحة. كان وقد جاوز الخمسين يبدو مكتمل الرجولة، تنضح منه القوة لرجل لم يخلد للراحة قط. نهض الجمع مردّداً جموعاً:

– وفق اللّه مولانا.

وأشار إليهم بيده على الجلوس.

بدا منبسطاً. استدار نحو أبي مروان بن شهيد، فسأله:

– هل سُرّت بك الملائكة؟

كناية أن من يأتي أهله تفرح به الملائكة، نطق عيسى بن سعيد:

– لن تفرح به يا مولاي لا الملائكة ولا الشياطين. رحم اللّه المرحوم.

ردَّ أبو مروان بن شهيد:

- كان سيفاً بتّاراً، ولم يترك جحراً إلا غشيه، وما زال شديداً في الطعان.

عقب عيسى بن سعيد:

- كان فعل ماض ناقص كما يقول النحاة. ولا هو عصا حتى. أفعى لا تخرج من جحرها إلا لتتبوّل.

- لسوف أريك من فتكاتي.

ابتسم المنصور وهو يتابع السجال. كلا الغريمَين يسعيان أن يسترضياه. كان ابن صمادح يتابع المشهد في حنق. الرجل الذي يتبسّط ويهزل ويضحك ويُبين عن دعابة، وحس إنساني، هو من أمر فجراً بقطع رأس شخص. أين هي الحقيقة؟ أو على الأصحّ أين تكمن حقيقة الرجل؟ في من أمرَ بقتل شخص ببرودة، أم من يسمع الطرائف والنوادر، أم كليهما؟ تصوّرَ ابن صمادح نفسه بعد عشرة قرون، في المشهد ذاته، جالساً أمام المنصور، أو شخص يسكنه المنصور، وهو في شخص ابن صمادح، أو شخص يسكنه ابن صمادح. شخصان متضاربان ولكن متلازمان، شخص يمثّل السلطة المطلقة، وآخر سلطة المعرفة. لن يتغيّر شيء لربما، سوى الحواشي، والأثاث، والزخرف، لا طبيعة العلاقة. في هذه العلاقة التي يمثلها طرفا المعادلة، حكم مطلَق، وسُلطة معرفة، يقوم الزيف والكذب والافتراء دعامة للحكم المطلَق. لكي تقوم سلطة المعرفة، لا بدَّ من تطهير الحقيقة من كل ما يشوبها من زيف، وإلّا تكرّر المشهد لأحقاب وقرون. سرح ذهنه، بلا رابط.

نُصبت مائدة أمام المنصور. كان لا يؤاكله أحد، ولا يأكل مما يأكله الآخرون. ثم مدت الخراف المشوية على السُّفرات. أشار إليهم ابن عامر بيده للأكل. كان لا يأكل حتى يأكل الضيوف. لم ينبس ابن صمادح. مدَّ يده للطعام. كان يأكل بلا شهية.

وفجأة ابتدره المنصور:

- لم تخبرني يا ابن صمادح عن رحلتك إلى سرقسطة؟

مادت الأرض بابن صمادح. كيف يريد المنصور أن يحرّك المواجع؟ وكيف يريد أن ينكئ الجراح؟ وكيف أن يخبر ابن صمادح المنصور وهو لم يطلب فيه؟ أوَلم يخبره ابن طفيس بكل شيء؟ كان كما يقول العوام يغتاله ويمشي في جنازته. استجمعَ ابن صمادح قوّته وقال في صوت خفيت:

- مولاي على علم بمجريات الأمور وقد أخبره الوزير ابن طفيس.

- كنت أريد أن أعلم منك. أتُحاذُني يا ابن صمادح؟

- حاشا يا مولاي.

- باللّه عليكم، وقد استدار المنصور في صوت متودّد نحو الحاشية، أقصّرتُ في شيء مع ابن صمادح؟

وصاحت الحاشية جماعة:

- كلا، يا مولاي.

وردَّ ابن صمادح:

- فضل مولاي عليّ كبير.

منحَهُ بيتاً وأمرَ له بجراية وصلة، مقابلِ قتله لروحه. قسمةٌ ضيزى. ما ينقم ابن صمادح على المنصور، هو تسلُّطه، هو تجبُّره، هو بطشه، هو نقضه للوعد، هو استئثاره بالأمر، هو استخفافه بالآخرين، هو القتل بدم بارد. لم تكن المسألة شخصية بينه وبين المنصور.

- حدّثني عن سرقسطة. عاود المنصور ابن صمادح.

ولأول مرة أحس ابن صمادح من نفسه القدرة على تحدّي المنصور، وتحدّيه أمام الملأ. وهو الأمر الذي لم يكن ليتجاوز عنه المنصور.

- جوّها جاف يا مولاي، ليس فيه رقّة الزاهرة.

كان المنصور يريد منه أن يتكلم عن عبد الرحمن بن المطرف ويناله بسوء... كان يريد أن يُشهد الحاشية عليه. ما لا يُقال في البلاط أهم ممّا يُقال. وما لا يُقال هو العنصر الحامل للرسائل، الطافح بالمعاني... لن يقدح ابنُ صمادح في عبد الرحمن بن المطرف ولو قُطع رأسه. كان المنصور يريد مَن يخفّف عنه وزر قرار العزل والقتل، بتبريره، والتشنيع بابن المطرف. صمدَ ابن صمادح. كان رسالة مشفّرة أدرك المنصور مغزاها. لن يبرر ابن صمادح فعلة المنصور ولن يزيّنها. فعل ذلك من قبل قيد حياة ابن المطرف لأنه اعتقد أن المنصور سيُبقي على حياته، أما الآن وقد قضى ابن المطرف، فما الفائدة.

قام المنصور من مجلسه. اعتقدت الحاشية أن عارضاً استدعى المنصور. توقفوا عن الأكل. طالَ أمد الغياب. لم يعد المنصور.

استدار عيسى بن سعيد نحو ابن صمادح:

- ما فعلت بسيدي؟

- قلت ما أعرف عن جوّ سرقسطة.

- أوغرت صدره.

- وهل في الحديث عن جوّها الجاف ما يوغر الصدر؟

سادَ الوجوم.

سألَ أبو مروان بن شُهيد:

- ما ترانا فاعلون؟

عقّب ابن فطيس:

- لا يمكن أن نبرح المكان حتى يأذن لنا سيدنا.

- ما نحن إلا عبيد مولانا، ردّدَ ابن شُهيد.

3

فوجئ ابن صمادح والساعة عصر وهو في خبائه، بوصيف ينادي عليه بقوة ويلحف في النداء:

- ابن صمادح فليحضر عند جناب سيدي...

كان بلباس متبذل. أراد أن يلبس جبّته ويضع عمامته... لم يمهله الوصيف. وتبعه بلباسه، وبخفّيه، إلى أن دخل سُرادق المنصور...

انتهى إليه وعيد المنصور كالرعد المزمجر. دخل السرادق فوجده المنصور واقفاً، وبجانبه جمهرة من الوزراء، والقوّاد العسكريين، ناكسي الرؤوس. قبّل ابن صمادح يده وتوارى للخلف. أسلمَ المنصور يده دون أن يعبأ به. استمر في الزمجرة:

- قلتُ لكم، أريد عبد اللّه اليوم، لا غداً، وإلا فحسابكم كله معي... كلكم، من الجند، والوزراء، والخدم، والفتيان... معشر الفاشلين، من لا يحسنون إلّا الأكل... يا ربّات الحجال ولا رجال.

كان الصمتَ المطبق. كانوا وقوفاً، قابضين أيديهم، لا ينبسون ولا يتحرّكون. كان انتهى إليهم خبر فرار عبد اللّه، مع طائفة من غلمانه.

أخذ ابن عامر يمشي جيئة وذهاباً، ويُصعّد النظر ويُصوّبه في عناصر الحاشية، وكلهم متخوف أن ينطقَ باسمه، ممّا قد يعرضه للعزل

أو الاعتقال أو القتل... كان مروان بن شهيد يستند على عكاز ترتعد فرائصه في كل صرخة للمنصور حتى ليكاد يهوى. توجّه المنصور إلى ابن صمادح وهو يصوّب النظر إليه:

- ابن صمادح سيساعدنا في إيجاد عبد اللّه.

تغيّرت نبرة المنصور، وأضحت أكثر استهزاء:

- قل لنا يا ابن صمادح أين ذهب عبد اللّه؟

ردَّ ابن صمادح في صوت هادئ:

- لا علم لي يا مولاي...

- وكيف وكنت تخلو إليه، وتفضي له؟

- لم أخلُ إليه يا مولاي، وإنما التقيته مصادفة في المعسكر بوادي الحجارة...

- ابن صمادح يتستّر على أصدقائه.. خُلة جيّدة في الحياة ليس في السياسة، ولا مع ابن عامر.. ذكاؤك يا ابن صمادح لن ينفعك معي... ذكاؤك في خدمتي، متى أردت ذلك، فعسى أن ينفعك في الإبقاء على حياتك.

كان أحمد بن حزم واقفاً في الطرف المقابل. أخذَ يغمز ابن صمادح بعينه، مستعطفاً إياه ألّا يرد. أمسك ابن صمادح عن الرد، انصياعاً لنصيحة ابن حزم. ساد الصمت. عاود المنصور نبرة الوعيد مشفوعة بالاستهزاء:

- ابن صمادح يأبى أن يرد عليّ.. لا يراني أهلاً لكي يرد عليّ. أليس كذلك؟ هل فهمتم لِم نستعمل السيف؟ نستعمله اضطراراً ضدّ المتنطعين أمثال ابن صمادح. ابن صمادح يتآمر مع عبد اللّه، ويسهّل أمر فراره، ثم يتستّر عليه. سألقي القبض على عبد اللّه يا ابن صمادح آجلاً أم عاجلاً. لن يفلت مني. الأندلس قبضة يميني، وحتى بلاد

المغرب، وسأعرف الحقيقة. ابن صمادح لن أقتلك. سأستبقيك. سأستبقيك هنا، بجانبي. تلظى كل يوم. أجبرك على القيام بما تأباه نفسك. لن تتحرّك إلا بإذن...

ثم تحول في نظرة غضب إلى عناصر الحاشية:

- ما لكم وكأن على رؤوسكم الطير؟ لستُ وحشاً ضارياً كي تخشونني. أغضب لمصلحة الأندلس، ومصلحة فلذات أكبادكم. كي تظل راية الإسلام بها، كي تبقى لغة الضاد بها، كي يبقى العرب أصحاب هذا الأمر. نعم ابن صمادح يراني بمنظر غول، وكذلك ابن حزم... الأمور أعقد ممّا تعتقدان... ولو دبّرت الأمر كما تريان، يا ابن صمادح وابن حزم، لانتهى الأمر قبل أن يبدأ. منذ الصقالبة... نعم، يا ابن صمادح، لأنك أكثر شكّاً من ابن حزم، أشعرُ بأن لي رسالة، ولذلك يهون كل شيء أمامها، ولا أرى لنفسي ضريباً في هذا الأمر، بهذه الرقعة من بلاد الإسلام، سوى طارق بن زياد، وعبد الرحمن الداخل. أنا ثالثهما. الأول الفاتح، والثاني من غرسَ النبتَ، وأنا من رعاه. أفهمت يا ابن صمادح؟

كان حديث المنصور بلا رابط. كان يود أن يفرغ جامَ غضبه على الحاشية، واختار ابن صمادح. لم يغفر له أنه التزم الصمت حيال ابن المطرف ولم يبرّر القتل. كان يمشي جيئة وذهاباً، وهو يضرب جماع يده اليمنى على راحته اليسرى في حنق.

تقدّم جندي من الحرّاس وهمسَ للمنصور بشيء. هدأ من فورته. رفع رأسه. خرج الجندي ثم عاد مصحوباً بفتى والعرق يتصبّب منه. نظر إليه المنصور في هدوء.

- ما وراءك يا فتى؟

- مولاي، الطلائع رصدت عبد الله وغلمانه شمالاً صوب مدينة سالم، ممّا يعني أنه يقصد قشتالة.

نظرَ المنصور إلى ابن حدير في هدوء، كما لو لم يكن الشخص الغاضب قبلها.

- ستذهب لسفارة عند طاغية قشتالة غرسية كي يُسلّم عبد اللّه فوراً، وإلا فليأذن بحرب لا تبقي ولا تذر..

إثرها انبرى عيسى بن سعيد يرقص، كمن أيقن أن العاصفة مرّت، وهو يردد:

- فليأذن طاغية قشتالة بحرب لا تبقي ولا تذر..

ثم منادياً أبا مروان بن شهيد:

- تعال نرقص..

وتقدّم أبو مروان بن شهيد، وهو يتكئ على عكازه، ويسعى أن يرقص أمام نظر المنصور.

عقّب ابن سعيد:

- للّه درّك يا أبا مروان، تصلي بالقاعدة وترقص بالقائمة..

قال المنصور مبتسماً:

- لو لم تكن مصاباً بالنقرس يا أبا مروان ما كنت فاعلاً؟ أكنت تطير؟



عادَ ابن حدير من سفارته من عند غرسية كونت قشتالة. أبلغ المنصور بفحوى المهمة. كان غارسية يأبى أن يُسلّم عبد اللّه.. إثرها حوّل المنصور وجهة جيوشه وقد كان متوجِّهاً نحو شنت إشتين شرقاً، صوب أوسمة (أو خشمة) غرباً، فدوّخها، وأقام بها حامية إسلامية، ثم استولى على مكان معروف بالقبّة، وأحرق البسائط. لم يستطع غرسية وجيوشه أن يثبتوا أمام قوة المنصور. توالَت الهزائم على غرسية، ولم يجد بدّاً من الجنوح للسلم. بعث بسفارة يخبر بعزمه على تسليم عبد اللّه شريطة أن يكفَّ المنصور هجماته عليه.

كان المنصور مرابطاً بقلعة النسور حين أتته سفارة من غرسية. أمر في ابن صمادح، رفقة الفتى سعد الخادم، تخفرهما منقبة، كي يستلما عبد اللّه بأوسْمة (خشمة).

بدأت معالم الخريف، وأخذت الأشجار في الاصفرار. رابطَت المقنبة بأُوسْمة تنتظر حلول وفد قشتالة. إلى أن ظهرت فرقة من قشتالة، عصراً، بسلاح خفيف، على صهوة خيول. توقّفت الفرقة القشتالية على مشارف المقنبة. تقدم عبد اللّه على بغلته وهي تمشي الهوينى... بدأت الشمس في الانحدار. كان أزيز الصراصير يملأ الجو، يقطعه بين حين نباح بعيد. تحركت الفرقة القشتالية، وعادت

أدراجها كما لو نفضت يديها من عبء. بدأت خيولها بالخبب ثم ما لبثت أن تحوّلت إلى ركض، حتى أثارت النقع، إلى أن توارت كأنما تريد أن تنأى وبسرعة. كان ابن صمادح واقفاً يرقب المشهد، دون أن تبدر منه نأمة أو حركة. ظلّت بغلة عبد اللّه تتقدم. بدا عبد اللّه فتى جميل الإيهاب، مهيب الجناب، تعلو الكآبة محياه.. تقدم الفتى سعد راجِلاً نحو البغلة وراكبها. أمسك لجامها. همس قولاً لعبد اللّه، فترجّل من البغلة، وتقدم الفتى سعد نحوه وقبّل يده. رفع عبد اللّه رأسه، ثم أجاله في المكان. أمامه وزير والده ابن صمادح، ووراءهما مقنبة مدجّجة بالسلاح. التقى نظر عبد اللّه بابن صمادح.. لم يقرأ هذا الأخير منه العتاب، كما لو أنه أدرك أن الأمور تتجاوزه، وأنه هو نفسه ضحية. كان ابن صمادح قريباً من الفتى سعد وعبد اللّه، وسمع كلامهما. كان سعد يكلّم عبد اللّه في أدب ورفق، كما يليق بولد للمنصور:

- مولاي، فلْتتأهّبْ للموت.

قالها كما لو قال له انزع نعلَيك أو خوذتك.

لم يبدر رد فعل من عبد اللّه، ولم يُبدِ هلعاً، بل بدا رابط الجأش، ثبْت الجَنان.

- هل لمولاي من طلب أو وصية؟ أعاد سعد.

أدار عبد اللّه رأسه علامة على النفي، واكتفى بتلاوة الآية:

- ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

رفع سعد يده وأقبل السيّاف ابن خفيف. كان شخصاً قوي البنية، طويل القامة، عريض المنكبَين. تقدم نحو عبد اللّه. هل يتبيّن السيّاف أنه سيضع حدّاً لحياة؟ هل يدرك أبعاد فعله؟ أم أنه ذاهل عن ذلك لأن الآمر بالقتل هو المنصور والسيّاف ليس إلا أداة؟ ألا يسوغ للأداة أن تنتفض حينما يتم تجاوز المحظور، حين يُمس الإنسان في وجوده

وكرامته؟ لا يمكن للإنسان ولو كان أداة ألا يعترض حينما يُمس شخص آخر في أغلى شيء يملكه، وجوده وكرامته. ولكن السيّاف دُجّن، مثلما تُروّض كل أدوات التقتيل والتنكيل في يد كل طاغية... أضحى السيّاف من غير ضمير ولا قدرة على التفكير... نعم، ما قيل عن عبد اللّه وأشيع عنه من أنه تآمرَ على والده، وأراد أن يقضي عليه، كيّف نظرة الخدم والحاشية والفقهاء والعامة... ولمَ لا يُسأل عن الداعي إلى التمرد؟ ألم يكن المنصور قد أمّن ابنه واستدرجه، فلما رأى عبد اللّه من سيرته ما رأى، فرَّ عند عدو والده حفاظاً على حياته.

أغمض ابن صمادح عينَيه. كان يتناهى إليه أزيز الحشرات، ثم سمع نعيق غراب. توالى النعيق. تمنّى الموت. تمنى لو يوضع حدّ لحياته. وضع حدّ للمعاناة التي يعانيها والألم الذي يكابده.

انقشعت في ذهنه كلمح البرق ومضات من حياته لتستقر عند لمحة. لمحة سابقة كان يود فيها أن يموت، حينما أقبلت جحافل من الغزاة وقتلت أهله في عدوة المغرب. منذ ذلك التاريخ وهو يراوغ الموت والحياة معاً، إلى أن أفضى به الأمر التنكر في يهودي وفقيه، ومعتوه وحلاق، وحامل خبز، ووزير في البلاط.. هل كان لزيري أن يتلبّس صورة ابن صمادح؟ لم يكن يُقدّر تبعات ذلك، واعتبر أن الانسكاب في صورة عالِم ومقرَّب من صاحب الأمر، يُمكّنه أن يعرفَ دواليب السلطان، ويطّلع على أمر هذا الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، الحاجب المنصور.. لم يُقدّر أنه بذلك سيجهز على أغلى ما لديه، روحه، وأن ضميره سيخزه مدى الحياة. انتابته الرغبة حينها أن يصرخ: «لست ابن صمادح وإنما زيري... وقد تقلبت كاتباً على الخليفة الحَكم، وتسترت في شتى الصور كي لا أقع في يد ابن عامر». تحولت الرغبة في الصدع إلى حديث داخلي. لن يسمع أحد قوله، أو حتى أن يُصدّقه. قد يُقال هلع الموت دفع ابن صمادح إلى الهذيان. الحقيقة الوحيدة الآن هي أن

ابن الحاجب سيُقتل بأمر من الحاجب. أب يقتل ابنه. أهذا ما تفضي إليه السياسة؟ مَحْقُ كل العلائق الإنسانية؟ عاد الحديث الداخلي. أنا زيري. آمنت أن أحسن وسيلة لأختبئ من ابن عامر هي أن أقترب من ابن عامر. هي أن أصبح من خاصته. كنت أقدّر أني أقوى وأذكى. وهل أنا اليوم أذكى، وأنا أرى روحي تُقتل، مثلما قُتلت يوم أن قتل ابن المطرف؟ هل تستحق المعرفة هذا الثمن الباهظ والمؤلم؟ هل يستطيع ابن صمادح أو زيري أن يُسرّ بحقيقته لعبد اللّه... خشي أن يفتح عينَيه ولا يجد عبد اللّه. ثم ما يفيد عبد اللّه أن يعرف أن ابن صمادح ليس ابن صمادح. ومن زيري؟ أضغاث أوهام، كل هذا. باغته سعد:

- هل تصلّي على شِلْوه؟ مكتبة سُر مَن قرأ

فتح عينَيه، ووجد رأساً مدحرجة، وشِلْواً ما زال الدم يفور من وريده... لم يصدر من عبد اللّه صراخ ولا نأمة، ولا تضرع، ولا هلع... هو ذا المهم بالنسبة إلى زيري أو ابن صمادح... هو أن عبد اللّه يمثّل فكرة الاعتراض على متجبّر متسلّط. أن يُصلَّى على شِلْوه، من دون رأسه، أو رأسه من دون شِلْوه، سؤال يُطرح على الفقهاء، أو يطرحه الفقهاء، لا شأن لابن صمادح به... لأن السؤال الحقيقي هو أنه أُجهز على حياة إنسان، وليس لإنسان أن يضعَ حدّاً لحياة آخر. مهما كان الأمر. العقاب الوحيد، هو الضمير..

تحول شعور الأسى إلى إعجاب برباطة جأش عبد اللّه... مات شهماً. وعاش من أجل فكرة. هو ذا المهم في مسار الإنسان. نطق ابن صمادح:

- يدفن ها هنا.

وأقبل جنديان، وأخذا في حفر قبر. أمسك سعد رأس عبد اللّه ومسح عنه الدم الذي فار ونث على الوجه، ثم لفه في خرقة، كما لو كان رأس كبش.

- ينبغي أن نغادر... نطق سعد.

- ليس قبل أن يُدفن عبد اللّه، ردَّ ابن صمادح.

غريب. تحوّل إحساسه. كما لو أن ما انتهى إليه أحاله شخصاً آخر. تحوّلٌ أنقذه. عبد اللّه فكرة. فكرة الاعتراض على المتجبّر. أفرزت البنية نقيضها. لم تكن هناك حظوظ للنجاح، ولكن كم كان سيكون الأمر مأساوياً لو لم تبرز تلك الفكرة، ولم تسكن شخصاً. لم يعد ابن صمادح يشعر بالأسى... وحتى شعوره حيال المنصور تغيّر. أضحى ينظر إليه نظرة أخرى. هما مختلفان، من منظورَين مختلفَين. لم يعد البغض حافزه، وإنما يسعى أن يفهم دواعي صاحب السلطان. أيقن ابن صمادح، أو زيري، أن نموذج ابن عامر يحمل بذور فنائه... أي سلطة ستثبت وهي تقوم على الترهيب والترويع والغيلة والكذب والافتراء؟ المهم ألّا يقع زيري في قبضة ابن عامر. المعركة لم تُحسم بينهما، وقد تنتقل بعد مماتهما. على زيري أن يصمد. أن يُغلّب الضمير على الطموح. المحاكمة لن تتم في حلبة السياسة، لأن ابن عامر، وكل ابن عامر، هو الأقوى، ولكن في حلبة التاريخ... والتاريخ أسمى من كل أحد.

وُوري شِلْو عبد اللّه الثرى. وقفَ زيري على قبره دون أن ينبس. لم يَجرِ لسانه بأي دعاء ولا بأي لغة. لأن الطبيعة الإنسانية لا تُختزل في دعاء، ولا نِحلة، ولا لسان. كانت الشمس قد غابت، وبدأت النجوم تتلألأ في قبّة السماء. عبد اللّه فكرة تجسّدُ المقاومة. نعم، انهزم، وكم في التاريخ من منهزمين هم أبطال، يجللون سماء التاريخ كالنجوم وينيرونها في حلكة الظلام.

لم يعد زيري يخشى أن ينظر إليه الجند، ويرقبونه، ولا أن يحصي الفتى سعد حركاته وسكناته، ولا أن يتقوّل من يتقوّل، أو يُبلّغ المنصور ما يراد. أصبح أسمى من ذلك، ولا يأبه لما قد يقال عنه. تذكر زوجته

راحيل اليهودية التي ماتت، وتذكر زوجته المسيحية، من هي في عصمته، الرميكية، وتذكر من كانت بمثابة أم له، مباركة أو تودة، الزنجية المسلمة، المفعمة بالإيمان. وتذكر باشكوال، من هو بمثابة أب روحي له، ممن يؤمن بالعقل... ثم ابنه، ابنه يوسف. هؤلاء جميعاً أُسرته، من مِلَل مختلفة، وأعراق متباينة. الإنسان أسمى من أن يُختزل في بُعد، أو عرق، أو لسان، أو عقيدة... حصرُه في بُعد هو مصدر من مصادر مأساة الإنسان. هو مصدر الحروب والأحقاد.

كان الجنود قد أشعلوا الذبالات وأوقدوا النار...

- ما هي التعليمات التي عندك يا سعد؟ سأل ابن صمادح في هدوء.

- أن نقصد فوراً قلعة النسور.

- هل تستطيع المقنبة أن تسافر ليلاً؟

- لديها خفير، والليلة غير مظلمة، والقمر يتوسط السماء. نحن في منتصف جمادى الأولى.

- هيا بنا...

توزّعت المقنبة إلى مقدمة تحمل المشاعل، ومؤخرة يتوسطهما كل من ابن صمادح وسعد. لم يُرد ابن صمادح لراكبته أن تحاذي راكبة سعد وفضل أن تسير وراءه راسماً مسافة معه... كان سعد يحمل معه في صرّة ربطها بحبل بقربوس بغلته رأس عبد اللّه.

بلغت المقنبة معسكر قلعة النسور في الهزيع الثاني من الليل. استأذن ابن صمادح وسعد في الدخول على المنصور. أُذنَ لهما.

كان المنصور وسط المعسكر، حول نار موقدة، محاطاً بحاشيته. كانت أقداح الخمر أمامه. تقدّم سعد نحوه للسلام عليه. بادره المنصور قبل أن يُقبّل يده:

- هل قمت بالمُتعين؟

- نعم، يا مولاي.

- وأين الوديعة؟

- معي بمدخل الخباء.

- سلّمها لأهل الخدمة كي يطيّبوها ويتعهّدوها...

خرج سعد ليقوم بما أُمر. حمد ابن صمادح مع نفسه أن المنصور لم يأمر بطرح رأس عبد اللّه أمام الحاشية. قبّل ابن صمادح يد المنصور، كما لو يقبّل صنماً. ثم تراجع إلى الوراء. وبقيَ واقفاً. انتبه المنصور إلى ابن صمادح. أذنَ له المنصور في الجلوس. تناول المنصور قدحاً من الخمر. نقع منه، ثم استدار نحو أحمد بن حزم:

- فيمَ كنا فيه؟

- فيمن أحب لأول وهلة، وفيمن أحب بعد طول العشرة، وفيمن تولّه بشخص في المنام، وفيمن لم يصطبر للهجر، وفيمن يلظى بالوصل...

حينها اعتلى شخير عبد الملك بن شهيد... انتفض المنصور متوجّهاً للكاتب عيسى بن سعيد.

- قل لابن شهيد ألا ينام بمجلسي، وإلّا فليس له أن يحضره...

وكز عيسى بن سعيد عبد الملك بن شهيد، فانتفض:

- لمَ تخزني، ثكلتك أمك، لست نائماً...

- وفيمَ نحن فيه يا ابن شهيد؟ ابتدره المنصور.

- فيما حقّقه مولاي، دام نصر وعلاه، من نصر على أهل التثليث، شتّتَ اللّه شملهم.

عقّب المنصور:

- الفقهاء ملة واحدة. لا فرق بين ابن شهيد والزبيدي، كلاهما أفّاكان، الفرق أن الأول يشرب والثاني لا يشرب.

دخل وصيف يستأذن في شأن سعد، وقد عاد. أذنَ له المنصور بالدخول. استدار المنصور نحو ابن صمادح وسأله:

- كيف كانت المهمة يا ابن صمادح؟

ردَّ ابن صمادح في تؤدة:

- كما أرادها مولاي.

اطمأنَّ المنصور لجوابه. استدار نحو سعد:

- كيف كان تصرف المارق؟

- للحقيقة يا مولاي، كان ثبت الجَنان.

لاحظ ابن صمادح ألا أحد كان ينطق اسم عبد اللّه، وإنما بصفة تلصق به أو بضمير الغائب...

كان لسان المنصور متثاقلاً ولكن السُّكْر لم ينل منه، وظلَّ حاضر البديهة. نطق:

- غداً، أو بعد حين، فقد أسفر الصبح، ستذهب يا ابن صمادح إلى الزهراء رفقة سعد، تخفركما مقنبة، كي تقدما رأس الفتّان إلى الخليفة.

وردَّ ابن صمادح في هدوء:

- سمعاً وطاعة...

- ابن حزم، نادى المنصور.

- حاضر يا مولاي.

- ينبغي أن تهيّئ صكّاً في رق الغزال من سجلّات الفتح يُبعث للخليفة، يرافق رأس الفتّان. يمكنك أن تضع عليه خاتمي فهو عندك.

- حاضر يا مولاي.

- وينبغي أن تذيعوا في المساجد أن الفتّان مالأ طاغية قشتالة وناصر المسيحيين.

- حاضر يا مولاي، ردد ابن حزم.

وفجأة ضرب المنصور قدحه بيده، وساح الخمر على الطاولة، ثم نهض وألقى زقاً برجله حتى انكسر وساح منه الخمر. انفجرَ كما ينفجر وحش ضارٍ:

- لسوف يُقال إني قتلت ابني. لم أقتل ابني. لم يكن ابني. كنت أشك في بنوته حين دخلت على أمه... ليس ابني. أفهمتم. عبد اللّه لم يكن ابني. ليس من صلبي. ينبغي أن تعلموا ذلك، وتُعرّفوا به..

ونطق عيسى بن سعيد:

- نعم هو ليس ابن مولانا. حملت به أمه سِفاحاً، وكانت حاملاً حين دخل عليها سيدنا.

وعقّب عبد الملك بن شهيد:

- إن قالها مولانا فهو كذلك. القول ما قال مولاي...

أدرك ابن صمادح أن المنصور يألم وهو يبحث عن مخرج ليبرّر فعلته... الطود الشامخ يقوم على قاعدة هشّة... يحتمي بالقوة والحيلة. لم يعد ابن صمادح يخشى المنصور. وقف على الثلمة. قال له دون أن يخشى ردّ فعله:

- لو يأذن لي مولاي بعد المهمة في رخصة.

- نعم يا ابن صمادح... قمت بعمل جيّد، يا ابن صمادح، يمكنك أن تخلد لبعض الراحة. لا بأس. أين الساقي؟ ما للساقي يتأخر؟ لم تعودوا تستمعون إليّ؟ قلت لكم، هو ابن سِفاح، فلمَ يلحقُ بي؟ لم أقتل ابني.. طبعاً يا ابن صمادح، يمكن أن تستجم...

بلغت المقنبة التي خفرت ابن صمادح وسعداً قرطبة بعد عشرة أيام. كان مُوفَدا الحاجب مجهدَين من وعثاء السفر. أصرّ سعد أن يذهبا توّاً إلى الزهراء لتقديم رأس عبد اللّه للخليفة. رفض ابن صمادح أن يذهب إلى الزهراء قبل أن يعرّج على أهله ويستريح لبضعة أيام. أي شيء يستدعي الإسراع في تقديم رأس قتيل؟ بل أي فائدة في ذلك؟ وهل رُد ابن صمادح إلى عمل دنيء مثل تقديم رأس، عنوان نصر أو ولاء؟ وأي ولاء أن يقدم رأس ابن الحاجب إلى خليفة هو في حكم السجين، ولا يعرف ما يروج خارج أسوار الزهراء، ولم يتمرّس بشيء، كي يعبّر المنصور عن تمسُّكه بأهداب البيت الأموي، بدعوى أن المتمرد كان يسعى أن ينقض البيت الأموي. ترّهات. ثم إن المنصور كان يريد أن يمعن في تذليل ابن صمادح، إلّا أن ابن صمادح أخذ ينظر إلى الأمور نظرة أخرى، منذ رأى عبد اللّه يسير أمام الموت ثابت الخطو، مطمئن النفس. كان صمته يُبين أنه لم يكن يؤاخذه. شعرَ ابن صمادح كما لو أنهما شريكان في الصمود أمام جبروت الحكم المطلق. نعم، من أدّى الثمن الغالي هو عبد اللّه، ولكن دور ابن صمادح كشاهد على جلَد عبد اللّه، وعلى تضعضع المنصور، يجعل منه شريكاً، في عملية طويلة الأمد، هي تعرية الحكم المطلق، كما لو

هي رياح حاتّة تهبُّ بلا وهَن وتفتّه على مَهْل. شعور من الاحتقار ملأ ابن صمادح نحو المنصور الذي يحطُّ من الخليفة، ويغتابه، ثم لا يتورع من أن يبعث له برأس ابنه للتعبير له عن التمسك بأهداب البيت الأموي، وخدمة أمير المؤمنين، وما شابه ذلك من التعابير المنمّطة التي تطفح بالزيف والافتراء. كان ابن صمادح يعرف أن عناصر الخدمة من المقنبة والفتى سعد سيبلّغان حرص ابن صمادح على التعريج على بيته للاستراحة. كان يريد أن يعبّر من خلال تعريجه على بيته أنه تحلل من سطوة المنصور وأسطورة المنصور. ليس الاستحمام، ولا الاستجمام وتغيير اللباس إلّا ذريعة.

وخرج الموكب عند الغد من الزاهرة في اتجاه الزهراء صباحاً. حتى إذا بلغَ باب المحفل وجد كتيبة تجلّل أبهاء القصر، ثم كوكبة شيعت ابن صمادح وسعداً حتى باب الأقباء. نزلا عن مطاياهما. أمسك فتيان من الشرطة التابوت الذي يحمل الرأس وثالث رسالة من رق الغزال تتضمن كتاب الفتح. دخلوا الجنان حتى قصر جعفر. أضحى القصر مأوى للضيوف، ويجعله أصحاب الرسم مكاناً للطقوس في بعض الأعياد الدينية... مضت زهاء عشرون سنة حين غشي ابن صمادح أو زيري تلك الأرجاء رفقة الفتى دري. تذكر إذ هو يلتقي بالفتيان جوذر وفائق، وهو يتعثر في لباسه حياء وفرَقاً، ثم إذ هو يقصد منية الناعورة ليستمع إلى بوح الخليفة الحَكم. كل ذلك يمُتُّ إلى زمن بعيد. زمن انتهى. برجاله وقضاياه، وحلَّ زمن برجاله وقضاياه، علامته البارزة هو ابن عامر أو المنصور. أضحت الزهراء بلا روح. الخدم يرين عليهم السأم ويقتلهم الملل. يلزمون أجنحة الزهراء ويتبادلون الحديث حتى العصر، ثم ينفضّون بعدها... يردّدون الشيء ذاته، عن الخليفة الذي لا يقوم بشيء، عن بعض الأحداث التي تنتهي إليهم متأخرة، ممّا يحيكه المنصور، فيعيدونها بلا سأم، كل يوم، إلى

أن يأتي حدث آخر، من غزوة، أو اغتيال، أو وقوع المنصور في هوى جارية... مدينة أشباح، أو مقبرة، يرعى أصحابها أشباحاً وذكريات وأوهاماً. كانوا فرحين أن كسر وفد المنصور رتابة أيامهم وذكّرهم ما يقضي بهم الرسم. كانوا كما لو أنهم بُعثوا، وكانوا لذلك يغالون في التأدُّب ويُسرفون في التودد. تذكر زيري كيف أن الطقوس إبّان الحَكم إذ تقام، كانت سلسة، وكان الذين يقومون بها كما لو يقومون بشيء متأصّل فيهم، أو جِبلّة أو طبيعة ثانية... يخيل لابن صمادح وهو يرى ما آل إليه الأمر كما لو أن الخدم طارئون على الخدمة، ولذلك يغالون في أدوارهم.

دخل وصفان ينوئون تحت ثقل السنين، وقدّموا عصائر. كان سعد لا يرفع عينيه عن التابوت، يحمله فتيان من الخدمة، وبين حين وحين ينهض ليتأكد من محتوى التابوت، ويفتح ليرى أن الرأس في موضعه لم يختفِ، ولم يسرقه أحد، وفتى آخر يحمل رق غزال مختوم، من تلك الرسائل المنمّطة بتعابير مكررة. لم يكن ابن صمادح قد اطّلع على الرسالة التي حرّرها ابن حزم. وفي أي شيء ستختلف عن الخطابات التي قرأها واطّلع عليها وحرر بعضها؟ «يتقدم خديم الدوح المنيف، الحاجب المنصور، وفقه اللّه، إلى الخليفة المؤيد، أعز اللّه أمره، وخلد في الصالحات ذكره، كريم المحتد، الأبرّ الأمجد، سليل العُلى ومعدن التقى، ذؤابة العرب، وفرع قريش، وغصن بني أمية، من قلده اللّه أمر عباده، الخاضع لجلاله، هشام بن الحكم، بآيات الولاء والإخلاص..».

تُرى هل تنتقل هذه التعابير عبر القرون، ومعها طقوس الوصفان؟ أي دينامية يمكن أن تنبثق في جموع تردِّد تعابير محنّطة جوفاء، تبقيها محنطة، وتوثقها في الاستعباد بالخنوع والخضوع، والحركات التي تفيد الخنوع، من تقبيل الأرض، والانحناء، ولثم اليد، والتضرع؟ أي

فكر يمكن أن يبرز في ظلّ الاستعباد، لأن الفكر تحرُّر، ولا تحرُّر من دون فكر. أي سمو يمكن أن يبدر من حركات ورسم يتكرر بلا معنى؟ أو معناه الوحيد أن يقضي على إنسانية الإنسان واستقلاليته ويقضي على عقله وقدرة التفكير والمساءلة أو السؤال.

أي توثب يمكن أن يبدر لِما ينبني على النفاق؟ أسمى درجات النفاق، أن يردد من يتآمر على الخليفة ويحيله شيئاً، تعابير من قبيل الخديم الأوفى والحاجب الأتقى، أو أن يزعم كل متسلِّط رفْعَ راية الإسلام، وهو لا يبغي إلّا استعماله ويحيل دعوته في الكرامة والعدل، إلى وسيلة للقتل والنهب والسلب.

تذكر ابن صمادح حين توعّده المنصور زاعماً أنه يشتط من أجل الإسلام وسؤدد العرب، ولسان العرب. هل هي أحسن وسيلة لبلوغ تلك المرامي؟ أي ضمانة أن يستمر كل ما ينبني على الزيف والخواء؟

شعر ابن صمادح أن الوصفان يحرسون الأشباح، وشعر ابن صمادح أن وصفاناً سيعقبون هؤلاء، لكي يؤبدوا الأشباح ويحرسوا أجساداً محنطة ويبقوا بنية جامدة، مُتحجّرة.

أجال ابن صمادح رأسه في جناح كان تحاك فيه مؤامرات وتُتخذ فيه قرارات خطيرة زمن جعفر، وتذكر كيف آل الأمر بجعفر حين زاره بالمطبق ورآه وهو يسف التراب. هل من خلف جعفراً أحسن منه؟ المشكل ليس الأشخاص ولكن البنية. استدار ابن صمادح نحو سعد قائلاً بلا رابط:

- تقدِّم أنت الوديعة للخليفة، وكذا رق الغزال..

- كيف؟ تعليمات مولانا المنصور وفّقه اللّه أن تقدِّم أنت الوديعة للخليفة.

- لا أريد.

- كيف أن لا تريد؟

- هكذا . . . المهم أن أكون حيث كنت، بغضّ النظر عن الصفة.

نظر سعد نظرة استفهام. لم يفهم عنه.

شعر ابن صمادح أن يداً كانت تحركه، وتأخذ بيده، هي التي أسلمته حيث هو، وحيث كان، وحيثما قد يكون. ليس إلا لسان التاريخ أو مَكره. نعم خادعَ، وتستّرَ، وتلصّصَ، لأنه لم يكن له من مناص كي يقتفي أثر الحقيقة. . لأنه لم يكن من بديل كي يراوغ الحكم المطلق، وبنية مغلقة، وخدم هوَج، أشداء، يحرسونها. لأنه أداة في يد التاريخ أو مكر التاريخ.

لم يرفع سعد عينَيه عن التابوت. الوديعة التي تحمل شارة النصر، وعربون وفاء المنصور للخليفة، وما شابه ذلك من ترّهات. أهذا هو النصر الذي يحتفى به؟ كان سعد يمسك بضاعة، وكان ابن صمادح يسعى أن يستمسك بفكرة يجسّدها عبد اللّه. فكرة تنهض ضدّ الحكم المستبد. كانت السياسة قد قتلت ابن صمادح. قتلت روحه، لمّا قُتل ابن المطرف، وكان الضمير قد أحياه وهو يرى عبد اللّه يساق للموت رابط الجأش. كما لو أن الصمت بينهما رسالة مشفّرة. أضحت تلك اللحظة آصرة ورسالة. كانت بعثاً لابن صمادح.

تقدم وصيف، ونطق بجملة مهترئة، كما لو هي قطعة صدئة، وقد ذهب زمن لم تستعمل:

- ضيفا سيدنا لتتقدما لجناح سيدنا.

ونهض ابن صمادح والفتى سعد. ألقى سعد نظرة على الفتيين من يحملان التابوت، كي يتأكدا أن الوديعة لا تزال حيث هي، وعلى من يحمل كتاب الفتح. مشى كل من ابن صمادح وسعد والفِتيان الثلاثة وسط جنان جميلة، وبرك بديعة. . . ألفى ابن صمادح أو زيري الزهراء أقل جمالاً، أو بغير جمال، لأن الجمال هو ما ينعكس في الآخر ويتراءى على سطحه أو من خلاله. أي جمال لتحف مغلقة لا ينظر

إليها إلّا خدم؟ أي معنى لامرأة جميلة، تحرَم من الاقتران بمن يرى جمالها، ويرتبط بها، فيما جعلته الطبيعة تكاملاً؟ إلى أن بلغا جناحاً صغيراً قرب السطح الممرد، يقوم مقام غرفة انتظار. ردّدَ الوصيف ذاته:

- مولاي الخليفة سيستقبلكما بعد حين.

الذي يهم ابن صمادح أن ينتهي من هذه الالتزامات، وبسرعة، ويخلص لنفسه. أن يذهب هو وزوجته الرميكية إلى أستجة، مِرساته، بلغة اليونان لأنهم بحّارة، أو مربط فرسه، بلغة العرب، لأنهم بدو.. بيته الذي يأوي إليه، حيث يمكن أن يتكلم بلا احتياط، ويفكر بلا موانع، ويُعبّر عن حبه لمن يهوى بلا تحفظ، ويَجهرَ برأيه بلا خشية، ولا يستعمل كل مرة لقباً أو اسماً ثانياً، هو في حقيقة الأمر قناع... تعِبَ من وضع فلان المعروف بفلان، وكنيته كذا، والملقّب بكذا. ينبغي أن يتطابق الدال والمدلول. اللغة والفكر، أو الفكر واللغة. بأستجة يتحرر من الأقنعة والمواضعات. بأستجة يتطابق الدال والمدلول. أضحت أستجة فكرة، وليست فقط قرية على نهر الشنيل أحد روافد الوادي الكبير، حيث تقوم ضيعة صغيرة، لرجل من أهل الرأي والعقل. أستجة هي الواحة من هجير الأندلس. أستجة هي ما تنحو نحوه الأندلس، وما ينبغي أن تكون عليه، حيث يعيش رجل غنوصي، قوطي الأصل عربي الولاء، مع زوجته المسيحية، آوى فتى من البربر، مع زوجته اليهودية التي قضت، واحتضن الرجل امرأة زنجية مسلمة من البربر. ارتبطوا جميعاً في علاقة حب ومودّة واحترام... ارتبطوا بشعور أسمى من التسامح. أستجة هذه، أو البيت المتواضع لرجل فيلسوف، أسمى من قصر الزاهرة، حيث تُرعى أيديولوجيا تقوم على سمو عقيدة، وصفاء عرق، وصلف رجل. حيث تقوم على الانشطار ما بين الحاكم والمحكوم. بين الخاصة والعوام. بين أهل الحل والعقد والدهماء، أو

الغوغاء، في قول البعض. بين المسلمين وأهل الذمة. بين العرب والعجم. بين عرب النَّسَب وعرب الولاء. ما الذي سيصمد أمام أعاصير التاريخ؟ الزاهرة التي تمثل نموذج الحاكم المطلق؟ أم الزهراء، حيث الصورة المترهّلة لحكم مطلق؟ أم أستجة، أو بيت باشكوال على الأصحّ، لأناس بسطاء، يكدحون آناء الليل وأطراف النهار، ويتفيؤون أحلامهم، ويرتبطون بعَقد، عَقد اجتماعي، وليس الولاء، والخضوع والذمة؟

أنقذ الضمير ابن صمادح. بعث فيه حياة جديدة، وهي هذه النفحة التي جعلته يصمد أمام المنصور. ما زال يأتمر به، ولكن المنصور لا يسكن ذهنه، ولا يتحكم في تجاويف نفسه.

تُرى لو بقيت الأمور بلا تغيير، كما هي بالزهراء، أو الزاهرة، لقرون؟ ترى لو تبقى أمور المسلمين تنبني في علاقاتها بين الحاكم والمحكوم على الخضوع والولاء، هل يمكن أن يسري فيهم نسغ التاريخ؟ أم سيصيرون إلى الطُّرة، ولو بإنجازات تُختلس من أصحابها، من حرفيين بسطاء، ومعماريين، وأطباء وعلماء الطبيعة وأصحاب رأي أو فلاسفة، لتنسب إلى ملوك ماجنين وسلاطين متجبّرين وخلفاء عابثين وأمراء لاهين. أتى وصيف، قطع حبل تأملات ابن صمادح.

- يمكن أن تتقدما للجناح المقابل لتناول الغداء. أمر طارئ جعل الخليفة يتأخر في استقبالكما.

وتقدما إلى غرفة مُد بها سماط الأكل. نالا منه. لم يكن ابن صمادح يرغب في أن يلتقي بالخليفة. لعبة زائفة، لشخص صوري في حقيقة الأمر. كان يهمه أن يعرف الماسك بحقيقة السلطة، وهو ابن عامر، وعرف ظاهره وباطنه. أما فتى لاهٍ كما هو شأن كل فتى تقتله الدعة والخمول، فما الفائدة؟ عرفَ بعضاً عنه من خلال تودة رغم أنها كانت شحيحة في الحديث عنه، لفتى لا يفقه شيئاً ولا يهتم بشيء

ويمضي سحابة يومه في العبث. أضحى شخصاً لا يرتبط بالحياة، ولا تسكنه، ولا يطمح لشيء، أو يهتم بشيء... همّه تدبير اليوم. السهر ليلاً والنوم نهاراً، والاستماع إلى بعض الطرائف، والغناء والسُّكْر، وبعض الدسائس... هل يمكن أن يُفصل هشام عن سلسلة الحكم المطلق، للحاكم المتألّه، الذي يحجب خلَفه، والخلَف الذي يمحق عبير الحياة من عقبه. الحكم المطلق سيّئ، والحكم المطلق الوراثي أشدّه سوءاً. يفضي إلى مأزق. ومأزق حكم عبد الرحمن الناصر، هو ابن عامر... الحَكم كان صورة باهتة لعبد الرحمن، إذ وزّع اهتمامه بين حكم مطلق يديره جعفر، واهتمامات فنية وأدبية كانت تستهويه أكثر من أي شيء آخر.

وفجأة تذكر ابن صمادح تودة. هنا عاشت ردحاً من عمرها، رشيدة للخليفة هشام... هي من كان يوقظه، ويلازمه إلى أن ينام. كانت تفعل ذلك بدافع الواجب والخوف. وكان هشام لا يتورع من أن يعبث بها. هي من أصبحت حاضنة لابنه يوسف، بدافع الحب والمبرّة. تذكّر يوم إذ حلت بأستجة، وهي تشجو بشجوها الحزين، بلسان البربر. ترددت تلك الأبيات في صدر ابن صمادح، أو زيري...

إليك أشكو
ومن سواك أشكو؟
وبك أستجير
ومن بسواك أستجير؟

لا شيء يضيع ما دام يسكن تجاويف الذاكرة، ما دامت مأساة الإنسان تنتقل عبر الكلام، شدواً أو حكياً أو كتابة، شعراً أو نثراً أو فكراً... تشحذ همماً، عبر الأزمان والأمكنة. الحاكم المطلق يمكن أن يقضي على الجيوش وعلى الخصوم ويقتل أشخاصاً لكنه لا يستطيع

أن يقضي على الأفكار. أو لا يستطيع أن يقضي على أشخاص تسكنهم أفكار، أو على أفكار تسكن أشخاصاً. . سالت من ابن صمادح دمعة وفاء لتودة.

وأتى وصيف يخبرهما أن الخليفة يتعذر عليه أن يستقبلهما، لأن اهتمامات شغلته، وأن كاتبه الوليد مَن سيستقبلهما، بأمر من الخليفة. تصور ابن صمادح أن الوليد يلحُّ ويمعن في الإلحاح على الخليفة لاستقبال موفدَي المنصور، وهشام يتقلّب في الفراش، ولذلك كان التدرج في الرسم، من القاعة بقصر جعفر، إلى جناح قرب السطح الممرد، إلى طعام الغداء، عسى أن يستيقظ هشام، أو أن يقبل باستقبال «هدية» المنصور. والوليد يكسب الزمن. أدخِلوا الضيوف قصر جعفر. قدموا لهم العصائر. قرّبوهم إلى جناح السطح الممرد. اعزموهم على الغداء. تأخّروا في الغداء. كان الوليد يدرك أن على الخليفة أن يمسك وديعة الحاجب. كان ما يخشاه الوليد أن يرفض الخليفة استقبال الموفدين، لأنه يعرف حقيقة من يمسك بزمام الأمور، ويخشى تبعات ذلك. ولكنّ هشاماً رفض في نهاية المطاف. رفض أن تكون الهدية رأس رجل. ورفض أن يستقبل موفدي الحاجب، لأنه لم يعد يقوى أن يرى الناس من غير أناس الزهراء، كشخص يعيش في الظلام لا يقوى على نور الشمس.

حلَّ الوليد. وكلّمَ مبعوثي الحاجب بأدب. في العشرينات من عمره. توجّه لابن صمادح:

- أتعبناكما والله.

وردَّ ابن صمادح هازئاً:

- تعب هو راحة.

- هل هيّأ الخدم لكما الغداء ولفتيانكم؟ نأمل أن يكون راقكم.

- لم يقصّر أهل الخدمة في شيء.

- هؤلاء لا يعرفون ضيوف مولاي الخليفة، ممن يأتون من عند الحاجب المنصور. بالمناسبة بلّغا الحاجب عطف مولاي الخليفة ورضاه. كان بودّ مولاي أن يستقبلكما، لولا مشاغله الجُلّى.

- نقدر مسؤوليات أمير المؤمنين. قال ابن صمادح، ثم التزم الصمت بعدها.

ونطق سعد مستعجلاً:

- في التابوت رأس عبد اللّه، من أراد أن يقضي على حكم بني أمية.

ردَّ الوليد:

- أصحاب الفتن لا يخلو منهم زمن. الحمد للّه أن لمُلك بني أمية رجالاً صناديد يحمونه، على رأسهم الحاجب المنصور وفقه اللّه.

أردف سعد:

- وهذا رق الغزال يتضمّن خطاب الفتح من الحاجب، كيما يذاع في مساجد الحضرة.

- سيكون ما يريده حاجب مولاي. اشتقنا إليه، ولكننا نقدر جهاده في سبيل اللّه. والآن لا نريد أن نأخذ من وقتكما الثمين، وأنتما دعامة المنصور، وهذه هدية مولانا الخليفة أعز اللّه أمره من العطر.

ومدّ لهما قارورتَين من العطر.

كان الوليد يريد هو كذلك أن يصرفهما، ويتخلص منهما.

وتقدم الفتيان من يحملان التابوت وسلّماه للوليد، ثم ثالث سلّمه كتاب الفتح على رق الغزال.

نظر سعد بجلافة إلى الوليد:

- ينبغي أن توقّع لي في هذا الصكّ أنك استلمت الوديعة والرسالة. . .

رسم الوليد لحظة تأمل، كما لو أن الفتى الأجلف فضح جلية الأمر بأن أظهر أن الحاكم الفعلي هو الحاجب وليس الخليفة. تدارك الوليد:

- لا نردّ طلباً لحاجب مولاي.

كان الفتيان يحملون دواة وريشة، وقع عليها الوليد.

خرج الوفد بعدها من باب المحفل. ركب ابن صمادح فرسه، واستدار نحو سعد.

- إلى أين أنت سائر يا سعد؟

- إلى مدينة سالم حيث مولاي بإذن اللّه، في خفارة المقنبة.

- أستودعك اللّه، يا سعد. في أمان اللّه.

وكز ابن صمادح فرسه، كما لو أنه يستعجل الفراق، وانبرى ركضاً في اتجاه الزاهرة مُلفّاً على قرطبة دون أن يدخلها. . . كان مسروراً أن أنهى مهمته دون أن يلتقي بالخليفة. كان يتوق لأهله، ويتحرّق شوقاً لأستجة.

كان يبتغي أن يرسم قطيعة مع مرحلة، وينتظم في أخرى يروم منها الطمأنينة والاستقرار، لشخص لم تعرف حياته الاستقرار.

الراهب والراهبة

1

خرج راهب وراهبة بلباس القساوسة، من بيت متواضع بالحي المسيحي من قرطبة، ويمما شطر باب القنطرة. حتى إذا بلغاه ركبا حمارَين استأجرهما الراهب من مُكاري. كان الراهب يرتدي جبة رجل دين مسيحي، ويضع الصليب على عنقه. أما الراهبة، فلم يكن شيء يميّز لباسها، ولعلها أن تكون أختاً مبتدئة... ركبا حماريهما وقصدا وجهة شقندة، من القنطرة الكبرى. تبادلا بعض الحديث:

- وددت أن أمرَّ بربض البرج، قال الراهب.

- لا يا عزيزي، سينفضح أمرنا. انسَ رفقتك القديمة..

- أعرف. أتذكر دوماً رفيقَيّ في الفرن، بلقين وإيغموراسن... لا أدري أين انتهت بهما الأمور.

- ليس من الحكمة أن تزورهما الآن. أول الأشياء ابنك.. لم ترَه منذ وفاة تودة، دامت لها السكينة الأبدية...

- ثلاث سنوات، ليس بالأمر الهيّن. لم يكن لي خيار...

- لذلك لا تُضع هذه الفرصة... تزور ابنك وباشكوال ومرية، وتستجم. أنت تحتاج إلى الراحة..

- هو ذاك.. سنقطع الرحلة في ثلاث مراحل. نبيت اليوم في شقندة في النزل ذاته الذي نزلنا المرة الفائتة، ثم بعدها في دير.

- أعتقد أنه يمكن أن نقطعها في مرحلتَين.. لا عليك يا حبيبي.
- كما تشائين، نبيت في الدير.
- برحمة الرب.

كانا زيري والرميكية يمشيان في أناة لأنها كانت حاملاً. انسلّا في هيئة عادية من الزاهرة بعد العصر قبل أن تُغلق أبواب المدينة، وقصدا قرطبة.. أمضيا الليلة في بيتهما القديم، وعند الصباح الباكر خرجا مرتدَين لباس الرهبان، لأن لا أحد يعترض على الرهبان، حتى باب بطليموس، فاكترى زيري حمارَين من مُكاري.

لم يكن زيري يخشى العيون لأن له إذن المنصور، ولكنه كان لا يريد لعيون المنصور أن ينتهوا إلى وجهته. كان يريد أن يصون أستجة وعلاقته بباشكوال. وكان هذا الحرص وهو في خدمة ابن عامر، هو ما جعله يغيب عن أستجة، مضطراً، لمدة طويلة.

ذكّره سفره مع الرميكية بسفره الأول مع راحيل إلى أستجة. قطع حينها المسافة في يوم شديد الحرارة، وكانت راحيل حينها حاملاً كما الرميكية. وصلَ زيري والرميكية شقندة واستأجرا بنزلها غرفتَين بالفندق كي لا يثيرا الشبهات، إذ لا يخلق براهب أن يختلي براهبة، وأثناء الليل انسلَّ زيري إلى غرفة الرميكية... أحاطها بذارعَيه في الفراش، كما لو أنه يخشى أن ترحل كما رحلت راحيل... لم ينم ليلته تلك، أو نام نوماً مضطرباً. كان يحلم براحيل، وامتزجت ما بين اليقظة والمنام ذكرى راحيل وجسم الرميكية، وخوفه على الجنين.

كان خبر حمل الرميكية لا يصدق وقد جاوزت الأربعين حتى يئست. أسقطت جنيناً بعد إذ اقترنت بزيري، وغارت حينها في حزن عميق. كان للولد أن يكون إثابة الربّ لها، في حياتها الجديدة، في كنف زيري، وكانت تريد من الإنجاب، عروة محبة مع هذا الذي نقلها من حالة إلى أخرى، أو من حياة بلا معنى إلى حياة لها غاية.. كان

زواجها منه تحولاً في حياتها، صرفها إلى الإخلاص للرب، والتعبُّد له، والقيام بأعمال البرّ، ما استطاعت لذلك سبيلاً. كانت تريد ولداً عنواناً لهذا التحول.

قبل أن يفصل المنصور في الصائفة، وضع زيري بذرته في زوجته، وخشيت الرميكية أن تضيع منها، ولزمت البيت، ونصحتها إحدى الراهبات بالكنيسة من أن تلزم الفراش، وتنأى عن كل ما ينغصها. وتبتّلت إلى الرب ومريم العذراء أن يحفظا وديعة زيري، إلى أن تتجاوز الثلاثة أشهر، وشعرت بدبيب الحياة يسري في بطنها...

كان هذا الذي يشغل بالها ويستأثر باهتمامها. وكان زيري يخشى أن تخطف المنون الرميكية كما خطفت منه راحيل. كانت علاقته بالرميكية هي غير علاقته براحيل. كانت علاقته براحيل هوجاء، كما لو هو بحر هائج، تعقبه فترات انقشاع يسفر فيها زيري عن حبّه لها، وتفعل الشيء ذاته حين يصفو الجو، ثم ما يلبث أن يكفهر. أما مع الرميكية فكانت كبحر هادئ، تمخر فيه سفينة حبهما من دون حاجة إلى الإفصاح عنه. لم يقل لها إنه يحبها، شعوره نحوها وتصرفه معها كان كله حبّاً... ولم تكن هي بدورها ترسل كلمات التودد، وكانت شؤونها كلها عطفاً على زيري ومحبّة له.

لم تكن الرميكية تفقه في السياسة، ولذلك لم يكن زيري يشاطرها شؤونها.. كانت منصرفة لشؤون زوجها حين يحل بالزاهرة، فإذا خلت من التزاماتها الأُسرية راغت إلى التعبُّد، ولأعمال البرّ في الكنيسة، أو خارجها، مع الطرز والنسيج...

غادرا النزل عند الصباح الباكر، وسارا حتى الظهر بلباس الرهبان. توقّفا بمكان به شجرة حور سبق لزيري قبل ست عشرة سنة أن توقف به مع راحيل. تذكر راحيل وقد أنهكها التعب في المكان ذاته في يوم قائظ. رسمَ وقفة تأمل وخشوع ترحُّماً على ذكراها. استراح زيري بعدها وزوجته الرميكية لبعض الوقت تحت ظلّ الشجر. غسل أطرافه

قرب جدول ساقية. أكلا بعض الطعام، ثم استأنفا المسير. بلغا أستجة مع الغروب. كان باب بيت باشكوال مواربا. غشي زيري الباب خلسة، ثم دخل الصحن، وعلى أثره الرميكية. ألفى مرية وهي تشعل القناديل. صاحت من فرط الدهشة والبهجة:

- ثيري... ثيري...

أخذت ترسم علامة الصليب، وتنظر إلى لباس القساوسة الذي يرتديه، ثم أرسلت بلا رابط ضحكة مجلجلة، وارتمت عليه تعانقه عناقاً حارّاً... عانقت الرميكية بعدها وانغمرا في حديث بالرومانية. وما هي إلا هنيهة حتى عنّ باشكوال يجر رجلَيه بخطى وئيدة، وعلى أثره الغلام يوسف. ارتمى باشكوال في حضن زيري، وبقيا كذلك للحظات طويلة، حتى اغرورقت عينا زيري بالدموع. بدا باشكوال وقد شاخ. وخط الشيب رأسه، وثقل ممشاه، وتهدّل صوته... كان يوسف يحملق في زيري، وينظر إلى الودّ الذي يبديه والده لهذا الفتى الطارئ. وأخيراً انفلتَ زيري من باشكوال، وأقبل على يوسف يقبّله. قبّله على جبينه، وعلى وجنتيه ورأسه.

وأقبلت الرميكية على الغلام وضمّته إليها، ثم سلّمت في أدب على باشكوال. كانت أُسرة تلتحم بعد غيبة. كان البِشْر يسري فيها للُقيا بعد طول فراق. عاتب باشكوال زيري:

- لم تطل الغيبة كما أطلتها هذه المرة يا زيري.

- واللّه ليس عن قِلى. انغمرت في خدمة ابن عامر، وليس الأمر سهلاً.. صدقني..

- وما هذا اللباس؟

- أتنكر.

- حتى وأنت في خدمة ابن عامر؟

- خاصة وأنا في خدمة ابن عامر.

- تعال إلى المجلس، وحدثني. أنا مشتاق إليك.

وندَّ من يوسف سؤال:
- هل أوقد القناديل بالمجلس، أبتاه؟..
وساد صمت. شعر باشكوال بالحرج. ما لبث زيري أن بدّده:
- طبعاً... نحن ضيوف عندك يا يوسف...

كان يوسف يجهل أن أباه الحقيقي هو زيري... منذ فتح عينَيه صبياً ثم طفلاً لم يعرف له من أب أو أم سوى باشكوال ومرية. لم يسائل أحد نفسه أينبغي أن تقال الحقيقة ليوسف بالنظر إلى التقلبات التي عرفتها حياة زيري.. كانوا يحرصون جميعهم على توازن يوسف، واعتبروا أن معرفته للحقيقة قد تشوّش على حياته. لم يئنّ زمان الحقيقة، ولأن زمانها لم يئنّ لم يشعر أحد بالحاجة إلى البوح بها.

- أبتاه هل أدخل البهائم إلى الحظيرة؟ سأل يوسف باشكوال.
- ألم تفعل بعد؟
- كنت مكبّاً في الدرس...
- بمجرد أن توقد قناديل المجلس، أدخل الدواب إلى حظائرها.
ثم نطق باشكوال متوجهاً إلى زيري:
- لقد بدأنا حفظ المعلّقات، مع شرحها. لا يكف عن الأسئلة. وهو من يقرأ لي، وهو يقرأ في يسر ولا يلحن.

غادر يوسف. وبعده اصطحب باشكوال زيري والرميكية إلى المجلس. ساعدَ زيري زوجته على الجلوس. ثم استند بقربها. كانت مرية قد قصدت المطبخ لتهيّئ شراباً.
- ما أجمل أستجة، تنسيك تقلُّبات قرطبة. قال زيري متنهداً.
عقّب باشكوال:
- يكفي يا زيري التقلُّب في الحالات والصفات والأسماء.
- وأنا نفسي لم أعد أقوى على ذلك. كان لزاماً في غمرة الاشتغال مع ابن عامر، وهو أمر ليس بالهيّن. آمُل أن أسُلّ الشعرة من العجين.

- واللّه هذا ما أتمناه. أخافُ عليك.. أخشى أن تصيبك مَعَرّة من ابن عامر...

- أحاذر. الغرور أعماه.

- ينبغي خشية من لا يبصر.

أتَت مرية بنقيع الرمان... ارتشف زيري منه ثم أشار بيده إلى بطن الرميكية. فهمت عنه. أرادت أن تعبّر عن فرحتها، فحاولت أن تزغرد، ولم يحالفها الحظ. ثم انثنت إلى ما تعرفه بالعربية:

- مبروك...

ثم غادرت.

- هل تريد أن تغيّر ملابسك؟ سألَ باشكوال زيري، أجد مستغرباً الحديث إليك في لباس راهب.

- أريد حمّاماً قبل ذلك.

نادى باشكوال على يوسف:

- يوسف اصطحب...

- عمي زيري. قاطع زيري كي يرفع الحرج عن باشكوال. دعه يناديني بعمي، وينادي الرميكية بخالتي..

توقّف باشكوال كما ليستوعب ما دعاه إليه زيري. ردّد باشكوال:

- اصطحب يا يوسف زيري إلى الحمّام، وزد من الحطب، واملأ الجفنة بالماء.

- حاضر أبتاه، عقّب يوسف.

كان يوسف يُعرف في القرية بابن باشكوال، ولم يكن يمكن إطْلاعه بالحقيقة من دون تهييئ. كان هو المضمَر في حديث زيري لباشكوال.

2

في يوم بارد استفاقت الرميكية على آلام مبرحة في بطنها. استيقظ زيري على تأوّهاتها. أخذ يسألها أسئلة بلا معنى... ما أكلت، وفي أي مستوى من البطن تشعر بالألم... طلبت منه أن ينادي على مرية. فهمَ أن الأمر مرتبط بالوضع.. خرج من غرفته ونادى على مرية.

تذكر للتوّ وضع راحيل وألمها. انقبض صدره. خرج من الغرفة إلى خارج البيت، كان الظلام لا يزال يلف الأرجاء. أخذ يستدير في المكان ذاته. لم يجرؤ أن ينادي على باشكوال، لما يعرف عنه من شيخوخة وتعب.

كانت تبلغه تأوّهات الرميكية، وكانت كنِصَال تنغرس في قلبه. شعر بالبرد. عادَ إلى البيت. ذهب إلى المجلس. جلس به. ثم ما لبث أن نهض. لم يكن يستقر على شيء. كان بادي الاضطراب. نقرَ على باب الغرفة. أذنت له مرية. رأى بقع الدم، وفهم أن الرميكية أسقطت. اقترب منها، ووجد الدموع تسيل من عينَيها. أغمض عينيه أسى. كانت الرميكية فرحة أن حملت في سنّها، وكانت ترى في حملها إنابة الرب لها، وصفحاً لما اجترحت في سالف حياتها، وآصرة مع زوجها. ثم ضاع منها الحمل، وتبدّد الأمل.

لم تبرح الرميكية فراشها لأكثر من أسبوع، وعافت الأكل،

وأعرضت عن الكلام، ولم تتوقف عن البكاء. كان زيري يشاطرها مصابها، ويلزمها سويعات من النهار.. لم تبرأ من الحزن، حتى لمّا نهضت من الفراش. كانت تكتفي بالخروج لبعض الوقت، والمشي للحظات والدخول إلى البيت، والحزن يعلوها. كان ذلك يؤثر على زيري، ولو أنه كان يحمد الأقدار أن أبقتها، ولم يخترمها الموت كما فعل مع راحيل.

غارت الرميكية في حزن عميق، لم تسْلُ عن فقدها للجنين رغم عطف زوجها لها وحدب مرية عليها.

3

أوقدت مرية مجمراً في المجلس، حيث قعد كل من باشكوال ملفوفاً في رداء اتقاء للبرد، وبجانبه زيري. كان يوسف ينتقل ما بين المجلس والمطبخ، ليهيّئ المكان.. صدح باشكوال:

- تأخّر شبريقو.

ردَّ يوسف:

- لم يتأخّر. عليه أن يأتي بالطبيب شمعون.

- ماذا؟

واقترب منه يوسف وكلّمه في أذنه..

- عليه أن يأتي بالطبيب شمعون من أجل خالتي الرميكية.

وهزَّ باشكوال رأسه علامة على الفهم. ثم استدار نحو زيري:

- كيف حال الرميكية؟

- لم تتجاوز الصدمة النفسية...

وردّدَ باشكوال:

- ماذا؟

وقر سمع باشكوال. حوّل زيري الموضوع وهو يتحدث بصوت مرتفع:

- كيف هو شبريقو؟

- شبريقو. آه شبريقو، صار أكثر واقعية. أخذ يقبل بالآخر.

اقترب زيري من باشكوال، ثم أخذ يتحدث إليه قريباً من أذنه:

- كنت تعرّفت في فترة، قبل أن ألتحق بالشغل مع ابن عامر، إلى فتى بربري ناقم من العرب، يريد أن يبرأ من أي تأثير لهم، ولا يرى في الإسلام إلّا صورة من هيمنة العرب، ويريد أن يطهّر بلاد البربر منهم.

- التطرف هو ردّ فعل، قال باشكوال. لكن ينبغي الذهاب أبعد من ردّ الفعل. فهم ظاهرة، ومن أجل السعي لمدِّ الجسور بين المتضاربين. والجسران اللذان انتهيت إليهما، هما العدل والعقل. لا يمنع ذلك من بقاء اختلافات. لا يمكن فرض صورة نمطية على كل مكوّنات مجتمع، لأن كل مكوّن يحملُ ذاكرة وهو نتاج مسار. ولذلك أرى ضرورة الاعتراف بالآخر، من أجل بناء عَقد اجتماعي.

- الاعتراف تجلٍّ للعدل.

- هناك اختلاف بين الأمرين. المكونات الأساسية لمجتمع كريم هي الحرية والعدالة والكرامة، وهي ما يحقق زينة الدنيا، كما ذهب عن الأندلس، والأندلس صنو حضارة الإغريق. هناك قابلية في الأندلس على الانفتاح، بفضل العقل، والعقل بفضل التنوع، لأنه هو الآصرة بين ملل مختلفة.

توقف كمن يستجمع قواه ثم أضاف:

- حينما تعيش أجناس مختلفة، في ذات الرقعة من دون شنآن، أو هيمنة فريق على آخر فتلك زينة الدنيا، وحين تريد فرض تصور وحيد، فهي تجافيها. الأندلس أو زينة الدنيا على الأصح، ليست رقعة جغرافية، ولا لحظة تاريخية ذهبية.

استرسل:

- لقد قيل ولا يخلو الأمر من صواب، إن الأندلس يونانية الروح، لاتينية الجسد، عربية اللسان.

اعتراه سعال، تنحنحَ ثم أضاف:

- لكي نتجاوز وضعاً، ينبغي أن نعرفه، وما لم نعرفه حقّ المعرفة، لا يمكن أن نتجاوزه. ولا يمكن معرفته من دون التفكير فيه بإعمال العقل.

في تلك الأثناء ارتفعَ نقرٌ على الباب. نهض يوسف ليفسح للطارق. كان شبريقو. كان هو أيضاً تغيّر. بدا بديناً، وببطن منتفخ، وأخذت التجاعيد ترتسم على وجهه. دخل المجلس، وأرسل تحيته مشفوعة بالدعابة:

- بربري في رحابنا! يا لبشرانا.

ونهض زيري وعانقه عناقاً حارّاً. ثم تولّى شبريقو نحو باشكوال الذي لم يستطع النهوض وسلّم عليه..

- ماذا جنينا في حقّك، قال شبريقو متوجّهاً نحو زيري، حتى تغيب هذه المدة كلها؟

- ظروف يا شبريقو. ظروف، أنا كذلك تأذّيت من هذه الغيبة.

- سمعت أنك في خدمة ابن عامر.

- هو كذلك.

- ولم تجد سوى ابن عامر كي تشتغل معه؟

- كان يحدوني شيء آخر حين تقرّبت منه. كنت أريد أن أعرفه، أو أعرف السلطان. قبل أن تحضر، كان باشكوال يقول إننا لا نتجاوز إلّا ما عرفناه، وإذ لم نعرف ظاهرة ما حقّ المعرفة، فيمكن أن تضمر وتعود...

- لا أرى كيف سيضمر الاستبداد العربي. أنتم البربر لم تتحلّلوا منه، ولا أرى كيف ستتحللون منه، ونحن المولَّدون لم ننفصل عنه كذلك، ولا أرى كيف سننفصل عنه. على كل حال، تعبت من الحديث حول هذه القضايا. حدِّثني عنك.

- جئت لكي أرسم مسافة مع شغلي. كي أستريح.

- اسمع، أنا أكبر منك سنّاً. أنت في الأربعينات من عمرك. ست وأربعون سنة؟ أنا قاربت الستين. تسكننا أفكار، ثم حين نأخذ في الذبول تتحول عنا. تسكن جيلاً آخر. لا جدوى أن أستمسك بما سكنني ولم يزهر.

قاطعه باشكوال وقد انتهى إليه قول شبريقو:

- الأفكار يمكن أن تذبل كذلك. إمّا لأنها تأتي قبل أوانها، أو تأتي في إبّانها ثم تذوي، لأن لم تجد الرعاية، أو متأخرة عن الظرف الذي يمكن أن تونع فيه.

- أي فكرة لم يأتِ أوانها، يا باشكوال؟ تساءلَ شبريقو. أن نعيش كما تحلم في توادد مع العرب والمسلمين واليهود. زينة الدنيا كما تسميها. أضغاث أحلام يا باشكوال.. . للمسلمين القوة، وفرضوا تصورهم، ولو يتاح لنا القوة، سنفرض تصورنا ونطهّر الأندلس منهم.

- هذا ليس حلاً. كما لو تريد أن تفرغ نهراً من الجداول التي صبّت فيه من أجل أن تبقى على النبع الذي يأتي منه. عبث. غير ممكن. النهر هو المجرى الذي صبّت فيه عدة جداول، منذ الرومان، والقوط، فالمسلمين.. . هو ذا الذي يحمل الحياة والخصب.. .

- باشكوال لن أقنعك، ولن تقنعني. ألم ترَ ما يفعل ابن عامر بالأديرة والكنائس؟ كيف تريد أن تتعايش مع من لا يريد أن يتعايش معك؟

- الأرض حينما تزهر تنبتُ الورد والشوك. لا تنظر إلى الشوك والقتاد والطلح، أنظرْ إلى الزهور، أنظرْ إلى الأشجار التي يمكن أن تنبت من هذه الأرض، أو على الأصحّ ما يمكن أن ننبته من هذه الأرض. الإنسان جزء من العملية، أعني أن يكون حاملاً لتصور. لن يتم الأمر من تلقاء ذاته.

عاودت نوبة سعال باشكوال. نهضَ نحوه يوسف:

- أبتاه، هل آتي لك بالدواء؟

- نعم يا بني. ائت به من عند أمك.

أتى يوسف بقدح عسل. مدَّ ملعقة إلى باشكوال، ثم سجّى عليه دثاراً. . نطق باشكوال في صوت مبحوح:

- هدّني المرض. . بلغت أرذل العمر.

- بعد عمر مديد، ردَّ زيري. . .

- ينبغي أن نتهيَّأ لكل شيء. عشتُ محطات حاسمة في تاريخ الأندلس. ولدت في ظل عبد الرحمن الناصر، من يمثل نموذج الحاكم المتألّه، وعرفت الحَكم واشتغلت معه، وعرفت البنية من الداخل، وأدركت منذ البداية الحالة المَرضية التي تجعل الحُكم يمارَس باسم الخليفة، ويزاوله فعلياً صدر أعظم، وكنت أتوقع أن ينتهي إلى معضلة، وهو الذي حدث مع ابن عامر. يظهر بأنه أعاد للنموذج عنفوانه. لا أرى ذلك الرأي. سينهار النموذج. سيتفكّك. . .

ثم عاوده السعال. هبَّ إليه يوسف. أعانه على النهوض. سارا سوياً خارج المجلس. تبادلَ زيري وشبريقو النظر. يعرف شبريقو الحقيقة ولكنه لا يجرؤ على البوح بها. الكل يجمع على أن يوسف هو ابن باشكوال ومرية. بادرَ شبريقو زيري كما ليتحول عن الموضوع الذي طرق ذهنيهما.

- تغيّرت. لم تعد الفتى النحيل يا زيري. لا أخشى عليك

السمنة، ما أخشاه هو وقوعك في براثن السلطان. السلطان يحول ما بين المرء ونفسه.

- لم أكن أقدّر ذلك بادئ الأمر، إلى أن وقعت فيه. ينبغي رسم مساحة مع الأشياء، حتى لا تؤثر فينا. المسافة ضرورية، خاصة أننا في مرحلة تحول.

كان زيري يتفكّر فيما قاله باشكوال. كل الروافد التي أشار إليها تحيل إلى مسارات حياته. أصوله القوطية، حبّه لهند، تبنّيه لولد من أب بربري وأم يهودية... غنى حياته هو الذي جعله يستوعب كل مكوناتها. من أجل أن يحافظ على ما انتهى إليه فضل العزلة... العزلة من أجل حماية كنز ثمين. كل حكم مطلق ينبني على انشطار المجتمع، ويسعى في الإبقاء على الانشطار أو تأجيجه، ويجدُ دعامته في الانشطار. وكل حكم ينبني على عَقد اجتماعي لا يتأذّى من الاختلاف، وقد يغتني من الاختلاف. عادَ يوسف، واعتذر للضيفَين:

- والدي يعتذر لكما. يشعر بالتعب، وقد قصد إلى غرفته. سنتناول الغداء لثلاثتنا. يلح عليك يا عم شبريقو أن تبقى معنا.

وانتاب زيري شعور القلق... ظلَّ باشكوال متوقد الذهن، لكن الشيخوخة تسللت إلى جسده.



مُنية السرور

1

عادَ زيري أو ابن صمادح رفقة زوجته الرميكية إلى الزاهرة من أستجة، وقد نصحه الطبيب شمعون أن تعود إلى بيتها، وتستأنف حياتها كما دأبت، عوض أن تظلّ حبيسة جدران، تأسى لضياع جنينها. أخذت تتعافى إذ عادت إلى الزاهرة وتتجاوز الأثر النفسي لمحنتها.

كان المنصور قد آب من الصائفة حين عاد ابن صمادح إلى الزاهرة. اعتزلَ المنصور الناس ولم يخرج للحاشية. لم يعد يستقبل أحداً، إلّا حين يختلي بخاصته في مجلس الأُنس ليلاً، بمُنية السرور، أو قصر اللؤلؤة الجديد، مع ديوان الندماء، يستمع إلى الشعر، ممّا قد ينظمه ابن دراج القسطلي أو يتلوه فاتن ممّا يحفظه أو يخلو للجواري والقيان. كأنما قد تعبَ من التدبير اليومي للدولة ولم يعد يهمه إلّا رسمها.

ثم ما لبثَ المنصور أن قاطع مجلس الندماء، إذ يأتي الأدباء والشعراء، دون أن يحضر المنصور، فيصرفهم الفتى واضح. وكان ممن برز نجمهم في هذه الفترة من حكم المنصور.

كان ابن صمادح ينتقل إلى الديوانية كل يوم ويستمع إلى ما يرشح. انتهى ذهنياً إلى القطيعة مع المنصور، وإن كان يعرف عملياً أنه لن يستطيع أن يصرم حبل العلاقة في يسر. كان يعرف أن الانصراف

عن المنصور غير مأمون العاقبة لأنه يعني ضمن ما يعنيه الموت. لن يتورّع المنصور من القضاء عليه. كان لا بدَّ من الحيلة في تدبير العلاقة مع المنصور.

ما استحثَّ ابن صمادح أول الأمر من التقرُّب إلى ابن عامر أو المنصور الرغبة في معرفة شؤون السلطان، والوقوف على شخصية الرجل وقد أضحى صاحب الأمر في الأندلس والمغرب. وكان ما يدفع ابن صمادح شعور آخر، هو الاستخفاء من المنصور بالتقرُّب إليه، وقد كان مقرّباً من فتيا الصقالبة، جوذر وفائق، وكاتباً للخليفة الحَكم، وناصحاً لصُبح حين ساءت العلاقة بينها وبين ابن عامر. ظنَّ ابن صمادح أنه سيُبقي على نقاء يده، أو حسن نقيبته كما يقال حينها، رغم تقلُّبه في دائرة السلطان، وانتهى الأمر به إلى قتل ضميره مع قصة ابن المطرف. كان ذلك تحولاً مؤلماً في مسار ابن صمادح. لم يبرأ إلّا حين رأى صمود عبد اللّه وهو يساق إلى الموت. ما لبثَ مقتل عبد اللّه أن صارَ بعثاً لابن صمادح. هو لم يصدَّ عنه الموت، ولكن ثبات عبد اللّه وإباءه بعثَ فيه قوة، وأرسى بينهما تواطؤاً ضمنياً، كما لو أنه كان يقول له: لسوف أموت، فلْتشهدْ عني. للتاريخ. إن كنت تريد أن تُبعث، أنقلْ أني تصدّيت للاستبداد، وناهضت الحُكم المطلق، لأنه موهِن للكرامة، لا يستقيم معه شيء، يحيل الأفراد إلى عناصر لا رابط بينها، ويهلهل السدى بين الجماعات، وينقض الأواصر ويَقلب القِيَم. في اليوم الذي انتهى ابن صمادح إلى هذه الرسالة من صمت عبد اللّه وسط أزيز الحشرات، وقفَ على تصدع ما كان يبدو بنياناً مرصوصاً حين كان المنصور يضرب زِقّ الخمر برجله ويصيح بأن ابنه ليس ابنه. كان المنصور يلظى، وكان الألم ينخره، ولم يمكن له أن يطمره.

كان ممّا تتسرب من مجالس الديوان إبعاد المنصور لابن حزم.

أمره أن يقبع في بيته ولو أبقي له على لقب الوزارة. وسرى في الحاشية بأن ابن حزم شمخ بأنفه، واعتدَّ بنفسه. والحقيقة، من منظور ابن صمادح، أن ابن حزم لم يعد يصطبر لعجرفة المنصور وبطشه، بل جنونه. وما لبثَ أبو مروان عبد الملك بن شهيد أن طلبَ الإعفاء، واعتزلَ الناس واعتكفَ في بيته.

هو ذا التحول... مَن لازموا المنصور أول الأمر وآمنوا به، نأوا عنه، أو رسموا مسافة منه، لأنه أضحى شخصاً آخر. وهو كذلك رسم مسافة مع من لازموه أول الأمر وكان يرى فيهم مرآة تعكس حقيقته. لم يعد يحتاج إلى مرآة. سكنته لوثة الجنون. لا يستمع إلى أحد ولا يأبه برأي أحد، ولا يريد من أي إلّا أن يكون صدى أو أداة. تساءلَ ابن صمادح، هل مآل كل طاغية أن يركبه الجنون؟ وما الذي يصنع الجنون؟ عدة عناصر، منها الاستفراد بالسلطة والثروة والرأي واليد الطولى والبطش وعالم الحاشية القائم على التملُّق والتزلُّف والمديح والزيف والخوف. الخوف هو الشعور المسيطر في أي نظام مطلَق. يخشى الحاكم من أعدائه، وتخشى الحاشية من نزوات الحاكم وتقلُّباته، وتخافُ الرعية من أزلام الحاكم. ثم يتمخّض الجنون من عالم الخوف. يتلازم جنون الحاكم وخنوع الرعية. جنونه يبقي الرعية في الخنوع، وخنوعها يضاعف من جنونه.

بقيَ من المقرّبين للمنصور ابنُ فطيس، وابن عياش، وعيسى بن سعيد، وابن حدير، وابن جهور، وكان سرّ بقائهم هو الانقياد لنزوات المنصور، ومجاراته فيما يقوم به، وعدم الإتيان لما يُغضبه أو مجاهرته بالحقيقة. كان محمد بن علي بن سعيد بن حزم مَن يستطيع أن يجاهره بالحقيقة، وأُبْعِد لأن المنصور لم يعد يريد أن يرى نفسه في مرآة أي كان. وكان ابن صمادح يرى أنه كان يمكن أن يكون مرآة، وإن لم تكن له العلاقة ذاتها التي كانت لابن حزم مع المنصور. إلّا أن المنصور لم

يكن يريد مرآة. مرآة تعكس الحقيقة، بل كان يريد «حقيقة» كما يرتئيها وتزيّنها له الحاشية.

سقطَ الوَهْم الذي راود ابن صمادح، ولذلك لم يكن له بدّ من أن يرسم مسافة من المنصور. ينتقل إلى الديوان، ويلزم مجلس الندماء، حتى يأتي وصيف ليصرفهم، ويستمع خلال مجلس الندماء إلى الأشعار والأخبار، حتى العصر، ولا يكاد ينبس بشيء، ثم يعود إلى بيته ويعتكفُ على القراءة والكتابة..

وحلَّ شهرُ رمضان، وتقدمت جِلّة من رجالات الدولة والأدباء على مباركة المنصور في الشهر الفضيل. كان صاعد البغدادي قد قدِم حينها من بغداد، إلى قرطبة، وقد سبقته أنباء عن امتلاكه ناصية اللُّغة، وحفظه للشعر ومعرفته للغريب من الكلام.

دُعي الوزراء والعلماء والشعراء وأهل الحاشية، لحضور أول درس لصاعد البغدادي عقب صلاة العصر لثالث يوم رمضان. كان المنصور يريد أن يمحو أثر أبي علي القالي وكل ما يرتبط ببني أمية وأمجادها.. ابتنى الزاهرة ليُنسي الزهراء، واستقدمَ صاعداً ليمحو ذكر أبي علي القالي.

كان المنصور في أول درس يلقيه صاعد البغدادي في رمضان غِبّ حلوله بقرطبة، محاطاً بولديه عبد المالك، ابن الذلفاء، وكانت حرة، وعبد الرحمن من يعرف بسانشلو، ابنه من أميرة من نافار تزوجها ابن عامر واعتنقت الإسلام وتسمّت بعبدة. كان ابن عامر من خلال إحضار ابنيه عبد الملك وعبد الرحمن للدرس يريد أن يزيل أثر عبد اللّه. هل كان له أن يفعل لولا أن عبد اللّه يسكنه ويملك عليه شغاف نفسه؟ كان ابن صمادح يُحوّل نظره ما بين عبد الملك وعبد الرحمن، ويتذكر عبد اللّه القتيل. تعود إلى ذهنه لحظة إعدامه غير بعيد عن وادي الحجارة، والرسالة الصامتة التي بثّها، وكأن لسان حاله يقول له: اشهدْ عن هذا

العالم الذي يمسكنا ويصدنا عن التحرر، ويوثقنا بالخوف والكذب والرياء والخرافة. كان تتبّع ابن صمادح لصاعد البغدادي جزءاً من اهتمامه بواجب الشهادة. أليس أدب صاعد البغدادي غشاءً يحيط بالحُكم المطلق، يبرّره ويزيّنه؟ لا يمكن فصل اليد التي تبطش من خطاب يزيّن البطش ويمتدح صاحبه.

بدأ صاعد حديثه بمدح المنصور، من يرفع راية الإسلام في الأندلس، ويحفظ لسان العربية. وهل يكون صاعد أقدر على معرفة واقع العربية بالأندلس من بنيها، وهو لا يعرف الأندلس ولا مكوناتها؟ وهل يمكن أن تتطور منظومة وهي منفصلة عن محيطها؟ استمع ابن صمادح بإمعان لما ورد في درس صاعد، ممّا نقله بعدئذ في كتاب أسماه **بالفصوص**. كانت اللغة عسيرة، ومستغلقة، والتعبير متكلفاً. غلب السأم الحضور، ووجدوا العنت في تتبع تفريعات دقيقة في اللغة، خاصة في شهر الصيام.. إلى أن أنهى صاعد درسه، وتقدّم إلى المنصور وقبّل يده.. ثم انسلَّ المنصور في جناح موارب، وخاض أعضاء من الحاشية في الحديث والنقاش.. إلى ساعة المغرب، وأفطروا في جنان نعمان. بعد الفطور، اختلى المنصور في جناح الحريم.

وظلّت الحاشية حيث هي حتى ساعة العشاء، صلى من صلى العشاء، ومنهم من صلّى التراويح في مسجد صغير في جنان نعمان، ومنهم فضّل لعب الشطرنج، ومنهم من راغ لمطارحة الشعر والأدب. في منتصف الليل عنّ المنصور بقسمات جامدة. وقفوا إجلالاً له. اتخذَ مجلسه على سرير مهيّأ له، ثم دعاهم للجلوس بإشارة منهم. سألهم:

- فيمَ أنتم فيه؟

ردّ سعيد بن عيسى:

- في الأدب يا مولاي.
- أين الزبيدي؟ سأل المنصور.
ووقف الزبيدي مبتهجاً. أردف المنصور:
- ما رأيك في صاعد؟
- بلاد الأندلس والمغرب أبحر في العلم، عقّب الزبيدي.
- ما تقول يا فقيهاً؟ قد يكون ذلك في علم الحساب والطبّ والفلسفة، أبعد اللّه عنا شرّها وشرّ من يتعاطى لها، لكن ليس في اللغة.
- الذي سمع مولاي.
- فاختبر صاعداً.
كان صاعد يشعر بالحرج، دون أن يبين. توجّه إليه الزبيدي بالسؤال:
- ما تحسن أيها الشيخ؟
- حفظ الغريب.
- فما وزن أولق.
ابتسم صاعد ثم قال:
- أمثلي يُسأل عن هذا يا شيخ؟
ردَّ الزبيدي:
- قد سألناك، ولا نشك أنك تجهله.
تغيّر لون صاعد ثم قال:
- أفعَل.
فنظر الزبيدي إلى المنصور قائلاً:
- إنه مُمَخرق يا مولاي، يهرف بما لا يعرف.
نظر المنصور إلى الفتى فاتن:

- هلا أتيتني بالسِّفر الذي بين يديك؟
وقدّم فاتن سِفراً كُتب عليه كتاب النكات.
سأل المنصور الفتى فاتناً:
- لمن هذا السفر؟
- لأبي الغوث الصنعاني، يا مولاي، أجاب فاتن.
ثم توجّه المنصور إلى صاعد بالسؤال:
- ما تعرف يا صاعد عن هذا الكتاب وصاحبه؟
فانبرى صاعد محدثاً عن الكتاب وأهميته، وصاحبه في إسهاب وعُجب.
سأله المنصور:
- هل أدركت أبا الغوث الصنعاني؟
أجاب صاعد:
- كيف لا، وقد حلَّ ببغداد، وحضرت دروسه، وأجازني.
- وما يقول في كتاب النكات؟ استرسل المنصور.
- جمع يا مولاي، في هذا المؤلَّف من كل فنّ طرفاً، وفيه لغة منثورة، وقول مسبوك ومعنى دقيق.
- هذه عموميات. ما يقول على وجه التخصيص؟
- بعُد عهدي به، يا مولاي، ولم أعد أحفظه.
حينها افتر ثغر المنصور عن ابتسامة، ثم قال:
- للّه درّك يا صاعد على الاختلاق والكذب، فليس هناك شخص اسمه أبو الغوث الصنعاني، ولا كتاب بعنوان النكات، وإنما هي حيلة تفتّق عنها ذهن فاتن، كي يظهر أهل المغرب على قصر باعك. والكتاب كاغِد بلا كتابة، وغلاف مموَّه. لا تستهن يا صاعداً بأهل المغرب ومعرفتهم بلسان العرب.

ووجمَ صاعد، وعلت القهقهة، وصفق المنصور وحضر كبير الخدم.

- هيّئ لضيوفي العشاء، وامدد سماطي مع الأهل.

نهض المنصور، ووقفوا له إجلالاً.

اعترى ابن صمادح إحساس أن ما رأى ليس حدثاً، وإنما ظاهرة. ظاهرة علماء مختلقين، وأمراء متنطّعين، وكلاهما متلازمان. الأمراء من يدفع بالعلماء المختلقين والزائفين كي يُزْروا بالعلماء الصحاح، فيضيع العلم بعدها. نعم هزأ المنصور من صاعد ليلجمه، ولكنه محتاج إليه، من أجل أن يمحو أثر عالم حقيقي هو أبو علي القالي.

كان ابن صمادح يشعر أن ما يترصّد الحضارة الإسلامية من خطر هو إزراؤها بالعقل، بعد أن أعلت منه لفترة، وهو ما أوحى به ابن عامر من التشفّي من الفلسفة ومن يتعاطاها.

2

في يوم من أيام الخريف، حلَّ ابن صمادح ببيته عائداً من الديوان كالمعتاد. وجدَ الرميكية واقفة تنتظره في صحن الدار متغضّنة الوجه. أدرك أن أمراً جللاً وقع. قامت بعلامة الصليب، ولمّا اقترب منها نطقت بصوت خفيت:

- باشكوال.

- ماذا؟ ندَّ عن ابن صمادح في هلع.

- لم يعد من هذا العالم. اختاره الربّ لجواره.

وتنهّد ابن صمادح، أو زيري على الأصحّ، تنهُّداً عميقاً، ثم أرسل:

- يا ألله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

رسم لحظة ثم أضاف:

- من أخبرك؟

- شبريقو. بعثَ بالخبر إلى الكنيسة، وأخبروني من كنيسة قرطبة. أرسلوا لي بساعي بريد.

- ومتى كان ذلك؟

- قبل أسبوع... على ما يبدو.

بقيَ ابن صمادح متسمّراً في مكانه، حين سألته الرميكية:

- ما أنتَ فاعل؟

- ذاهب على الفور.

- تنال بعض الطعام أولاً.

- نلت منه بالديوان. هيّئي لي من الحوائج ما خفّ.

- ألا ترى أن تتريّث إلى الغد وأصطحبك؟

- لا. لا يمكن أن أنتظر، ولا يمكن أن تصطحبينني.

- الطريق ليلاً غير مأمونة.

- لدي زهاء أربع ساعات قبل المغرب، أنزلُ بعدها بنزل بشقندة، وأعاود السير عند الغداة... هكذا أصلُ ظُهر غد. لسوف أكتب لك بطاقة تبعثين بها للديوان، تتضمّن غيابي لعذر..

غادر زيري حينها الزاهرة، ونزل نزلاً في ربض شقندة بُعيد المغرب. عند أولى خيوط النهار ركبَ زاملته في اتجاه أستجة، ولبس لباساً بلدياً غير لباس العلية من خُدّام الدولة. وصل أستجة قبيل الظهر. لم يتوقف إلا مرة واحدة، أراح فيها راكبته، ونال بعض الطعام ممّا كان في جرابه... ثم عاود المسير.

على مشارف البيت كان الحزن يخيم على المكان. يحفُّ بالبيت أشخاص ممن حلّوا للعزاء، يذرعون فضاءه، أو يقتعدون على أرائك خارج البيت. بدا من مشارف البيت شبريقو. تبيّن زيري فبعثَ من يخبر يوسف. خرج هذا الأخير إلى الباب. أرخى زيري رسن دابّته، وهرعَ إلى يوسف وارتمى في حضنه. أجهشا كلاهما بالبكاء... وظلّا كذلك طويلاً أمام مرأى الحاضرين وتأثرهم... وفجأة انسلَّ يوسف عن زيري، أمسك يده، وأخذ يقبّلها مرات ومرات. واهتز نشيج زيري إثرها... أدرك أن يوسف يعرف علاقته به، وأن باشكوال أخبره بالحقيقة قبل الوفاة... أبكى المنظر المعزين. وجد شبريقو العنت في

فصل زيري عن يوسف. كلما حاول ذلك، ازدادا التصاقاً. انفصلا بعد لأي. ظلَّ زيري ماسكاً بيد يوسف، وتقدّم إلى داخل الدار وهو يمسح دموعه. بدت له مرية وهي تلبس السواد، لباس الحداد عند المسيحيين. ارتمى زيري في حضن مرية، ولم يتمالك من النشيج. ضمّها ضمّاً قوياً، ثم أخذ يُقبّل يدها ورأسها. كانت متماسكة، لم تذرف دمعة مع أن معالم الحزن كانت بادية على وجهها. تنهّد زيري ثم استدار نحو يوسف:

- أين دفنتموه؟

- بالربوة، قال يوسف، قرب قبر تودة.. وقبر أمي راحيل...

كذلك قالَ يوسف في صورة بدت فيه الحقيقة عادية. لم يعد يُخشى أمرها. يُخشى أمر الحقيقة كما يُخشى أن تبدو الحسناء عارية، فإذا تبدّت كان ذلك أبهى. لا شيء يشين للحقيقة كما إخفاؤها، ولا شيء يزيّنها كما ظهورها. يعلمُ يوسف أن له أمّاً حملته في أحشائها، شاءت الأقدار أن ترحل، وتبنّته امرأة أخرى صارت له أمّاً. يعلم أن أباه من علّمه وأدّبه، وتربّى في كنفه، مات، وأن له أباً من صلبه هو زيري. هيّأه باشكوال لذلك، وأخبره حينما أدرك قرب نهايته.

ابتدره زيري:

- أريد أن أقف على قبره. كان بمثابة أب لي.

خرج زيري مرفوقاً بيوسف، وهو يمسك يده، وشبريقو يصحبهما، تشيّعهم مرية، إلى الربوة حيث القبور. بدا له قبر مخضل، عليه علامة صليب، عرف أنه قبر باشكوال، قرب قبر تودة، بشاهدة ورسم هلال، وحُذاءه قبر راحيل، بشاهدة بالعبرية ونجمة سداسية...

وقفَ زيري على قبر باشكوال في خشوع ثم قبّل شاهدته. تراجع للوراء بعدها وأغمض عينَيه. كان يقف في إجلال لرجل حملَ عبقرية الأندلس. كان بمثابة أرض هي أرض إيبيريا، بمادّتها القوطية، سقيت

من ماء الحضارة الإغريقية الرومانية، ثم بعدها من رافد الحضارة العربية الإسلامية. . . كان باشكوال نتاج هذه الروافد كلها، والتعبير عن عبقريتها. كان غرسَها السامق. وجد في العقل الرابط لعناصرها، وفي العدل الماسك لسدى النسيج، وفي الوعي التاريخي الضامن لعبقريتها. أتى قبل الأوان، ولم تقبل به الأندلس المسلمة، وتوجّست منه السلطة الحاكمة وألصقت به الأراجيف، وكذّبته وفتنته، ثم دفعته إلى العزلة والشظف، ولكنه في معاناته تلك كان يحمل نفحاً طيّباً سيضوع يوماً ما ويملأ الخافقين. ليس مؤكّداً أن تقبل به أندلس مسيحية كذلك، لأنه يحمل تأثير الأندلس المسلمة، ويحمل وعياً تاريخياً. كم يبدو أولئك الذين اضطهدوه صغاراً اليوم. كانوا لا يوجدون إلّا بوضعٍ ولَقَبٍ ولا يضمنون بقاءهم إلّا بالدسائس والتآمر. من دون وضع ولَقَب لم يكونوا ليكونوا شيئاً يذكر. أمّا باشكوال فوجوده من ذاته، وذاته من فكره. ثبت لكل الأعاصير لأنه كان حاملاً لفكر، ومن حوله التأمت، قيد حياته، زينة الدنيا، من خلال أُسرة متوادّة، كسرت القوالب القائمة، للأبوة، والعقيدة، والعرق واللون، وها هي تلتئم بعد الممات، في حضن الربوة، وتضمُّ رفاة كل من يهودية ومسلمة، وغنوصي. كان باشكوال عماد ذلك البيت. ذلك البيت الأندلسي الذي يتّسع لكلّ واحد.

- هل هو من أوصى بعلامة الصليب؟ سأل زيري يوسف.

- لا، ردَّ يوسف، ولكن أمي من ارتأت أن تضع الصليب على قبره. كانت روحه مسيحية مثلما قالت.

- هل أوصى بطقوس معيّنة في الدفن؟

- أوصى أن يصلّي له من أراد وفق طقوسه، إن أراد.

تقدّم زيري إلى القبر مرة أخرى. قبّل شاهدته. ثم قبّل شاهدة قبر تودة، وبعدها راحيل. نظر إلى يوسف. تجرّأ وقال له لأول مرة:

- تشبهها. لك نظَرها وملامحها وشعرها الأسيل.

لم يُعقّب يوسف. فَعل فِعل زيري. قبّل الشواهد كلها. تقدمت مرية ورسمت علامة الصليب على كل قبر. فيما بقي شبريقو بعيداً ثم عادوا أدراجهم إلى داخل البيت بالمجلس.

غادرت مرية إلى غرفتها. اتخذَ زيري ويوسف وشبريقو مكانهم بالمجلس. بعدها دخل شابّان، اتخذا مكانهما في الزاوية، وأخذا يرتلان القرآن. استغرب زيري وسأل يوسف:

- من طلب في الفتيين لقراءة القرآن؟

- أنا، رد يوسف.

- ولمَ؟

- لأن أبي حمل كذلك في وجدانه الحضارة العربية الإسلامية، وكان في أخريات أيامه يحب أن يستمع إلى القرآن الكريم، وكنت أتلوه عليه. ومن أجلك كذلك.

وأخذ زيري يرتلُ القرآن مع الفتيين، فيما التزم شبريقو الصمت.

أخذ المعزّون يفِدون إلى المجلس وقد بلغهم مجيء زيري لكي يقدّموا له العزاء. كانوا يعرفون العلاقة ما بين باشكوال وزيري. كان منهم راهب أستجة وبعض من ساكنتها، والعمّال ممن كان باشكوال يستخدم أثناء جني الزيتون أو الحصاد. دعا يوسف المعزّين للغداء. كان الاسم الذي يُعرف به هو ابن باشكوال.

* * *

أمضى زيري أسبوعاً بأستجة ليتبيّن الفراغ الذي خلفه باشكوال. لم يكن يتصوّر أستجة من دون باشكوال، ولم يكن يتصور حياته من دونه كذلك، إلّا أن حب من وقفوا عليه ملأ ذلك الفراغ. عزّى في وفاته المسيحيون، ممن عرفوه، أو سمعوا عنه، وعزّى فيه حبر أستجة، وإمام مسجدها. . . وجاءَ البسطاء من الناس لتقديم العزاء. كانوا

يعرفون له احترامه للعقائد كلها، وحدبه على الناس جميعهم. كان عمادَ البيت الرمزي الذي ابتناه وضمَّ عدة أطياف.

فوجئ زيري يوماً حين نودي عليه لاستقبال رجل من بني أمية في الأربعين من عمره. خرج إليه، ووجد شخصاً عليه هالة، تبدو منه أمارات التميُّز. كان مصحوباً بخدم بقوا خارج البيت. قدّم نفسه باسم الأصبغ بن عبد الملك.. أدخله زيري المجلس، وكلّمه في أدب جمّ يليق بمكانته دون أن يهتدي للصلة التي ربطته بباشكوال. قعدَ الرجل الأموي بالمجلس في تبسّط. قال في هدوء وبعربية لا تحمل لكنة:

- كان رجلاً فذاً. أدّى ثمناً غالياً، جرّاء مواقفه...

وفجأة اهتدى زيري إلى الرجل. إنه ابن هند، من زوجها عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. كان بلا ريب يعرف علاقة أمه بباشكوال، ويعرف أن سندها المعنوي حين نفيت إلى جزيرة بميورقة كان باشكوال. أدركَ زيري حينها مدلول كلمة الأصبغ بن عبد الملك... فهو يحيل إلى علاقته المضطّربة بالحَكم، ووشايات جعفر، وتلطيه بنفي من أحب، ثم عزلته في بيته. لم يكن من الممكن الجهر بعلاقة باشكوال بهند، حبّه الكبير. لم يقترن بامرأة إلّا حين بلغه مقتل هند، وغار في اضطراب نفسي أو اختلاط، كما كان يقال حينها. كانت رسائله إليها من شدّ هنداً إلى الحياة، ولو هي ضاعت، وكانت رسائلها إليه من شحذ فيها الأمل. كيف لأيّ أن يمحو هنداً وما ترمز إليه من وجدان باشكوال أو ذاكرته وما توحي به؟ أليس حبّ باشكوال للغة العربية، وهو القوطي المرتبط بالتراث اليوناني الروماني، برّاً بهند وما ترمز إليه؟ أليس حضور الأصبغ بن عبد الملك للعزاء، تأكيداً لتلك الآصرة؟ اللغة العربية جزء من شخصية باشكوال، وهي تقترن بحبّه لهند، وهو حب ملأ وجدانه.

وتشاجنَ الحديث ما بين زيري والأصبغ في شؤون السياسة.

وألقى الأصبغ ما بصدره على من أسماه بالثعلب كناية على ابن عامر الذي نزعَ السلطان من بني أمية وسجن الخليفة، وهزأ بصبح، وقتلَ رجالات الدولة الأكْفاء، كي يخلو له الجوّ، ولم يتورّع من استعمال الأساليب الدنيئة لبلوغ مآربه.

كان الأصبغ حاملاً على ابن عامر، متحسّراً على ضعف بني أمية. شفع حديثه باستشهادات تنمُّ على طول باعه في اللغة، ومعرفته بالأدب. كان ممّا تلاه بالمجلس أبياتاً عرّض فيها بالمنصور:

فيما أرى عجبٌ لمن يتعجب
جلّت مصيبتنا وضاق المذهبُ
أيكون حياً من أمية واحد
ويسوس ضخمَ المُلك هذا الأحدب
أبَني أمية أين أقمار الدُّجى
منكم وما لوجوهها تتغيبُ

تُرى أي مآل ستؤول إليه الأرستقراطية الأموية أو ذؤابتها، وقد أخذَ ابن عامر في القضاء عليها؟ هل ستثبت؟ هل ستتحوّل؟ هل ستتنكّر؟ أصبحت مهدَّدة.

وشيّع زيري الأصبغ بن عبد الملك، وتمنّى منه أن يعيد الزيارة، وأن يكون العزاء في باشكوال مناسبة لربط الصلة بمن اعتلق بهم...

ذات يوم، ساعة الأصيل وزيري يذرع مشارف البيت رفقه ابنه يوسف، أو ابن باشكوال، كما شاع عنه، رأيا كوكبة من الفرسان متوجّهة نحو البيت. أمعنَ زيري النظر. تبيّن وقد أخذت الكوكبة تقترب، أن لباسهم لباس البربر. كانوا يرتدون البرانس ويعتمرون العمائم، وكان ثالثهم ملثّماً... استدار زيري نحو يوسف سائلاً إياه:

- أتعرف بربراً في الأرباض؟

- لا، أجاب يوسف. ساكنة أستجة من العرب والمولَّدين.

ثم عقّب وهو يبسم:

- البربريان الوحيدان هنا، أنا وأنت.

أخذ الفرسان يقتربون، وكلما ازدادوا اقتراباً، كلما ازدادت حيرة زيري. أخذت تتبدّى ملامح من لم يكونا ملثّمين. كانا يبدوان وجهَين أليفَين. لكز من بدا شاباً على خاصرة الحصان، وانبرى يركض. علا النقع، ولم تعد معالمهم تظهر، حتى إذا اقترب من زيري، قفزَ من صهوة الفرس، على الأرض في خفّة، ثم أخذَ يعدو نحو زيري، وعانقه عناقاً حارّاً. لم يصدّق زيري أن يكون الفتى الذي احتضنه هو إيغموراسن، وأن من أتيا معه لتقديم العزاء هما بلقين وأگ حمو بلثام قبائل صنهاجة...

- البركة فيك، يا زيري، قال إيغموراسن...

ثم التحق بلقين وأگ حمو بزيري. نزلا من فرسَيهما، واحتضنا زيري... اصطحبهم للمجلس وهو لا يصدّق، موزَّعاً بين شعور المواساة أنْ تلقّى العزاء منهم، والغبطة أن التقى بهم وقد كان يتحرّق شوقاً إليهم، والتعجب كيف اهتدوا إليه وعرفوا بأمره..

تشاجنَ الحديث بلسان البربر. شكر زيري حضورهم، ولم يستطع أن يدفع السؤال، متوجّهاً إلى إيغموراسن:

- كيف عرفت بمكاني؟

- هذه بتلك. ردَّ إيغموراسن. هزأت منا، وكان بعدها أن نكتشف مكانك، ولو كنا نريد ذلك في ظروف غير هذه.

- كيف عرفتم بمكاني؟

- الأمر سهل يا زيري، قال إيغموراسن. كنت عرفت أنك في خدمة المنصور لمّا فصل موكبه نحو قاطلونيا، وشاهدتك ضمن الموكب. لم أسعَ أن آتي ما قد يزعجك وأنت في خدمة المنصور. سعيت أن أعرف سيرتك، وتأكدت من أنك لست عِجْلاً، ثم أخذ

يضحك... عرفت سيرتك وعلاقتك بالمرحوم باشكوال، ولمّا بلغتني وفاته بحانة الزقاق ذهبت عند الرميكية لتقديم العزاء، وهي من أخبرتني بمكانك. أهذا ما تريد أن تعرف؟

- واللّه لم أنِ أفكر فيكم، وأذكركم، ولكني خشيت أن ينفضح أمري...

- ألم تلحظ حضور أڭ حمو؟

- بلى.

- عاد من العدوة. يئسَ من استنهاض البربر هناك، وأدرك أن الأمل هنا، بالأندلس.

تدخّل بلقين:

- لا تكترث لقول إيغموراسن. نحن هنا لتقديم العزاء...

- واللّه إنكم لترفعون عني الحزن. ردَّ زيري.

- وأي عزاء أسمى من أن نكون مالكين لأمرنا؟ عقب أڭ حمو.

وعاودَ بلقين ملاحظته:

- نحن في مأتم، فلمَ تزجّ بالسياسة في كل شيء؟

- لأن كل شيء سياسة يا بلقين، عقّب إيغموراسن... حتى حينما نُظهر عدم اهتمامنا بها.

عقّب أڭ حمو:

- أضحى إيغموراسن أكثر انخراطاً في القضايا السياسية.

ردَّ إيغموراسن:

- وأقل انخراطاً في قضايا الغواني. هناك علاقة طردية بين الأمرَين.

عقّب أڭ حمو:

- المهم أن تكون معنا، لأن الساعة التي يكسر فيه البربر لعنة

الولاء أزفت، ويكفّون حينها من أن يكونوا موالي، ويصبحون مالكين لشؤونهم.

سأل زيري:

- هل الغاية أن يحلّوا محل العرب، ويتصرّفوا مثلهم أو أسوأ منهم، أم أن يقدِّموا بديلاً؟

- المهم أن نتخلّص من العجول، عقب إيغموراسن.

كان الحديث بلسان البربر. تدخّل زيري بالقول:

- هناك بربري معنا لا يفقه لسان البربر.

وأشار إلى يوسف، ثم استأنف:

- هل نعدّه من البربر أم لا؟ سأل زيري.

عقب إيغموراسن بالعربية:

- إذا كان لا يحب العجول، فلا ضير، وإذا كان يحب العجول، فما الفائدة؟ حتى لو تكلّمَ لسان البربر.

ردّ يوسف كما لو هو لسان باشكوال:

- هنا في هذا المكان، لا نكره أحداً. ونعترف بكل أحد...

استبقاهم زيري للعشاء. هيَّأت لهم مرية باقتراح من يوسف صحن كسكس مع اللبن. أمضوا الليلة ببيت باشكوال، في رحاب أستجة غير بعيد عن الربوة حيث ترقد راحيل وتودة وباشكوال، تحضن أرواحهم، وكأنما الربوة أريج زينة الدنيا يضوع منها.



حينما عاد زيري إلى الزاهرة لم يكن ما يثير الاهتمام بالديوان سوى ما صدر من مرسوم أذيع في جامع قرطبة، ثم في جوامع حواضر الأندلس يعلنُ المنصور ملكاً، ويلقب بالملك الكريم، وتعيين ابنه عبد الملك حاجباً، وأخيه عبد الرحمن وزيراً...

لم يعد التدبير اليومي للسلطة شغل المنصور الشاغل، ولذلك عيّن ابنيه عبد الملك في منصب الحجابة وعبد الرحمن في منصب الوزارة، كي يحملا عنه بعضاً من مهامه. وكان يهمه، وهو الأمر الجديد، تثبيت استمرارية الحكم في أُسرته، في أُفُق القضاء على حكم بني أمية.

كان ابن عامر يسعى إلى تذويب الخلافات بين ابنَيه، ولكن الحقيقة شيء آخر، إذ كان الأخوان عبد الملك، وعبد الرحمن يكرهان بعضهما...

ما أن تبدّت أمارات الصيف، حتى نفر المنصور إلى الثغر الأوسط غازياً. التمسَ ابن صمادح أن يُعفى، عن طريق الفتى واضح، وأذِنَ له. وحلَّ المنصور بمجريط، لأسابيع، ثم رابط بوادي الحجارة، وظلّت جيوشه مرابطة بها.

اهتبلَ ابن صمادح نفرة المنصور إلى الثغر الأوسط كي يعود إلى أستجة، رفقة زوجته. أضحى بيت باشكوال غير ما كانه حين فترة

المأتم. كان الحضور يصرف الحزن ويشيع السلوان. أما بعدها فقد حلَّ الفراغ، لأشياء انطمرت لأنها اقترنت بباشكوال وذهبت معه. كان لمرية أن تستيقظ دون أن تجدَ طيف باشكوال، ولا تسمع صوته، ولا تشعر بدفئه في الفراش، ولا أن تقف على اللحظات التي كانت تضبط إيقاع يومه، منذ أن يستيقظ إلى أن ينام، وهو مُختَلٍ في مكتبته، أو هو يورد الدواب، أو يعلفها، أو هو يتجول في الضيعة، أو يتملى على كرسي وقد أغمض عينَيه، أو قد غفا، أو يطلب في الأكل، بل حتى لمّا مرض ولزم الفراش. كان البيت فارغاً من دون باشكوال، من دون بحّة صوته، وسعلته الخفيفة، وحدّته حين يغضب، وحزنه حين يغلبُ عليه الأسى والشجَن. وكان على يوسف أن يقف على هول الفراغ كذلك. كان باشكوال أباً يشمله بعطفه، ونجياً يخلو إليه، وصديقاً يستمع إليه، وقلباً يشاطره همّه، وأُفُقاً ينفتح عليه. كان ابن صمادح أو زيري يدرك ذلك كله، ويعرف أثره في كل من مرية ويوسف.

أمضى ابن صمادح الصيف كلّه بأستجة. خفّفَ حضوره من ثقل الفراغ على مرية ويوسف.

وقرَّ قرار ابن صمادح أن يصطحب معه مرية ويوسف إلى الزاهرة كي يقيما معه. فاتحهما ابن صمادح في الأمر. استمعت إليه مرية، ثم ردّت في عفوية:

- ومن يُؤنس الموتى؟

كانت تريد أن تَبقى قريبة من ذكرى زوجها، وتُبقي ذاكرته وتحرس روحه وروح تودة وراحيل. كانت تنتقل إلى الربوة عند الأصيل، ثم تزمزم، أو تترنم لحناً شجياً وهي تحرّك رأسها، وتعبث بذراعَيها، وعيناها مغمضتان، كأنما هي تكلّم الموتى أو تسمع عنهم، أو كما أن أرواحهم انتقلت إليها. . . أضحى حديثها شِعراً لا يخضع للقوالب المعتادة في الحديث. انتقال أرواح ساكني الربوة إلى وجدان مرية

خلخلَ بنية اللُّغة التي كانت تتكلم بها. اللغة التي يمكن أن تنقل هسيس الموتى، أو تلك التي تنفذ إليهم هي لغة الشعر.

كان شأن خزانة باشكوال يقضّ مضجع ابن صمادح. التمسَ من مرية الإذن أن يغشى الخزانة. أذنت له. دخلها كما يدخل محراباً. أجالَ النظر في مخطوطاتها. بحثَ في أوراق باشكوال. ثم وقف على رُزم مشدودة بخيوط... فتحها. كانت كلها مكتوبة على الصفحة والظهر، وكان لون الظهر مختلفاً عن ظاهر الصفحة. كانت رسائلَ هند لباشكوال، وكان ظاهر الصفحة مكتوباً بمداد عادي، بخطاب ساري، من أجل التمويه، لأنها كانت تعرف أن رسائلها ستُقرأ قبل أن تنتقل إلى ابنها الأصبغ من لدن الحرس. أما ظهر تلك المراسلات فكان مكتوباً بسائل الأرنج، لا يظهر إلا بعد لفحه بلسان النار. كان الأصبغ جزءاً من الذاكرة المطمورة... كان متواطئاً، من أجل حفظ الذاكرة. كان ظاهر الرسائل لا يتغيّر إلّا لماماً. يبدأ بالعبارة التالية:

«قرة عيني، ومربط فؤادي الأصبغ، لا عدمته،
سلام اللّه عليك،
أما بعد،
أبلّغُك سلامي، وأطلعك أن مولانا أمير المؤمنين خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر، حفظه اللّه ورعاه يشملني بحدبه، ويسبغ عليّ من جوده...».

أو لمّا انتقلت الخلافة إلى الحَكم:

«لم يقصّر خليفة اللّه في أرضه، وأمير المؤمنين، مولانا الحَكم، دام علاه في شيء، فشملني بميورقة بضيافته الكريمة، وحدبه الموصول، ولا يخصني شيء سوى التملي بطلعتك».

وتختم بالدعاء لولدَيها ووالدَيها، والثناء على خليفة المسلمين.

كان ذلك ما كان تقرؤه عناصر الشرطة. . . كانت الرسائل تبلغ الأصبغ، ثم يبعثها إلى باشكوال. يفتضّ خاتمها، ويجيل على ظاهرها لسان شمعة كي تظهر حروفها. أمضى ابن صمادح الصيف كله في قراءتها وترتيبها لأنها لم تكن مؤرَّخة ولا مرتَّبة زمنياً. كانت كلها مكتوبة بلُغة سهلة، غير اللغة المعتمَدة في الدواوين. اختار منها المُعبّر عن مسار هند، ومأساة هند، ووصية هند.


ميورقة

1

الرسالة الأولى

يمضي الزمن رتيباً، يتكرّرُ يوماً عن يوم، وشهراً عن شهر، وسنة عن سنة... أنا هنا لأموت. لأدفن حيّة، بلا ذاكرة ولا أثر. لأن شخصاً لم أرُق له، قرَّ قراره أن يطمرني. أتيح له أن يكون صاحب سُلطة مطلقة. أتيح له أن يرثها، ويتصرف من خلالها في مصائر الناس، يرفع من يشاء، ويزري بمن يشاء، لنزوة، أو وشاية، من غير اعتبارات موضوعية. إن هويت، فمعناه أنه انتصر، وإن صمدت فمعناه أنه لم ينتصر، فهل أكون انتصرت إن هو لم ينتصر؟

لا معنى لحياتي أن أصمد فقط. المهم أن تفضي إلى فكرة، فكرة تمنحني القوة لكي أصمد، وتنتقل من هنا، عبر المسافات والزمن، لكي تقول لا للحُكم المطلَق.

الرهان ليس أن أحرّر نفسي، فلا يداعبني الشعور من أني سأخرج يوماً من هذه الجزيرة، وهبْ ذلك ممكناً، فهل سأُقبِل على الحياة بعدها؟ الرهان أن يتحرّر مَن حولي، ممن يرزح تحت الحكم المطلق. إن تحقّق ذلك، فسيكون لحياتي معنى...

نعم، ملأتني لفترة الضغينة على كل من عبد الرحمن الناصر والحَكم المستنصر باللّه. ولكن الحقد والموجدة، وكل ما يرتبط بالكراهية، شعور ممض وسلبي وماحق، وانتقلتُ إلى شيء آخر، هو

أن أستخلص من هذه المرارة عصارتها. فكرة أسكنها وتسكنني. لست أتعرض لشخص بعينه، ولكني ضد كل حاكم يتلبس السلطة المطلقة أو تتلبسه...

تتوالى أيامي رتيبة هنا بميورقة. لا مناجي لي سوى البحر، ولا أنيسي إلا صخبه. أرصد أحواله. متى سيهيج، وكم سيبلغ الموج من الارتفاع، وأصيخ لصخب ارتطامه مع الصخر، وحين يهدأ البحر. ثم إذا صحا الجو تملّيت نور الشمس، وخفقان أجنحة النوارس، وألوان قوس قزح.. وهل هذا ممّا يصنع حياة ويصوغ معنى؟ ولكني مؤتمنة على فكرة أنقلها إليك، كي تنقلها أنت كذلك، وهو ما يخفّف وقر ما أعيشه.

نعم، ألظى لهذا الوضع الذي أعيشه، ولكنه الثمن لهذا الشيء الذي أسعى إليه، وتهفو له نفسي، وهو التحرر من ربقة الاستبداد. نعم، يكفي أن أبعث رسالة استعطاف لـ«أمير المؤمنين»، كي يطوي الصفحة و«يعفو» عني، لكني لا أريد، أو أريد في حقيقة الأمر رفع هذا الإصر، والتخلُّص من هذه المعاناة، ولكنها النهاية، لأنني أقايض بها روحي. أفضّل أن ألظى من أجل صون فكرة تنتقل عبر الأزمان والأمكنة.

ليس هناك ضمانة كي تنتقل الفكرة. لا ضمانة أن تنتقل آهتي، وتنقل معها فكرتي، ولا ضمانة أن تنير مَن به غشاوة، أو تُسمع من به صمم.

ومع ذلك أستمسك بحبل هذا الأمل وإن يكن واهياً.

هند بنت عوف

الرسالة الثانية

لا يمكن لمن حكمَ عليّ بالنفي، ألّا يحكم عليّ بالقتل المعنوي

من خلال الأراجيف والأكاذيب والافتراء. بلغني ما يُتقوَّل بشأني من أني لعوب، كنت أخون عبد الملك. لم أقترن بك إلّا حينما انتهى كل شيء مع عبد الملك. لم يعد يربطني به سوى ورقة، تُسمّى عَقد نكاح، ولكن العَقد كان قد انحلَّ. كان اسماً من دون مسمّى. لأن العَقد ليس مداداً على ورقة، بل آصرة، مبناها على الحب... أو الواجب. ولم يكن شيء من ذلك بيني وبين عبد الملك. لا يضمّنا الفراش، ولا يجمعنا الحُلم، ولا نشترك في شيء من شؤون الحياة، سوى ولدَين رُزقناهما، وقدّرنا أنهما سيرأبان صدعنا. سراب. الهوّة كانت عميقة. لو كنت في وضع عادي لطلبت الطلاق، ولكن الطلاق كما الزواج كان شأن شخص يقرّر فيه، لأبنائه وبطانته، وهو الخليفة... قرّر أن يزوجني من عبد الملك، وهو من قرّر تطليقي منه. وهل يستطيع أن يقرّر في أهواء الناس وما يضطرب في قرارة أنفسهم؟ أوَلا يحق للناس أن يخادعوا حينما يتسلّط عليهم الحُكم المطلق، يدبّر كل شأن من شؤون حيواتهم؟

رباطي بك هو الحب، وهو أسمى من حبر على ورق. أشاعوا عني أني لعوب لكي يبرّروا قرارهم، ولكي يجردوني من كل مصداقية، ويرموني بكل شائنة.

أراهن على الزمن. الزمن الذي يتيح بروز أشخاص تفكر بعقولها، لا من يستحثها الهوى أو يغلب عليها الظنُّ. لأني أؤمن بما أسميته أنت زينة الدنيا. جماعة تُحكّم العقل في أمورها وتبني علاقاتها بناء على المصلحة العامة، وتقيم علاقتها على عَقد اجتماعي، ولا تستمسك بالأساطير، ولا تتأذّى من الاختلاف.

هند بنت عوف

الرسالة الثالثة

علمتُ من خلال الحرس أن عبد الرحمن مات وخلفه الحَكم. يُدعى له في المنابر بالمساجد. الناس مستبشرة. الأمل يحدوها. أتمنى ألا يخيب ظنها.

هند بنت عوف

الرسالة الرابعة

زارني أبي وأمي بعد سنتَين من النفي، أو الاعتقال. لم أتعرّف إليهما لأول وهلة. أثقل الحزن عليهما أكثر ممّا نال مني حتى شحب وجهاهما وعلاهما الشيب. أمضيا شهراً بالجزيرة. ألتقي بهما كل يوم، عقب الظهر. سكنا بنَزل قريب من المكان الذي أجبرت على الإقامة به. علمتُ منهما أن الحَكم نادى عليك وأنك من مساعديه. أتمنى لك التوفيق، ولكني لست أقدّر أن تنجح في مسعاك. الحَكم يرتاب منك، وجعفر لا يحبك ويتوجّس خيفة منك. والحَكم لا يقوى على شيء من دون جعفر. وسيميل إلى ما سيتقوّله جعفر عنك. عالم الحاشية عالم العتمة، وسبيله الدسائس، ولستَ من ذاك.

مات القائد ابن حمديس، وشيّعت جنازته في موكب رهيب، وأشيع أنه مات في غزوة ضدّ المسيحيين، والحال أنه قُتل. قتلَهُ الخليفة. كان ذلك ممّا أخبرني به والدي.

هل تغيّرت الأمور عن فترة عبد الرحمن الناصر؟

لا تدعِ المنظومة تلتهمك. انفر منها إن شعرت أنها تنال ما هو أغلى ما لدى الإنسان، كرامته.

هند بنت عوف

الرسالة الخامسة

(. . .) ما الذي جعلَ الفتى الخجول الذي لم يكن يقوى أن ينظر إلى الناس، وإذا كلّمهم يكلمهم في صوت خفيت، ويبدي حركات مرتبكة تخفي خجله، ما الذي جعله جبّاراً، غليظ القلب، لا يعرف الرحمة ولا الشفقة؟ إنها البنية. هي السلطة المطلقة التي ورثها، وزيّنها له جعفر ورعتها الحاشية، وانتهى به الأمر إلى التحلل من كل الضوابط.

كان يبلغني وأنا إذّاك مقترنة بعبد الملك، أن الحَكم سيكون مختلفاً عن عبد الرحمن ولن تكون له سطوته، ولن يستبيح ما استحله والده. وكنت أؤمن بذلك كذلك. لكني لمّا رأيت ما اجترح الحَكم، أيقنت أن الأمور أعقد من أن تلصق بطبائع الأشخاص. هي بنية، وهي تنجب مستبدّاً يستعبد الناس، ويعتمد في ذلك على حاجب، أو صدر أعظم، ينتهي به الأمر إلى حيازة السلطة ومزاولتها باسم السلطان أو الخليفة. هي ذي البنية، وإن اختلف المكان، ببغداد مع هارون الرشيد وجعفر البرمكي، أو اختلف الزمن، أمس أو غداً.

فهل ستغلب السذاجة على من يُسمّون بالخاصة لكي تُعوّل على طبع أمير، وتراهن على حسن نيته، عوض النظر في البنية؟

هند بنت عوف

الرسالة السادسة

بلغني موت عبد الملك. . أنا حزينة لذلك. أليس هو أب ولديّ الأصبغ وعبد العزيز؟ ألم تمتزج أمشاجنا؟

لم يصطبر لفراقي. وحسب الخليفة عبد الرحمن أن عبد الملك سيُقبِر ذكراي بتزويجه من امرأة أخرى. امتثل عبد الملك لأن لم يكن له خيار، وأبى أن يدخل على زوجته. وبُلّغ الخليفة بالأمر، وغضب

من عبد الملك، وأفرغ عليه جام غضبه. ردَّ عبد الملك حسب ما بلغني:

- مولاي أردت أن تزوجني بمن قررت، فها أنذا قد فعلت، ولكن الحب ليس قراراً...

طُلّق منها في النهاية. لأن الخليفة تبيّن أن هناك مجالات لا يمكن أن يتحكم فيها، وغار عبد الملك في السُّكر، إلى أن مات...

لست أحمل أي ضغينة له، بل إني أشفقُ عليه. أشفقُ عليه لأنه ضحية. ضحية وضع. لم يعرف هذه الأشياء التي تصنع الحياة، والسعي إليها، والتلظّي من أجلها. كان العالم الذي يضطرب فيه زائفاً. مَن يتمسّحون به. مَن يلزمونه. البلاط صانع القيم، من يوجد خارج تلك القيم يهوى، يندثر. الشعراء المعترَف بهم هم من يلتحقون بالحاشية، والحِرفيون المشهود لهم من يشتغلون لفائدة الخليفة، والأطبّاء المحظوظون هم من يشتغلون بالبلاط، والمغنّون أصحاب الحظوة هم من انتهوا إلى الحاشية، أما الذين لا يقر بهم بيت الخلافة، فيُبعدون وينفون ويفتَنون ويقتلون... لا يوجدون. وإن وجدوا لفترة، يكفّون عن الوجود. أي إهدار للطاقات أن يكون مصدر واحد للقِيَم، وأن يخضع الأمر للنزوات والعاطفة.

حسبَ عبد الملك أني جسد بجانبه، يمكن أن يتصرف فيه كما يشاء، لأنه ابن الخليفة. هجرني، وغار في المغامرات، ولم يُقدّر أنه كان يمكنني أن أثور. وحين فعلت لم يفهم، وحين أخذ يفهم، تألّم، واكتشف الحياة، وزيف ما كان فيه، فاختار الموت البطيء...

هل كان يمكن إنقاذه؟ أعتقد أن بنية الخلافة غير قادرة أن تتطور.

ما عساني أقول؟ فليرحمه اللّه.

هند بنت عوف

الرسالة السابعة

بنو أمية يؤاخذونني أنني قتلت عبد الملك. يزعمون أنه مات بسببي. هذا ما انتهى إليّ من العريفة، وهي صلة وصل بيني وبين الحرس. لم أعقّب. ما عساي أقول حينما يزلُّ الفهم إلى هذا المستوى، أو ما يُحسب أنه فهم؟ لماذا لا يستطيع بعض الأفراد، ولا الجماعات أن تنظر إلى الحقيقة، وتلصق مشاكلها بالآخر؟ أما أنا، فلا بواكي عليّ... لا أستحق أن أكون موضع شفقة ولا عطف ولا تعاطُف... لأنني لا أطابق ما ترسمه المنظومة. أمّا ما ألظى به من عذاب، فمنذا يأبه به؟

هند بنت عوف

الرسالة الثامنة

أشعرُ بالتعب والأسى واليأس. عوّلت على الزمن، ولكن الزمن وئيد... أشعر بسطوته... منذ أستيقظ إلى أن أنام سبح طويل... أضحيت أكرّر ما أقوم به.. كهذه المرأة الإغريقية التي كنتَ حدّثتني عنها تغزل غزلها ليلاً ثم تنقضه عند الصباح... بنولوب، هذا اسمها.

بي غشاوة.

ليس من الحكمة أن تزورني هنا في منفاي، ولو أني أتحرّق شوقاً إليك. ستنكشف علاقتنا، ولن آمن بطش الحَكم عليك... فهو يحسب أنه الأولى بي، ويحمل جرح تفريقي عنه. ثم إنني أريد أن أحفظ هذا الذي انتهيت إليه، ممّا أبعثه إليك ولا أرى أحداً سواك مؤتمناً عليه.

ما يخفِّفُ لوعتي زيارة أهلي وبعض الأقارب. أذن الحَكم في ذلك، على خلاف عبد الرحمن الذي أرادني مفصولة عن العالم. هل

يمكن أن ننعت الحَكم بالعطف والرحمة لأنه أذن لأهلي في زيارتي، وأبقى على اعتقالي؟

هند بنت عوف

الرسالة التاسعة

علمت من العريفة أن الحَكم تزوج، وتزوج من قينة. تزوج لأنه لم يكن بد من الزواج، كي يضمن استمرارية النسل. ومنذ متى كان الحَكم يهوى النساء؟

هل يستطيع الحَكم أن يدبر هذا الوضع، بين ما طُبع عليه، وما يفرضه عليه وضعه؟ كيف سيحدث ذلك دون تمزق، وبلا ثمن؟

هند بنت عوف

الرسالة العاشرة

خمس سنوات في عزلة شبه تامة.. أتُقدّر ذلك؟ هل تعرف أن ما يخفّف عني صولة الزمن، هو حين أصاب بزكام، أو يعتريني الوجع، أو أصاب بمغص، أو يجرح إصبع لي وأنا أقلّم أظافري، أو تنفذ إبرة في إصبعي وأنا أطرز؟ يقطع المرض أو الوجع رتابة حياتي، ويصرفني عن الأسئلة الوجودية...

نظرت إلى نفسي في المرآة، ووجدتني شخصاً آخر. بدأ الزمن يرسم معالمه، مثلما أخذ يحفر في تجاويف نفسي أثر ما عانيت منه وما أعانيه.

ليس سهلاً أن يحمل المرء فكرة، أو تسكنه فكرة أو تستحثه رؤية...

هند بنت عوف

الرسالة الحادية عشرة

لم تعد الحراسة بالصرامة التي كانت. يؤذَن لي في النزهة خارج الإقامة إلى مرفأ البحر. أستمع إلى حديث الصيّادين والبحّارة والرياس. يظلُّ حارس على أثري دوماً يقتفي خطاي.. تتحلق حولي الأنظار في استفهام وريبة، وإشفاق كذلك. أخرج للمرفأ حتى ساعة المغيب، وأعود أدراجي.

يأتي من يمخرون البحر بأخبار طازجة من ألمرية. ينقلون ما يموج في الأندلس وما تمور به قرطبة. يُسرّي ذلك عني. أشعر برغبة جامحة كي أعرف ما يجري...

هند بنت عوف

الرسالة الثانية عشرة

أصدقائي الذين يلازمونني بوفاء منقطع النظير، هديل حمامة عند الصباح، نافورة وماؤها المنبجس، البحر في هدوئه وصخبه، ونجوم السماء صيفاً... أتملّاها، وأحصيها، ثم ينفرط العدّ، وأعيد الكرّة... ثم الكتب. طلبت في **العقد الفريد**، وكذا **الشعر والشعراء** لابن قتيبة... لكن الشاعر الذي أهيم به هو المتنبي. نسخ لي والدي نسخة من ديوانه وبعثها إليّ. إنه حقاً يحدث بخواطر الناس.

أحب منه هذا البيت:

فلا عَبَرَتْ بي ساعَةٌ لا تُعزّني
ولا صَحِبتني مُهجَةٌ تقبلُ الظُّلْمَا

لو لم يقل إلّا بيته ذاك، لكفاه.

هند بنت عوف

الرسالة الثالثة عشرة

لم أتوقع ذلك، لم أتوقع أن تموت والدتي. ثلاث وخمسون سنة، تغيض منها مادة الحياة، لأنها فُتنت في بنتها... أوقرها الحزن، وهدّها الأسى فأسلمت الروح.

أخبرتني العريفة، وحسبت الأمر كذبة. لتعذيبي نفسياً. المعتقَلون يصابون بداء الاضطهاد والارتياب. ثم بعدها بلغني كتاب من أبي. بخطّ يده، ينعي لي أمي...

بكيت. ندبت. شققت جيبي. نتفت شعري.. كل ذلك وحيدة. لا مُعزّي. لا مواسي. سوى البحر، وهديل الحمام، وانبجاس ماء النافورة... وخيوط المطر.

فكرت في أن أضع حدّاً لحياتي.. أن ألقي بنفسي في البحر... أن أفصد عروقي. لم أقدر. وددت لو أني استطعت...

ثلاثة أشهر مذ بُلّغت بالأمر... وتولّدَ شعور آخر، بعدها. الاستمساك بالحياة. إن ماتت أمي فليس لي أن أموت. أو أن أموت عبثاً، أو أعيش بلا معنى...

هند بنت عوف

الرسالة الرابعة عشرة

زارني ابناي الأصبغ وعبد العزيز. خفّفا عني. استبقيتهما الصيف كله. أُذِنا لهما أن يسكنا في الإقامة التي أسكنها. أكتشفهما كما أكتشف غريباً. الأصبغ يشبه أباه من حيث ملامحه، ولكنه أخذ مني طبعه، وعبد العزيز يشبهني جسدياً، ولا أدري طبعه. ليس طبع أبيه، حتماً. لربما طبع فتى جريح. فتى موتور.. فتى حُرم من أمه، ومات أبوه، ويرى أمه تذوي، وهو بلا حول ولا قوة. الأصبغ يخفّف من وقر الأسى بالغضب والوعي.

سألني الأصبغ عنك كثيراً. كنت أتوقع أن تغلب عليه الغيرة، فإذا أنا أكتشف حبّاً لك وعطفاً عليك.. كما لو أنه نقل حبه إليك... أخبرني أنك انفصلت عن الحَكم، وأن الأمور ساءت بينك وبين جعفر...

كنت مسرورة أنك انفصلت عن بنية لم تقبل بك.

ثم هناك جانب ذاتي. كيف يقبل من يحبني أن يخدم من يعتقلني؟

على الأقل أنت ذاتك منسجم معها.

هند بنت عوف

الرسالة الخامسة عشرة

تُرى لو لم تقع عين الحَكم عليّ، ويُغرم بي، لما زوجني الخليفة من عبد الملك، ولما آلت حياتي إلى ما آلت إليه الآن... أهذا الذي جنيته من الاقتران ببيت الخلافة؟

وقد أقول الشيء ذاته عنك، لو لم تعرف الحَكم صبياً، ولو لم تتفوّق عليه في الدراسة، لكان لحياتك شأن آخر غير ما تعانيه من حرمان وتمزّق.

قرأت في **المدينة الفاضلة** لأفلاطون أن الطبيب يستأصلُ العضو المريض كي يُبقي الجسد، أما الطاغية فيستأصل العضو الجيّد كي يبقي على الجسد المريض...

لم تسِرْ حياتك ولا حياتي مساراً طبيعياً، ولعلّه الثمن لفهم وضع معضل، والوقوف على تناقضات بنية. بنية مُعطِلة لطاقات الجماعة.

هند بنت عوف

الرسالة السادسة عشرة

لم أعد أؤمن باللّه بالشكل الذي ورثته ولُقّنته. كائن متحكّم في سكنات الناس وحركاتهم، يحصي عليهم شؤونهم، ويتوعّدهم.

أؤمن بما هو مسار. بما ينقشع في ذات الإنسان بعد أن ينطفئ كل شيء، وتشمل العتمة الأرجاء كلها. النور الذي ينقشع حينها هو ما يفتح مغاليق الكون. هو نور اللّه. هو ذا اللّه الذي أؤمن به، ولا يمكن أن يكون داعياً للاقتتال والتناحر، أو ظهيراً للحقد والبغضاء. هو ذا النور الذي أناجيه عند الفجر، وقبل أن أنام، وساعة الظهيرة... أفعل كما أريد، حين أريد، بأي خطاب أريد. ليس هناك لغة خاصة لمناجاته، ولا أدعية معينة للتقرّب إليه.

الحديث إلى اللّه خلاص. ولا أدري ما قد يكون ما يُعتقد أنه حديث اللّه إلى البشر، وهل هو خلاص؟

هند بنت عوف

الرسالة السابعة عشرة

ماذا سيحفظ التاريخ عن عبد الرحمن الناصر؟ مُلكه العتيد؟ توسيعه لجامع قرطبة؟ بناؤه لمدينة الزهراء؟ غزواته ضدّ النصارى؟ وماذا عن الحَكم؟ إتمامه للزهراء؟ استرجاعه للقلاع التي ضمّتها قشتالة؟ استقدامه للقالي وزرياب؟

لن يقول التاريخ شيئاً عني، ومن هم في شاكلتي، ومن تلظّوا بالملك العاضّ، أو السلطان المطلق. هل نفصل هذا عن ذاك؟ هل هو ثمن للإنجازات الضخمة التي تبهر الناظرين؟ بسبب جنون السلطان يُزجّ بأشخاص في السجن، وينفى آخرون، وتقطع رؤوس وأرزاق. لتبرير إنجازات. بهذا بنيت الأهرام، ومباني الإغريق والرومان، وإيوان

كسرى... والمعالم التي يفخر بها بنو الإنسان.

هل الأمر عادي، وطبيعي، والضريبة اللازمة للعظمة؟ كلا.

لا شيء يسمو على كرامة الإنسان. لا أقبل بهذا الثمن، إذا كان هو الثمن الذي تقتضيه تلك المنجزات.

ألا يمكن أن تكون من المنجزات التي ينبغي أن يفخر بها الإنسان، منظومة تقرُّ بكرامة الإنسان وحريته، وتقيم العلاقات بناء على المساواة؟ لا تُنتهك كرامة أحد، ولا يُفتن أحد، ولا يُضام أحد...

هو ذا الإنجاز الذي ينبغي للبشرية أن تفخر به.. إن قيل غداً إن عبد الرحمن بنى وشيّد، نفرتُ من قبري كي أقول إنه ذبح ابنه، وشوّه وجه جارية، ويتّم أطفالاً، وثكّل نساء...

لي شرعية كي أقول ذلك..

هند بنت عوف

الرسالة الثامنة عشرة

هي قاصمة الظهر يا باشكوال.. سمُج كل شيء في ناظري، وغاضت بهجة الحياة من كل شيء... حتى هديل الحمام لم يعد يسليني ولا النافورة تواسيني. لا شيء يطربني، ولا شيء يستدرُّ السلوى، أو يبعث على الأمل.

وددت لو أن اللّه قبضني إليه.

مات والدي. مات كمداً على أمي، وعليّ...

لم أصحبه إلى مثواه الأخير، ولم أبكه كما تبكي الفتيات آباءهنّ، ولم أرْثه كما يفعل كل موتور. مات وبُلغت بالأمر... في برودة. كما لو يقال انكسر قدح، وانطفأت شمعة، وتمزق ثوب، وسقطت ورقة شجرة...

جفَّ الدمع من عيني، لأن حزني تجاوز حدّ البكاء والندب والعويل وشقّ الجيوب...

عسى ألا أبرح هذا الجزيرة إلّا ميّتة.

لم تعد لي رغبة كي أعود إلى الأندلس... تؤلمني الأندلس، أو يؤلمني ما آلت إليه..

هل هي زينة الدنيا؟

هند بنت عوف

الرسالة التاسعة عشرة

أخرج إلى المرفأ وأستمتع بدفء الشمس ووضوح النهار.. دأبتُ أن أتناولَ السمك في مطعم شعبي.. يعرفني الناس، خاصة وهم يرون حارساً يتعقّبني. يعرفون أني منفية، هنا، كي أموت هنا.. كانوا يتحاشونني أول الأمر خوفاً من الشرطة. لم يعودوا يفعلون، بل أقرأ من عيونهم التعاطُف والمواساة...

أجلس وحيدة على طاولة. إلى أن يبادرني ربّ المطعم. رجل أربى على الستين. من المولَّدين. مثلما يبدو من لكنته. يتقن العربية ويتكلمها بلكنة. آكل عنده السمك الطازج... ولكن الذي يهمني هو أن أجلو السأم...

يُسرّي عني الشيخ.. بأدبه. أسأله:

- عبد الودود، ما جد في الأمر؟

- مولاتي، لم يعد في الأندلس ما يُعجب. إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فانتظر الساعة.

- أبِنْ يا عبد الودود..

- لم نسمع بذلك في الغابرين.

- لم تفصح عن شيء يا عبد الودود.

ويهمس إليّ:

- صُبح، زوجة الخليفة، مرتبطة بعلاقة بابن عامر.. هي علامة الساعة. أن تلدَ الأمَة ربّتها. اللّهُمّ لا تفتنا في ديننا الذي هو عصمة أمرنا.

- الناس تتخرص في القول يا عبد الودود..

- وددت ذلك يا مولاتي، ولكنها الحقيقة. يتناقلها الناس هنا، واليابسة، وألمرية، وقرطبة.. ويأتيك بالأخبار من لم تزود.

أضحى عبد الودود من المصاحبين الذين يَجْلون عني الضيق. وهو إلى ذلك على اطّلاع بما يجري. هو أنيسي إلى جانب الحمَام والنافورة، والنجم والبحر والمطر... ثم المتنبّي.

نعم لي صديق آخر، هو نفسي. هو حديثي إليها... هو ما يمكنني أن أقتنص أفكاري، وأنسج رؤاي.

هند بنت عوف

بعدها لم تبقَ الرسائل بالدقة ذاتها، وأضحت متباعدة زمنياً. منها ما التهمت خطوطه ألسنة النيران فامّحى. أخذَ زيري على نفسه أن يعيد بناءها. وقف على رزمة أخرى فيها أشعار لها. نظمتها هند بلغة بسيطة، ومعبِّرة عمّا تشعر به من أسى. لم تكن تخضع لقواعد العَروض، وكانت أقرب ما تكون إلى الشِّعر الشعبي الذي يتناقله المنشدون في الأسواق، وينقلونه في الأرجاء.

كانت الرسائل التي رتّبها زيري كافية لتعبِّر عن مأساة هند. كان أملها أن تنقل آهتها إلى باشكوال، ثم انتقلت بعدها إلى زيري... وأضحت حديثاً إلى زيري، ومن قد يسمعون عن زيري.

أدرك الحَكم خطورة هند، ولذلك أراد أن يكسبها في أواخر

عمره، ويتصالح معها. كان الحَكم يريد أن يغلق القوس، ويأتمر بما تمليه السياسة، كي تستمر قافلة بني أمية. ولم تكن هند تريد للقوس أن يغلَق. لم تكن تأتمر بالسياسة. كانت تستمسك بالتاريخ... وكان الذي يهمها ليس نسل بني أمية، ولا ضمان سلطانهم وسؤددهم، وإنما تحرير بني الإنسان... لم تكن لتقبل بالتسويات وقد أدّت حياتها قرباناً لهذا الذي آمنت به من تحرير الإنسان.

2

ذات صباح، أقبل زيري على الربوة التي يرقد فيها الموتى وشرع في حفر حفرة قرب قبر باشكوال. كان منهمكاً في الحفر، والعرق يتصبّب من جبينه، حين باغته صوت مرية. سألته بالرومانية:

- Qué passa?

ردَّ برومانية مكسّرة:

- ذكرى..

- لمن؟

- هند. سمعتِ عنها حتماً.

- الجزء المستتر من باشكوال. والأجمل.

- أريد أن أحفر لها ذكرى.

- افعل، لكن ليس قرب باشكوال. ذلك المكان مخصَّص لي. قد لا تكون حياتي الأجمل في مسار باشكوال، ولكني الحاضنة له. يمكن أن تحفر ذكرى لها في الجانب الآخر.

قالت مرية ذلك ثم توارت.

أخذَ زيري الفأس وحفرَ حفرة عن شِمال قبر راحيل. فاجأه صوت يوسف:

- هل تريد أن أساعدك؟

ردَّ زيري باستغراب:

- يوسف، ما تصنع هنا؟

- سمعت وقع الحفر. . . وأضاف: هل ذكرى هند تحتاج إلى علامة؟

وتوقّف زيري عن الحفر، وقد أهاجه سؤال يوسف.

- أعتقد ذلك. هي تريد أن تُبلّغ رسالتها، كي تفضح الزيف والافتراء.

- يكفي أن نجعل من قلوب الناس مثوى لها.

- نحتاج إلى رموز في الحياة. . .

- إذاً تحفر هنا. . قرب أمي راحيل. .

- لا. . اترك حيّزاً بينهما. أريد أن أُدفن قرب أمك. .

حفرَ زيري حفرةً، ثم أثبت شاهدة بالخشب، كتبَ عليها:

ذكرى هند بنت عوف.

ضحية البهتان والطغيان.

من حملت حُلم زينة الدنيا، وصمدت في وجه الاستبداد.

وقف الأب وابنه في خشوع ترحُّماً على ذكرى هند. قاطعهما فجأة صوت منبعث من البيت يجأر بالغضب والألم، ثم أخذ يقترب رويداً رويداً. طفق يوسف يصفق رجعاً لصوت مرية. . . ظهرت مرية بلباس الفرح وهي تتقدّم الهوينى، كفرس متبخترة. أخذَ صوتها يزداد قوة. أخذَ ألمها يشتد حدّة. صوتها يعبّر عن الألم والأسى. قسمات وجهها تشي بالغضب. يعلو جُؤارها إلى السماء. تردّد الجبال الصدى. تهتز الأرض على وقع أقدام مرية. تضربها، كما لو تنفش عِهْناً. . .

ظلَّ يوسف يصفق بيدَيه في إيقاع موازٍ لغناء مرية ورقصها. . أخذ

زيري يصفق كذلك، في غير اتساق. ظلّ صوت مرية يرتفع، والأرض من تحتها ترتجُّ، وذراعاها تخبطان الهواء، ورأسها يرتفع في شمم، ورجلاها تهزان الأرض هزاً. . أنين ألمها، يزداد. حركاتها تعبِّر عن الألم. الألم يستحثُّ حركاتها. اللّه، اللّه. أولي، أولي. أقوى، أقوى. تختلطُ الحركات وأنين الوجع. . تعبثُ برأسها، كمن ينتفض ضدّ وضع. كمن يألم لوقع. كمن ينتحب. . إلى أن هوَت على الأرض كأنما أغشي عليها.

تقدّم نحوها زيري. أمسكها من يدها. أنهضها. عانقها عناقاً حارّاً، ثم قبّل يدها. لم تعد مرية زوجة باشكوال فقط، ولكن جزءاً من زيري، وهي حارسة الربوة. الربوة التي تحمل روح زينة الدنيا.



دار نعمان

1

كانت بداية الخريف هي الزمن الذي يُفترض أن يعود فيه ابن عامر من غزوته. لم يكن ابن عامر قد وصل الزاهرة حين بلغها زيري أو ابن صمادح مع زوجته وابنه يوسف كي يدرس بجامع قرطبة. كان على ابن صمادح أن يستأنس بابنه، الذي عاش مع باشكوال أكثر ممّا عاشَ معه، وأخذ عنه، ويُعرف بابن باشكوال.

أياماً بعد إذ وصل ابن صمادح الزاهرة، طرقَ بابه طارقٌ. كان رقّاصاً[1]، أبلغه أنه مدعوّ إلى عقيقة عند مروان بن شُهيد وقد رزق ولداً.. سأل ابن صمادح الرقّاص، كي يتأكد هل عبد الملك بن مروان من رُزق ولداً أم أحد أبنائه. أكّدَ الرقّاص أن الأمر يتعلق بأبي مروان بن شهيد نفسه. لم يتمالك ابن صمادح من الابتسام وقد غادر الرقّاص. كان عيسى بن سعيد يُعيّر أبا مروان بن شُهيد بالعِنّة، وها هو ذا أبو مروان كي يثبت فحولته يلدُ ولداً..

لم يكن خلق كثير في حفل العقيقة، لأن أغلب أعضاء الحاشية كانوا مع المنصور في الصائفة، ولأن أبا مروان لم يجرؤ أن يقيم حفلاً ضخماً في غياب المنصور. كان الحفل في حديقة بيت ابن شهيد، بدار ابن النعمان، حي تسكنه العلية من الوزراء. كانت الموائد منتصبة

(1) الرقّاص هو المرسول في الأندلس والمغرب.

وكانت فرقة تعزف نوبات أندلسية. اتّخذَ ابن صمادح مكاناً قرب ابن حزم. كان هذا الأخير يبدو حزيناً لم يصطبر لتغيُّر المنصور عليه وإبعاده. تشاجن الحديث ما بين ابن صمادح وابن حزم على أنغام العزف. كان ابن صمادح يود أن يدفع ابن حزم للحديث، ويخرجه من تحفّظه، لأنه يعرف أنه مطّلع على ما يجري بحُكم ارتباطه بعلاقات مع عناصر الحاشية.

- اشتقنا إليك يا ابن حزم.

- متبادل يا ابن صمادح. . .

- متى سيحلّ مولانا المنصور وفقه اللّه؟

- الطلائع حلّوا، ولا أرى أنه سيتأخر لأكثر من أسبوع قبل أن يدخل الزاهرة.

- وكيف أخبار سيدنا وفقه اللّه؟

- اعتزل بوادي الحجارة (لم يشر ابن حزم لابن عامر تورية). لا يبدو أنه كان في وضع نفسي جيّد.

- كيف وقد حقق انتصارات على النصارى؟

- انتابه الندم وقد قتل ابنه.

- ولكنك، وتذكُر ذلك، أن قال إنه ليس ابنه.

- ما قاله شيء، وما يشعر به شيء آخر. قتل الفتى سعداً والسيّاف ابن خفيف، لأنهما من قتلا ابنه. .

- أمتأكد ممّا تقول؟

- أنقل لك ذلك من مصادر موثوقة. أنت تعرف أني مبعَد.

- هي سحابة صيف، لن يلبث مولانا أن ينادي عليك. لن يستغني عن خدماتك. .

- واللّه يا ابن صمادح لا أدري. . . منذ أقدم على فعلته تلك

أضحى شخصاً آخر، وأقدّر أنه ما أقدم على قتل الفتى سعد والسيّاف ابن خفيف إلا لأنه يألم...

- وما يجدي قتلهما؟
- اخفضْ صوتك يا ابن صمادح.
- عفواً.
- ويُرتقب أن يقتل ابن المطرف.
- كيف؟ ألم يُقتل ابن المطرف؟
- يا لك من ساذج يا ابن صمادح... كانت شائعة فقط، ليبثَّ الرعب في نفوس الحاشية... ما قاله عيسى بن سعيد عن مقتل ابن المطرف كذب.. قاله بأمر من تعلم...
- إذاً ابن المطرف على قيد الحياة.
- أرى لأيام معدودة.
- ابن المطرف حيّ؟...
- بقي أسيراً ومقيَّداً بوادي الحجارة، ثم أوفد لسجن بالزاهرة.
- ليس معنى ذلك أنه سيقتله.
- أرى وقد قتل الفتى سعداً والسيّاف ابن خفيف، وهما من نفّذا عملية الإعدام، أنه سيقتل ابن المطرف لأنه من احتمى به ابنه.
- ولكنّ سعداً والسيّاف لم يكونا إلّا أداة.
- صحيح، ولكنه يؤاخذهما أن قتلا ابنه.
- وهل كانا يستطيعان أن يرفضا الامتثال لأمره؟
- لسنا أمام وضع طبيعي.. يأمرك بشيء ويؤاخذك على امتثالك له.
- وابن المطرف ليس ضالعاً في مقتل عبد اللّه.
- لم يعد شيء يوقف من تعلم.
- يمكن أن يعفو عنه.

- مُحال.

حلَّ عندهما أبو مروان بن شهيد، يأخذ بيده خادم، وهو يتوكأ على عكاز، يرحّب بهما والفرحة تشع منه.

- مرحباً بالوزير الجهبذ السُّميدع ابن حزم، وبالأديب النِّحرير ابن صمادح. شرّفتماني.

قطع ابن حزم ترحيب ابن شُهيد في دعابة:

- لا ينقصنا في هذا الحفل البهيج سوى عيسى بن سعيد.

ردَّ ابن شهيد في نفور:

- قبّح اللّه سعيه.

- كي تغيظه...

- واللّه، ثم اقترب من الضيفَين وصرفَ الخادم بحركة من يده حتى لا يسمع حديثهما. من حسنات الإبعاد أننا نخلو لأهلنا... الدور عليك يا ابن حزم...

- ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

- أنت أصغر مني سنّاً..

- لا علاقة للسنّ بالأمر. القلب ومن أراد..

- عقبى لك يا ابن صمادح، كي يُعوِّضك وزوجتك ما ضاع منكما.

وردَّ ابن صمادح بتلك اللازمة التي كان يستعملها لمّا كان متنكّراً في فقيه:

- ما شاء اللّه فعل.

بعدها، دعاهما أبو مروان بن شهيد لحضور الذبح..

سأله ابن حزم عن الاسم الذي اختاره لوليده، فردَّ: «ابن عامر».

ثم نهض الجمع إلى حيث يجري الذبح. وقفت العلية ثم تقدم عبد الملك بن شُهيد مزهواً. كان خادمان يمسكان كبشاً أقرن... تقدّم ابن

شهيد نحو الكبش. أسلمه خادم سكيناً حادّاً. . تَلّا الخادمان الكبش ثم تلا ابن شهيد الدعاء: «ببركة باسم اللّه الرحمن الرحيم، سمّيت فلذة كبدي ابن عامر، على ملة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام».

ثم نزل بالسكين على رقبة الكبش. فار منه الدم. حاول الكبش أن يتخلص من الخادمَين. أمسكاه بقوة. . حينها اندلعت زغاريد النساء تعبِّر عن الفرحة.

كان ابن صمادح ينظرُ إلى المشهد في اشمئزاز وتقزُّز.

عادَ الحضور بعدها إلى المائدة يستمعون إلى الغناء الأندلسي ويتناولون من أطايب الأكل. . . وصورة الدم يفور من وريد الكبش، تملأ ذهن ابن صمادح.



لم يكن ذهن ابن صمادح منصرفاً لشيء إلا لما سمعه من ابن حزم عن مقتل الفتى سعد والسيّاف، وبقاء ابن المطرف على قيد الحياة. هل سيُبقي المنصور على ابن المطرف، أم هل سيجري عليه السيف كما توقّع ابن حزم؟ تُرى ألا يكون السيف نصيبه كذلك؟ ألم يقتل المنصور كلاً من الفتى سعد والسيّاف ابن خفيف، لأنهما من وقفا على مقتل عبد اللّه؟ ألم يحضر ابن صمادح إعدام عبد اللّه؟ وفق المنطق ذاته لا شيء سيمنع المنصور من أن يضع حدّاً لحياة ابن صمادح.

كان ابن صمادح مهموماً، وشعرت الرميكية بأن شيئاً ما يتلجلج في صدر زوجها. منذ وفاة باشكوال تغيّر ابن صمادح. لم يكن يخشى الموت، وكان كل ما أتاه في حياته هو لعبة معها، يخادعها، ويهزأ منها، ويمكن أن تقبض عليه لكن الآن، وولده يوسف في كفالته وهو مؤتمن على ميراث باشكوال، أضحى يخشى الموت.

استقى من الديوان خبر حلول المنصور ضحى الغد بمنية السرور. لبس ابن صمادح يومه لباس الأبّهة، وقصد مُنية السرور حيث سيسلّم الجِلّة من رجالات الدولة على المنصور. أخذوا يحتشدون منذ الضحى. حضر ابن حزم وأبو مروان بن شهيد، ممّن لم يصطحبوا المنصور في غزوته، وأصحاب الشرطة الكبرى والوسطى والصغرى،

وأصحاب الخدمة، من الخيل والأبنية، والطراز، ونائب صاحب العرض، والحشم والفتيان، والعلماء، وقاضي الحضرة والشعراء، عدا من صحب المنصور ومنهم أبو دراج القسطلي، والفتى فاتن وصاعد البغدادي. عند الظهر حضر عبد الرحمن، وبعدها عبد الملك، ولدا المنصور. أيقن الحضور أن الموكب على وشك الوصول..

رتّب صاحب الرسم الأشخاص حسب مواقعهم. ثم سُمع صوت النفير، وأخذ جوق مصطفّ قرب المكان المعروف بأرطانية، يعزف عزف الترحاب والسرور بنوبات الحبور، وعنّ المنصور وهو على فرسه، يمسكُ لجامه وصيفان وهو يقطع منتزه ذات الواديين، إلى أن بلغَ منية السرور وترجّل من فرسه وسارَ خطوتين. جرّ وصيف الفرس ونأى به من مكان الاستقبال. وتقدّم عبد الملك ثم عبد الرحمن بالسلام على المنصور وتقبيل يده، وأعقبهما ابن حزم، فأبو مروان بن شهيد الذي سجدَ، رغم مرضه، ثم نهض، وبعده ابن صمادح، واكتفى بتقبيل يده، كما جرى الرسم، فالقوّاد وأصحاب الشرطة... كانت ملامح المنصور جامدة لا تعبِّر عن شيء. كان يمدُّ يدَه بطريقة آلية دون أن ينبس بشفة، أو تُفصح قسماته عن شيء.. ثم دخلَ منية السرور، وبمجرد أن دخلها ارتفعت أصوات النساء من الحريم تهنّئ المنصور بالعودة. لم يرافقه إلى جناح الحريم إلّا ولداه.

بقيَ رجالات الدولة في الحديقة ينتظرون تعليمات المنصور. التحقَ عيسى بن سعيد بأبي مروان بن شهيد، وعانقه عناقاً حارّاً:

- بلغني أنك رزقت ولداً يا ابن شهيد.
- الحمد للّه على من لا تنقضي خزائنه.
- له الحمد والمنّة. وما الاسم الذي أطلقت عليه؟
- ابن عامر.
- كذا فليكن الوفاء. أيشبهك أم يشبه خادمك؟

فلم يكن من أبي مروان إلّا أن لوّح بعكازه بضربة تفاداها عيسى بن سعيد لو أصابته لهشّمت وجهه، مع وابل من السباب والشتم أمام موجة من ضحك الحاشية.

ظهرَ الفتى واضح، ونقل أمر الحاجب إلى ابن حزم كي يذاع في المساجد عودة المنصور المظفرة ونصره على الكفّار. ثم أضاف، بأمر من المنصور وفّقه اللّه، أن يجمع العلماء والقضاة ويستخلصوا من خزانة الحَكم كل كُتُب العقل، ويحرقونها ويترأّس حفل الحرق العالِم الزبيدي والقاضي ابن ذكوان. كانت إشارة إلى أن المنصور صفح عن ابن حزم. ثم أفشى واضح في الجمع أن ينفضّوا سوى ابن صمادح.

واضطرب ابن صمادح. تبيّن أنه ضحية لعبة. كيف أخبره عيسى ابن سعيد يوم أن كانوا بوادي الحجارة بمقتل ابن المطرف، وكيف كان سؤال المنصور إليه مخصوصاً حين سأله عن سرقسطة.. كان المنصور يريد أن يقرأ من صفحة نفسه أثر خبر القتل المفترض لابن المطرف... كانت لعبة، ولم يتبيّنها ابن صمادح. تستّر في عدة أدوار، وهزأ من أشخاص عديدين، وتبيّن أنه وقع فيمن هو أشد حيلة منه، ألا وهي الحاشية وقدرتها على الدسائس والوشاية والافتراء والخديعة... بقيَ شيء لم تنتهِ إليه، وهو أن ابن صمادح ليس اسمه الحقيقي، ويمكنها أن تنتهي إلى الحقيقة.. ما جدوى التستُّر وهو قاب قوسَين من الموت؟ سيقول الحقيقة للمنصور. هل انتهى كل شيء؟ لن يرعى ابنَه يوسف، ولن يُخرج تراث باشكوال. حياة من غير لا شيء في نهاية المطاف.. يرحل دون أن يُخلّف أثراً.

أغمضَ عينَيه، وسرّح ذهنه. شعرَ بشيء غريب، الجوع. لو أتيح له أن يأكل لأكلَ بشهية، مع أنه قد يكون آخر عهده بالحياة. تجرّأ وطلبَ قدح ماء. أوتي له به.

تذكّر عبد اللّه ورباطة جأشه أمام الموت. أيكون أقل شجاعة منه؟

حدّث نفسه أن يظل ثَبت الجنان، قوي الشكيمة. نادى عليه وصيف. سار على أثره. دخل منية السرور. انتهى إليه خرير الماء في جداول، ثم الماء المنبجس من نافورة، مع حديقة غَنَّاء، بها فاكهة الأرنج والرمان مع الرياحين.. كان المنصور واقفاً يحدّث وصيفاً، والوصيف ينحني حتى لكأنه يركع لكل إشارة. تقدم ابن صمادح وقبّل يد المنصور ونطق اللازمة:

- بارك اللّه في عمر سيدي ووفقه.

لم يأبه به المنصور وظلّ يكلّم الوصيف في شأن خيله وطيوره. بعدها انصرف الوصيف وهو يعدو.

ثم حضر وصيف آخر ليرى في أمر الطبخ مع المنصور... أرى الخوان للمنصور.. تملّاه المنصور في تؤدة.

- لا حاجة إلى اللحم المثلث...

- نعم سيدي.

- وأين الثريد؟

- بالخوان سيدي...

- أحسنت.

ثم أقبل صاحب العرض. قبّل يد المنصور. نطق المنصور في صوت خفيت:

- ينبغي أن تعطوا للجنود كسوتهم، وأعلاف خيلهم..

- حاضر يا مولاي..

ثم توجّه إلى صاحب العرض:

- ابقَ معنا.

إثرها استدار ابن عامر في هدوء نحو ابن صمادح:

- ابن صمادح كيف أنت؟

- بخير يا مولاي.

- مات عبد الودود السلمي المسكين بالمغرب الأقصى، جرّاء جراح في النزال مع البربر. كان ينبغي أن آخذ برأيك قبل تعيينه.
- رحمة اللّه عليه.
- أمور المغرب الأقصى معقّدة، لا يفقه فيها إلّا بنوه، أو من خالطهم مثلك، ولذلك قررنا أن نوفدك رفقة الفتى واضح إلى عدوة المغرب، عند زيري بن عطية. ستروق لك صحبة واضح. شابٌّ ألمعي وهو إلى ذلك خفيف الظلّ.
- سمعاً وطاعة يا مولاي.
- ستُبلّغ زيري بن عطية أني قررت أن أعيّنة على إمارة المغرب الأقصى. الكل مكتوب في الرقّ. هو لا يحسن العربية. ستشرح له ذلك.
- لسوف أفعل يا مولاي.
- و تبلّغه بضرورة القدوم على الحضرة.
- سمعاً وطاعة.
ثم استدار نحو صاحب العرض:
- هيّئ لابن صمادح وواضح ما يحتاجانه في رحلتهما إلى المغرب الأقصى، مع مقنبة تخفرهما حتى الجزيرة، وسفينة تقطع بهما ومن معهما من الجزيرة إلى سبتة.
- حاضر يا مولاي.
ثم توجّه المنصور إلى صاحب العرض بالأمر:
- يمكن أن تنصرف.
وانصرف.
وجد ابن صمادح نفسه وجهاً لوجه مع المنصور. أدرك أنه ما صرف صاحب العرض، إلا ليحدثه عن شيء يخصّه. واجهه المنصور في هدوء:

- أقمتَ مناحة من غير مأتم، يا ابن صمادح.

لم يفهم ابن صمادح.. وتجرّأ بالقول ممّا لا يجرؤ عليه أحد مع المنصور:

- لم أفهم قصد مولاي.

- بلى فهمت.

- شهد اللّه يا مولاي.

- بكيت ابن المطرف وهو حي.

- لم يبدر مني شيء يشي بذلك يا مولاي...

- لا، أنت أذكى من أن تُبين، ولكن لا يمكن أن ينطلي عليّ ردّ فعلك... أنا لا أقتل من أجل القتل يا ابن صمادح. أقتل لأزيح أذى. لو انسلّت حية إلى بيتك، هل ستنتظر أن تلدغك كي تقتلها، أم تتقي شرّها بأن تقتلها؟ لست أنا القاتل بل السلطان، والسلطان أمانة، بها يسود الأمن والاستقرار وصلاح البلاد والعباد...

ووجدَ ابن صمادح من نفسه القدرة أن يواجه المنصور:

- مولاي، حياتي طوع بنانه، ولكن لي رجاء، أن يُبقي مولانا على ابن المطرف... لقد أوفدني مولاي إليه ووعدته عفوه وصفحه.

- ترى أني لم أفعل شيئاً يسيء إليه. اشتكى منه الناس فعزلته...

- حِلْم مولاي أوسع من أن يتأذى من أخطاء خدّامه...

- هل التآمر خطأ يا ابن صمادح؟ الخطأ شيء، والتآمر شيء آخر. سنرى فيما طلبت بشأن ابن المطرف.. عُد غداً عند صاحب العَرض كي يُسلمك مؤونة السفر، وخذ كتاب السلام لزيري بن عطية، من ديوان ابن حزم، يرسمه أصحاب الخط، ويضعون عليه طابعي. ثم مُرَّ على الفتى واضح قبل أن تشدّا الرحال. سيسلمك وديعة مني..

- سمعاً وطاعة يا مولاي...

- بالمناسبة بلغني أنك بقيت بأستجة الصيف كله؟ ألم تثقل عليك حرارتها؟

- ذهبت لعزاء يا مولاي، وصادف ذلك صائفة مولاي.

- هل توفي الميت مرّتَين؟

تنحنح ابن صمادح وردّ كمن لم يفطن لملاحظة المنصور:

- ذهبت أول مرة للدفن، وعدت للمأتم.

- المتوفى اشتغل مع الحكم في بداية حكمه حسبما قيل لي.

- هو ذاك يا مولاي...

- قيل لي إنه وجعفر كانا على طرفَي نقيض.

- كانا مختلفَين، يا مولاي.

- هذا أمر يُحسب له. وما صلتك به؟

- قريب زوجتي يا مولاي..

ورسم المنصور لحظة صمت، ثم قال بنبرةٍ هازئة:

- ليس بنيّتي أن أقتلك يا ابن صمادح. يمكنك أن تحافظ على حديقتك الخلفية طالما لم تتآمر عليّ. ثم إن وجودك بالحاشية يسلّيني. الحاشية تجمعُ المتناقضات. وأرى فيك بعضاً ممّا يتعذر عليّ أن أراه، ولكني لا أستطيع أن أسلكَ ما تراه سبيلاً وإلّا انهار السلطان..

ثم استدار المنصور على عقبَيه دون أن ينظر إلى ابن صمادح ودخل جناحه الخاص المعروف باللؤلؤة.

3

كان ابن صمادح منشغل البال لما بثّه إياه المنصور. كان يعرف عنه إذاً دخائل نفسه. بل حتى الحديقة الخلفية من أستجة أخذ يحوم حولها... ومن الوارد أن يعرف أنه زيري، وأن اسم ابن صمادح اسم كذب، ويقف على كل ما ارتبط بالاسم من سابق الأحداث، منذ كان كاتباً للخليفة، وصديقاً لدري، وصاحباً لسلطانة خادمة صُبح، ومن نصح بربط الصلة بغالب، وأخيراً، أخيراً تنكره وسط الحاشية، بأن أضحى وزيراً لابن عامر. بل من يدري لعلّ المنصور يعلَم ويتجاهَل. قصد ابن صمادح بيته، وأخبر زوجته بأمر السفر إلى المغرب الأقصى، ثم عرّج بعد أن أرخى الليل سُجُوفه على قرطبة عند ابنه يوسف، وأخبره بالسفر إلى عدوة المغرب، وأوصاه تحسباً لكل شيء بالرميكية. ثم عاد ليلاً إلى الزاهرة... لم يطاوعه النوم.

ما أن أسفر الصباح حتى كان ابن صمادح جاهزاً. قصد دار الملك. عرّج على خطة الكتابة ووجد صحيفة مختومة من رقّ الغزال، مدرجة في قصب خيزران، ثم قصد ديوان العرض، وتلقّى من صاحبه صرّة من المال للسفر. وبعدها قصدَ الفتى واضحاً في ديوانه. وجده ينتظره. رحّب به ودعاه للجلوس.

– أرى أن نرحل الآن، بادر ابن صمادح...

- هو ذاك. ردَّ واضح. ثم أضاف: المقنبة التي ستخفرنا جاهزة حتى الجزيرة... هل أنت جاهز؟

- نعم.

- ودَّ مولاي أن يستدعيك للعشاء أمس، ولكنه قدّر أنك ستكون منصرفاً للتهيّؤ للسفر، فلم يرد أن يشق عليك..

- وهل شرف المثول بين يدي مولاي ممّا يشق؟

- كان يود أن تحضر محاكمة ابن المطرف...

- أحوكم ابن المطرف؟

- وصدر الحكم.

- الحُكم؟

- القتل.

تنهّد ابن صمادح. أضافَ الفتى واضح:

- ونُفّذ. ثم استرسل في نكاية: يأذنُ لك مولاي أن تبكيه الآن.

ابتلعَ ابن صمادح ريقه. لم تسعفه بديهته. ظنَّ أن المسألة افتراء، كما المرة السابقة. استرسل واضح:

- أنا من حزّ رأسه يا ابن صمادح.

ثم أضاف:

- خارَ لأول وهلة.

كان واضح يتكلم لوحده دون أن يبدر ردّ من ابن صمادح.

- لم يثبت.

- بكى.

- تكلّست أوداجه حتى استعصى ذبحه. أنظر إلى علامة الألم على وجهه.

أنزل واضح يده إلى صندوق وأخرج رأساً عيناه جاحظتان وشفتاه متيبّستان تعبّران عن الألم. كان رأسَ عبد الرحمن بن المطرف.

لم ينبس ابن صمادح. تيبّس الريق في فمه...

- أتريد ماء يا ابن صمادح؟

لم يردّ ابن صمادح. مادَت به الأرض. كيف يستسيغ امرؤ ذبح إنسان ويستحلي ذلك؟ تذكّر حفل عقيقة ابن عامر بن شهيد وطقس ذبح الكبش أمام الأطفال والنساء؟ أليس هذا الاعتياد على الدم ما يجعل قتل الإنسان أمراً معتاداً؟ تباً لأحابيل السياسة التي ألقَت بابن صمادح في عوالم يُقتَل فيها الإنسان ببرودة وبشاعة ويتم التفاخر بذلك. ما أوسع البون ما بين أستجة وعالم الحاشية؟ ما بين زينة الدنيا وبهجتها، وبين عوالم يُمثَّل بها ويُشان لها، كما يُمثَّل بوجه غادة. ودَّ ابن صمادح أن يبصق في وجه وضاح. تماسك. كان يعرف أنه في حصة تعذيب، ولا يسوغ له أن يتأوّه أو يبدي ضعفاً. أرسل واضح:

- أنا لست عيسى بن سعيد يا ابن صمادح. أنا قول وفعل.

ابتلع ابن صمادح ريقه وردَّ برباطة جأش:

- هل أنت جاهز للسفر يا واضح؟

- بلى.. إنما.. هل تريد رأس صاحبك كي يرافقك في سفرك؟

ردَّ ابن صمادح في تقزز:

- أجود به عليك...

- ارتأى مولانا ألّا يجشّمك الانتظار في شأن ابن المطرف، حتى تقوم بمهمتك في المغرب الأقصى خير قيام.

- جزاه اللّه خيراً.

4

من قرطبة إلى الجزيرة في رحلة دامت سبعة أيام لم يكلم ابن صمادح الفتى واضحاً. . . كان ابن صمادح نهباً لعدة هواجس. كان حاقداً على المنصور وكل ما يمُتُّ بالمنصور. أهوانٌ أكبر من أن يسخر منه فيما يرتبط بحياة إنسان، ثم يعرض له رأس صاحبه كوديعة، دون أن يستطيع ابن صمادح الرد؟ لو أن المنصور قتله لكان أراحه عوض أن يعرض عليه رأس ابن المطرف، ويعذّبه به، ويُظهره على عجزه. . . أي لعبة يلعبها معه المنصور؟ ما الذي يعنيه بالإحالة على أستجة؟ هل يعرف حقيقته؟ شعر ابن صمادح أن الحبل يقترب من عنقه. وأي ضمانة أن ينجح في مهمته مع زيري بن عطية؟ وهل هي مهمة أم خديعة؟ ثم لماذا يُقرَن به الفتى واضح في مهمّته إلى المغرب الأقصى، وهو من ذبح بدم بارد ابن المطرف؟ كيف الاشتغال مع شخص لا يثق فيك؟ وكيف بذل أحسن ما لديك لشخص لا تؤمن به؟ وكيف الإيمان والإيقان بأشخاص يضربون الكرامة الإنسانية عرض الحائط؟ خيل لابن صمادح أن ما يعيشه ليس حدثاً محصوراً في الزمان والمكان، وإنما ظاهرة، تتجاوزُ الزمان والمكان.

كانت كل هذه الأسئلة تضطرم في ذهن ابن صمادح. كان يشعر أن المنصور يريد أن ينتقم من ابن صمادح لشعور التبكيت الذي ملكه

بعد قتل ابنه. قتل سعداً وابن خفيف، وهو الآن يقتل ضمير ابن صمادح.

لمّا ركبَ ابن صمادح البحر من الجزيرة إلى سبتة، تبدّت له رؤى أخرى. ينبغي أن يكون أكثر ذكاء. المسألة لعبة شطرنج دقيقة، مع لاعب محترِف... لأول مرة وجد ابن صمادح لاعباً في مستواه، بل أحياناً يتفوّق عليه، وكان هذا اللاعب هو المنصور... صحيح أنه يتفوّق عليه باستعمال أساليب دنيئة. يخادع، لا يحترم تعهّداته، له القوة، والسلطة المطلقة، وجمهرة من الأزلام، ولكنه لاعب جيّد.

أدرك أن ما كان يبتغي من التقرب من المنصور لم يعد مضموناً، أي الاستخفاء منه، واتقاء شرّه... يمكن للمنصور أن يطّلع على حقيقته... صحيح أن الكذبة التي قدّمها عن علاقة زوجته بباشكوال قابلة للتصديق، ذلك أن الرميكية أضحَت قريبة فعلاً من باشكوال. حتام يظل السر مكنوناً؟

تبدّت جبال المغرب الأقصى من عرض البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة. من هناك جذور ابن صمادح، أو زيري. كما لو أنه لمّا تطأ قدماه عدوة المغرب سيصبح زيري. أكثر من خمس وعشرين سنة مذ غادر المغرب، ومع ذلك لا يبدو في الجبال التي تتراءى شيء غريب عمّا خلّفه وراءه بالأندلس. الجبال ذاتها. التضاريس ذاتها. النبات ذاته. الطبيعة ذاتها... ألا تكون ذات الطبيعة الجغرافية وعاء لذات البنية الذهنية؟ الطبيعة الجغرافية صمّاء، والذي يصوغ البنية، في الجانب الأكبر، هو الإرادة السياسية، أو الرؤية، أو العقيدة، أو فهم لها وتوظيفها. الطبيعة الجغرافية غير كافية لصياغة بنية ذهنية. والدليل أن المسلمين والمسيحيين واليهود يعيشون بالأندلس، على الأرض نفسها، ولا يرون العالم بالرؤية نفسها. يمكن أن يرونها بالنظرة ذاتها، إن برئوا من القولبة الأيديولوجية.

ومع ذلك كان زيري يشعر أنه يطأ أرضاً جديدة عليه... انتسجت حياته بالأندلس. أحب بها، وتزوج منها، وأنجبَ، أمّا المغرب الأقصى فقد ذوت الجذور التي تربطه به. أبواه قُتلا. وخالته من احتضنه أين تكون، أهي من الأحياء أم من الأموات؟

توقف الركب بتطاون... تكاد أن تكون إلبيرة ثانية.. تماماً... بمرتفعاتها، ووديانها، وعيونها...

- ينبغي أن نقيم هنا لبعض الوقت، قال الفتى واضح، حتى يبعث لنا زيري بن عطية كتيبة حماية لنا. قد نقع في مخالب بني يفرن....

أقاموا الحمى قرب نهر يصب في البحر. أحبَّ زيري المكان.. كان الجوّ دافئاً رغم الخريف، وأغرى الأمر زيري بالاستحمام في البحر...

كان ينزل البحر كل صباح. يلفُّ عليه تبّاناً. ينغمر في لُجّته، ويترك نفسه وسجيتها، يفكر ويتدبّر... إلى أن وقع مرة على فتاة كانت عابرة قرب الشاطئ، تلبس لباس أهل البلد، بقبّعة من سعف النخيل وتترنّم أغاني محلية. أثاره جمالها وعفويتها. في اليوم الثاني مرّت الفتاة. وسوست له نفسه أن يكلمها، ثم أزاح الإغراء. كيف، وهو متزوّج، وله ابن بلغ العشرين من عمره... لليوم الثالث مرّت وهي تحمل سلة من تين مجفّف. رأت أنه ينظر إليها. اقتربت منه. كانت لم تكمل العشرين من عمرها وذات جمال خلاب. عرضت عليه التين مكلّمة إياه بلسان البربر من كلام زناتة بلكنة البلد:

- تريت تزارت (هل تريد التين)؟

- واه (نعم).

نالَ من التين، وانتسج الحديث.. راقته عفويتها. لم يجد عنتاً في فهم حديثها. كانت حين لا تفهم قوله تَلجّ في الضحك. فهم عنها أنها تسكن قريباً من النهر وتبيع في السوق نتاج حديقة والدها.

لم ينزل زيري البحر في المرة الرابعة، وظلَّ متربّصاً في المكان ذاته الذي تمرُّ به الفتاة.. . إلى أن عنّت مع الضحى. كانت تدفع حماراً وعليه بعض النِّتاج متوجهة للسوق.. . توقفت، وقالت له بالعفوية ذاتها:

- أويخاك إيغي (أتيتك باللبن).

وأخرجت وَطباً مليئاً باللبن، وأسلمته إياه، من غير قدح. شرب وقد غلبه الارتباك، حتى انهمر نثار اللبن من الوَطب وساحَ على لباسه. .

استغرقت الفتاة ضحكاً. . بدا له ثغرها وضاء. . . نفذ كالسهم في فؤاده. أخذ يضحك. سألها اسمها. ردت:

- تترتيت. ذ شي (وأنت)؟

- ابن صمادح.

- تجيت أعراب (هل أنت عربي)؟

أخذ يبسم. . ثم ردَّ:

- أور سينخ (لا أدري).

- ذا تساورت تامزيغت (وتتكلم الأمازيغية).

ولاذَ بالضحك. . سألته إن كان يريد أن يصحبها للسوق:

- تْريت أذي تمونت إي أجدود (هل تريد أن تصحبني إلى السوق)؟

وصحبها إلى السوق. راقه صخبه. لم يكن يختلف في شيء عن سوق أستجة، سوى في لسان التخاطُب. كانت النسوة يختلطن بالرجال كما بالأندلس. نسيَ أوصابه، وهمومه في صحبة الفتاة. كانت عفوية إلى أبعد حدود. كانت على السليقة. لم يثبت لعفويتها ولجمالها.

لم يعد لزيري من مبتغى سوى أن تتأخّر كتيبة زيري بن عطية كي

يطول به المقام قرب تتريت. سلبَت لُبّه، حتى أنسته كل شيء. بما فيه الرميكية. كما لو أنه فتى في مقتبل العمر يكتشف المرأة.

ذات صباح أتَت تتريت قرب المعسكر في الجناح الذي يقيم به أعضاء الوفد وهي تحمل منديلاً به رغيف وعسل وسمن. لم يسمح لها الحرس بدخول المعسكر. أخذوا عنها منديلها. ثم اصطحبوها عند الفتى واضح. خرج واضح من الخباء. أخذ يسألها، ولم تكن تحسن اللغة العربية. . . كانت تردد بين حين وحين. . «أرجاز»، «سومادي». . فهم أنها تعني ابن صمادح. . كان واضح يعرف أن كلمة «أرجاز» هي الرجل بلسان زناتة. بعثَ في ابن صمادح. ما أن حلَّ ابن صمادح حتى انقشعت أساريرها. . .

شعر ابن صمادح بالحرج أن يلتقي بالفتاة أمام واضح. بادره واضح:

- الفتاة تطلبك، وقد أتت برغيف. . .

- شكراً لها. . .

كانت تتابع الحديث بعينَيها دون أن تفهم.

- لا يمكن أن نأخذ الرغيف. . . قال واضح.

- ولماذا؟ ردَّ ابن صمادح.

- لا نعرف مصدره. .

- هي أبعد من أن تضمرَ شرّاً.

- ذلك ما أرى. ولكن القاعدة هي القاعدة. سنأخذ الطعام ونتلفه. .

ابتسمت تتريت، ولو أنها لم تفهم شيئاً، وخيل لها أن الرجل استحسن صنيعها، فقالت لابن صمادح بلسان البربر إنها أتت بالرغيف لرجال الوفد. . .

شعر ابن صمادح بالانزعاج. . . قال لواضح دون أن يكتم غضبه:

- هي تقول إن الطعام لرجال الوفد، فهل جزاء الإحسان الإساءة؟
- طبعاً لا. لكن قواعد الخدمة أننا لا يمكن أن ننال من طعام لا نعرف مصدره.
- ردّه لها في هذه الحالة.
- لا يمكن. وسنستبقيها لاستقصاء أمرها..
- كيف؟
- هي قواعد عمل الأمن.
تنهّد ابن صمادح... ثم استجمع قواه:
- اسمع يا واضح. أعرف قدرتك على القتل... أعرف نذالتك وأعرف مكانتك عند المنصور... ستطلق سراح الفتاة وتعطيها رغيفها وإلّا نفرت الآن إلى غير رجعة. دون أن أقوم بالمهمة. لن يكلّم أحد زيري بن عطية. وتعرف خطورة الموضوع... ستبلغ بعدها المنصور وسيؤاخذك المنصور. هو يعرف المهم والأهم، ولسوف يؤاخذك ويعاقبك. ما شأن فتاة أتت برغيف للمعسكر، كي تعرَض على الاستنطاق، ويكون من نتائج ذلك نسف مهمة خطيرة. فكر في الأمر يا واضح... لست مستعجِلاً...
صمت واضح. كان كمن يفكر، ثم نطق أخيراً:
- على كل حال نحن سنغادر غداً. كتائب زيري بالأرباض.
- غداً أو بعد غد. أنا غير معني بالأمر ما دام لم يطلَق سراح الفتاة.
- أتهددني؟
- خذ الأمر كما تشاء. أطلق سراح الفتاة، أو أني سأنفر.
أمسك واضح، وأخيراً نطق:
- من أجلك يا ابن صمادح، سأطلقها. وقل لها ألّا تحوم مرة أخرى حول المعسكر...

ردَّ لها واضح رغيفها. لم تفهم. اصطحبها ابن صمادح خارج المعسكر. سألها في عفوية:

- هل أنت متزوجة؟

أجابت بالنفي. وبلا رابط قال لها ابن صمادح:

- أطلبك للزواج يا تتريت.

أرسلت ضحكة مجلجلة. شعر بالارتباك..

- أصدقك القول يا تتريت...

- ينبغي أن تكلّم والدي.. أنا يتيمة الأم.

- أين هو؟

- هناك، في القرية... غير بعيد من هنا...

ذهب ابن صمادح إلى بيت منعزل ذكّره ببيت باشكوال. وجد شيخاً ببابه يتعهّد بستانه. حياه بتحية الإسلام، ثم أضاف: إنجبي ن ربي (ضيف اللّه).

دعاه الرجل إلى البيت. جلسا على حصير. استجمع قواه وقال له بلسان البربر:

- جئت لأقترن ببنتك تتريت على سُنّة اللّه ورسوله..

ردَّ الرجل ببساطة:

- لا مانع لدي إن هي قبلت...

ثم قرأ الرجلان الفاتحة. وقدّم ابن صمادح الصداق. وخرج من البيت وهو يمسك يد تتريت إلى أن بلغا المعسكر.. وجدَ ابن صمادح واضحاً يتفقد الأرجاء تأهُّباً لاستقبال كتائب زيري... وواجهه ابن صمادح في استهزاء:

- آسف يا واضح إن عادت الفتاة إلى المعسكر. لقد أصبحت لي زوجة... وأطلب زاملة لها كي تصحبنا لفاس.

- كان يكفي أن تتخذها سبية..
- لا أرى الأمور بمثل منظارك يا واضح..

عند الغد، غادرَ الموكب نحو فاس، وقد حلّت كتائب زيري بن عطية، وتتريت في ركاب الموكب، وقد أضحت زوجة لابن صمادح...

5

تمنّى ابن صمادح لو طالت الرحلة أكثر إلى فاس... اقترانه بتتريت بثَّ فيه روحاً جديدة أزاحت القلق الذي كان يرين على نفسه... كانت تتريت تسافر بجانبه على زاملتها، ويتحدثان طوال الطريق، وبالليل يضمّهما الفراش في خبائه. يسكن إليها وتسكن إليه. يعرف عنها وتعرف عنه.. أخبرها أمره من أنه من خدّام المنصور، وأنه يعيش بالزاهرة قرب قرطبة. سألته وهما على الطريق عن الأندلس وشفعت بعفوية:

- يقال إنها جنة.

- وهي هجير كذلك.

- كيف يمكن أن تكون جنة وهجيراً؟

- لأن لكلّ شيء ظاهراً وباطناً.

- كيف ذلك؟

- هم الناس من يجعلوها هجيراً حين يقتتلون، وحين يحسبون أنهم على صواب، وأن اللّه كلّمهم ولم يكلّم سواهم. وهم من يجعلونها جنة، حين يتآلفون في اختلافهم...

- ستُظهر لي جنتها يا.. سمادي.. لا أستطيع أن أنطق اسمك كما يجب...

- ستستأنسين به.

بلغَ الموكب فاس بعد سبعة أيام من المسير. استقبله زيري بن عطية في أبّهة بالمكان المعروف بالرصيف. كان زيري شيخاً مهيباً، غزا المشيب لحيته، يلبس لباس البربر، جلباباً من صوف خفيف وسلهاماً من وبر الإبل، مع عمامة تلفُّ رأسه وجزءاً من رقبته، وينسدل طرف منها حتى حوضه. أقام رئيسا الوفد، كل في دارة. خُص ابن صمادح بدارة في عدوة القيروان، وخصّصت دارة لواضح في عدوة الأندلس. كانت المؤونة من الطعام والميرة تأتي كل يوم أعضاء الوفد. كانت القاعدة أن يقيم الضيف ثلاثة أيام، يستجم فيها. عند اليوم الرابع أخبر ابنُ صمادح خادماً لزيري بن عطية، أنه حامل لخطاب من المنصور. صادف اليوم الرابع يوم الجمعة، وتلطّف القائد البربري بالقول إنه لا يستطيع استقبال الوفد يوم الجمعة، ويدعو الوفد جميعه للصلاة في جامع القرويين. صلّى ابن صمادح وواضح، مع زيري بن عطية في الجامع، وبعثَ لهما إلى حيث يقيمان الطعام من أكل البربر، مع كسوة، لابن صمادح وزوجته تريت.

في اليوم الخامس استقبلَ زيري بن عطية الوفد، في بيت بسيط، من غير أبّهة. كان جالساً على الأرض، ووراءه نمارق على الحائط، وعلى جنباته بعض الطنافس. احتبى الضيفان، وأوتي لهما باللبن والتمر من قدح تناولاه، وتناوله معهم زيري... رحب بهما بلسانه، إذ لم يكن يحسن العربية. إثرها كلّمه ابن صمادح بلسانه، وأعربَ له عن عطف الخليفة هشام المؤيّد بالله، أدام الله ملكه، وتقدير المنصور وفّقه الله. كانت الإشارة للخليفة صورية، ولكن كانت ضرورية، وبخاصة خارج الأندلس.

ردَّ زيري بن عطية في هدوء، أن ولاءه للبيت الأموي راسخ، وأن الخليفة هو الضامن لحماية أهل السنّة والجماعة ضدّ الشيعة، ثم أسهبَ

في خطر الفاطميين وأوليائهم من بني يفرن، ممن يحيطون بفاس وأرباضها ولا ينفكّون يهدّدونها.

شفع ابن صمادح بالقول إن المنصور وفّقه اللّه يعوّل عليه في درء خطر الشيعة، وقرّ قراره أن يجعله أميراً على المغرب الأقصى. اكتفى زيري بن عطية أن أومأ برأسه استحساناً لما سمع. ثم قدّم ابن صمادح له الرقّ، أخذه عنه زيري بن عطية وقبّله، كما جرى بذلك الرسم. بعدها أخبره أن المنصور يدعوه لزيارة الحضرة مثلما هو متضمّن في الرقّ.

ردَّ زيري بن عطية أن لا شيء يسرّه مثل أن يمْثُل أمام خليفة المسلمين هشام بن الحكم المؤيد باللّه، وأن يلتقي بالمنصور، وسيحل بعد الربيع، حينما يصحو الجو، فضلاً عن أنه مشغول في ردّ ضربات بني يفرن، ويلتمس المدد لردّ عادياتهم. ترجمَ ابن صمادح قول زيري بن عطية لواضح، فأخبره أن المدد سيبلغه بمجرد بلوغ الوفد الحضرة.

ثم بعدها دعاهما زيري بن عطية للأكل. أكلا في المكان ذاته، على الأرض، من الكسكس بالشعير المبلّل باللبن والزبدة. كان القائد البربري يتناوله بيده، من دون مغرفة، كما يفعل أهل البلد.

استبقى زيري بن عطية الوفد لبضعة أيام، ولكنّ واضحاً أخبره أنه يتعيّن العودة إلى قرطبة...

شيّعهم زيري من المكان المعروف بالرصيف بفاس وقد أغدق عليهم من الهدايا، وزاد أن أهدى ابن صمادح فرسَين بربريَّين. واحد له والآخر لزوجته.

كان ابن صمادح يود لو أن طال به المقام بفاس ليخلو لزوجته التي أشاعت فيه السكينة، وبددت ما كان فيه من غمّ.

6

ما أن بلغ الموكب تطاون حتى استأذن ابن صمادح واضحاً قائد الركب كي يُعرّج على أصهاره.. كانت تتريت تودّ أن تودّع والدها وزوجته وإخوتها. كانت كما لو أنها أيقنت أنها أصبحت جزءاً من ابن صمادح لا يمكنها أن تنفصل عنه، واستشعرت أن حياتها هي تلك التي ستنتسج بالأندلس، وقد يكون توديعها لأهلها الوداع الأخير. عانقتهم عناقاً حارّاً. بكت وبكوا جميعهم. ولم يتمالك ابن صمادح فسالت دموعه.

عند الغد التحقَ الزوجان بالركب بسبتة. لم يركبا البحر إلا عند الغد مع الوفد نحو الجزيرة. ما إن بلغوا جبال الرُّندة بعد يومَين من المسير حتى صادفتهم عاصفة هوجاء، تعذّر عليهم فيها السير. ظلوا بنزل بها لمدة عشرة أيام. لو كان لابن صمادح أن يطلب إلى القدر شيئاً لكان تلك العاصفة التي منعتهم السفر. كان لا يخرج من النزل إلّا ليختلي بزوجته. لمّا كان بفاس، كان مشغولاً كي يعرفها حقّ المعرفة، وكانت هي منبهرة لما ترى، كي تسعى في معرفة من أصبح زوجها. بالرُّندة عرفت أنه متزوّج، ولم يضرّها ذلك، شريطة أن يعدل. ولم يأخذ في الإفصاح لها عن حقيقته إلّا حين أخبرته أنها حامل... شعر حينها أنهما أصبحا وحدة.

كانت تتريت تُبين عن ذكاء فطري خارق، إذ كانت دائمة السؤال، سريعة الحفظ لما تسمع، كما لو أنها مستعجِلة لتتعلّم العربية كي تفهم ما يتردد ويُفهم عنها. . .

انزاح الغمّ من قلب ابن صمادح. المرأة سحرٌ، تبثّ قوة في من يرتبط بها برباط الحب، مثلما يبعث الرجل حين يكون موضعاً للحب الثقة في نفس المرأة. كان حب ابن صمادح لتتريت مختلفاً عمّا عرفه في حياته. كانت راحيل عديلاً له، وكان حبّاً لا يخلو من صدام، وكانت الرميكية بمثابة أم حاضنة لابن صمادح، أما مع تتريت فكما لو أنه أب، لا يقوى على فراق ابنته، ولا يقوى أن يقع نظر عليها، ويغار من أي شيء يعتلق بها.

انجلى إصر علاقته بالمنصور وغبش السياسة، لكي لا يرى إلّا مشكلاً محدقاً، لم يقدر يوماً أن يطرح، وهو الرميكية. كيف ستقبل بالأمر؟ وكيف حين تعرف أن تتريت حامل؟ المسألة أكبر من أن تكون نزوة. ستغار منها لأنها لم تنجب له، وستغار منها لأنها في مقتبل العمر وجميلة. هل ستقبل بها في البيت ذاته؟ وكيف سيدبّر علاقته بها؟ لم يتوقف عن حب الرميكية، ولكن شيئاً من الفتور اعترى علاقتهما. . . لم يعد الفراش يضمّهما إلّا لماماً، لأنه كان دائم الأسفار، ولم تعد الرميكية تميل إلى الجنس، بعد أن ضاع منها جنينها. . استغرقتها العبادة كذلك. لذلك كان ابن صمادح يرى أن اقترانه بتتريت لم يكن نزوة، ولكن نتيجة. نتيجة لفراغ لم يبرز، لأن ابن صمادح كان منشغلاً في قضايا السياسة وظهر جَلياً لأول اختبار.

وانقشعت الشمس من جبال الرُّندة، وتوقف المطر، واستأنف الموكب المسير، وبلغ الزاهرة بعد عشرة أيام بسبب الوحل والسيول، وارتفاع منسوب الأنهار.

وما أن بلغ الموكب الزاهرة، حتى أبلغ واضح صاحبَ الرسم،

كي يخبر المنصور، مع كتاب من ابن صمادح يتضمن طلب زيري بن عطية بالمدد، في انتظار أن يأذن المنصور باستقبال الموفَدين.

قصد ابن صمادح بيته بعدها. وحدث ما توقع حين التقى نظر الرميكية بتتريت. توقفت للحظة، ثم نكصت إلى داخل البيت، واعتزلت في غرفة. أغلقت الباب بالمزلاج.

طرق ابن صمادح الباب من دون جدوى، وانتهى إليه نشيجها... لم تكن تتوقع قط أن يتزوج عليها أو يتزوج عنها، ولم تكن تتوقع الحياة من دونه. هو من صالحها مع ذاتها وكرامتها. كيف، بعد الذي كان، أن يقترن بامرأة أخرى، بعد أن ضاع منها الجنين؟ وكيف أن تصطبر لذلك؟

صحب ابن صمادح تتريت إلى غرفة في الدور الأول... طمأنها... ردّت في عفوية:

- لمَ لم تقبل بي زوجتك؟
- لأن ليس هناك امرأة تقبل بضرّة...
- ولمَ أنا قبلت؟
- لأنك أتيت بعدها...

ونزل إلى الدور التحتي، بالغرفة التي لجأت إليها الرميكية، وأخذ يطرق البابَ طرقاً متصلاً متحدثاً للرميكية:

- حبيبتي، يمكن أن نتحدث في الموضوع... أحبك دوماً... افتحي الباب... لا تستعجلي.

تناهى إليه صوتها مع النشيج:

- عليها أن تغادر فوراً.
- افتحي الباب ونتحدث.
- عدني أنها ستغادر إن أردتني أن أفتح الباب.
- سأفعل ما هو ممكن، ولكن افتحي...

وفتحت الرميكية بعد لأي، وهي تبكي بكاء مرّاً:

- لماذا فعلتها يا زيري؟ لأني لم أرزق الولد؟

احتضنها احتضاناً قوياً..

- اسمعي يا حبيبتي، وقع ما وقع... وهي حامل. أراهن على تفهّمك... أنت عمارة الدار.. أنت كل شيء...

ردّت وصوتها يختنق بالبكاء:

- كنت أحسبك مختلفاً عن الآخرين يا زيري... كنت أحسبك مسيحي الفؤاد... أنت مثل الآخرين.. تحب النساء مثلهم، سأنهي حياتي في دير... سأغادرك.

- هدّئي من روعك...

لم ينقطع بكاؤها.

كانت تتريت تتابع المشهد من سقيفة الدور الأول المطلّ على الصحن.

بعدها صعد ابن صمادح إلى غرفة تتريت. نظرت إليه في استغراب وسألته بالأمازيغية:

- من زيري هذا؟

- صه. هذا اسمي الحقيقي. أنا مثلك بربري. لا تنطقي بهذا الاسم. سأشرح لك كل شيء.

في تلك الأثناء سُمع صوت الباب وقد أوصد... نزل ابن صمادح وهو يصيح:

- الرميكية، تعالي... عودي.



7

أقام ابن حزم حفلاً باذخاً في حديقة قصره بدار نعمان، ضحى، وقد رزق ولداً.. دعا العلية كلها، وأحضر أحسن الأجواق بقرطبة، وحضّر أصناف الأطعمة وصنوف الأشربة عدا الخمر. كان الحفل مناسبة للاحتفال بالعقيقة، ولكن كذلك احتفاء بعودة ابن حزم إلى الحاشية بعد أن صفحَ عنه المنصور.

حضر ابن صمادح العقيقة، وكان بعد مهمته الناجحة بالمغرب الأقصى، محطّ أنظار الحاشية واهتمامها. كان رجالات الدولة متخوفين من شيوع الخطر الشيعي، وكانوا يدركون أن زيري بن عطية هو الدرع الواقي، وهو من يرتبط بموثق الولاء للخلافة والبيت الأموي والوفاء له. كانت استمالة زيري بن عطية ضماناً لأمن الأندلس. لذلك ما أن حلَّ ابن صمادح قصر ابن حزم حتى هبَّ ابن حزم بنفسه واستقبله، وأجلسه في مائدة العلية مع ابن حدير وابن جوهر، وابن فطيس وابن شهيد، وانضاف إليهم عيسى بن سعيد.. آل ابن شهيد أن يغادر المائدة، إن بقيَ بها عيسى بن سعيد.. وتوسّل ابن حزم إلى ابن شهيد ألّا يغادر، ودعا عيسى بن سعيد ألّا يأتي ما يضير ابن شهيد من قول.. قبلَ ابن شهيد البقاء في المائدة ذاتها على مضض. ساءت العلاقة بينهما مذ غمزَ عيسى بن سعيد في أُبُوّته لابنه ابن عامر.

كان رجالات الدولة يشعرون بالاطمئنان وقد استمالَ المنصور زيري بن عطية، وبعث له المدد، ثم لمّا علموا أنه سيحل بالحضرة. كل ذلك بفضل ابن صمادح.

كان التنافس شديداً بين عناصر الحاشية، ولكنهم ينسون أحقادهم لشيء يقرّه المنصور أو يدخل في المصلحة العليا للأندلس. كان العلية من الأندلس ينظرون إلى المغرب الأقصى أكثر من غيره من بلاد المغرب، استمرارية للأندلس، ويدخل ضمن حماها، وأن أي شيء يتهدّده يهدِّد الأندلس بالتبعية.

- هنيئاً لك زوجتك، ابتدر عيسى بن سعيد ابنَ صمادح.

- لم يُضع ابن صمادح الوقت، تدخّل ابن فطيس، فهو ينتظر مولوداً...

- أرأيت نعمة الإسلام عليك؟ أضاف عيسى بن سعيد متحدّثاً إلى ابن صمادح.. ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أنت الذي لا تنفك تشك في أمور الدين، وتنتقص من الإسلام.. عوّضك اللّه زوجتك المسيحية بمسلمة، ولو أنها بربرية. وبارك لك فيها. ما أن وضعتَ المرود في المكحلة، حتى استوثقت البذرة..

لم يحر ابن صمادح جواباً... امتعض لما فاه به عيسى بن سعيد وراعه أن أعضاء الحاشية يتتبّعون حتى الأمور الشخصية.

استأثر عيسى بن سعيد بالكلام، خلال الجلسة، ولم يترك لأحد المجال كي يدلو بدلوه. كان حديثه منصبّاً على المنصور وسجاياه، من كرمه وجوده وعدله وصفحه وعفوه عند المقدرة. كان ابن صمادح يستمع في إمعان إلى ما يقوله عيسى، وهم يتناولون الطعام من مختلف الأطباق التي توضع، على أنغام نوبات الغناء.

- أكرَمنا اللّه برجل عدل قلّ أن يأتي الزمن بمثله، ذلك أن مولانا

المنصور، وفقه اللّه، كان قد سجن واحداً من خدمه، وكانت نفسه منقبضة عليه، وآل ألا يُطلق سراحه أبداً. وعرف الخادم ذلك فأكثر من التهجُّد والدعاء والمناجاة، حتى صدّ ذلك النوم عن مولانا، وأخذ يأتيه آتٍ كريه وهو بين النوم واليقظة، فيقول له أطلق فلاناً. ودفع مولانا، وفّقه اللّه، ذلك ما وسعه الدفع، وأيقن أنه نذير من ربّه، فدعا الخدم أن يأتوه بالدواة في ليلة جفاه النوم، وكتب بإطلاقه، وأضاف بريشته: «هذا طليق اللّه رغم أنف ابن عامر»... هل رأيتم في تاريخ الأندلس من يخضع لحكم ربه، مهطعاً خاشعاً؟

كان من العسير على ابن صمادح أن يصدق القصة كما أوردها عيسى بن سعيد، وكما شاعت.. كان ما استشف ابن صمادح منها أن المنصور لم يعد يستطيع النوم. كان يلظى.

وكان ممّا فشا عن المنصور وتداولَه الناس أيضاً، أنه مرة كان يستعرض الجند، فسلَّ جندي سيفه خطأ وظهر نصله ولمعت بارقته، فرآها المنصور.. نادى على الجندي وسأله عمّا حمله أن يُشهر سيفه في مكان لا يُشهر فيه السيف إلا بإذن، فردَّ الجندي أنه أشار لصاحبه والسيف مغمد، فانزلق من غمده.. أمرَ المنصور حينها فضرب عنق الجندي وطِيف برأسه. رأى ابن صمادح أن القصة قابلة للحقيقة، وتعبِّر عن اضطراب المنصور، وخوفه من أي شيء قد يراه خطراً على حياته... كان ذلك ديدن كل مستبدّ. يملؤه الفرَق من أدنى شيء، ويخشى السيف ومن يحمل السيف.

حكى ابن حزم، وهم على مائدة الطعام، ينالون من أطايبها، على أنغام نوبة رمي الماية، قصة وقعت له قبل الإبعاد. كان مع المنصور ذا يوم في مُنية السرور، وقد أخذت منهما الراح، وكانت معهما جارية تُسمّى أُنْس القلوب تغنّي شِعراً تُلَمِّح فيه بهواها لابن حزم. ما أن تبيّنَ

المنصور أنها تشير إلى ابن حزم، حتى بادر لحسامه وأغلظ لها في القول، حتى خشيت على حياتها، واعترفت أنها كانت تشير إلى ابن حزم فيما أنشدت. استعبرت واستغفرت وتلَت الأبيات التالية:

أذنبتُ ذنباً عظيماً ... فكيف منه اعتذاري
واللّه قدّر هذا ... ولم يكن باختياري
والعفو أحسن شيء ... يكون عند اقتدار

بعدها وجّه المنصور غضبه على ابن حزم وتهدده بالسيف. قال ابن حزم والحضور وجوم:

- استدرت ومعالم الخوف تملؤني، ثم قلت له أيّدك اللّه، إنما كانت هفوة جرّها الفكر، وصبوة أيّدها النظّر. فأطرق قليلاً، وفّقه اللّه، ثم عفا عني وصفح، ووهب لي الجارية، فكان ذلك لي أعظم مثابة. .

- فضل مولانا علينا عظيم. فهلا اعتبرنا وجازيناه بالإحسان إحساناً، عقّب عيسى بن سعيد.

كان ابن صمادح يُحدق في عيسى بن سعيد، دون أن يفطن له هذا الأخير، وفجأة التقى نظراهما. . كان كما لو أن الشرر ينبعث من نظر عيسى بن سعيد. قرأ منه ابن صمادح الحقد والضغينة لأنه يُعرّي ما عنه يتسترون. كان يميط اللثام عن خدعة. كان ابن صمادح يرى شيئاً آخر فيما أورده ابن حزم. . كان ابن حزم مستقيماً، ولكنه لم يسلم من أثر الاتجاه العام في الاختلاق والمبالغة. . بيد أن قصته مع ابن حزم والجارية تنم عن غيرة المنصور المَرضية، واضطراب نفسي. لم يطق أن ينصرف نظر جارية لشخص سواه، وتهدّدها بالقتل وتهدّد وزيره. كل حاكم مستبد يقع تحت سطوة الغيرة والتوجس والخوف والأرق، حتى لا يأمن أقرب أقربائه. ليست تلك الأدواء قصراً على المنصور، وإنما هي أعراض المستبد.

فهِمَ ابن صمادح لِمَ يعتزل المنصور، ذلك لأنه لم يكن في وضع نفسي يتيح له أن يستقبل أياً كان.

كانت هذه الطرائف التي يستقيها ابن صمادح تتيح له سبر نفسية المنصور.. لأن بينهما لعبة خفية... وعده أنه لن يقتله، ولكنه يسعى أن يقتل ضميره، وهو الأسوأ... كان الأمر بينهما نِزالاً لا يفتر وسِجالاً خفياً لا يهدأ. كان ابن صمادح يعرف أن حليفه الزمن، ولكن الزمن يمكن أن يخذله، أما حليفه الأكبر فهو الوضع النفسي لابن عامر. هو اضطرابه، مما كان يدفعه للانعزال، مع سورات الغضب والجنون. كان الاضطراب يذهب حتى القتل والتمثيل، مثلما فعل بمُنجّم حين قطع لسانه على الملأ...

سأل عبد الملك بن شهيد ابن حزم عن الاسم الذي اختاره لابنه.

أجاب ابن حزم:

- اسم الشفيع، محمد، عليه السلام.

عقّب ابن شهيد:

- عسى اللّه أن يريك فيه ما ترضاه، وأن يجعله من خدّام الدولة العامرية...

وردَّ ابن حزم:

- اللّه فعال لما يريد. لم يعد في السياسة ما يروق يا أبا مروان. عسى ربنا أن يجعل منه عالماً فقيهاً، تستنير به العقول والقلوب.



يوم أن غادرت الرميكية، قصدت يوسف في بيتها بالحي المسيحي. خرجت لا تلوي على شيء، من الزاهرة إلى قرطبة من باب فرج بحي المستعربين. وجدت يوسف وحكت له ما أقدم عليه والده.. واساها. ثم استأذنته عند الغد كي تذهب إلى أستجة عند مرية. أصرَّ أن يصطحبها، وتحايل كي يخبر والده بحلول الرميكية عنده وعزمها الذهاب إلى أستجة ومرافقته لها..

بلغَ يوسف والرميكية أستجة بعد يومَين من السير على بغلتَين استأجرهما يوسف من مكاري. ابتهجت مرية لرؤية ابنها يوسف. ضمّته إليها ولم تدعه لحاله، ثم عانقت الرميكية... كانت مرية لا تزال تلبس الحداد. تغيّر أسلوب حياتها، وأخذت تقوم ببعض ما كان يقوم به باشكوال. كانت تتعهّد الدواب في الصباح، تناولهم العلف وتوردهم، ثم تقصد بعدها الربوة وترشُّ القبور بالماء. وتقعد قربها كأنما لو أنها تسمع عنها أو تتحدث إليها، حتى إن لفحتها أشعّة الشمس عادت إلى البيت، وهي تزمزم في أرجائه. بعدها تُحضّر الطعام، فإذا انتهت من التحضير، أخذت منه لقيمات. وبعد الظهر تقصد الكنيسة، وتقوم بها بأعمال البر حتى الأصيل، إثرها تعود إلى البيت. توقد المصابيح، ثم تغشى خزانة باشكوال، وتزيح عنها الغبار بمنشّة، وهي تُرجّع شدواً حزيناً. كانت قد شحبت وهزلت وبدت عليها الشيخوخة..

وجدت الرميكية السلو مع مرية. اشتكت لها ممّا قام بها ابن صمادح. لم تعقب مرية. كانت الرميكية تكلّم مرية، ولا تحدثها مرية إلا اقتضاباً، وكأنما ليست من هذا العالم...

عادَ يوسف إلى قرطبة وقد بقيت الرميكية مع مرية. بعد أسابيع ثلاثة أخذت عدة مشاعر تساور الرميكية. هل يمكنها أن تضحّي بماضيها مع زوجها لأنه تزوّج عليها؟ هل تضرب بعرض الحائط علاقته معها؟ نعم، لم يعد لها كله، ولكنه جزء منها.. وعادت. استأذنت مرية في الذهاب، وركبت أتاناً استأجرته من عند مكاري، وقطعت المسافة في يومَين في لباس راهبة..

لمّا بلغت بيتها بالزاهرة، رأت بطن تتريت وقد أخذ في الامتلاء، ورأت أن غيابها قلب قواعد البيت. أصبحت تتريت ربة البيت. يبتهج ابن صمادح لسماع صوتها، وينهض عند مناداتها له، ويهُبّ مستبشراً كلما غشيَ صحن الدار، ويصعد للتوّ لطابق تتريت.

اختار ابن صمادح لمّا عادت الرميكية أن ينام أولى الليالي معها جبراً لخاطرها. كانت تضمّه بذراعَيها، ضمّاً قوياً، كما لو أنها تخشى أن يذهب. حتى إذا كانت ساعة متأخّرة وقد نامت الرميكية انسلّ في يسر والتحق بتتريت...

أدركت الرميكية أن أشياء تغيّرت في علاقتها مع ابن صمادح. لم يعد جسمها يستهويه أو يستثيره. هواه لتتريت. أمضّها الأمر، ثم لم ترَ بدّاً من أن تقبل به... ضاجعها تحت رغبتها كما لو أنها تسعى أن تسترجعه إليها، من خلال العلاقة الجسدية، ولم تشعر بالدفء الذي كانت تعرفه معه. كان شارداً عنها وذاهلاً. لم تزده العملية إلّا نأياً عنها. ثم أخذ لا ينام إلّا في غرفة تتريت. واستخدمَ فتاة صقلبية تخدم تتريت وتعتني بالبيت. فهمت الرميكية أن علاقتها بزوجها تغيّرت وعليها أن تلتئم مع هذا الوضع الجديد.

كان ابن صمادح يشعر بالسعادة مع تتريت. كان يعجبه منها

جسمها الأملود، وقسمات وجهها، ورقّة أطرافه، وتغضّن ثدييها وملاحة كلامها وعفوية حديثها. لم يعد يرتبط بالرميكية إلّا بالمودة الناتجة عن رسم الحب وطول العشرة... أما مع تتريت فهو يستعجل ساعة العودة، ويستلذّ الحديث إليها، ويستطيب عشرتها. كان ما سرّهُ منها تأدُّبها مع الرميكية ورفقها بها... مثلما كان يبتهج لقدرتها الفائقة على الالتئام والتعلُّم.. كان معجمها بالعربية يغتني يوماً عن يوم، وكانت تبذل جهداً فائقاً للتعلُّم، وتحرص أن تخرج للزاهرة وترى معالمها، وتختلط بنسائها. زارت قرطبة، فشُدهت لمعالمها. كانت متوقدة الذكاء، متعطّشة للتعلُّم.

في هذه الحياة الجديدة، رغم ما كان ابن صمادح يعرف من ضغط، كان يكتشف ابنه يوسف.. كان ابنه يوسف يدرس بجامع قرطبة. اختارَ علوم الرأي مع الفقه والأدب... ولكنه كان رجلاً متمرّساً بالعمل، له اهتمام بقضايا السياسة.

كان يُعرَف في الجامع بابن باشكوال، وكان يحضر حلقات الفِقه، وعلم الكلام، وحلقات النظر أو الفلسفة. كان كثير الاستماع، قليل الكلام، لأنه كان يدرك أن الحقيقة ليست قصراً على قبيل دون آخر، ممّا كان أخذه عن والده الذي ربّاه، باشكوال، ولأنه نفسه كان نتاجاً لروافد متعدِّدة صاغته. كانت أمه التي حملته يهودية، ويتحدرمن أب مسلم، والمرأة التي تعهدته وهو صبي مسلمة، وأمه التي ربّته مسيحية، ومن أنشأه وربّاه كان غنوصياً، ولا يمكنه أن يميل إلى جانب أو يُغلّب جانباً دون أن يُزري بالجوانب الأخرى، وهو مرتبط بها بروابط ذاتية، أصبحت موضوعية. كان يشعر أن الوحدة التي كان يمكن أن تؤلف بينها هي العقل. ذلك أن العقل ينفذ إلى جوهر الأشياء، وكان القاسم المشترك بين تلك المكونات هو المحبة، أو العدل والإحسان. ولم يكن يجهر بذلك إلّا مع والده زيري أو ابن صمادح، الذي كان امتداداً لباشكوال.

9

حلَّ زيري بن عطية الزاهرة في حفل لم تعرف الزاهرة أعظم منه، ذكّر بما تواتر من سفارة طاغية قسطنطينية أيام عبد الرحمن الناصر. واستقبلته الطلائع من الجزيرة وخفرته إلى مشارف الزاهرة، حتى إذا كان على أبوابها، احتشدت الوفود، من الخاصة والعوام. خرج المنصور إلى منتزه ما بين الواديَين، في أحسن شارة، ينتظر ضيفه، حتى إذا اقترب زيري بن عطية من المنتزه، نزلَ من مطيّته، وهو يرتدي لباسه البربري، وسارَ إلى عند المنصور. حينها ارتفع النفير وعزفت آلات الغناء، إلى أن سلّم على المنصور دون أن يُقبّل يده. ثم قدّم له المنصور رجالات الدولة والفقهاء والقضاة والعلماء، وسلّم عليهم واحداً واحداً، وكلهم يحنون رؤوسهم احتراماً له بأمر من المنصور. ثم دعاه المنصور إلى داخل قصره باللؤلؤة وأجلسه مجلساً فخماً، واختليا لبعض الوقت، ونالا من بعض الأشربة.

ثم خرج المنصور إثرها رفقة الضيف، ووقفا في مرتفع بجنان أرطانة يستعرضان الهدايا... كانت ممّا لم تعرف له الزاهرة نظيراً من الطيور النادرة والحيوانات المختلفة والأسود، وزرافة نفقت في الطريق فملئ جسدها قطناً، عدا الخيل، أمام انبهار رجالات الدولة.

بعدها أقام المنصور غداء فخماً، في جناح قصر اللؤلؤة. حتى إذا

فرغ الجمع من الغداء شيّع المنصور زيري بن عطية إلى مقرّ إقامته بالزهراء بقصر جعفر، وأمر المنصور ابن صمادح أن يلازمه.

كان ابن صمادح يتوقّع أن ينادي عليه المنصور للترجمة... ولكن المنصور لم يعد محتاجاً إلى التخاطب، وأضحت الإشارة بديلاً عن العبارة، عدا تعابير بسيطة، يمكن أن يعبِّر عنها زيري بن عطية، من قبيل الشكر، أو تعابير عربية مستقاة من المعجم الديني انتقلت إلى اللسان البربري.

أقام زيري بن عطية أسبوعاً كاملاً بقصر جعفر بالزهراء. كان ابن صمادح يحل عنده يومياً، يغشى صحن القصر، وينتظر في جناح إلى أن ينادي عليه زيري بن عطية، من جناحه الخاص، فيلتحق به، ويتحدثان حديثاً ودّياً باللسان الأمازيغي. كان أول شيء أعرب عنه زيري بن عطية رغبته المثول أمام الخليفة. وقد وعد ابن صمادح أن يُبلغ الأمر، وأخبر الفتى واضحاً بذلك كي يطلع المنصور، ولم يردّ عليه واضح بشيء. كان ابن صمادح يشعر بالحرج كلما جدّد زيري بن عطية طلبه. فهمَ أن المنصور يأبى عليه الالتقاء بالخليفة، كي يوقع في ذهن زيري بن عطية أن الحاكم الفعلي هو المنصور، وأن الخليفة لم يعد يوجد حتى كرمز، بل كفكرة فقط...

في اليوم الخامس أوفد المنصور ابنَ حزم رفقة ابن صمادح كي يقدّما لزيري بن عطية خطاب التعيين. استقبلهما بقصر جعفر بالزهراء. كلمه ابن حزم في ثناء وتقريظ، ممّا كان يترجمه ابن صمادح، ثم أبلغه قرار المنصور تعيينه وزيراً. استوقف ابنُ صمادح ابنَ حزم حين نطق بصفة وزير، قبل أن يُقدم على الترجمة. أكّد ابن حزم الأمر. كان ما تعهّد به ابن صمادح خلال مهمته هو تعيين زيري بن عطية أميراً على المغرب الأقصى. أبلس ابن صمادح، ثم استجمع قواه وترجم ما قاله ابن حزم من تعيين المنصور لزيري بن عطية وزيراً. بعدها قدّم ابن حزم

ظهير التعيين على رقّ الغزال إلى زيري بن عطية. تناوله ووضعه أمامه على مرفق. لاحظ ابن صمادح أنه لم يُقبّله، على خلاف ما كان قد فعل حين سلّمه رسالة الدعوة بفاس.

لم ينبس زيري بن عطية، ثم ألقى بنظرة إلى ابن صمادح، كمن يستفهمه «أهذا الذي وعدت به؟ ألم تقل إن المنصور سيعيّنني أميراً؟»... قطعَ زيري بن عطية المقابلة بالقول:

- لم أصلِّ الظهر بعدُ...

ثم انسحب كي يصلي على انفراد. شعرَ ابن صمادح بالمهانة. لمَ يُقال له شيء، يتعهّد به، ويتخذ المنصور قراراً بعدها منافياً لما قطعه؟ لم يُهن المنصور زيري بن عطية وحده، ولكن ابن صمادح كذلك... كيف سينظر زيري إلى ابن صمادح؟ ما أن فرغ زيري بن عطية من الصلاة، حتى عاد إلى المجلس، ثم قال للوزيرَين بلسان البربر في هدوء:

- اشكرا المنصور وفّقه اللّه على حفاوة الاستقبال والضيافة، وأبلغاه أني مغادر إلى المغرب الأقصى غداً...

١٧

وضعت تتريت بنتاً قرّ بها قلب ابن صمادح وسُرّ بها سروراً عظيماً. كان يخشى أن تعضل زوجته أو تُسقط أو يعسر الوضع. كانت الرميكيةُ هي من قابلت تتريت. تجاوزت غيرتها، ورأت في تتريت بنتاً لها وفي الوليد وليداً لها. تعدُّد الزوجات كان أمراً معمولاً به في الأندلس فيما بين المسلمين وفي حدود بين اليهود. كان من الأشياء التي تميّز الأندلس هي سهولة الاقتران، سواء أكان شرعياً أو للتسرّي، مع القيان والجواري، وكان ابن صمادح يدرك أن ذلك من مميزاتها، لأنه يحرِّر الطاقات النفسية ويجلو عنها الحرمان والكبت.

كان ما يميّز المسلمين عن المسيحيين بل حتى عن اليهود، هو تحرُّرهم الجنسي. يقترن الرجل بالمرأة بسهولة، ويفترق عنها بسهولة. كان ذلك يفضي أحياناً إلى مظالم، وقد يحيل النساء إلى بضاعة، ويصرف الاهتمام إلى متعة الجسد وحده. كان ذلك شأن العلية، وهو ما كان يؤدّي إلى تحلُّل خلقي، وتفسُّخ لحمة الأُسرة.. ولكن الجنس لم يكن مشكلاً في الأندلس. وكانت سهولة تلبية الرغبات الجنسية، أو قضاء الوطر، حسب التعبير المستعمَل حينها، تحرِّر طاقات الأندلسيين. وكان هذا الجانب ما جعل مسيحيات ويهوديات يقترنّ بمسلمين، ويتحولن إلى الإسلام، وهو ما أغرى بعض المسيحيين إلى

اعتناق الإسلام ظفراً بهذه الرخصة التي يمنحها. وكان الشيء الآخر، الملازم للأندلس، رغم المانع الديني، هو شرب الخمر. كان الخمر في الأندلس جزءاً من ثقافتها، لا يقترن بالتهتك والمجون والخلاعة. ولذلك لم يكن الناس يسرفون في الشراب، عدا العلية. أما الجانب الثالث، المميز لها فهو العقل، على مستوى الخاصة، بالنظر إلى التعدد العقدي الذي كان يطبعها، والمصلحة على مستوى العامة.

اختار ابن صمادح اسم هند لوليدته. اكتفى أن يدعو الفقيه بن ذكوان، للعقيقة من دون ذبيحة، ونادى للعشاء كلاً من بلقين وإيغموراسن وآگ حمو. . . بعث رسولاً إلى شبريقو كي يخبر مرية، ويدعوها، واعتذرت مرية بأنها مؤتمنة على أرواح ساكني الربوة، وأنها لا تستطيع أن تبرحها، ولم يحضر شبريقو لأن بصره كلّ، وأضحى يجدُ صعوبة في المشي.

11

ما أن بلغَ زيري بن عطية المغرب الأقصى حتى أعلن عن تمرده على المنصور، وأفشى في حواضر المغرب أن المنصور يحتجز الخليفة، ويستبدُّ بالأمر. ثم قطع الصلة بالمنصور، وأعلن ذلك في منابر المساجد والأسواق بالمغرب الأقصى.

كان ذلك يدل أن زيارة زيري بن عطية إلى الزاهرة لم تكلَّل بالنجاح، وأن المغرب الأقصى استقلَّ بأمره، وأن انصرامه عن حلف الأندلس من شأنه أن يشكّل خطراً عليها...

اتخذ المنصور عقب هذا التحول الخطير قرار الحرب على زيري ابن عطية. عهد لواضح أن يذهب إلى المغرب، وخرج هذا الأخير في حشود كبيرة. ركب البحر من الجزيرة إلى طنجة. هنالك في أرباضها وقعت عدة معارك في مواجهة قوات زيري بن عطية. اتخذت شكلَ صراع ما بين العرب والبربر. ولم تقوَ قوات واضح على مُناجَزة قوات زيري بن عطية. من أجل ذلك بعث واضح يطلب المدد. وخرج المنصور بنفسه في قوات كبيرة حتى الجزيرة كي تسند واضحاً. عيّن المنصور حينها عيسى بن سعيد على رأس الشرطة، ممّا يدل أنه اختار خيارَ القوة في الخارج، والبطش في الداخل. كان المنصور من منظور ابن صمادح يُبِين عن قصور دبلوماسي، ويُعوّل على القوة. ألم يكن

يكفي المنصور قرار تعيين زيري بن عطية أميراً، وهو ما كانه فعلياً، عوض تقييده في منصب إداري، كمساعِد عادي، لا يتحرّك إلّا بأمر لتجنب الوقوع في حرب لا مسوّغ لها، تُنهِك الأندلس، وتُنهِك المسلمين، وتوسّع من الإحَن ما بين العرب والبربر؟ وهل عيسى بن سعيد ممن يصلح للشرطة؟ هو بلا مراء صاحب ذكاء ودهاء، ولكنه كان نذلاً، لا يهمه سوى إرضاء المنصور، بأي ثمن كان، لأن في ذلك ضمانة لمصلحته وحماية للأموال التي احتجنها...

كان يظهر أن المنظومة بلغت مأزقاً فراغت إلى القوة، خارجياً وداخلياً، وفتحت عدة جبهات. فهل كانت تستطيع أن تثبت؟ وحتّام؟

كان من تداعيات التحول في توجهات المنصور صدور قرار بعزل ابن صمادح، وإلزامه بيته...

أتى وصيف وأخبر ابن صمادح بالأمر. كان عيسى بن سعيد يردد أن زيري بن عطية ثار بسبب فشل سفارة ابن صمادح. لم يكن عيسى بن سعيد يستطيع أن يذهب أبعد في التحليل، كي يرى مسؤولية المنصور الذي حطَّ من قيمة زيري حين عهد له بالوزارة عوض الإمارة، رغم ما قدّمه زيري من ولاء، وأعرب عنه من وفاء.

لم يكن المشكل من منظور ابن صمادح مشكل أشخاص، في نهاية المطاف، ولكن خيارات. وكانت تلك الخيارات نفسها نتاج منظومة متسلِّطة... ولا مندوحة لها سوى القوة والبطش. لم يكن لها ما كان في عهد الخلفاء، من إمكانية تدبير التناقض، والمزواجة بين الدبلوماسية والقوة، وتغليب الدبلوماسية إلا حين تكون القوة ضرورية. شعرَ ابن صمادح أن المنظومة الإسلامية ستتوزّع بين نظام أُسَري، أحسن تدبيراً للاختلاف، ولكنه معطِّل للطاقات الكامنة في الجماعة، وحامل لبذور فنائه، ومن جهة أخرى، منظومة قسرية، ممن يستولون على السلطان من المماليك والجند والصقالبة، لا تقبل

بالاختلاف، ظاهرها القوة والحزم، وهي تنبني على شطط أبشع من النظام الأُسري.

لم يكن ابن صمادح ليتأفّف من العزل، فهو لم يعد يصطبر لنزوات المنصور، ولم يكن يشاطره توجهاته في الداخل والخارج، ولكن القرار اقترن بشيء ثانٍ، هو لزومه بيته، وهو نوع من السجن، يُسلَب بمقتضاه حريته. حتّام يبقى القرار قائماً؟ لم تكن هناك قواعد قائمة في الاستبداد الشرقي للإثابة ولا للجزاء. كل شيء مرتبط بالحاكمين ونزواتهم وسَوْرة الغضب حين تعتريهم، والصفح حين يوافق مصلحتهم.

كان ابن صمادح يعرف أن الذين يتعرضون للإبعاد أو العزل من حاشية المنصور لا يصطبرون على ذلك، لأن مكانتهم المجتمعية مقترِنة بوضعهم، ولأن المجتمع يجفوهم حينما يتغيّر عليهم صاحب السلطان أو يبعدهم. كان ابن صمادح خارج ذلك السياق. لم يكن يستمد مكانته من وضع، ولم يكن ليتأذّى من جفاء المحيط.. لكن لزوم البيت شيء آخر. هل سيصطبر على المنع من حرية الحركة؟

لم يشعر بثقل القرار أول الأمر. كان يعوّل على الزمن، وكان يعتبر الزمن حليفه، وكان له مرتكز يمكنه أن يعتمد عليه هو ابنه يوسف.

السكّة الكبرى

1

لـم يشعر ابن صـمـادح بثقل الوحدة أول الأمر بعد إذ صـدر قرار العزل. لزم بيته وصرف وقته ما بين القراءة والكتابة وترتيب أوراقه والإخلاص لأهله. اتسمت علاقة الرميكية بتتريت بالاحترام والودّ. أدركت الرميكية ثقل القرار الذي أصدره المنصور في حقّ ابن صمادح وتبعاته على زوجها وعلى الأُسرة، وتبيّنت تتريت من جانبها أن الأمور بالزاهرة ليست كلها أيام سعد، تخفي من وجهها الوضّاء جانباً كالحاً. كانت تسعى أن تخفِّف عن زوجها، أحياناً، وهي تُرضع هنداً في غرفتها أو بالصحن بالمناداة عليه. يقف ابن صمادح وهو ينظر إلى صبيّته في حنو، مع ابتسامة تخفي ما يضطرم في نفسه من أسى. أما يوسف فقد دأبَ على التردد على أبيه، إذ لا يمضي يومان دون أن يحلَّ قبيل المغرب ثم يغادر إلى بيته عبر باب فرج المؤدّي إلى قرطبة. أضحى صلته بالعالم. كان ابن صمادح يصرفه أول الأمر كي يخلص لدراسته، ولكن يوسف كان حريصاً على المجيء ليرفع بعضاً من ثقل ما تنوء تحته الأُسرة. كان ما يثيب، وسط ما يعمّ من أسى، هو الصبيّة هند، ببكائها وصراخها وملاحتها وأطوار نشأتها... كانت تبعث في نفس ابن صمادح البهجة وتخفِّف عنه.

خرج ابن صمادح يوماً من بيته بحي السكة الكبرى لعيادة عبد

الملك بن شهيد بقصره بدار ابن النعمان وقد بلغه اشتداد المرض عليه جراء النقرس. لم يمكث طويلاً ببيت ابن شُهيد وقد قرأ الانزعاج في عيون العُوّاد. وأتى عند الغد شخص من الشرطة يمنع ابن صمادح من مغادرة بيته إلّا بإذن...

ولم يغادر بيته بعدها. كان فيه حمّام ليغتسل. ولم يكن يحتاج الخارج إلّا للحلاقة، ولذلك كان حلاق يأتيه كل يوم خميس، ممّن يختاره صاحب الشرطة الصغرى، ولم يكن الشخص نفسه، وكان إذ يحضر لا ينبس بكلمة...

كان النهار سبحاً طويلاً. كان ذلك ما كان قد قرأه ابن صمادح في رسائل هند، وكان ذلك ما أخذ يكتشفه. وقف على هذا الذي يسمّيه المسيحيون بساعة الشيطان، عند الظهيرة، حيث يَرين الزمن كرصاص يجثم على النفوس، ثم إذ تتحول الشمس مع العصر... كان يألم ليس لأنه حُرم الحرية، ولكن لما يلظى به أهله. لم تكن تتريت تُبين عن شيء، ولكنها كانت تألم في صمت. أدركت أن وضعهم تغيّر. لم يعد أحد يطرق بابهم. ولم يعد أحد من الزاهرة يتردد عليهم، بل أضحى الناس بها يتحاشون آل ابن صمادح ولم يعد أحد يستضيفهم، وإذا تحدث الناس عنهم، ممّا يبلغهم، تكلموا بحذر وأحياناً بسوء.

ثم قُطعت الجراية التي كان يتلقّاها ابن صمادح من ديوان العطاء. وكيف يمكنه أن يعيلَ أُسرته من غير مورد؟ قد يستطيع لسنة أو سنتَين، مع شيء من التقتير، لما كان ادّخره. وكيف إذا طال الاحتجاز؟ لم يكن يخشى الموت، ولا الاعتقال، ولا النفي، ولا أي شيء ممّا يلتصق بمسار السياسة، ولكنه يخشى الآن على أُسرته. يخشى عليها الفقر والحرمان والنكال. على الصبية هند، وأم هند. على الرميكية، وكذلك على يوسف. قد لا توفّره يد البطش. كان هذا الخوف على الأهل ما جعل ابن صمادح يستمسك بهذا الاسم الذي اختاره، إذ كان

يود أن يسترجع اسمه زيري. استرجاع اسمه كان سيثير أسئلة تنتهي بافتضاح أمره. كان يظن ولو أنه كان حبيس الجسم، فهو حرّ الذهن. والحقيقة أنه لم يكن حرّ الذهن. كان يفكر في أهله، وضروب عيشه، وهو الأمر الذي يشغل باله ويشوّش عليه وينغّص على حياته، ويصرفه عن التفكير في القضايا الجوهرية.

كان إذا نام، استيقظ وسط الليل، وعندها يجفوه النوم. يوقد المصباح من فتيلة توجد بباب الغرفة، ولا يقوى على شيء بعدها. لا يستطيع أن يقرأ لأن ذهنه لم يسترح بما فيه الكفاية، ولا يستطيع النوم لما كان فيه من اضطراب في شأن أُسرته. مع الفجر، يعود إلى الفراش، ويغفو لبعض الوقت. . . ويستقبل أُسرته بالبِشْر. كان بِشْراً كاذباً كي لا يبثّ فيها الوهن ويشيع فيها اليأس.

في يوم من أيام الشتاء بعد ستة أشهر من قرار العزل، طرقَ خادم من ديوان ابن حزم الباب، وطلب في ابن صمادح. . أفسح له ابن صمادح وأدخله المجلس. . تلطّف المبعوث وأبلغ ابن صمادح سلام ابن حزم وتقديره له، ثم أسرّ إليه، على سبيل النصح، أن يكتب رسالة استعطاف للمنصور كي يصفح عنه ويعيده للخدمة. فهم ابن صمادح أن المنظومة وقفت على حدود العمل العسكري بالمغرب الأقصى وتجنح إلى السياسة، وتريد منه ضمنياً أن يكون رسولاً إلى زيري بن عطية. فاتَ الأوان. لم تعد له مصداقية كي يلتزم بشيء مع زيري بن عطية، ولم تعد له رغبة أن يتصالح مع منظومة لم تقبل به. ابتسم ابن صمادح للمبعوث، ثم تلا الآية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. شيّعه إلى الباب ولم يسفر عن شيء. وبعد أسبوع وُضع عَسَس أمام الباب يرقبون الغادي والرائح من أمام البيت، ومن يغشاه والخارج منه.

من حينها أضحى يوسف عين ابن صمادح على العالم. من خلاله

يسمع ويرى ويطّلع على ما يجري. كان يُذكّره بفترة شبابه.. كان هو من أخبره بأن المنصور بعد سلسلة الهزائم التي منيت جيوشه بالمغرب الأقصى جيّش الجيوش وسارَ حتى الجزيرة، وعهد إلى ابنه عبد الملك بترؤّس الجنود. لم يعبر المنصور إلى العدوة. اتخذت الحرب طابعاً عرقياً بين العرب والبربر... كيف لابن صمادح أن يكون أداة في حرب طائفية؟ الاعتقال أهون لديه من أن يكون أداة للاقتتال في حروب دنيئة. كل الحروب دنيئة، وأسوؤُها الحروب الأهلية. حتى الحروب ما بين المسلمين والمسيحيين بالأندلس هي في عمقها حروب أهلية. يريد ابن عامر أن يوسّع دائرة الحرب الأهلية إلى طائفية ما بين العرب والبربر. لئن لم يكن ابن صمادح جزءاً من الحلّ، فهل من الحكمة أن يؤجّج الصراع، ويعمّق الجراح، وينفث في الإحَن؟

كان ابن صمادح يألم لما آلت إليه الأمور في الأندلس من اقتتال، وما استعر ما بين الأندلس والمغرب الأقصى من تناحُر.

أكان مصيره الاعتقال لأنه لم ينسكب في الاتجاه العام؟ هل يأتي حين من الدهر يرى الناس أن ساكنة الأندلس يد واحدة وإن تعددت أصابعها العقدية؟ أيأتي زمن يرتبط فيه المغرب والأندلس، بلا شنآن، من دون تمايز عرقي أو عقدي أو لساني؟ إن أتى ذلك اليوم، ولو بعد ألف عام، هانَ على ابن صمادح ما لقي وما يلقى.

2

بدأت هند تنطقُ ببعض الكلمات، مثلما بدأت أمها تتريت تفهم العربية وتُبلّغ بها. دفعتها ظروف اعتقال زوجها أن تخرج من البيت. هي من يتبضّع، وهي من يسهر على حاجات الأُسرة. أسعفها على قدرة الالتئام ذكاؤها الفطري. فإذا خلت إلى البيت انفتحت على الرميكية التي أضحت بمثابة أخت كبرى لها، تحدّثها وتسمع عنها، وتتعلّم منها، أولاً اللغة العربية، وثانياً أمور الحياة في الأندلس. أضحت تتريت على معرفة بقرطبة وشؤونها، وتحسن العربية وإن ظلت ترتضخ لكنة.

كان البيت يعيش على إيقاع هند، إذ تبكي أو ترغي أو تمرح، أو حين تنام أو تستيقظ، وإذ تحبو، أو تقف، أو هي تتعثر في ممشاها، وحين تلثغ الكلمات الأولى، ما، با، أماه...

قرّ قرار الرميكية أن تشتغل بعد أن رأت نضوب المورد عسى أن تعين في نفقات البيت. ذهبت إلى الكنيسة، وكان الشغل أن تنسج بعض الأثواب أو تطرز المناديل وإن هزل ما قد تقتضيه من عملها ذلك، ولكن بصرها لم يعد يسعفها فأعرضت عن ذاك العزم. فكرت أن تبيع الإسفنج، كما كانت تفعل، وصدّها ابن صمادح عن ذلك، لأن ليس أن تفعل، وهي زوجته، ممّا قد يَشفي قلوب خصومه، هذا فضلاً

عن أن ما قد تستخلصه لن يُسمن أو يغني من جوع. كان مسألة العيش تنغّص على ابن صمادح، ولم يرَ بدّاً أن يبيع وديعة تودة. وطلبَ في يوسف، وأخذها منه، وباعها لبعض الصاغة في حي اليهود، بثمن حسن، وانفرجت الأزمة لسنة...

كان أمر الوحدانية ثقيلاً على ابن صمادح. كان يدرك أن هناك ثلاث وسائل للتصدّي لها، إمّا بالعبادة والتهجّد، وإمّا بالنزوع الصوفي، من خلال الدعاء والتبتل، ولم يكن ابن صمادح في شيء من ذلك... كانت هناك طريقة ثالثة حدّثه باشكوال عنها، وهي طريقة فلاسفة اليونان ممن يُدعون بالرواقيين... كان سمعه يحدث عن الفيلسوف سينيكا، ولم يكن ابن صمادح عرفَ عنه ولا قرأ شيئاً منه لأنه لم يكن يحسن اللاتينية، ولكنه أدرك فحوى فلسفته التي تقوم على الصبر على الأذى، والتغلُّب على المحن، وعدم التشكّي، أو الجنوح للحلول السهلة.. كان ذلك هو سبيله.

يذكر ممّا قرأه من رسائل هند أن ممّا يقطع رتابة الأيام، ويصرف عن الأسئلة الوجودية، المرض. كان مرافقاً حسن الرفقة لمن تلظّى بالاحتجاز. لا يفكر المعتقل حين يُلمّ به مرض إلّا في البرء، ولا يصرف جهده إلّا في العلاج، مع هذا الذي يلازم المرض، من الخلو إلى النفس، وحديثه إليها. كان التحرك الدائب لابن صمادح والتنقل المستمرّ، والانشغال بأمور الدنيا، أشياء لا تتيح الحديث إلى النفس، أي معرفة المرء بنفسه. كان الحديث إلى الذات بمثابة الاجترار بالنسبة إلى بعض الحيوانات لا تستقيم التغذية من دونه. تبيّن ابن صمادح أن حياته كلها كانت جزءاً من عملية التغذية، وأن الاستفادة منها لن تكتمل من دون اجترار، أو على الأصحّ من دون تفكر.

كان يسعى أن يجد تفسيراً لما تخلّل حياته بقرطبة، من كاتب للخليفة، إلى مرتاد خمارة يقع في هوى مغنّية يهودية، ثم مريد لفيلسوف

نفذَ إلى كنه الأشياء، إلى متنكّر في شخص فقيه، إلى حلّاق دجّال، إلى مستخدَم في فرن، فوزير مع ابن عامر... الأقدار رمت به أن يواكب فترة حاسمة من تاريخ الأندلس، وتاريخ الحضارة الإسلامية. ستلزم تاريخ البشرية وسيتوزّعون بشأنها. نعم لبني أمية كتَبَتها، ولابن عامر مؤرّخوه، ممن سيُدوّنون ما تخلل تلك الفترة، بكثير من الفخار، مع الجنوح إلى الغلو حول مغازي ابن عامر، وتضخيم مزاياه الشخصية والتستر عن عيوبه. لم يُرد ابن صمادح أن يكون ناقل صدى، ورأى أن يكون كنور الشمس تتحرك كي تلقي نورها على كل الجوانب. كان أداة في يد الأقدار أو التاريخ، ليَشهد عن فترة، تبدو عظيمة، ولكنها تخفي معالم الوهن. زينة الدنيا ليست ما يصوره مؤرّخون وتزيّنه رؤى مغرضة. زينة الدنيا، هي تصور لا يقصي أحداً، ويعترف لكل أحد بالوجود والحق في حرية الفكر ولسان التعبير واختلاف الرأي وتعدُّد العقيدة. وما يوجد في ظلّ ابن عامر هو النقيض لذلك. وما قد يوجد باسم ابن عامر مسيحي، إن وجد يوماً، وقد يوجد، هو نقيض ذلك.

كان ابن صمادح رغم هذه الأسئلة الوجودية، يتابع ما يجري على الساحة. أخبره يوسف بالوضع المضطرب في المغرب الأقصى. حلّ عبد الملك، ابن المنصور، بالمغرب الأقصى في جيوش جرارة كي يمحو هزائم واضح، وألّب قبائل غمارة على زيري بن عطية... وانهزم القائد البربري في النهاية. ولم يكن لينهزم لو سعى للوحدة. لم يتألف بني يفرن، ولا صنهاجة، واضُطر أن ينسحب ليس من طنجة وحدها، ولكن من فاس، إذ دخل عبد الملك بها دخولاً مظفراً، وتراجع زيري بن عطية شرقاً، وابتنى قاعدة بوجدة قريباً من تلمسان.

يحتاج القائد مهما كانت شكيمته إلى فكرة تستحثّه، عدا الغلب والسطوة والقوة. يحتاج إلى فكرة جامعة. أن يجسّدَ طموحاً جماعياً. ولم يكن زيري بن عطية في شيء من ذلك. كان رجلاً بسيطاً، يحارب

من أجل بقاء السلطة واستبقائها، ثم نقلها إلى ابنه. كان كمن تحرّكه غريزة البقاء. لو كان صاحب فكرة، أو مشروع، أو دعوة، لسعى أن يؤلف بين المتنافرين في المغرب الأقصى وبلاد المغرب قاطبة. فشلَ لأنه لم يكن حاملاً لتصور. كان مصير البربر أن يظلوا ألعوبة ما لم يحقّقوا وحدتهم، يستخدمهم ابن عامر وأمثال ابن عامر، وينقلبون عليهم إن استأنسوا منهم الرغبة في الاستقلال والتحرر.

كان هذا ما انتهى إليه ابن صمادح في «اجتراره» للأحداث التي رافقت حياته كي يصوغ منها فكرة أو فكراً. يذكر حين أسرّ لإيغموراسن الرغبة في الفهم.. يدرك أن الفهم وحده لا يكفي. ما معنى أن يفهم المرء إن كان الفهم لا يُوظَّف من أجل قضية؟

هناك شيء آخر انتهى إليه ابن صمادح، لا يستطيع أن يجهر به لأحد إلّا تعريضاً، هو ما اعتبره لعنة لصيقة بتاريخ المسلمين، هذا التأرجُح بين ملك عاض وحكم عضوض.. بين حكم أُسَري وعصبة، تتحول إلى عصابة، أو أوليغارشية كما يسمّيها الإغريق، تحكم بالقوة، وتزعم أنها تحكم لفائدة الجميع. ما جدوى أن ينسكب البربر فيما أخذه العرب عن الفُرس أو عن الروم من ملك عاض وحكم عضوض، إن كان مآل ذلك أن يتألّه الحكّام، ويشتطوا في الأمر.

كان العرب في أولى أمرهم قريبين من نموذج اليونان... كان الأمر شورى بينهم، ولا يستبدّ أحد برأيه. كان الأمير منهم كواحد منهم، وكان الواحد منهم كالأمير منهم... غاض ذلك من تاريخ العرب. تأثروا بالروم والفُرس في الأحكام السلطانية، منذ معاوية بن أبي سفيان. كان ابن صمادح بادي الاهتمام لما حدّثه عنه باشكوال من نظام الحكم عند الإغريق. يختارون قادتهم لفترة، ويحاسبونهم، ويقيمون العلاقات الاجتماعية بناء على القانون، الضامن للصالح العام..

كان هذا هو النموذج الذي يهفو له ابن صمادح. كان إلى ذلك يتطلع لوحدة البربر، ومن يعيش معهم واختلط بهم، من دون إقصاء لأي كان. لم تكن اللغة العربية تطرح مشكلاً بالنسبة إليه، إذ يمكنها أن تحمل رؤى البربر وتصورهم للحياة والشأن العام. يمكنها أن تكون كذلك أداة استلاب إن بقيت محنّطة. إن أضحت ترداداً لأشياء انتسجت بعيداً وإن لم تحمل نسغ الواقع... كان بين خيار كتابات صاعد البغدادي التي هي أقرب ما تكون إلى قاموس، أو جسد محنّط، وكتابات هند في بوح هو صورة الحياة، لا تضحّي بالفكرة من أجل رونق الكلمة وزخرف التعبير. كان ابن صمادح يرى إرهاصات انعتاق اللغة العربية في الأندلس، الأخت الكبرى للمغرب، في الفلسفة، والغناء، والزجل والطب ومختلف الصنائع... لا يمكن فصل المغرب عن الأندلس حتى إن انفصلا سياسياً. لا يسوغ أن ينفصلا ثقافياً. ولا يمكن أن يلتقيا ثقافياً في ظلّ نظرة أحادية.

عيّن المنصور ابنه عبد الملك والياً على المغرب الأقصى. وكيف لفتى ساهٍ، يملؤه الغرور، أن يسوسَ شعوباً مختلفة، تحرص على حريتها، بعد إذ تهلهل ما يربطها بالحضرة من آصرة؟ لم تعد سلطة الحضرة أو المركز تفرض وجودها إلّا بالقوة وليس بالإقناع، أو إيمان الناس بها. وفشل عبد الملك بالمغرب الأقصى. ثم عيّن المنصور عيسى بن سعيد، صاحب الشرطة، خلفاً له، ودخل عيسى مع طرفة، فتى عبد الملك، في صراع تولّدت عنه أحقاد. لم يستطع عيسى بن سعيد أن يهدئ من مرجل المغرب الأقصى فأقيل، وعُيّن الفتى واضح خلفاً له. لم يكن هناك شخص واحد في محيط المنصور يستطيع أن يدبّر شؤون المغرب، لأن المغرب رفض الهيمنة الثقافية والاستعباد السياسي لحكّام الأندلس الحاملين لرؤية شرقية، غير نابعة من تربة المغرب والأندلس.

في خضمّ ما كان يرِد على ابن صمادح من أخبار، كان يود أن يرتحل إلى أستجة ليترحّم على ذكرى الأموات، ويصل الرحم بمرية، ولكنه لم يكن حرّاً. وشعرَ بمرارة أن يُحرم الإنسان من شيء يسير. ثم هوى عليه خبر كالصاعقة. نقلت مرية خزانة باشكوال إلى أبرشية بطليطلة. اعتصر فؤاده للخبر.

3

في أقل من ثلاث سنوات شاخَ ابن صمادح. كان حبيس الجدران ذاتها تنتظم حياته بها، ليوم وشهر وفصل وسنة... يستيقظ مع الفجر، ثم يلزم خزانته إلى أن تستيقظ تتريت. تهيّئ الفطور، ويلهو شطراً من الصباح مع هند.. كانت هند رفيقة الصباح، وكان يلازمها حين تكون أمها تهيّئ الطعام. لم يعد قادراً أن يحتفظ بخادم، لأجرتها ومؤونتها، فصرفها.. وقد يبلغه حديث هند وهي تلثغ مع الرميكية في الصحن وتأخذ عنها لكنتها، فلا تنطق مثلها حرف القاف، أو حين تغني الرميكية لها ممّا كانت تردّده من ترانيم بالكنيسة. كان نطق هند أندلسياً. كان ابن صمادح يمازحها:

- من أنت؟

فترد بلهجة قرطبة:

- أنا هند الأرطبية (القرطبية).

- كيف تكونين أرطبية (قرطبية) وأبوك بربري وأمك بربرية؟

- لأنّي ولدت بأرطبة.

فيطبع على خدها قبْلة. فإذا استسلمت للنوم، غشيَ ابن صمادح غرفة الرميكية.. ثم جلس في مسند قربها، وتشاجن الحديث بينهما.. يسألها أسئلة عادية عن أوجُه الحياة. عن حالة الأسواق. عن وضع

المولَّدين. عن الوادي الكبير. عن صبيبه.. تخبره بحال الأسواق والناس، والقنطرة الجديدة على الوادي الكبير، وترميم القنطرة الرومانية. ثم يسألها بلا رابط:

- أتذكرين لمّا كنت متنكراً في فقيه بالجامع؟

تستغرق في الضحك. ثم يتحدثان عن ذكرياتهما. كانا يعيدان الذكريات ذاتها، وكانا يجدان لذّة في إعادة سردها. يجلوان الحزن الجاثم عليهما. في كل مرة يكتشفان جانباً من حياتهما المشتركة. وفي كل حكي كانا كما لو يعقدان ضفيرة تُمتّن علاقتهما. هذه المرأة التي أخذ الوهن يسري فيها، كانت من بثّ السكينة في حياته في فترة من عمره، نزعته من القلق ومنحته غاية في الوجود، وكانت له عوناً ونصيراً في محنته. تفهّم غضبتها حين اتخذ زوجة ثانية، ولكنها تجاوزت الأزمة. كان يشعر أنها محتاجة إليه، وكان موقناً أنه محتاج إليها كذلك.. تشملها الطمأنينة وهو يحدّثها وقد خشيت أن يكون نفرَ منها وقد اقترن بامرأة أخرى، وتعود إليه الثقة وهو يفضي إليها. أضحت نجيته وكانت هي من يستشير فيما يثقل عليه من همّ، حتى إن آنسَ منها الانبساط سألها:

- ما العمل يا الرميكية؟

ردّت في ثبات:

- لا بدَّ أن تثبت يا زيري...

- كيف وأنا بلا حول ولا قوة؟ محروم من الحرية، ومن الحركة، ومن المورد... وحتّى متى؟

- هو امتحان الربّ لك؟ الربّ يثيب الصادقين.

- لم أكن صادقاً دوماً...

- يمكن أن تتدارك ما فات. أبواب الربّ مفتوحة دوماً...

- تستّرتُ عن أشياء وحجبتُ أخرى.

- من أجل الحفاظ على الأهم.

- كذبت أحياناً.

- قد يكون الكذب سبيل الحقيقة.

- زججت بكنّ في طريق غير مأمونة. لم يكن عليّ أن أنغمر في خدمة ابن عامر، وكان عليّ أن أقبل بقواعد اللعبة وقد انغمرت في خدمته.

- لا يفيد التحسر على ما فات.

- يثقل عليّ أن أعيش عالة على ابني.

- هو ابنك.

- باع شطراً من ضيعة أستجة من أجلي. أتدركين ما يمثّل ذلك المكان بالنسبة إليّ؟

- اخترتَ الخيار الصعب، عليك أن تصمد...

- لا أدري إن أنا اخترت...

- بلى، أنت من اختار، وعليك أن تفخر لخيارك...

كانت الرميكية من يواسيه ويشدّ من عضده، ثم بعدها تكِله لنفسه وتلتحق بتتريت تساعدها في شؤون البيت. حينها يخلو إلى خزانته. يقتعد الأرض. ويصرف وقتاً يقرأ أو يخط في أوراق، أو هو يتأمل، إلى أن تنادي عليه تتريت بعربية سليمة وبلكنة أمازيغية:

- الغداء جاهز أيونو.

كانت تناديه بأيونو، وهي ضمير بالأمازيغية، يستعمله البربر تودُّداً وعفّة لمن يعتلق بهم أو يؤثرونه بالمحبة.

يجتمع آل صمادح، ثلاثتهم، على مائدة الغداء مع هند التي تمتعهم بحديثها وشغبها وملاحتها. يردّد عليها أبوها:

- ليت هنداً أنجزتنا ما تعد.

فتفهم أنه يستدر قُبّلة على وجنتها، فتأتي إليه. فيطبع عليها قبّلة، ثم تردد، ممّا كان حفّظه إياها:

- حسنٌ في كل عين من تود.

- ثم ماذا؟

- وقديماً كان في الناس الحسد.

حينها يصيح ابتهاجاً:

- مرحى يا هند الأرطبية.

مرة سألت هند أباها سؤالاً انفطروا له جميعاً. قالت وهم يتناولون الغداء:

- أبتاه، لمَ تأبع (تقبع) في البيت دائماً...

سادَ الصمت. لم يجرؤ أحد أن يجيبها. ردّت الأم بلسان البربر دون أن تشعر:

- تش ذ فست (كلي واصمتي)..

لم يرُق الردّ لابن صمادح. ردَّ على هند وهو يتكلف الابتسامة:

- أنا هنا بالبيت لكي أكون مع أحب الناس إليّ. أبوك يحبك ولذلك يلازمك. سوف أخرج من البيت عمّا قريب... حينما.. حينما تعديني أن تحبّي أباك أكثر...

- أحبك أبتاه..

- كم؟

- أدر (قدر)... ثم فتحت ذراعيها وأخذت تمددهما.

أصعب الأوقات هو بعد الظهر. تخرج الرميكية إلى الكنيسة. تنشغل تتريت بشؤون البيت. تكون هند نائمة. يمضي زيري الوقت في القراءة ويتطلّع شوقاً إلى يوسف. يخرج إلى صحن البيت حينما لا

يكون الجو بارداً أو ممطراً، ثم يصيخ السمع إلى انبجاس الماء من النافورة... يتردد ثم يجرؤ في سؤال تتريت:

- تتريت هل سيأتي يوسف اليوم؟

- كان هنا أمس.

- أعرف.. ألم يخبرك إن كان سيحل اليوم؟

- أنت آخر من حدثه أمس أيونو.

كان ذلك عبارة عن أماني، لأن يوسف اقترنَ في ذهنه بفورة الحياة، بالتطلُّع إلى ما يستجد...

كان قد علمَ منه أن المنصور أراد أن يتطاول على الخلافة، وزيّن له ذلك بعض وزرائه، إلا ابن حزم أثناه عن ذلك، لأنه الماسك للسلطة، وسيحرّك ذلك ساكن الأحوال، حسب تعبيره، ولأن لذلك تبعات على تماسُك الأندلس وصورتها خارج الأندلس. ولم يرُق ذلك المنصور، فغضب من ابن حزم وأبعده...

كان ابن صمادح يريد أن يعرف تتمّة ما حكاه له يوسف، كما لو أنها سلسلة قصص ألف ليلة.. يلحف في الأسئلة عمّا جرى ويجري، فيرد يوسف بضحكة:

- لم أكن حاضراً...

كان يجد فيه روح باشكوال. كان قد أخذ عنه، وأخذ عنه هذا الذي لم يتح لابن صمادح أن يعرف ألا وهو التراث الإغريقي الروماني...

يتدارك ابن صمادح، محدّثاً تتريت وهو يحدّث نفسه في أسى:

- نسيت، لن يأتي اليوم. ذهب إلى إشبيلية. لا أدري متى سيعود...

كان مديناً لأُسرته في ثباته. أخذت تتريت على كاهلها شؤون البيت وكانت سَكناً لابن صمادح، وكانت الرميكية نجيه ومواسيه،

وهند بهجة حياته، ويوسف العِماد الذي يستند عليه. بقيت مرية مصدر قلق. كان يأسى للفراق. وتمزّق فؤاده لمّا أبلغه يوسف رحيل مرية إلى إشبيلية، والتحاقها بفرقة تغنّي الغناء العميق، وعزمها البقاء مع الفرقة تجوب مع أعضائها أرض الأندلس لتحمل صدى زينة الدنيا، في شجاها وأساها، ومواويلها وأحلامها.

- تفضّلُ عشرة الغجر، أخبر يوسف والده. تزعم أنها تداركت الركب الذي غادرته لمّا كانت صبية... قلت لها إنهم لا يمكن أن يكونوا ذوات الأشخاص، وردت أنها الأرواح نفسها تنتقل من أشخاص إلى أشخاص...

ثم عقّب بأسى:

- لم أعد أفهم عنها. قالت لي إنها تبث أرواح باشكوال وتودة وراحيل حيث ترحل، في أنّاتها ورقصها.

أدرك ابن صمادح حينها أن أرواح الموتى حين تستوثق من الأحياء، تعبّر عن ذاتها بلُغة الشعر والغناء. ليس هناك لغة يمكنها أن تعبِّر عن بوح الأموات ووصاياهم سوى الشعر والغناء والترانيم.. أو الصلوات حينما تتجاوز الطقوس وتصبح نجوى.



كان الظلام جاثماً حين استيقظ ابن صمادح في ليلة من ليالي الشتاء. انسلَّ في رفق من غرفته، وأخذ الفتيلة من الباب، وأوقد بها القنديل.. نزل إلى الميضأة حيث اغتسل، وبعدها قصد المجلس. لفَّ برنوساً حوله، ثم استندَ على الحائط يتملّى. كان يشعر بالسكينة، وكان التأمل يشيع فيه الهدوء والطمأنينة. لم يعد في الحالة ذاتها التي بلاها السنوات الأولى من الاعتقال. ولعلّ رفقة هذا الفيلسوف، سينيكا الذي أطلعه عليه باشكوال وقرأ له منه يوسف، بدّدت ما كان يشمله من غمّ. كان سينيكا مثله في دوائر السلطة، وكان قد اقترن في روما بفتى خجول كان مؤدّباً له. ولم يكن ما يشي أن الفتى سيتحول إلى طاغية تسير بذكره الركبان. ولم يكن ذلك الفتى الذي اقترن مساره بالطغيان إلا نيرون الذي أحرق روما. خدم سينيكا نيرون فأحسنَ الخدمة، ونصح له فمحض النصح، ولكن الفتى تحول غولاً، ولم يجد سينيكا بدّاً من أن ينأى عنه ويعتزل السياسة ويتفكر في حياته ومعناها... كان يوسف قد قرأ على ابن صمادح كتيّباً حول القدر، يتدبّر متنه اللاتيني، ثم ينقله إلى ابن صمادح باللغة العربية. كان ما وقر من تلك القراءات يملك على ابن صمادح نفسه. تقوم دوماً علاقة ما بين الأقدار والأخيار من الناس. الأقدار تكلؤهم، برعاية من نوع خاص، إذ يبتليهم اللّه

ويُمحّصهم لأنه يختارهم له ويستأثر بهم. ليس الابتلاء عقاباً بل مِنّة. . . وهم لذلك يتعرّضون لصنوف الخطوب والأهوال. والفضيلة إن لم تجد من يحملها من الأشخاص ويعترض من أجلها ضدّ الزيغ، ذبلت وذوت. وقوتها من قوة الاستماتة التي يبديها من يحملها أمام قوى الشرّ. وليس على الخيّرين من الناس أن يتأذّوا مما يلاقون من عنت، ولا أن يأسوا على ما يحيق بهم من ابتلاء، وعليهم أن يجعلوا من النكبات التي يتعرضون لها عِبرة، ومصدراً من مصادر الخير ومعراجاً إليه. فاللّه ابتلاهم ليصطفيهم، كي يثبتوا على الحقّ. وهل يعرفُ السعادةَ الحقَّ من لم يعرف الابتلاء؟

لا ينبغي لرجل الخير أن يخشى النفي ولا الفقر، ولا موت الأهل والولد، ولا المرض، ولا التشنيع، فتلك هي السبيل لكي يخرج من نفسه ما هو ثاوٍ بها من مكنون الفضيلة والخير.

تذكّر ابن صمادح هذا المقطع الذي عاودَ فيه يوسف، وأبى إلّا أن ينقله، في حوار ما بين الطبيعة والإنسان الخيّر وهي تقول له:

«لأنت رجل عظيم؟ فكيف أعلم بذلك إن لم تضعك الأقدار في محكّ الاختبار كي تنبثق منك الفضيلة؟ كما لو أنك نزلت حلبة الأولمب، ولم يكن غيرك في النزال، ونلت التتويج، من دون ظفر».

لا نصر إلّا بمنازلة. ثم تعود الطبيعة للحديث إلى الشخص المبتلى:

«فكيف أقف على عظيم صمودك ضدّ الفقر إن كنت ثرياً؟ وكيف أعرف قوتك على الثبات إن لم تتعرض للتشنيع، وقدح فيك المرجفون وأبدت الدهماء في شأنك من صروف الحقد، كيف إن أنت أمضيت عمرك كله، تحت التصفيق وكنت دوماً محطة عناية ورعاية (. . .) لا تخشوا ما قد تستنهض به الأقدار أرواحكم. فالألم هو سبيل الفضيلة. يحق أن نعد من ذوي الشقاء من يطبع حياتهم الخلود في الدعة

والخمول والكسل. (...) فمن كان سياج من زجاج يحميه من الرياح، وكانت قدماه دافئة من البرد بفضل أغطية لا تنضب، ومطعمه دافئ في أرضيته وأسواره، لن يثبت للخطر حين تعصف به أدنى هبّة. كل ما يتجاوز الحدّ فمضرّ، وأكبر الأخطار هو التمادي في النعيم، لأن ذلك التمادي يوسوس في الذهن بصور كاذبة ويبثّها فيه، وتنشر فيه الضباب حتى ليختلط الصحيح والزائف ويتعذّر التميز بينهما. أليس من الأفضل أن يتعرض المرء لمحنة تفضي به إلى الفضيلة، على أن تقصم ظهره المتع اللامتناهية؟».

كان ابن صمادح يتملّى ما وقرَ في ذهنه من فلسفة هذا الرواقي، ويجد أن ما تعرض له من ابتلاء هو مِنّة، وأنه لم يكن يتعرض لذلك لولا تميزه، وأن ذلك الابتلاء هو ما قد يخرج ما هو كامن فيه من سجايا.

5

كان ابن صمادح في المجلس بعد الظهر، مستغرقاً في قراءة **رسائل إخوان الصفا** حينما سمع طرقاً متواصلاً على الباب. يسودُ الهدوء البيت بعد الظهر، إذ تغفو هند، وتخرج الرميكية للكنيسة، وتخلص تتريت لترتيب لشؤون البيت، تنخل القمح، أو تنسج، أو تكنس، أو تغسل الملابس أو ترُفّها، ويخلو حينها ابن صمادح لقراءاته. توقف عن القراءة وقد سمع الطرق. أصاخ السمع. انتهى إليه خطو تتريت وقد ذهبت لتفتح الباب. سمع صوتاً كما لو هو متسوّل يستجدي:

- أيا لمن تصدق، في سبيل اللّه..
أيا لمن فرّج كربة مسكين، في سبيل اللّه...
أيا لمن جبر عثرة كسير، في سبيل اللّه..
يا خلائق اللّه لا يدوم إلا اللّه..
ثم يعيد الدعاء.

أمعن ابن صمادح السمع، واستغرب لحلول متسوّل، ولطبيعة دعائه.. انتهى إليه مرة ثانية خطو تتريت كما لو أنها ذهبت إلى المطبخ تبحث عن شيء تعطيه للمتسوّل. لم يتوقف المتسوّل عن دعائه. شفع بأدعية أخرى:

- من لم يخرج من الدنيا، لم يخرج من عواقبها، يا خلائق اللّه.

لم يكن دعاء المتسوّل ينقطع إلّا حين يُحدّث تتريت، ولم يكن ابن صمادح يستطيع أن يتبيّن فحوى الحديث بين المتسوّل وزوجته. أتَت تتريت بعدها عند ابن صمادح وكلمته:

- متسوّل بالباب.

- انفحيه ما تيسّر.

- رفض. يريد الحديث إليك...

- كيف الحديث إليّ في الوضع الذي أنا فيه؟

- يصرُّ على ذلك..

ونهض ابن صمادح متثاقلاً وذهب إلى الباب وألفى متسوّلاً عليه لباسٌ خلِق، وغفارةٌ تنزل إلى جبهته، ولثامٌ يخفي جزءاً من وجهه الأسفل. استرسلَ المتسوّل في دعاء آخر وقد رأى ابن صمادح:

- ألا من يجيرني؟

ألا من يدثرني؟

ألا من يطعمني؟

حتى إذا كان ابن صمادح بالباب قال السائل:

- سيدي هلا أفسحت لي، لقد تقطعت بي الأسباب...

تردّد ابن صمادح.. ثم تفحّص السائل... وفجأة ندَّ عنه بالأمازيغية:

- إذ شيين أيا (أأنت)؟

- نتش (نعم أنا).

- كشم أهيا (ادخل يا صاح).

أغلق ابن صمادح الباب بالمزلاج. لم يُخفِ فرحته لحلول الطارق. أفسح له في المجلس. ونادى على تتريت قائلاً:

- أويد تمادلات ن نجبوان ن ربي (ائتِ بطعام ضيف اللّه).

وهو طعام العسل والزبدة والزيت مع الرغيف إكراماً للطارق عند البربر.

استغربت تتريت. نادَت على زوجها، حتى إذا كان بصحن البيت همست إليه:

- كيف تدخل متسوّلاً؟

- هو ليس كذلك.. سأشرح لك بعد حين.

ثم التحقَ بالطارق. ندَّ عنه وهو يبسم:

- خدعتني وانخدعت.

كان الطارق إيغموراسن متنكّراً في صورة متسوّل. ردَّ إيغموراسن وهو يضحك:

- كما قد خدعتني. هذه بتلك...

ابتدره ابن صمادح:

- كيف حالك، وبلقين، وآگ حمو؟ خبّرني؟

- ما يهم هو أنت..

- أنا كما ترى... واللّه إني لسعيد بزيارتك يا إيغموراسن. كيف فعلت؟

- أتيت متنكراً في متسوّل. لا أحد سيرتاب من متسوّل. لأكثر من سنة، كنت أجول أمام البيت، ولكن العَسَس كان قائماً عليه، ومنذ إعفاء عيسى بن سعيد من الشرطة خفّت الحراسة...

- نعم، رُفعت الحراسة من أمام البيت، لكن الأزلام يطوفون بين حين وحين، ويستقصون الخبر. ما جدّ من أخبار الدنيا؟

- العرب يتقاتلون، والبربر متفرّقون. وهم إن لم يتوحّدوا الآن، لن تقوم لهم قائمة. هي فرصتهم التاريخية، وأريد رأيك في هذا الظرف الحازِب.

- لا أدري يا إيغموراسن. لم أعد أعرف ما يجري... الذي

أعرفه هو أن الوضع لا يمكن أن يستمرَّ على النحو الذي هو عليه. ابن عامر يعدو حثيثاً نحو وضع مسدود. يحسب أنه بالقوة يمكن أن يحسم كل شيء. القوة أداة، والسياسة تحل ما لا تستطيعه القوة.. بالقوة تفرض رؤيتك على الآخر، إلى حين. وبالسياسة تتوصل والآخر إلى حلول وسطى ملزمة لك وله. وهذا أمر يعز على ذهن ابن عامر، وعلى كل مستبدّ. استولى على السلطة، ويريد أن يتولى الحكم وليس له شرعية... ولّى ولدَيه شؤون الدولة، وهما يكرهان بعضهما البعض، وسيقتتلان من بعده.

- هذه أخبار سارة، قال إيغموراسن ضاحكاً.

- ليست أخباراً، وإنما رؤية ناتجة عن تحليل. حدّثني عنك؟ ألك أولاد؟

- استسلمت، يا زيري.. أو كما كانت أمي تقول ببجاية، العاقل يسير في ركاب الناس، والمغفل يسير في ركاب الناس... تزوجت مثل كافة الناس. وأنجبت..

- وما أخبار بلقين؟

- بلقين يخشى على فرنه. لا يريد أن يأتي أمراً يغضب ابن عامر... لم يعد يحل بخمارة الزقاق خشية أن يُرتاب في شأنه، والعلاقة بينه وبين أگ حمو ساءت.

- أما زلت في فرن بريل تشتغل به؟

- لا... لي ضيعة بالأرباض أتعهدها.. بقيت بعلاقة مع أگ حمو... لا. لم أعد ألتقي ببلقين إلا لماماً... منتهى ما يصبو إليه هو فرنه، والحفاظ عليه. لا يدري أنه يحرق فيه عمره..

- لا ينبغي أن نحكم على الناس جزافاً. ينبغي أن نسعى فهم الظروف التي دفعتهم لذلك.

- يعجبني من أگ حمو عزمه.

- العزم لا يفيد إن لم يقترن بالحزم، والحزم يفترض الفهم. هي العناصر الثلاثة الضرورية للفعل.

- أضف عنصراً رابعاً.

- وما هو؟

- الحسم.

استمعَ إليه ابن صمادح في اهتمام، ثم أضاف إيغموراسن:

- الحسم مع العجول.

ولجّ ابن صمادح في الضحك.

حضرت بعدها تتريت وطرحت الأكل...

- أرى أن لك زوجاً أخرى؟ قال إيغموراسن ممازحاً.

- نعم، أضاف ابن صمادح.

- فهمت من لكنتها أنها بربرية.

- هي كذلك.

- الرجوع إلى الأصل. ترى أنك مسكون بشأن البربر.

- مسكون بكل ما من شأنه أن يحفظ كرامة الإنسان بهذه الديار، ولا فرق بين عربي وغير عربي حين يرين عليهما الاستبداد.. الاستبداد لا يميّز بين هذا وذاك. ينزعهما من إنسانيتهما. يزلّ بالإنسان إلى مستوى الحيوان، فتحرّكه حينها الغريزة، أو يُضحي آلة، يأتمر بما يؤمر، من دون إحساس، من دون إنسانية.

- العرب من يزاول الاستبداد.

- وقد يمارَس الاستبداد باسم البربر.. ليس هناك أمة لها وضع اعتباري، أو طبع مميز، أو أخرى تسكنها لعنة.. نعيش جميعنا في هذه الأرض، وينبغي أن نجدَ الصيغة المثلى للعيش المشترك، عرباً وغير عرب. مسلمين وغير المسلمين، ونقارع جميعنا الاستبداد.

- ألا ترى في ذلك مثالية؟

- قد يتحول ما يبدو مثالية إلى واقع.. لا ينبغي أن نيأس من بني البشر...

- أصبحت تحدث حديث الحكماء يا زيري... لم تشخ بعد.

- لا أدري إن كان في حديثي حكمة، ولكني أسعى أن أرتّب أفكاري في هذه العزلة... الذي أعرفه هو أن الإنسان لكي يعطي أجمل ما فيه، ينبغي أن يكون في منأى من الجوع وفي مأمن من الخوف. ولكي يصل إلى ذلك، ينبغي التصدي لمصادر الجوع والخوف..

- إذاً نتخلّص من العرب.

- نتخلّص من الاستبداد. من أي مصدر كان. ومن الفقر، ومن أسباب الفقر.

تشاجن الحديث، ولم يخلُ من مُلَح كانت تثير ضحكهما... وأخيراً نطق إيغموراسن لما من شأنه أتى:

- زيري، أتيت لكي أخلّصك من هنا. يمكن أن ندبّر فرارك. يمكن أن تتنكر في امرأة، وتخرج من بيتك، ومنها تقيم عندي لفترة، وبعدها نُرحّلك للعدوة... أنّى شئت بالمغرب الأقصى أو الأوسط، أو أفريقيا.

رسم ابن صمادح لحظة تملّي وتأمل، ثم نطق بعدها:

- بورك فيك يا إيغموراسن.. لكن لا أظن أنه رأي سديد. هل أنقذ حياتي كي أعرّض حياة أهلي للخطر؟

- طبعاً، نُهرّب أهلك كذلك.. في اليوم نفسه الذي تغادر، تغادر أُسرتك حتى لا يتاح للشرطة أن تتدارك الأمر.

- أفضّل هذا الوضع. أنا أقرب إلى نفسي هكذا وإلى الحقيقة...

- هل من المعقول أن تظل طاقة فكرية مثل طاقتك حبيسة الأسوار، ولا نستفيد منها؟

- يمكن لهذه الطاقة، إن هي توجد، أن تُفيد، ولو هي حبيسة الأسوار. لا شيء يوقف الأفكار.

- لا تقطعْ بشيء يا زيري. فكّر في الأمر.

- الأمر محسوم يا إيغموراسن. لن أغادر، ولن أفر..

- فكّرْ ملياً... سأزورك مرة أخرى. لا أدري أفي صفة متسوّل أم صفة أخرى.

- يسعدني أن أراك، طالما لم تُعرّض حياتك للخطر.

- لي إليك رجاء، ولا ترُدّه في وجهي، أن تقبل دَيني الذي استدنته منك حين ذهبنا للخراجية..

- أذكر.. قال ابن صمادح، وغلبه الضحك.

ثم أضاف:

- لا تقل لي إنك تريد أن تأخذني إلى الخراجية.

رد إيغموراسن:

- وددت ذلك، ولكن... ثم رسم لحظة، كمن يستجمع قوته، وأضاف، ينبغي أن تسترد دَينك بالخراجية.

- هل من الضروري؟

أخرج إيغموراسن صرّة فيها نقود ووضعها أمام ابن صمادح...

- لا تحرجني يا إيغموراسن.

- لا حرج.

- هذا كثير يا إيغموراسن...

- هذا ردّ دَين، لا غير.. ثم نهضَ وعانق ابن صمادح عناقاً حارّا، وأردف: ينبغي أن أذهب. أسوار الزاهرة أغلقت، ولم يبقَ إلا باب فرج ولو هو لا يغلق. لا أريد أن يُرتاب مني.. سوف أرفع عقيرتي «يا لمن تصدق في سبيل اللّه..»، ثم غلبه الضحك، وأخذ ابن صمادح، أو زيري يضحك كذلك.

6

كان الجوّ حارّاً يومها، وكانت هند تعبث في الصحن. التحقت بعدها بأمها في المطبخ. كان ابن صمادح في المجلس وقد فتح مخطوطات، ممّا أتاه به يوسف من الخطّاطين الذين يتحلّقون بالجامع الكبير، وينسخون الكُتُب. كان منصرفاً حينها إلى دراسة ابن مسرة، رأس العقلانية في الأندلس. لم يكن ذهنه ليثبت على شيء. كان يترقّب أن تفتح الرميكية باب غرفتها كي يزورها، ويحدّثها كما اعتاد. تأخّرَت.. تجرّأ إثرها وطرقَ باب غرفتها. عاود الطرق. فتح الباب في رفق.. كانت الغرفة مظلمة، نفذ النور إليها فانجلت الحلكة.. بدت الرميكية في فراشها كما لو هي مستغرقة في نوم عميق. ناداها:

- الرميكية، إنها ساعة الظهر..

لم ترد.

اقترب منها. كانت ممددة في الفراش، وتَشعّ منها الطمأنينة وبيدها صليب... ناداها مرة أخرى. لم ترد. وأخيراً حرّكها وتهاوت في جانب. أمسك يدها. كانت باردة. كانت قد فارقت الحياة. ولم يشعر إلّا وقد هوى في حضنها وأخذ ينشج، إلى أن غشيت هند الغرفة وأخذت تصرخ:

- أماه، أبتِ يبكي...

حلت تتريت مسرعة، ووقفت على زوجها يبكي في حضن الرميكية وهو يردّد:

- رحلت الرميكية، رحلت الرميكية. رحلت من شملتني بعطفها. رحلت من كانت لي زوجاً وأمّاً وأختاً وصديقة ونجية...

جذبته تتريت ونظرت إليه في حزم:

- تجلّد، أيونو... من سيواجه الأمر إن انهرت؟

ثابَ إلى نفسه حينها، كما لو أن تتريت رشّته بإناء ماء بارد. مسح دمعه. سجّى الغطاء على وجه الرميكية. غادر الغرفة ثم أغلق الباب. استرجع قواه. توجّه بالقول إلى تتريت:

- اذهبي إلى الكنيسة التي كانت الرميكية تتعبّد بها، وأخبري القوميز أنْ يبعث براهب وراهبتَين كي يتعهّدا الرميكية. أريد أن تدفن وفق طقوس المسيحيين. ثم أخبري يوسف. هو حتماً في هذه الساعة بالجامع، وإلّا فاتركي ببيته بطاقة أكتبها لك..

خرجت تتريت وقد اشتملت بإزار مسرعة كي تُخطر الكنيسة وتخبر يوسف. بقي ابن صمادح وحيداً، يدور حول النافورة بالصحن. التحقت به هند. تعلقت به وأمسكت يده. سألته:

- أبتاه لمَ كنت تبكي.

ردّ في أسى:

- الرميكية رحلت يا ابنتي..

- لماذا ترحل؟ ألم تعد تحبنا؟

- كلا.. رحلت إلى مكان لن تعود فيه..

- لماذا لا تعود؟

- لأن الذين يرحلون إليه لا يعودون.

- لا ينبغي أن تتركها ترحل..

- ما يمكن أن نفعل هو نصلّي عليها وندعو لها. . إن فعلنا، فيمكن حينها أن تعود لكي تسكن قلوبنا.

- ألن تغنّي عمتي لي كما كانت تفعل؟

- لن تغنّي لك، ولكن غناءها سينبعث منك.

وجدَ ابن صمادح العزاء في رفقة هند. أخذها إلى المجلس. اقتعدا به. طفق يربت على شعرها حتى نامت، إلى أن أتت تتريت مصحوبة براهب وراهبتَين. لم تكن وجدت يوسف بالجامع وتركت له البطاقة في البيت. قدّم الرهبان العزاء لابن صمادح. دخلَ الراهب غرفة الرميكية وصلّى على روحها، ثم رشّها بالماء المبارك. طلبَ ابن صمادح من الراهبتَين أن تغسلا الرميكية وفق الطقوس المسيحية. . .

كان ابن صمادح حريصاً أن تُدفن في اليوم ذاته لكن الراهب أصرّ على ضرورة ملازمتها ليلاً والصلاة على روحها. نفث البخور في الغرفة التي أسلمت فيها الروح، بعد إذ غسلتها الراهبتان.

عند المساء حضر يوسف. بدا رابط الجأش. لم يبدر منه الجزع. سأل والده أين يريد دفنها. ردَّ ابن صمادح:

- كنت أود بأستجة، ولكن يتعذّر ذلك لبُعد الشقة. ندفنها في المقبرة المسيحية بالربض.

حضر رجال الشرطة لتقصّي الأمر. أخبرهم يوسف بما يريدون معرفته. سألهم إن كان أبوه يستطيع أن يحضر جنازة زوجته. ردّوا عليه ألا أحد يستطيع أن يبت في الأمر سوى المنصور، والمنصور في غزوة الصائفة. .

كان مأتماً فريداً. من غير معزّين. سوى الراهب والراهبتَين. هيّأت هاتان الأخيرتان الغرفة. أشعل يوسف الشموع بها. لبس ابن صمادح لباسه البربري، واحتبى في زاوية بالغرفة التي كانت ترقد فيها، سجّى غطاء جلبابه المغربي على وجهه، ووضع ساعده على ركبته في

لحظة تأمُّل الليل كله. لازمه الراهب والراهبتان. رغبَ يوسف أن يلازمه فأبى عليه ذلك.

عند الصباح وضعت الراهبتان جثمان الرميكية في نعش. مع الظهر أخرج قساوسة النعش وهم يردّدون: «أبانا الذي في السماء..».

بقيَ ابن صمادح ينظر إلى النعش وهو يُخرَج من البيت في أسى وعجز.. كان يود أن يشيّع زوجته إلى مثواها الأخير. كان يود أن يعبِّر لها عن حبّه لها. كانت تلك اللحظة مهمة كي يزيح الحزن من قلبه.. حُرم حتى من حضور جنازة زوجته. لمّا أُخرج النعش، عانق يوسف والده بقوة ثم قال له:

- اثبت أبتاه، كما ثبت دوماً.

ثم رافق يوسف النعش إلى المقبرة المسيحية بالربض.

ظلّت هند متعلقة بأبيها لم تبرحه. بقيت تتريت وراءهما بالصحن وهي ممسكة منديلاً تمسح دموعها. رددت بعض ما يردد البربر في العدوة: «إلّا ربي، إسول ربي (اللّه كائن، اللّه باقٍ)»، «كو ما يذ إفغن أشال أذي يغول إي يشال (كل ما يخرج من التراب فإلى التراب يعود)»..



غارَ ابن صمادح في حزن عميق بعد وفاة الرميكية. لم يجد العزاء إلا في رفقة ابنه يوسف الذي لم يكِله لنفسه في فترة الحداد... شعر ابن صمادح أنه لم يعد الشخص نفسه.. من أحب ممن كانوا يشملونه بعطفهم أخذوا يرحلون. رحلت تودة، ورحل باشكوال، ورحلت الرميكية. وهو أضحى شخصاً مقيَّداً، ممنوعاً من الحركة وحرية التعبير، هذا فضلاً على أنه بلا مورد قارّ. حتى جسمه لم يعد كما كان بالقوة ذاتها، ولا ذاكرته بالتوهّج ذاته، ولا ذهنه بالتوقّد ذاته... أضحى طائراً مقصوص الجناحَين.

لم يجرؤ أحد من الديوان أن يقدّم له العزاء. حتى من كانوا قريبين منه نسبياً، كابن حزم، وابن شُهيد، أو حتى الفتى فاتن وابن دراج الصقلي. خشوا جميعهم على أنفسهم. غاظه ذلك. كان يرى أن الاعتبارات الإنسانية ينبغي أن تسمو على كل شيء. كان يأسى لسيطرة الخوف في النفوس.

في الفترة التي أعقبت وفاة الرميكية، لم يستطع ابن صمادح أن يخلص للقراءة ولا للكتابة. كان يدور صباحاً بالصحن حول النافورة، ثم يغشى غرفة الرميكية، وما أن يفعل حتى تغلبه دموعه فيغادر حينها. كان أحياناً يكلّم نفسه، ويغلبه الذهول، حتى خشيت عليه تتريت. كان

يشعر أن شيئاً مات منه. ذهبت الرميكية وأخذت معها جزءاً منه. كان ابنه يوسف يزوره يومياً بعد أن يفرغ من دروسه بالجامع الكبير بعد العصر، ويتحدّثان في عدة أشياء، من أجل أن يجلو عنه الحزن ويبدّد القنوط، وقد يبيت بالبيت أحياناً. كان ابن صمادح يجد العزاء وهو يسمع من ابنه الحديث عن هذا الفيلسوف الرواقي سينيكا. يقرأ يوسف من صحيفة لاتينية ويترجم إلى أبيه بالعربية.

مرة حلَّ إيغموراسن بالبيت متنكّراً في بائع للبن وهو يصيح:

– لبن طازج، ذق منه أولاً، وإن لم يرق لك لا تؤدِّ دَانقاً..

فتحت تتريت الباب. عرفته. أفسحت له. خرج ابن صمادح إلى الصحن وقد سمع صوته وعانقه عناقاً حارّاً. قدم العزاء لابن صمادح قائلاً ما يقوله البربر في العدوة:

– لتكن وفاتها زيادة لك في العمر.

جلسا في المجلس.. شربا اللبن وأكلا التمر... سرى الحديث بينهما بلا رابط. علم ابن صمادح من إيغموراسن أن زيري بن عطية جمع قواه من الصحراء، وهو يزحف نحو فاس ويتبنّى دعوة الخلافة ويشنّع بالمنصور الذي استلبَ الحُكم وعزل الخليفة.. كان ابن صمادح يستمع من دون تعقيب. لم يعد قادراً على تتبّع دقائق الأشياء، ولم يعد ذهنه منصرفاً إليها... عامِلُ السنّ فضلاً عن الحزن، غيّرا نظرته إلى الأشياء... عاوده إيغموراسن في مقترح الفرار. كان ردّ ابن صمادح قاطعاً. «لا يمكن أن أغادر الموطن الذي يحتضن رفات زوجتي». رسم بعدها حيّزاً زمنياً، ثم قال لإيغموراسن:

– ألتمس منك شيئاً واحداً، إن حاق بي مكروه، فأهلي أمانة في عنقك.

ويوماً عند الزوال حلَّ الأصبَغ بن عبد الملك للعزاء. كان الوحيد ممن ضرب عرض الحائط بالشرطة والعَسَس والرقابة، من غير خشية

أحد منها.. أبلغت تتريت زوجها بزيارته وخرج إليه. عانقه. لزم الأصبغ ابن صمادح حتى المغرب.. كان ذهن الأصبغ منصرفاً إلى المنصور ابن عامر، يشنع فيه:

- يا ابن صمادح، نجم هذا الثعلب لم ينطفئ ولا يوشك أن ينطفئ... حتى الممالیك المسيحية تترضّاه وتخضع لرغباته.. لقد سلّم له ملك ليون عبد العزيز المرواني، ووُضع المرواني في السجن، في ظروف قاسية، واستعطفه هذا الأخير ولم يعفِ عنه.

لم يجد ابن صمادح سوى أن يستعمل التعبير الشائع:

- إن اللّه يُمهل ولا يُهمل.

- لا أدري يا ابن صمادح...

- مسيرة التاريخ ليست هي مسيرة الإنسان، ونحن مستعجلون.

- الذي أشعر به هو نهاية بني أمية...

- بل المنظومة كلها... حكم ابن عامر لن يثبت.. هو يسند شرعيته على الفقهاء، لأنه يزعم الجهاد، لكنه يوسّع دائرة الناقمين عليه، من المسلمين والمسيحيين على السواء.

- هل أتاك أنه يتهيّأ لغزو جليقية؟

- جليقية؟ بجبالها الوعرة؟

- يريد أن يهدم الصرح المقدّس بها، شنت قمب..

- هذه حماقة. كان على ابن عامر أن يسترضي المسيحيين لأنهم جزء من هذه الأرض عوض محاربتهم.. يمكن أن يضعوا خلافاتهم جانباً ويتحالفوا ضدّه...

- واللّه، صرنا نتمنى أن نرى من ينهي حكمه، من أي قبيل كان...

- هو الأقوى حالياً، ولكنها قوة ينخرها الضعف..

دخل يوسف المجلس وهو يحمل بين ذراعَيه أخته هنداً. سلّمَ على الأصبغ. قدّم له ابن صمادح ولدَيه. ما أن سمع الأصبغ اسم هند، حتى اعترته رجّة. ثم تدارك بعدها وقال:

- ما شاء اللّه! تعالي يا ابنتي.

أخذ الصبيةَ وقبّلها على جبينها. ثم توجّه نحو ابن صمادح بالقول:

- رُبّ أخ لم تلده لك أمك. إنها آصرة بيننا يا ابن صمادح.

وردّ ابن صمادح:

- بورك فيك يا أصبغ... ما يجمعنا أقوى من أن تنال منه التخرصات.

كان يوسف يتفحّص وجه الأصبغ، كمن يريد أن يتمثّل وجه هند. لم يكن باشكوال حدثه عنها، ولكنه عرف من والده ابن صمادح أو زيري، أنها كانت حب باشكوال الكبير... كان يوسف يشعر أنه يحمل وديعتها بين يديه وأن روحها انتقلت إلى أخته. انتسجت أواصر قوية بين العرب والبربر، في الأندلس وبلاد المغرب، وانصهروا حتى إنه لا يمكن أن يُفصَل بينهما.

استأذن الأصبغ في الانصراف. شيّعه ابن صمادح... حتى إذا كان الأصبغ بالباب أرسلَ:

- ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وردَّ ابن صمادح:

- ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ...﴾.

وتذكر حينها عبد اللّه ابن المنصور وهو يواجه الموت وينطق بالآية.

8

كانت قد مضت أكثر من ثلاثة أشهر على وفاة الرميكية حين طرقت امرأة الباب. كان ابن صمادح يلهو مع ابنته هند في الصحن لمّا أخبرته تتريت بشأن امرأة تريد أن تقدّم العزاء.

- أدخليها.. قال لها.

ودخلت امرأة مشتملة بإزار تلفُّ طرفاً منه على وجهها حتى لا يُرى سوى عين لها. أشار لها ابن صمادح بيده إلى المجلس، وهو يصرف هنداً كي تذهب عند أمها... تقدّمت المرأة إلى زاوية بالمجلس. اقتعدت مكاناً به دون أن تزيح طرف الإزار عن وجهها. عرف لها ابن صمادح رغبتها في الحشمة، كما تفعل بعض العربيات ممن يحرصن على الحجاب ووضع الخمار. قدمت العزاء في وفاة الرميكية بصوت محتشم من دون التعبير المعتاد «إنا للّه وإنا إليه راجعون»، واكتفت بالقول:

- رحمَ اللّه المرحومة.

ردَّ ابن صمادح في أدب:

- لا أراكِ مكروهاً... ثم نادى على زوجته: ائتِنا بنقع الرمان..

ردّت السيدة:

- لا تزعج نفسك سيدي.. أريد الحديث إليك على انفراد.

استغربَ ابن صمادح. لم يكن كلامها كلام البدويات. بدا له الصوت أليفاً، ويرتضخ لكنة ممّا هو مستغرَب من امرأة تبدو في زي العربيات. ودَّ أن يسألها أمرها، ثم ارتأى أن ذلك ليس ممّا يليق. اهتدى إلى وسيلة موارية عسى أن يستشفَّ شأنها:

- أعرفتِ المرحومة؟

- كلا.

لم ينطع لسانه بردّ بعدها. بادرته السيدة:

- عرفت زوجها.

- زوجها؟

- عرفتك أنت يا زيري..

ثم أزاحت طرف الإزار عن وجهها.

ولم يتمالك ابن صمادح أن صاح:

- سلطانة؟

نهض من مجلسه وأكبَّ عليها وعانقها عناقاً حارّاً، ثم أخذ يدَيها وقبّلهما... قبّل رأسها، إلى أن قاطعته:

- بورك فيك يا زيري.

- دعيني أتفحّصك. لم تتغيّري.

- ثماني عشرة سنة ولم أتغيّر؟ تهزأ مني.

- لا، أبداً... كيف أمورك؟

- كما تركتني. في خدمة مولاتي صُبح دوماً..

- هل... عفواً..

- لا، لم أتزوج... لم أبرأ من حبّي لك. قالت ثم انغمرت في الضحك.

رسم حيّزاً زمنياً. سألها بعده:

- أما زلت تؤاخذينني؟

- أول الأمر، نعم... ولكن هي الحياة. لم أكن لأحلّ محلّ راحيل. كيف هو يوسف؟

- أصبح رجلاً، وهو من يعينني.

ساد الصمت بينهما، وما لبثت سلطانة أن قاطعته:

- تابعت أنا ومولاتي مسيرتك، ولم نفهم حينها كيف انخرطت في خدمة ابن عامر.

- لكي أعرفه. لكي أختبئ منه، وآمن شرّه. لا يعرف عني ما تعرفين. ولو عرف لما اكتفى بإلزامي بيتي.

- مولاتي تعرف أن الحبل منصرم بينك وبين ابن عامر، وهي لذلك تريدك في خدمة...

- لن أتردد فيما أستطيعه، إنما الآن إمكاناتي محدودة، وأنا مُضيَّق عليّ.

- تستطيع ولو بإشارة.

- هذا من حسن ظنك.

- مولاتي حريصة يا زيري أن تسترجع الخلافة التي ضاعت من ابنها، وتعرف تأثيرك على البربر، وتريد منك أن تبعث خطاباً لزيري بن عطية. هو لا يزال وفياً للخلافة، وله جند...

استمع زيري في هدوء إلى ما قالته سلطانة. رسم فاصلاً زمنياً، ثم ردَّ:

- اسمعي يا سلطانة، زيري بن عطية له جند، ولكنه شبيه بحصان كسير لن يستطيع أن ينهض، وحتى لو فعل سيظل أعرج... دخل في صراعات هامشية، ممّا أضعف وحدة البربر. لا يمثّل زيري قوة ضاربة...

- هو القوة الوحيدة التي من شأنها أن تقارع ابن عامر.

- لا يكفي ذلك...

- يمكن أن نمدّه بالمال. ما نطلبه منك هو خطاب تكتبه إليه...

- غير ممكن يا سلطانة...

- لماذا؟

- لأني فقدت كل مصداقية معه. وعدته أن المنصور سيعيّنه أميراً، وحين أتى الحضرة عيّنه ابن عامر وزيراً.

- تلك أمور لا يد لك فيها. هيّأنا كل شيء، وأقنعنا الخليفة، وكلّمنا كاتبه الوليد كي يُبقي الضغط عليه. خطاب منك سوف يستحث زيري، ويشعره أن له الدعم في قرطبة.

- هل تثقين في الوليد، أو على الأصحّ هل تثق مولاتك في الوليد؟

- هو رفيق الخليفة منذ الصغر. هو كاتبه. لا يمكن أن يصدر عنه أي شيء خطر. أتعرفه؟

- عرفت من عرفه، المرأة التي كانت رشيدة للخليفة، والتقيت بالوليد مرة، ولم يخلف لدي انطباعاً جيّداً..

- لا، يا زيري.. لا يمكن أن يصدر عنه شيء يسيء للخليفة.

- ممكن، ولكن قد يسيء للسيدة الكبرى.

- دعنا من الوليد. أريدك أن تكتب خطاباً لزيري بن عطية.

- لا جدوى يا سلطانة... لا يمكن في سنّي ألا أزن كل شيء أقوم به. ليس من الحكمة أن أرقم على الماء.

نهضت سلطانة مغاضبة. حوّلت نبرتها:

- من أجل ما ارتبطنا به يا زيري. من أجل حبّي لك، من أجل ذكرى راحيل... أرجوك..

سادَ الصمت. نفذت كلمات سلطانة إلى فؤاد زيري. أخذت تعمل عملها. انزاح العقل كي يفسح المجال للعاطفة. عادت إليه اللحظات

الحميمية مع سلطانة. لم يبدر منها ما يسيء حين كان مرتبطاً بها. هو من خذلها. ردَّ كمن يكفّر عن حوبة الزمن القديم:

- ما دمت تلحّين يا سلطانة..

- أرجوك.

- أتجنّب كل خطاب مكتوب. يستحسن مبعوث يحملُ خطاباً لزيري بن عطية. ستحلين عند صديق لي اسمه إيغموراسن بضيعة له قرب شقندة. لا تتنكري في هذا الزي، زي عربية. يستحسن في زي مولّدة تحل عنده لشراء اللبن. إثرها تقولين له إني من بعثك إليه، وتستعملي اسم ابن صمادح... وبعده تشفعين، بالمغيرة من اشتغل بفرن بريل... وأخيراً تنطقين باسمي، زيري. سيتأكّد حينها. هو من سيجد الوسيلة المثلى لإرسال الخطاب لزيري بن عطية والمال.

ضغطت على يده. شعر حينها أن شيئاً ما يربطهما، وأن قلبها لا يزال يخفق إليه. حمل يدها إلى فمه وقبّلها. وظلَّ ممسكاً لها. حتى باغتته:

- ينبغي أن أنصرف قبل أن يكتشف أمري. مولاتي صبح تنتظرني. لسوف أعود إليك. هناك أشياء أود أن أفهمها في علاقتنا.

9

منذ حلّت سلطانة عند زيري صرف طاقته في دراسة سينيكا، مع يوسف، يقرأ مؤلفاته باللاتينية ويترجم معناها باللغة العربية. وجدَ زيري لذّة في الاستماع إلى رسائل سينيكا لصديقه لوسيوليوس، وكأنما هي موجّهة إلى زيري كي يثبت على الحق، ويلتزم سبيل الحكمة، ولا يتأذّى من أسباب الغواية ويُعمل العقل في كل شيء، ولا يخشى أحداً، وأن يعرف وجهته، لأن الذي لا يعرف وجهته لا تواتيه الرياح.

ولكن السياسة لم تكله، فقد كان يبلغه ما يجري بقرطبة والأندلس من خلال يوسف. استطاعَ ابن عامر، ممّا انتهى لزيري، ما لم يستطعه أحد قبله من الوصول إلى جليقية حتى موضع القديس شنت ياقب (أو يعقوب)، حيث تقوم كنيسة وأديرة. كان ابن عامر يروم تعقّب ملوك ليون الذين جعلوا جليقية قاعدة خلفية لهم، وأن يضرب رمزاً للمسيحية.

طوّق ابن عامر النصارى، من جانب البحر، ثم من البرّ، وتعقّبهم في الجبال والجُزُر، ودخلَ موضع شنت ياقب، وأخذ بها الغنائم، ومنها نواقيس الكنائس وثُرَيّاتها مع عدد لا يحصى من الأسرى، ودكّ حُصُوناً وأديرة.

كان المسلمون مبتهجين لذلك النصر، مثلما أخبر يوسف أباه.

ولم يكن زيري مبتهجاً لتلك العملية الحربية التي من شأنها أن تعمّق الإحن بين المسلمين والمسيحيين. ومن شأن ذلك أن يؤلّب المسيحيين على ابن عامر. وهو ما حدث إذ جمع المسيحيون أمرهم وأحاطوا بجند ابن عامر على مستوى مدينة سالم، وانهزم المسلمون لولا ثبات البربر من جنوده وفئة قليلة، فانعكست الآية واستطاع المنصور أن يدفع هجوم المسيحيين ويديل منهم.

وانتهى إلى زيري أن المنصور وقفَ على ما تدبّره صُبح من تأليب زيري بن عطية، وتقديم المال له، وأنفذ ابنه عبد الملك إليها ووقف على قوارير مملوءة ذهباً كانت موجّهة إلى زيري بن عطية فصادرها.

كان ممّا أخبر به يوسفُ زيري حديثَ الناس في الجامع الكبير عن المنصور الذي ذهب إلى الزهراء والتقى بالخليفة، وأبلغه أن أمه تبعث المال لزيري بن عطية كي تنقلب عليه، وذكّره سابق أفضاله على الخلافة وسابغ أياديه عليه. لم يجد الخليفة هشام سوى أن أثنى على المنصور، وشجبَ ما أقدمت عليه أمه.

كيف استطاع المنصور أن يَطّلع على العملية؟ ساورَ زيري الظنّ أن الوليد، كاتب الخليفة، هو من سرّب الخبر إلى المنصور، وتمَّ من ثمة إحباط العملية. كان الوليد يعرف أن الحاكم الحقيقي هو المنصور. كان سيكسب أكثر بالتقرب من المنصور عوض المغامرة في شيء غير مأمون العواقب مع صبح التي يمكن أن تضحّي به.. ثم هل كان للخليفة هشام أن يكون في مستوى الأحداث كي يأخذ بزمام الأمور؟ لم يكن شخصاً قادراً على الاشتغال، ولا حتى الاستماع.. صار شبح إنسان، هدّه الخمول والكسل، وأتت عليه الخلاعة، وهي الحالات التي تفرز وضع ما يُسمّى بـ«الرجل القوي»، مثل ابن عامر، مَن يحكم باسم السلطان أو الخليفة.

كانت ورقة زيري بن عطية آخر ورقة لعبتها صبح وخسرتها.

ظهرَ أن زيري بن عطية لم تكن له رؤية، إذ عاد فقدّم الولاء للمنصور. مات بعدها. خلفه ابنه، وكان أول شيء قام به هو تقديم الولاء للمنصور.

هل يمكن أن يأمن زيري شظايا مغامرة صبح وفشلها؟ هل أخبرت صبح ابنها هشاماً من أنها بعثت نجيتها سلطانة إلى زيري أو ابن صمادح كي يؤثّر في زيري بن عطية؟ إن فعلَت فلسوف ينقل الخليفة هشام الأمر إلى كاتبه الوليد، ولن يتستّر الوليد عن زيري، ويخبر بذلك المنصور.

كان زيري نهباً للقلق ولم يرد أن يطلع يوسف على هواجسه.

نظّمَ المنصور استعراضاً خرج فيه الخليفة هشام من الزهراء حتى جامع قرطبة. وحشدت شرطة ابن عامر الناس على جنبات الشوارع كي يروا الخليفة. أعرض الناس أغلبهم عن الاستعراض، ولم يكونوا يعرفون الخليفة ولا سبق أن شاهدوه. بدا ليوسف، وقد حضر الاستعراض رجل ملفوف في برنوس، مقوّس الظهر، وهو يتهادى على حصان يمشي الخبب، وعن يمينه المنصور يمتطي فرساً، وأمامهما عبد الملك بن المنصور وأخوه عبد الرحمن يتقدّمان الموكب راجلَين.

كانت عملية الاستعراض مقصودة كي يوغر المنصور صدر صبح. واستطاع ذلك فعلاً، إذ منذ ذلك الحين انزوَت عن الأنظار، وأخذت صحّتها تضوي.

سأل زيري يوسف كيف بدا له المنصور:

- قرأت التعب من وجهه.. وكان نظره شارداً، أجاب يوسف..

- ينبغي الحذر من الوحش المتعَب أو الجريح. يصبح أكثر ضراوة، عقّب زيري...

ثم تشاجن الحديث بلا خيط رابط.

10

حلَّ إيغموراسن عند ابن صمادح أو زيري وهو متنكر في صورة بائع متجوّل يبيع صنوف البقول والنعناع والبقدونس والفجل.. طرقَ الباب. فتحت له تتريت. ربط حماره في مدخل البيت ثم غشِيَ مكان ابن صمادح في المجلس. وجده يقرأ القرآن.. كان وجه إيغموراسن متغضّناً لا يخالطه الهزل. قرأ ابن صمادح على وجهه الارتباك... تلطّف في الحديث إليه:

- شكر اللّه لك على الخضار والبقول، يا إيغموراسن...

- لا شكراً يا.. زيري... لا بدَّ أن أبلغك بشيء.

- ماذا يا إيغموراسن؟

- سلطانة.

- ما بها؟

- ماتت.

- إستير؟

- أي نعم.

سادَ الصمت بين الرجلَين. استأنفَ إيغموراسن حديثه:

- وضعت حدّاً لحياتها. وُجدت مشنوقة في غرفتها في بيت سيدتها بالرصافة.

أغمض زيري عينَيه من هول الخبر المفجِع. كان تنتهي إليه شذرات من حكي إيغموراسن. يوم أتته متنكّرة موفَدة من عنده في لباس مولَّدة بشقندة. لمّا استيقن منها، بعث مبعوثاً إلى زيري بن عطية، قطعَ البحر من ألمرية إلى وهران، ومن ثمة التقى بزيري بن عطية بوجدة...

لم يعد زيري يستمع. ماذا يفيد معرفة جزئيات عملية فشلت. ماذا يفيد وقد ذهبت بشخص ارتبط بحياته. كان عليه ألّا ينصاع لها حين ألحّت عليه كي يستدرج زيري بن عطية. العملية فشلت، وأودت بإستير أو سلطانة. شعرَ زيري بقشعريرة، ثم علته حمّى. اعتذر لإيغموراسن...

- لا أشعر بنفسي على ما يرام. أستأذنك يا إيغموراسن..

نظرَ إليه إيغموراسن كمن يترجّاه:

- أرجوك يا زيري. الطوق يشتدُّ من حولك. ينبغي أن تفرَّ بجلدك...

نهض زيري ثم نادى على تتريت:

- ناوليني دثاري...

ثم تحول إلى إيغموراسن، محدّثاً إياه في حدّة:

- اعذرني يا إيغموراسن. وأرجوك ألا تعاودني في أمر الفرار. لقد تعلمتُ شيئاً من دراستي للفلسفة الرواقية، هو أن من يمتهن الكرامة الإنسانية، يمتهن ذاته. الجلّاد الذي يحتجز سجين الرأي يحتجز نفسه كذلك، وهو يلظى لذلك... قد لا تصدقني، ولكن ابن عامر يلظى للوضع الذي وضعني فيه، ولا يدري كيف يخرج منه. هل تريدني أن أخفّف من لوعته بالفرار ويضحى هاجسي حينها هو الاختباء، والتنكّر والتنقّل من مكان إلى آخر؟ لا يا إيغموراسن.

- قتل أي إحساس إنساني في نفسه كي يلظى.

- حتى أبشع وحش بشري، يسكنه دوماً شعور إنساني يترصّده، يوماً ما. ويؤرقه يوماً ما.

- يمكن أن تمتدَّ يده إليك.

- ولو. دعِ الأمور كما رسمتها الأقدار.

كانت تتريت قد أتت زوجها ببرنوس. لفّه على جسمه. شيّع إيغموراسن إلى الباب، سأله إن كان يعرف أين دُفنت إستير. ردَّ بالنفي لأنها دُفنت ليلاً، ولم تُرد الطائفة أن تخبر بذلك...

ودّع زيري إيغموراسن. قصدَ الدرج المفضي إلى غرفته، ثم توقف. عادَ أدراجه... تحوّل إلى غرفة الرميكية. كانت كما تركتها. بصليب فوق الفراش. اشتمَّ رائحتها. انغمر في فراشها. كان جسمه يرتجف. جزء منه يموت، بموتِ من اقترنِ به. كان يقيم مأتماً لنفسه من دون معزّين. لن يستطيع أن يُطلع أحداً على سبب حزنه وسقمه. حتى يوسف، لا يمكن أن يخبره أنه حزين لوفاة إستير.

شعرَ بالجزع والضيق... لماذا وضعت إستير حدّاً لحياتها؟ هل لأنها ورّطت سيدتها في مغامرة وأخفقت؟ أم أنها.. لم يتنبّه زيري للأمر، أم أنها كانت تسعى أن تتستّر عليه؟ لم يكن بعيداً أن يفضحها الوليد، كاتب الخليفة، ويخضعها إذّاك المنصور للتعذيب، وينفضح أمر زيري أو ابن صمادح... ماتت أو وضعت حدّاً لحياتها، إبقاءً لحياته. يا له من دين ثقيل. رفع الغطاء ووضعه على وجهه، ثم أجهش بالبكاء...

فاجأه صوت هند وهي تفتح باب الغرفة. انسلّت معه في الفراش. تطامنت في حضن أبيها. تحسّست وجهه، وألفته مبلّلاً. سألته: ما يبكيك، أبتاه. لم يحر جواباً. ثم تشجّع وردَّ: تذكرت من أحبّ يا ابنتي. من ذهبوا لغير رجعة.

11

لأسابيع متتالية لم ينهض زيري من الفراش. أعرض عن الأكل والحديث مع أي كان، سوى هند. حتى يوسف كان يأتي كل يوم، ولا يجرؤ أن يغشى غرفة الرميكية حيث زيري. وإن فعل، تعلّل زيري بالتعب، أو قلّة النوم، فينصرف يوسف موقناً أن أباه لا يريد الحديث... تغيّرَ تعامُل زيري مع تتريت. يثور في وجهها لأتفه الأسباب، ويغضب لأوهى الأمور. كان يألم لما اعتور حياته وللعجز الذي رانَ عليه. كان كمن جعل من أهله مشجباً. كان حاله معبِّراً عن الحزن الذي جثمَ عليه. ترك لحيته تكبر، وأعرض عن الحلّاق حين أتى، ورفض أن يغتسل في الحمّام، أو يغيّر ملابسه. أهمَّ وضعه تتريت وكلّمت يوسف في الأمر. نصحها بالتريُّث. كان الشخص الذي يجرؤ على زيري هو هند، تنغمر في الفراش معه من دون استئذان. يضمّها إليه، ثم يقبّلها في جبهتها ووجنتها دون أن ينطق بشيء... لو لم يكن محتجزاً، لمشى تحت الشجر، أو جنبات النهر، وحدّث نفسه كي يجلو عنها ما يملؤه من حزن... حتى هذا لا يستطيعه، لأنه حبيس وسط جدران، وفي حيّز لا يستطيع أن يبرحه، ولا يمكنه أن يتحدّث لأحد، إلّا مع ذويه أو بعض معارفه خلسة، وحتى مع أهله انتاب علاقته بهم نفور وجفاء.

لماذا انفلتت إستير أو سلطانة من زيري؟ أي أسرار تنطوي عليها إستير؟ عادت إليه المراحل الأولى لعلاقتهما. ألم يسيء عشرتها؟ ذهبت دون أن يعرف طبيعة علاقته بها أو يعتذر لها. من كل الذين رحلوا، لم يكن يشعر بالذنب تجاه أي أحد. لم يسيء التصرف مع أي منهم. ربما الرميكية لفترة حين اقترن بتريت، ولكنه ظلَّ وفياً للرميكية، إلى اليوم الذي اعترى علاقتهما الفتور، ثم صفحت عنه. أما إستير... نعم، أذنبَ في حقها.

ينتابه أحياناً شعور آخر حيال إستير ملؤه الموجدة كأنما يحدّثها. لماذا تضعين حدّاً لحياتك يا إستير، كأنما حياتك ملك لك؟ لم تفكري في الآخرين، وحكمت عليهم بالأسى والعجز... ثم يسترسل، كما لو هي على قيد الحياة، مؤاخذاً إياها. تسمع تتريت هَذره، فيعتصر الألم فؤادها ولا تقدر على شيء.

كان زيري لا ينام الليل. ولا يغفو إلّا بعد الفجر.

ذات يوم، بعد العصر دخل عليه يوسف، وحدثه في رفق أنه التمس من الشرطة الإذن كي يفحصه الطبيب. فوجئ يوسف وأبوه ينتهره:

- وما دخلك في الأمر؟ هل أزج في حياتك كي تزج في حياتي؟

- ينبغي أن يفحصك الطبيب.

- ولمَ يفحصني الطبيب؟

- أنت متعَب أبتاه.

- من قال لك إني متعَب. كلكم تريدون بي شرّاً. أنت وتتريت وابن عامر. من كانت تحدب عليّ رحلَت. ماذا صنعت لكم كي تتعقبوني وتؤذونني؟

أغلقَ يوسف الباب وحدّث تتريت. لا جدوى من المناداة على

الطبيب. كان الشخص الوحيد الذي لا يثور زيري في وجهه هو هند. وكانت تتريت حين تريده أن يأكل تبعث له بالطعام مع هند.

بعد قرابة شهر منذ بلغه خبر وفاة إستير، كان في الفراش في غرفة الرميكية حين هزّه آذان الفجر. لم يكن نائماً. لم يتردّد طويلاً، كمن كان ينتظر إشارة. نهضَ من الفراش. نزعَ الصليب من الحائط. دسّه في جيبه. توضّأ، ثم لفَّ برنوسه، وفتح المزلاج وخرج. لأول مرة منذ تسع سنوات يغادر البيت، هازئاً بقرار الإقامة الجبرية، ومتحدّياً السلطة، عدا المرة التي ذهب فيها لعيادة عبد الملك بن شُهيد. ذهبَ إلى المسجد القريب. بقيَ في الصفوف الخلفية. صلّى ركعتَين تحية المسجد، ثم صلّى الفجر. آلمته مفاصله، لأنه أتى عليه زمن لم يُصلِّ فيه. إلى أن أقيمت الصلاة، فصلّى الصبح جماعة. لمّا فرغ من الصلاة، خرج مع جمع المصلين. لم يأبه به أحد. كانت أبواب الزاهرة قد انفتحت. تمشّى في ممرٍّ قرب النهر حتى تبدّت له أسوار قرطبة. لفّ شمالاً إلى القنطرة نحو الأرباض حيث المقبرة المسيحية. كان الهدوء يشملها. لم يكن النهار قد نشر نوره بعد. صادفه في ذلك اليوم الربيعي رجل بلدي بحماره يقصد قرطبة ليبيع خضاره. ألقى عليه السلام. ردَّ السلام. أتى عليه زمن لم يقابله أحد بالسلام. استوقفه سرب من الكلاب. فرّت لمّا اقترب، سوى كلب وكلبة ملتصقَين. نأى عنهما كي لا يزعجهما. ثم بقي بعيداً يرمقهما، وهو ينظر إلى سطوة الطبيعة. دخل المقبرة بعدها. شعر بالبرد. لفّ طرفاً من عمامته على وجهه. ترى أين قبر الرميكية؟ لم تكن بكل القبور شاهدات، ولم تكن كل الشاهدات مكتوبة. أخذ يبحث في الشواهد. لم يكن سأل يوسف عن شاهدة الرميكية أو علامة قبرها، لأنه لم يكن يُقدّر يوماً أن يقف على قبرها. ما جدوى أن يبحث؟ تخلف في مكان فارغ، ثم رسم وقفة. أحنى رأسه في خشوع. ثم ردد: حيثما تكونين، أنحني لذكراك.

لم أصحبك لمثواك الأخير لأني مُنعت من ذلك. كان شعاع الشمس قد أخذ يبزغ من السماء، ثم أخذ يتوهّج في الشفق. . لكم من سنة لم يرَ زيري وهج الشفق. رفع رأسه وأخذ ينظر إلى قرص الشمس. شعرَ بفرحة عارمة وهو ينظر إلى نور الشمس. بعثت فيه البهجة. أخذ يبسم. لم يكن يدري أن لهذا القرص الذي يشرق كل يوم، ويغرب كل يوم، سحراً وأثراً في النفوس. ثم جلس على حافة قبر وهو يرمق الشمس. ذهلَ عن كل شيء، حتى الضحى، حين فاجأه حارس المقبرة. ألقى عليه التحية. . . ردَّ زيري التحية، ثم غار في تأملاته، إلى أن اشتدَّ حرّ الشمس، فنهض ومشى وسط القبور. كل قبر يحيل إلى حياة. كل حياة إلى أمالي وأمانيّ وخيبات. . . كل قبر ينبغي أن يكون مرآة لأنفسنا، حين نقف عليه. لم يفهم لمَ يُميَّز الموتى في المقابر حسب معتقداتهم قيد حيواتهم. كان على أهبة أن يغادر حين ناداه الحارس لمشاطرته أكله. نالَ من فطائر بالزبدة والعسل قدّمها له، دون أن يقول شيئاً. حتى الحارس لم يسأل. ثم قصد زيري النهر، أسفل القنطرة. جلس على شطّه يستمع إلى خريره. يا لها من سعادة! كان منسوب الوادي الكبير مرتفعاً لذوبان الثلوج من جبال الشرات. استمع إلى زقزقة الطيور. عمَّ الدفء. بدأت الحركة تدِبُّ في قرطبة. كان يرى أسراب الناس والدواب تذرع الجانب المقابل. أشياء بسيطة تشيع البهجة في النفس، وتجلو عنها الغمّ. . . شروق الشمس، خرير الماء، زقزقة العصافير، شخص يحييك ويبادلك السلام، وآخر لا تعرفه، يشاطرك أكله، ثم الحديث إلى النفس. . . كما لو أنه لم يكن محتجَزاً لتسع سنين. لم يدرك أهمية تلك الأشياء البسيطة إلّا الآن، لأنه كان محتجَزاً ومحروماً منها. فاجأه آذان الظهر من الجامع الكبير. لم يشعر بثقل الزمن. تنحّى وسط نبت السمار والشجر كي يتبوّل ثم توضّأ من ماء النهر. كان الماء بارداً. تركَ يده يعبث بها تيار النهر. ثم قطع القنطرة

نحو المسجد. كانت الصلاة قد أقيمت. صلى الظهر مع الجماعة، ثم خرج إلى الصحن، وجلس تحت ظلّ شجرة. سرى دبيب الحركة بالصحن. وُضع الطعام، كما كان يوضع دوماً ممّا يأتي به المحسنون والمُحبّسون. نالَ منه، ثم غشِيَ فناء المسجد ونام به. ما أن وضع رأسه تحت يدَيه حتى شمله النعاس، هو الذي كان قد جفاه النوم. استيقظ قبيل العصر. استندَ على حائط، وغارَ في التأمل. كان جلال الجامع يشمله بالسكينة. أذّن المؤذن للعصر. نهض للوضوء. صلّى العصر جماعة. ثم خرج من الجامع، في اتجاه باب بطليموس. مشى في أزقة المدينة. لم يأبه به أحد، ولم يسأله أحد أمره. تُرى هل أخبرت تتريت بغيابه؟ وهل الشرطة في أثَره؟ وهل يوسف يبحث عنه؟ لن يخطر لأحد على البال أن ابن صمادح يمشي في الأسواق، على مسمع ومرأى من كل أحد. كل جَليّ خفيّ. وقف زيري بالحانوت الذي كان يزاول به الحجامة. تحوّل المكان إلى محلبة. أراد أن يتناول الجبن واللبن. تبيّن أنه لم يكن يحمل نقوداً... ثم أتمَّ مسيره حين وصل حانة صمويل استوقفه رجل بدين:

- أذفونشو؟ أما عرفتني؟ قال زيري.

- كلا.

- هارون؟

- هارون؟ مات هارون.

- من قال لك إن هارون مات؟

- صمويل.

- وأين صمويل؟

- مات.

- هارون لم يمت... أتذكر المغنّية راحيل؟

- راحيل؟ راحيل؟ آه، غادرت من زمان.

- ماتت.

- ماتت؟ صغيرة كي تموت.

- ليس للموت منطق.

وجدَ زيري العنت كي يذكّره بما انقضى. لفرط ما كرّر الشغل ذاته، لم يكن ذهنه قادراً أن يستوعب شيئاً آخر.

- ماذا تريد؟ سأله أذفونشو.

- لا شيء. أن أراك. أن أرى المكان الذي كانت تغنّي فيه راحيل، وحيث انتسجت مرحلة من حياتي.

- تريد أن تشرب؟

- ليس لدي مال، ولم أعد أشرب.

- إن كنت حقاً هارون أستضيفك.

- لا أريد أن أشرب. أريد أن أستمع إلى المكان...

- تستمع إلى المكان؟ تعال، نادى عليه أذفونشو. أأنت من صفعته المغنية راحيل؟

- صفعة الحياة كانت أقوى.

- أذكرك الآن.. أنت ضيفي.

غشِيَ الحانة. كانت بها مغنية تغنّي بصوت جميل. ترى من سيقع في هواها؟ من ستوقع به أسرار الطبيعة أو الغريزة أو الحياة؟ هل في الجمع زيري آخر؟ وهل المغنية راحيل ثانية؟ وهل تنتسج اللحظة مغامرة أخرى كمغامرة زيري قبل عشرين سنة؟ حبّ، ولَوعة، ومغامرة، وحياة.

قدّم له أذفونشو صحن الدفينة. نال منه. ثم تأهّب للمغادرة. استبقاه أذفونشو. اعتذر... غادر. إلى حارة مغيث. حامَ ببيت سربوت بن حسداي بن سربوت. كانت الغرفة التي كانت تسكن بها إستير مضاءة. ساكن جديد استأجر الغرفة لربما. ودَّ زيري أن يطرق

الباب، ويسأله النظر إلى المكان. أحجم. تقرفص أمام الباب. لم يثنه البرد. شعر وكأن إستير تكلّمه. يوم اقترن بها، وهي تبكي. ثم يوم دخل عليها. ثم حين كانت تزوره متنكّرة في صحن الجامع. من كل النساء اللواتي عرفَ، كانت إستير أرجحهنّ عقلاً، وأوسعهنّ معرفة.. أخذ يتكلم كما لو هو يحدّثها... لم يكن لتغادري يا إستير... استعجلتِ... أخطأتُ في حقّك. ولكن، كان يمكن أن نتحدث في الأمر. أتعرفين، الرميكية، لم تكن سيّئة. كنت أشعر أنك قوية، تستطيعين أن تدبّري أمرك لوحدك، أما الرميكية، فكانت بلا سند. لا تسأليني عن ألغاز الحياة. أنا في سنّ استخلاص عِبرها. أعرف أنها لا تفيد. لا أحد استفاد من تجربة أحد. أبناؤنا ينفرون من تجارِبنا، لأنهم يريدون أن يستكشفوا الحياة بأنفسهم، ويركبون المغامرة بأنفسهم، ولو زاغوا. صادفه وهو يهذي شابّ. ألقى عليه التحية:

- شالوم.

ردَّ زيري:

- شالوم.

فتح الشابّ الباب. ألقى عليه نظرة كمن يستيقن من أمره. صعدَ الدرج. كما لو هو صوت خطى زيري في مقتبل عمره وهو يقصد إستير. بعد حين، سيضمّه صدرُ من يحب، أو يضمّ صدرَ من يحبه. ستناوله حبيبته قدحاً من الخمر كما كانت تفعل إستير مع زيري، وسيخوضان في أحاديث ممتعة، تتخلّلها قُبل ومداعبة، ثم يرسمان معالم الحُلم. فاجأه الشاب بغطاء وكسرة خبز ثم صعد إلى بيته. قد لا يرى أي كان في زيري وهو محتبٍ أسفل بيت إستير، سوى متسوّل أو متسكّع. طرقَ زيري الباب. نزل الشاب. كان مؤدّباً. بادره زيري:

- سيدي، هل يمكن أن أستبقي هذا الدثار؟ لا أريد أن أوقظك في الصباح، وسأغادر باكراً.

- طبعاً.

- شكر الرب لك.

ثم انهالت دموع زيري. أخذ يردّد: شكر الرب لك.

استثار بكاؤه الشاب. ردَّ الشاب:

- دثار عادي... الأمر لا يستوجب الشكر.

- كنت في حاجة إليه.

- يمكن أن أزيدك دثاراً ثانياً إن أثقل عليك البرد.

- واحد يكفي. يذكّرني بفتاة أحببتها.

- إستير؟

- نعم، كيف عرفت؟

- أأنت زيري؟

ثم أجهش الفتى في البكاء.. ضمّ إليه زيري وهما يبكيان:

- هي أختي، ولم تحب أحداً سواك. وكانت تتحدّث عنك دوماً. تعال، زيري. اصعد...

- لا. ردَّ زيري. أريد أن أشعر بلسعة البرد. وأنا أترحّم على إستير. أريد أن أكفّر عن حوبتي.

- أرجوك...

- لا يا... ما اسمك؟

- يعقوب.

- لا يا يعقوب.

- يمكن أن أقعد معك.

- ولا هذه يا يعقوب. أريد أن أصلّي على روح إستير. والآن دعني لحالي.

ضمّه إليه يعقوب ودموعه تطّرد على وجنتَيه.

استندَ زيري على الحائط. شعر بالراحة لأن الأشخاص استعادوا أسماءهم، لأنهم في استعادتهم لأسمائهم يستعيدون أرواحهم أو شخصياتهم. تودة، إستير، وهو زيري. أغمضَ عينَيه. ثم أخذ في الحديث إلى إستير. غفرانك. غفرانك. غفرانك. ثم غفا. إلى أن أيقظه صوت المهلل قبيل الآذان. كان يغادر غرفتها قبل تهليل المؤذن. شعرَ ببرد الراحة. أو السُّلوان. نهض نحو باب بطليموس، أرادَ أن يفتحه من الخارج كي ينسرب من الجب. كان مغلقاً. قصد الجامع من باب الساباط، ومنه إلى حيث توقد النار وتسخين الماء. وجد شابّاً يمد النار بالحطب. نظر إليه الشاب في استغراب:

- هل من خدمة يا عمّ؟

- لا. أبداً. كنت أخشى أن تخمد النار ولا يجد المصلّون ماء دافئاً للوضوء.

- تسع سنوات ولم أتخلف عن شغلي يوماً واحداً.

تسع سنوات، مدة اعتقال زيري. ما جدوى أن يقول له إنه فعل الشيء ذاته في فترة من حياته؟

- بورك فيك يا فتى، ردَّ زيري.

- أجر ذلك عظيم عند اللّه.

- أي نعم، يا فتى. إن للّه رجالاً تُقضى بهم حوائج الناس، كما قال الصادق المصدوق. طوبى لهم.

ثم انفتل إلى الميضأة. توضّأ. قصد المسجد. صلّى ركعتَين. وبعدها أذّن الفجر. صلى الصبح، ثم غفا في ركن. متدثّراً بغطاء إستير. في الصباح خرج إلى الصحن، ونال من حساء يقدّمه المحسنون. بقيَ بالصحن، على حرف حائط يحف الحديقة يشرف على الزاوية التي كان يقتعد بها فقيهاً يفسّر الأحلام ويكتب التمائم ويفتي. كان بها شخص متدثّر بغطاء يؤدّي الوظيفة نفسها التي سبق أن أدّاها.

الناس محتاجون دوماً للحُلم، ولمن يشرح لهم طلاسم الحياة، ويمسك بأيديهم. قد تختلف الوسيلة، من مكان إلى آخر، وزمان إلى آخر. ثم نهض في اتجاه المدينة العتيقة، إلى فرن بريل. غشيه. وجد فتى يُسعر النار، وبقربه فتى آخر مستند على الحائط. جلس زيري قرب الباب، دون أن يثير جلوسه أي فضول. كان من يسعر النار يتحدث كما لو يحدّث نفسه في ثرثرة لا تنقطع، كما كان يفعل بلقين، وكان الفتى الآخر لا يستمع إليه، كما إيغموراسن مع بلقين. نهض الفتى قائلاً:

– آن الوقت كي آتي بالوصلات.

– هو ذا الوقت يا عبد الموجود، ردَّ من يُسعر النار.

لم يجد زيري بدّاً من الحديث إلى من يشتغل في الفرن:

– هل يمكن أن أبقى لبعض الوقت هنا؟

– ابقَ قدر ما شئت.

أخذَ عبد الموجود يأتي بوصلات العجين، وصاحب الفرن يرسم عليها العلامات. يضع جانباً الوصلات التي تحتاج إلى الاختمار، والجاهزة للفرن قربه. أخذت فتيات يتقاطرن كذلك ممن يأتين بعجينهنّ. هي الوظائف ذاتها، تتكرر، والحياة، كما الطبيعة، تجدُ دوماً الوسيلة والذريعة لتبقي شعلة الحياة. أو سنّة الحياة، في عناصر جديدة.

رقَّ حال زيري لامرأة، فأعطته كسرة خبز. وضعها في جرابه. هنا، بذا الفرن تعرّف إلى إيغموراسن، وبلقين. هنا وقف على غضب البربر. كانت دروب الحياة تحرّكهم كما تحرّك الطبيعة الغريزة. هناك قوى تتحكّم في الإنسان. تجعله يفكر بالطريقة التي يفكر بها، ويتصرف بالطريقة التي يتصرف بها. بذا المكان تلبّس زيري شخصية المغيرة، كي يستثير ضمير جعفر. نهض زيري، ثم قصد نحو شقندة. حتى

انتهت المنيات. سأل عابراً عن ضيعة إيغموراسن. ردَّ أنه لا يعرف إيغموراسن، ولكنه يعرف بربرياً استقرَّ قبل تسع سنوات. لا يمكن أن يكون إلّا هو. غشيَ طريقاً مفضياً إلى سكن. وجدَ صبية يلعبون. نادى على واحد منهم بالأمازيغية:

- اغْراس إي ببانش أمَمّي.

لم يفهم الصبي. تحول زيري إلى العربية: «نادِ على أبيك يا ابني». غشيَ الصبي البيت. خرج إيغموراسن. توقف كمن يستوثق من الرجل. تفحّصه. ثم بعد ذلك أغذ الخطو نحوه صائحاً:

- زيري. زيري..
- بورك فيك يا إيغموراسن.
- تعال. أخيراً ملتَ إلى رأيي. أحسنت أن فررت.
- لم أفر.
- كيف؟
- أردت لقاء من أحب.

أدخله إيغموراسن المجلس، وقدّم له زوجته. كان يبدو من سحنتها ولسانها أنها أندلسية. هي الأرض التي تحتضن البذرة. بعد جيلَين لن يبقى من أثر إيغموراسن إلا رسم الاسم، وبعض الذكريات. ذرية إيغموراسن وذرية ذريته سيصبحون أندلسيين. سيحتضنهم المكان أو عبقريته أو سحره أو سرّه.

هيّأت المرأة الطعام، وتناوله زيري مع إيغموراسن. كان زيري مقلّاً في الكلام. اكتفى بالقول إنه يريد أن يترحّم بأستجة على الأموات، وأنه استحضر روح الرميكية بالمقبرة المسيحية، وترحّم على إستير. كانت نفسه منقبضة مذ ماتت الرميكية وقد حيل بينه وبين الوقوف على قبرها. أخذَ دبيب السلوان يسري في نفسه. باتَ ليلة واحدة ببيت إيغموراسن، استجمَّ به واستحمَّ. نهض مع الفجر نحو

أستجة. ألحَّ عليه إيغموراسن أن يضع بغلة رهن إشارته. رفض. أصرَّ على المشي. حملَ بعض الطعام في صرّة وضعها على عصا ثم أخذ في المشي. نزل مسجداً على الطريق نام به.. في اليوم الثاني بلغ أستجة، مع العصر، ثم قصد محل شبريقو. وجده جالساً على مقعد لا يبرحه. كان قد أصيب بالعمى. كلّمه زيري. نهض شبريقو مبتهجاً.

وضع شبريقو يده على كتف خادمه شلمو، وأمسك يد زيري حتى بلغوا البيت. لم يفتر شبريقو عن الكلام. لم يكن زيري يستمع إلّا لماماً. كان مما أبلغه شبريقو أن صُبحاً ماتت. متى كان ذلك؟ هل قبل إستير أم بعدها؟ استمرَّ شبريقو في الحديث، كما لو أنه يريد أن يعوّض عن عماه بالثرثرة، وتكرار ما قال. تناول زيري العشاء برفقة شبريقو الذي لم يأكل شيئاً. استيقظ باكراً. تحسس دثار إستير وصليب الرميكية. غادرَ قبل أن يستيقظ شبريقو ثم قصد بيت باشكوال. وجده مهجوراً. حمل خشبتَين من بقايا الحطب والفحم. قصدَ الربوة. حفر حفرة ببعض الخشب ثم بيديه. ألقى فيها صليب الرميكية ثم حثا عليه التراب. ثم أثبت على الحفرة خشبة، وكتب بالفحم: في ذكرى الطاهرة الرميكية. حفر حفرة أكبر من الأولى، تتسع للدثار. وضعه في الحفرة، ثم حثا عليه التراب. ثبّت خشبة، كتب عليها بالفحم: في ذكرى إستير، ماتت كي تبقي وهج الحياة. نفضَ يدَيه من التراب ثم وقف مترحّماً على الرميكية، وبعدها على إستير. ثم احتبى بقرب علامتيهما. حتى ارتفعت الشمس ولفحته أشعتها. أخذ يستمع إلى صوت أقدام تتقدم نحو الربوة. ظلَّ مغمضاً عينيه. الأقدام تقترب يرافقها شدو وجؤار. كان غناء الفلامينكو يصدح. بلغه صوت مرية. أشرق وجهه. اهتزَّ صوتها ينضح بالألم. أخذ الصوت يرتفع. ثم فتح عينيه. نادى: «مرية». لم يجدها. عاود النداء... لم تَرُد. انقطع الغناء. كانت هلوسة... ثم وقف وصلّى لمرية... «كنت أود أن ألتقي بك هنا

مرية. أثقل عليّ الفراق، والاحتجاز، ولم أسْلُ إلّا اليوم، حينما وضعتُ نصباً للرميكية وآخر لإستير... أتذكرك هنا مرية. قد لا نلتقي. أعرف أنك لن تفني ما دام غناؤك يتردد، أو من يحملونه عنك. كلّما غنيتِ الفلامينكو اذكريني، أو اذكري زينة الدنيا... آمنت بشيء يسمو عن التمايزات العرقية والعقدية. بطموح يستحث الإنسان، يهزأ بما يختلقه من سجف وحواجز. من غريب، أنه لا يمكن أن ندرك زينة الدنيا، إلّا بالاحتكاك بهجيرها... أشعر بالراحة الآن، وقد أسكنت من يمثّلون زينة الدنيا هذه الربوة، أو ذكراهم، أو ما يحيلون إليه. كنت أخشى على إستير لأنها وفق منظور ضيّق حملت العار للطائفة لأنها وضعت حدّاً لحياتها. هل تعرفين لمَ فعلت ذلك؟ لكي تبقي على حياتي، كي أظل مؤتمناً على زينة الدنيا. وداعاً مرية، وداعاً أحبّتي. راحيل، وتودة وباشكوال والرميكية وإستير، أو... إلى اللقاء...».

ثم غادر. راودته نفسه أن يغشى البيت، ثم تولى... سيُحرّك ذلك مواجع الفؤاد. توقف بمطعم شبريقو. استبقاه. رفض المكوث. ناوله بعض الطعام. ثم أخذ في السير. حتى المغيب. أخذ الدفء يسري. توقف في المكان ذاته الذي كان توقف فيه مع راحيل حيث شجر الحور ونبع، وحيث توقف مع الرميكية. استندَ على شجرة، وأخذ يتأمل النجوم. تذكّر الأصبغ. ترى أين يكون؟ كان يود أن يلتقي به. أن يحتضنه. وجد بعض السلو حين تذكر أنه يحيى في بنته هند. أوحشته هند. أوحشته تتريت وكذلك يوسف. كان قاسياً عليهم. كان قاسياً لأن الحياة قست عليه. سيغفرون له، لأنهم لا يشُكّون في حبه لهم. يشعر الآن وقد أدى الدَّين حيال الرميكية وإستير بأن العقدة التي كانت ترين على نفسه انحلت. أخرج ما دسّه له خادم شبريقو من أكل. نال منه. أخذ يرتل القرآن من سورة الجن. يوم أن استمع نفر من الجن إلى القرآن أو إلى قول يَهدي إلى الرشد. تذكر أسباب النزول، حين

خرج النبي هارباً من الطائف وقد آذاه سفهاء ثقيف، وبالليل سمع صوت الجن، وسمعت الجن صوت القرآن.

أخذ زيري يرنو للنجوم، ثم ارتفع صوته بالدعاء: «إلهي، وهل لي أن أجأر إليك بلسان وطقس معيّن، كي يبلغ إليك دعائي. إلهي، أنت أعلم ما بحالي، فارحم ضعفي. إلهي ارحم خليقتك، لأن وديعة الحياة التي أودعتها فيهم، تحبب إليهم الطمع والهوى والغلب. غير أن رحمتك وسعت كل شيء فأودعت فيهم العقل كذلك، فاجعله لهم صاحباً، واجعل من الضمير نوراً يهتدون به. هيّئ لهم أن يُعملوا عقولهم حين تشتط بهم غرائزهم، وهيّئ لهم ضمائرهم حين تغلو بهم عقولهم... أليس من أسرارك الخفية، أن وضعتني في مسالك مشتبكة لأنتهي إلى هذا الذي انتهيت إليه، من التقاء بني الإنسان في بوتقة تمّحي فيها كل صنوف الاختلاف، هي زينة الدنيا، كي أشهد على ذلك، وأشهد عمّا يكتنفها من هجير، ممّا يورثه العمى ويُسعره الجهل وينفثه الطمع والأنانية والكراهية».

ثم تغشّاه النوم. استفاق مع الفجر. توضّأ وصلى. واستأنف المسير إلى شقندة. نزل ببيت إيغموراسن. كان زيري بادي الاطمئنان... تناول العشاء مع إيغموراسن. حاول إيغموراسن أن يستدرجه للحديث. اكتفى زيري بالقول:

- لكل ما له بداية فله نهاية. سأغادر باكراً.
- ألا تخشى أن يلقي زبانية ابن عامر عليك القبض؟
- إن خشيتهم لن يخشوني، وإن لم أخشهم خشوني.

غادر في الصباح الباكر. بلغ الجامع قبل الظهر. صلى الظهر، وأكل بصحن الجامع، ونام بفنائه وصلى العصر. لمّا فرغ، راغ إلى حيث حلقات الدرس. سأل عن حلقة علم الكلام. أشير له بها. وجد

جمعاً من الطلبة. سألهم عن ابن باشكوال، أشاروا إلى فتى محتبٍ يمعنُ الاستماع. جلسَ غير بعيد منه ونظره منصبّ عليه، حتى إذ فرغ المحدث من درسه، ربت على كتف الفتى. استدار ابن باشكوال نحوه. اعتقل لسانه:

- أنت؟

- أي نعم.

واحتضنه. لم يحبس زيري دموعه...

- تعال، نادى يوسف، حتى لا يقف علينا أحد.

- ليس ذلك بمهم يا بُني حين يصل المرء إلى الحقيقة. أريد أن ألتحق بالبيت.

- ألا يمكن أن نتدبر الأمر؟

- لا حاجة يا بُني. نتصرّف بشكلٍ طبيعي.

- أحسنتُ أني لم أخبر أحداً. تتريت ألحّت عليّ أن نبلغ الشرطة.

- كنت موقناً أنك ستتصرّف بذكاء...

انتقلا بشكلٍ عادي وطبيعي إلى الزاهرة، وطرق يوسف الباب، فتحت تتريت. وما أن رأت زيري حتى أجهشت بالبكاء، وارتمت في حضنه، ولحقت بها هند، وهي تردد مبتهجة:

- أبتاه. أبتاه.

12



أضحى زيري شخصاً آخر مذ عاد من أستجة. كانت حركاته وئيدة، وصوته متّزناً، وحركاته ثقيلة. كانت السكينة تشع منه.

في يوم من أيام رمضان، والجو حارّ تناولَ زيري السحور هو وزوجته تتريت في صحن البيت، ثم صعدت هي إلى غرفتها كي تتأهّب لتصلّي الفجر، فيما قصد خزانته إذ لا ينام في رمضان إلا مع الفجر. ما لبث أن سمع قرعاً على الباب. فتحه. وجد نفراً من رجالات الشرطة. سلّموا عليه بأدب وطلبوا أن يرافقهم. لم يبدر منه الجزع. استأذنهم أن يسلّم على زوجته. أذنوا له. أخبرها أن الشرطة طلبته. مرَّ على فراش بنته هند وطبع قُبلة على وجنتها، ثم سار على أثَر الشرطة، حتى دواوين الخدمة. صادفتهم أعداد المصلين وهم يتوجّهون إلى المسجد لصلاة الفجر.

تمَّ استقباله في الديوان ذاته الذي سبق أن استقبله فيه الفتى واضح. وجد فتى لم يسبق له أن عرفه. تغيّرت الوجوه. كلّمه الفتى بأدب، وأخبره أنهم سيأخذونه إلى مكان بعيد. طمأنه. سأل زيري إلى أين، ردَّ الفتى بأدب:

- لا أدري سيدي. ولكني مطالَب أن أخفركم. ثم أضاف: لا بدَّ أن نسهر على حمايتكم، ولذلك تأذنون أن تمدوا معصمَيكم.

- ولماذا؟ سأل زيري...

- كي نضع القيد عليهما...

- وكيف أركب المطية ويداي مكبّلتان؟..

- هي التعليمات سيدي.

ووضع الفتى قيداً من حديد في معصمَي زيري. لم يُبدِ مقاومة، ثم تقدم شرطي بلباس مغاير نحو زيري قائلاً:

- ينبغي أن نذود عنكم كل مصادر التشويش..

- جازاكم اللّه خيراً، لا أرى أكبر تشويش من أن أنقل إلى وجهة غير معلومة.

- سنضع عصّابة على عينَيكم.

وانتفض زيري:

- كيف؟ عصابة على العينَين؟ هذا اعتقال.

- التعليمات سيدي.

ووضع الشرطي الثاني العصابة على عينَي زيري.

كانت الساعة فجراً حين شرعت المقنبة في السير... ركب زيري زاملة. لم يعرف أي وجهة.. كانوا قد خرجوا من الزاهرة إذ أصبحت الأرضية من تراب. ساروا لساعات. ما لبث أن اشتدّت الهجيرة بعد الضحى. توقف الرَّكب حوالي الظهر. شعرَ بالشمس في سمتها. كانت المقنبة قد قطعت مرحلة. أُنزِل زيري من زاملته. طلب أن يختلي. تُرك وشأنه دون أن يُنزع عنه القيد ولا العصابة. وجد الأمر مقرفاً ومهيناً. بمحطة المرحلة الأولى وجدوا بغالاً وخيلاً أخرى تنتظرهم كي يستبدلوا الرَّكب في كل محطة، حتى يتأتّى لهم قطع مرحلتَين في كل يوم. استجمّوا بالمرحلة الأولى. كان من الحرس من لا يصومون لأنهم على

سفر ولشدّة الحرارة. . بعد أن خفّت الحرارة، حوالي العصر استأنفوا المسير، إلى أن توقفوا ساعة المغرب. سمع زيري من صلّى المغرب، ثم من أفطر ممن كان منهم صائماً. أُعطيَ تمرات وتيناً مجفّفاً، مع لبن ورغيف مع لحم القديد. نام زيري بعدها تحت قبّة السماء. كان النسيم عليلاً حين أوقظ. أُعطيَ رغيفاً ولبناً. صلّى البعض الصبح، ثم استأنفوا المسير. بعد أربعة أيام من السفر، اختلطَ الزمن على زيري، ولم يعد يميّز ما بين ساعات النهار سوى لفحات الشمس. لم يقوَ بعدها على الصيام. طلب الماء. كان ذلك ما يفطر به. بعد أسبوع وصلوا وجهتهم. كان الجو تلطّف، ممّا يعني أن وجهتهم كانت الشمال. مرّوا بسواقٍ، وقدّر زيري أن يكونوا بمجريط. تلقّفتهم كتيبة. سمع جلبة كبيرة، وانتهى إليه صليل غمد السيوف، ممّا يعني أنهم جنود. سارت الكتيبة في غابة. شعر بظلّها وحفيف أغصانها. ثم أخذ الجو يتلطّف. قد يكونون في أرباض مدينة سالم. بعد مرحلتَين توقفوا. وهي المسافة ما بين مجريط ومدينة سالم. سمع نحنحة الخيول وصهيلها، وأدرك أنه معسكر المنصور. . .

كان زيري يعرف أنه لم يتم استدعاؤه لنُزهة، أو لمهمّة، كما كان يوحي بعض عناصر الشرطة. كان يعرف المنصور حقّ المعرفة كي لا ينخدع. . لا يمكن لمن حكمَ عليه بتسع سنين من السجن، أن يُنعم عليه بإطلاق سراحه، في ظرفية مضطربة، وبالطريقة التي أخِذ بها. لا يُطلق سراح شخص يؤتى به مقيّداً ومعصب العينَين. لم يكن زيري يخشى الموت، ولكنه شعر بإحساس فاجأه، هو الاستمساك بالحياة. من أجل هند، وليدته، من أجل تتريت زوجته. لم يكن يخشى على يوسف لأنه قد استقلّ بنفسه، على خلاف زوجته وبنته اللتين كانتا في عصمته وفي حاجة إليه. هل يذهب به الأمر أن يستعطف المنصور من أجل بنته وزوجته؟ هل يقتل نفسه من أجل أهله؟

أُدخِل ما يشبه خباء. تلمّس الأرض بيده. وجد به حصيراً. استلقى عليه وغلبه النوم. . . كان منهَكاً كي يفكر في شيء. . .

لم يعرف كم نام من الوقت ولكن جلبة أيقظته. دخلت عدة عناصر. نادوا عليه بغلظة. ركله واحد برجله. نهض من الحصير. أمروه أن يقضي حاجته قرب الخباء. لم يعرف إن كانوا ينظرون إليه. تبوّل. أمسكه شخص بقوة، ولكزه وراء ظهره. صاحَ فيه أن يتقدم. . حاول أن يستمسك بجندي، فوكزه بغمده. خشي أن يذهبوا به إلى شاهق وهو معصوب العينَين ويلقي بنفسه. . لم يطل به المشي. أحس بمكان مظلل لا تنفذ إليه أشعة الشمس، بمثابة خباء. سمع دبيب الحياة. انتهت إليه خشخشة كما لو هي إيماءة، وبعدها أزيحت عنه العصّابة. لم يستطع أن يثبت على الوجوه، لأن عينَيه أنِستا الظلام والنور أعماه. فاجأه صوت معهود له ولكنه مبحوح:

- وددت يا ابن صمادح أن ألقاك في ظروف غير هذه. . . عمّا قريب سأترجّل، وينبغي أن أعرف أمرك.

كان المنصورَ ابن عامر وهو على مِحَفّة، يبدو منه الهزال، ويتفصّد عرقاً. كان يجد العنت في الاستواء، لا تسنده إلّا وسائد من وراء ظهره وعلى ذراعيه كي يثبت. على رأس المِحَفّة وصيفان أسودان يحرّكان على مستوى وجه المنصور مروحتَين كبيرتَين من ريش النعام. رفع المنصور يده في عسر يأمر الحرس بالانسحاب. استبقى الوصيفَين وآخر قدّر زيري أنهم لا يعرفون العربية حتى لا يدركوا فحوى ما يجري.

أجالَ زيري النظر فيما حوله. لا جدوى من التستُّر. ساعة الحقيقة أزفت. كان ينظر إلى المنصور كشخص يقوم بدور مالك السلطة المطلقة، وقد أوشك أن ينزع منه هذا الدور. لم يبدر من زيري أي شعور بالهلع. نطق في هدوء:

- اسمي زيري. . تنكّرت بهذا الاسم لكن لا يمكن الآن. هي ساعة الحقيقة. .

- هي ساعة الحقيقة فعلاً. ولذلك أردت أن أعرف شأنك. كان يمكن أن آمر بقطع رأسك لمّا كنت بالزاهرة. . أو حتى هنا. لم أستعجل. . .

- ولماذا تسعى للحقيقة ما دمت سترحل؟

- هي ما تبقّى لي من رغبة في الحياة، وبخاصة لمن نال منها ما نلت.

- فيمَ تفيدك؟

- غريزة. ربما. حقيقة الدولة معلومة لدي. ولكن هناك حقائق كانت تعز عليّ. . وكنت أقدر أنك تمسك نصيباً منها. .

- ألهذا حكمت عليّ بالإقامة الجبرية تسع سنين ونيف؟

- كنت مستعجلاً كي أتثبّتَ في أمرك. لو كان شخص آخر غيرك لكنت قطعت رأسه. العقاب كما الدواء، يختلف باختلاف الشخص. ما يصحّ لهذا لا يصحّ لذاك. .

- هو عقاب إذاً؟

- لا سلطان من غير جزاء. أنا في حالة غير التي عرفتني فيها. يفر مني هذا الذي كان يسكنني، السلطان ولو بقيَ رسمه. وأي سلطان حين يهوى الجسد وتخور الروح؟ لا أستطيع شيئاً من غير هؤلاء الوصفان فيما يأتيه أي إنسان. أشعر أنهم أحسن حالاً مني. . عشرون ألف مرتزق معي في هذا المعسكر، يستطيع أدناهم ما لا أستطيع. .

اعترته نوبة سعال. همَّ بأن يبصق. قدّم أحد الوصيفَين إناء بصق فيه المنصور، ثم مسح الوصيف فم المنصور بمنديل. . رفع اليد اليسرى. كان يتواصل مع الوصفان بالإشارة. صفق وصيف ودخل آخر يحمل مبخرة تنفث أبخرة عطرة. .

ردَّ زيري:

- بعد كل ما اقترفتَ تصل إلى هذه النتيجة. ألم يكن من الممكن أن تصل إليها من دون المسار الذي سلكته؟ كان مكلِّفاً.

- هي الدولة.. شؤون الدولة. كنت أداة فيها.. والدولة تأنف من النظر إلى الحالات الخاصة. قتلُ رجل من منظور منطق الدولة يساوي قتل حشرة... من يأسى لقتل ذبابة إن كانت تشوّش عليك أمرك، وتذود عنك النوم؟ الدولة ليست هي الأفراد. الدولة تسمو على الأفراد.

- لا قيمة بالنسبة إليّ لدولة تزري بالأفراد وحقوقهم...

- الجماعة تفضّل أن يقودها من يبصر عوضها...

- هو افتئات على حقّ الجماعة الزعم أنها عاجزة على أن تبصر وتفكر.

لم يعقب المنصور. كان يتنفس بصعوبة. كان كمن يتفكر.. ثم نطق بما يشبه الهمس:

- قل لي كيف كان عبد اللّه وهو يساق إلى الموت.. لم يبقَ إلّا أنت ممن حضر وفاته. قتلت الفتى سعداً الذي استقبله والسيّاف ابن خفيف الذي أعدمه، ولم أبرأ من شبحه. قل لي بربك.

- سار إلى الموت مطمئنّاً.

- هل تُراه آلم لنصل السيف؟

- لا أدري... لم تبدر منه أنّة.

أضاف زيري:

- كان يمكنك أن تقتلني وقد قتلت الشاهدَين كي تبرأ من شبح عبد اللّه.

- لم أبرأ من شبح عبد اللّه. كنت فكرت في قتلك، ولكني لم

أهتدِ للوسيلة.. كنت أود أن تنتهي وتعفيني من القتل. لم تنتهِ. ثم كنت أريد أن أُبقيَ صلة بيني وبين ذكرى.. ذكرى ابني عبد اللّه..

- تقر أنه ابنك إذاً...

- منطق السياسة جعلني أتنكّر له..

انتابه سعال حادّ، ثم تفصّد وجهه عرقاً. هبَّ وصيف ناوله كأس ماء. نقع منه. ثم مسح الوصيف وجهه بمنديل. استرجع المنصور هدوءه. تفحّص زيري ثم سأله:

- قل لي من أنت؟

رسم زيري لحظة زمنية كما لو أنه يتنصل من الجواب، ثم ردَّ في قوة:

- أنا لسان حال التاريخ. تنكّرت في صور شتى كي ألامس الحقيقة. وكان عليّ أن أعرفك كي أعرف جزءاً من الحقيقة.

- ألهذا عجزت أن أقضي عليك؟

- ربما. للتاريخ أيادٍ خفية، أو هو مكر التاريخ.

- هذا الذي اكتشفته وأنا على فراش الموت... يمكن أن نتصالح يا.. نسيت اسمك..

- ليس مهماً الاسم، وإنما الصفة. أنت الحاكم وأنا مرآته. لا يهم الاسم، في أي مكان أو زمان.

- يمكن أن تعود إلى الخدمة... أود أن أكتب وصية لابني عبد الملك، يمكن أن تحرّرها. ناديت على الكاتب خلف بن الحسين. لكني أفضّلك أنت...

- لست الشخص المناسب لهذا العمل.

- أمنحك فرصة. هي فرصتك الأخيرة. ستدخل التاريخ من بابي. لن يقع انشطار بين ما أتيتُ وما تحمل أنت. بين السرد والتاريخ. بين الرواية والحقيقة.

- لا نملك أنا وأنت من الأمر شيئاً. كلانا أداتان.

وعلت قرقرة بطن المنصور. أخرج الوصيف الذي كان واقفاً زيري بقوة. انتابت المنصور خَلْفة[1]...

لم يكن لائقاً أن ينظر سجين إلى أكبر سلطة في الغرب الإسلامي وهو يلقي ما في بطنه، وتضوع منه رائحة كريهة...

ما أن خرج زيري من الخباء حتى عُصبت عيناه ثانية. ظلّ كذلك ردحاً غير يسير في جناح منزوٍ ثم أدخل ثانية. بقي واقفاً والعصّابة على عينَيه. سمع خشخشة، وفهم بعدها أنها إشارة كي تزاح عنه العصّابة. كانت بجانب المنصور جاريتان، تمسحان وجهه وهو على محفّته، ووصيف يدور بمبخرته تنفث دخانها. استأنف المنصور في صوت منهَك:

- أمرتُ أن يهيّؤوا لك الفطور... وأن يتعاملوا معك كما يليق بك. لمن يحمل التاريخ، أو يحمله التاريخ. أريد أن نتمم الحديث فيما بعد.. فكّرْ فيما عرضته عليك... لم أقطع بشيء بشأنك..

ردَّ زيري:

- هي ساعة الحقيقة.

- نعم.

- فأزح القيد من يدَي. القيد ولسان الحقيقة لا يلتقيان.

---

(1) خَلْفة: إسهال.

13

أحيل زيري إلى جناح خاص، ونُزعت منه العصّابة، وأنيل فطوراً ضافياً وبعده عشاء فخماً. كانت الحراسة تطوّقه، ومُنع الخروج. كان من خبائه الذي لم يكن يختلف عن خبائه لمّا كان وزيراً يستمع إلى جلبة المعسكر، وكان ينتهي إليه ليلاً ترتيل القرآن في العشر الأواخر لشهر رمضان لمن كانوا يصلون صلاة التراويح...

نامَ زيري نوماً عميقاً بعد أن خلُص المصلون من التراويح، ولم يستيقظ للسحور، لم يصحُ إلّا ضحى. كان متعَباً. اغتسل من إناء وُضع له قبالة خبائه، ثم عاد إلى الفراش وتمدد. ظلَّ مترقّباً أن يُنادى عليه كي يستأنف الحديث مع المنصور. كان يشعر أنه أحسن حالاً وقد نال قسطاً من الراحة وأزيل عنه القيد. كان قد أخذ على حين غرة حين وجد نفسه وجهاً لوجه مع المنصور. شعر أنه في وضع أحسن لحوار أعمق معه.

وما لبث أن تغشته سِنة من نوم. كانت مخلفات التعَب. لم يُنادَ عليه. صحا، وظلّ ممدداً في الفراش من غير تفكير قارّ، كما لو أن حياته ليست موضع رهان. إلى أن أذّن المغرب. تناول الفطور، ثم تناهت إليه جلبة الجنود خارج المعسكر بعد الفطور، للاسترواح، وبعده سمع آذان العشاء...

استمع إلى الصلاة من مخدعه، ثم لصلوات التراويح. سادَ الهدوء بعدها...

هل سيتاح له أن يلتقي بالمنصور ثانية؟ كان يعرف أن المَنيّة أنشبت أظفارها فيه، وأن وفاته مسألة أيام لا غير. كان المنصور محافظاً على صفاء ذهنه، ولكن الوهن دبَّ فيه... تُرى هل سيُبقي على حياته؟ وعد أن يفعل؟ ومتى وفى المنصور بعهده؟ ولكنه الآن أمام الحقيقة. هل ينكث بوعده؟

كان زيري سيكون أحسن حالاً لو عرف مصيره. حتى لو كان الموت. كان يود أن يرتّب أموره في ذهنه، لما اعتلق بحياته، ويستشف بعض أسرارها. كان في منزلة بين الحياة والموت، بين الرجاء والأمل. جفاه النوم. وحين دخل وصيف وطرح السحور، لم تمتد يده إليه حتى صادفه آذان الفجر. ظلَّ ممدداً في سريره، يفكر في وضعه الشاذّ، بين الحياة والممات.

عند صباح يوم أحد فوجئ زيري بنداء مألوف. نهضَ من فراشه.. كان الكاتبَ خلف بن الحسين.. سلّم على زيري سلاماً متأدّباً لسالف مكانته في الخدمة. انزعج زيري للحالة التي وجده فيها. لم يعبّر خلف ابن الحسين عن انقباض، وجلس على الأرض قرب سرير زيري:

– سنصلي صلاة القدر الليلة يا ابن صمادح.

– إن شاء اللّه... ما استجدّ في الأمر يا خلف؟

– أوفد سيدنا ابنه مولانا عبد الملك إلى قرطبة واستبقى مولانا عبد الرحمن. اشتدَّ الحال على سيدنا. دخلت عليه أمس في جماعة وقد وجد بعض الراحة، ولكنه لا يبين، ويكتفي بالإشارة..

لم يعقب زيري. أدرك أنه لن يلتقي بالمنصور ولن يحدّثه. لم يعد الأمر مهماً في نهاية المطاف. ما كان يهم المنصور هو أن يستدرجه كي يذيبه في أتون الدولة. لم يكن يريده شاهداً. لم يكن المنصور يريد

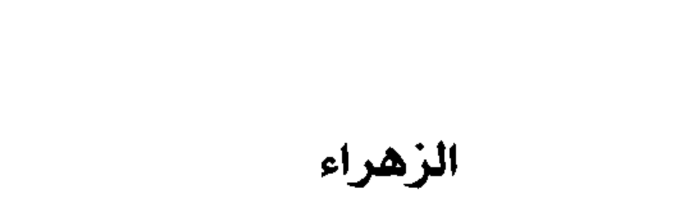
أن يخضع للتاريخ وحكمه. كان يود أن يسلم سرده ولا يبقى سوى متن ما أملاه وما صاغه كَتَبَته، ولذلك نادى على خلف بن الحسين، وترك وصية لابنه عبد الملك، تُنسب إلى ابن عامر، وهو أهون من أن يخطّ حرفاً في الحالة التي هو فيها.

استأذنَ خلف في الانصراف.

تساءلَ زيري عن علّة زيارة خلف بن الحسين. هل من أجل الصفح على زيري؟ هل هي مصالحة؟ أم تراه ينعي له ذاته؟ من يستطيع أن يتخذ قرار وضع حدّ لحياته سوى المنصور؟ وكيف سيتخذ المنصور ذلك ولم يعد مالكاً لأمره. ومع ذلك يمكن أن يُتخذ قرار باسم المنصور. من أجل الدولة. يمكن أن يتخذ القرار بقتل زيري. ينبغي أن يتعامل مع الأمر بصفته ممكناً.. تذكر نصّاً لسينيكا عن قصر الحياة. هي قصيرة لأننا نرتد دوماً دون ما نطمح له، وهي عريضة لأنها تحبل بأفعالنا وأحلامنا وتصوراتنا وأوهامنا. لا ينبغي الجزع حين تحين الساعة. ما قصر الحياة، وما طولها أو عرضها؟ هي تمثلات.

تناول زيري الفطور وحيداً.. بعدها تناهت إليه جلبة المصلّين يقصدون إلى الجامع لصلاة ليلة القدر. انتظر أن يأتيه أحد كي يصلّي ليلة القدر كما وعده خلف بن الحسين. لم يأته أحد. تتبّع مناسك الصلاة من مخبئه، حتى ختم القرآن، وعرف صوت القاضي بن ذكوان، يدعو للحاجب المنصور بطول العمر.

هجع زيري بعدها لبعض الوقت. استفاق على صوت جلبة غير مألوفة. تناهى إليه صوت نواح. أدرك حينها أن المنصور فارق الحياة.



الزهراء

غشيَتْ كوكبة من الفرسان باب الأقباء بالزهراء، عليها لباس الديباج يتقدمها عبد الملك بن محمد بن عامر. استقبل كاتب الخليفة الوليدُ عبدَ الملك وسار به إلى السطح الممرد. كان الخليفة هشام المؤيد على سرير الملك وقد لبس التيجان والديباج ووضع الطيلسان. . . كان الخبر قد بلغ قرطبة والزهراء بوفاة المنصور، وكان الرسم أن يُبلّغ عبد الملك بذلك، ويُعزّى الخليفة فيه.

دخل عبد الملك قاعة المُلك وانحنى أمام الخليفة، ثم بقيَ واقفاً. أشار عليه الوليد برأسه، فتقدّم نحو الخليفة. برغمَ الخليفة جُملة ثناء في حقّ المنصور، وتقدير في حقّ عبد الملك، واستحسنَ ما فعل من عقاب الجند المتمرّدين وطردهم لسبتة، ثم دعاه ألا يشتط ويسعى للصلح. كان كل ما فاه به الخليفة جُملاً حفّظه إياها الوليد. بعدها سلّم الخليفة عبد الملك صكّاً. كان صكَّ الولاية بالحجابة. تسلّمه عبد الملك وقبّله، ثم خرج من القاعة.

كان كل شيء قد عُدّ سلفاً في اتفاق بين طرفة فتى عبد الملك، والوليد كاتب الخليفة. وحتى نصّ صك التعيين للحجابة فقد حرّره كتَبَة رجال خدمة المنصور بالزاهرة. لم يقتضِ الرسم أكثر من ربع ساعة. وبعده نفرت الكوكبة إلى الجامع الكبير بقرطبة، لتعلن تولّي عبد الملك

ابن منصور الحجابة خلفاً لوالده، واتخاذه لقب المظفر.

غشِيَ عبد الملك المقصورة في جمع من القادة العسكريين والقضاة والعلماء. صعد إثرها القاضي ابن ذكوان المنبر وتلا بعد أن حمد اللّه وأثنى على رسوله:

«لقد قبض اللّه إليه سيف الإسلام محمد بن عامر، في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، مَن أبلى البلاء الحسن في خدمة الإسلام والمسلمين، جزاه اللّه خيراً على ما قدم، وجعله في صحيفته يوم العَرض. وقد اقتضى نظر مولانا هشام المؤيد خليفة المسلمين تولية عبد الملك بن محمد بن عامر حاجباً، لما تمرّس عليه من المهام الجُلى قيد حياة والده وما اضطلع به من المسؤوليات الجسام. . .

ويتوجب طاعة ما أمرَ به مولانا، والانقياد لمن ولّاه، حفظاً لبيضة الإسلام، وصوناً لوحدة الدين، وحماية للأندلس والمغرب من المتربّصين والطامعين والحاقدين. فمن بدّل أو غيّر فاللّه حسيبه. ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ثم انفضّ عقد الحاضرين من الجامع الكبير، وهم يهمهمون ويتجاذبون الحديث في صحن الجامع وجنباته.

2

بعد أسبوع من تولية عبد الملك الحجابة، طرقَ شرطيٌّ باب بيت ابن صمادح. خرجت إليه تتريت.. سلّم عليها بأدب. بادرها بالسؤال:

- أأنت زوج ابن صمادح؟

ردّت في عفوية:

- نعم...

- أبشري سيدتي، فقد لقيَ زوجك حتفه شهيداً في الجهاد ضدّ الكفّار، في اليوم الذي قبضَ فيه اللّه المنصور، ودُفن بجانبه بمدينة سالم، وأنا مبلّغك رسالة تعزية من الحاجب المظفر عبد الملك...

كانت هند ترمق من طرف خفي..

سقطت تتريت مغشياً عليها...

وضع الشرطي رسالة العزاء في يدها. تركها لحالها ثم غادر.

3

كان رذاذ المطر يسّاقط الهوينى، وكان يوسف يتقدم في عزم إلى ربوة الأموات مصحوباً بتتريت وهند، مع شبريقو يقوده خادمه شلمو.

اختار يوسف المكان الذي سبق أن أشار إليه زيري أن تقوم به ذكراه قرب قبر راحيل. حفرَ حفرة وأثبت عليها شاهدة كُتب عليها:

«لذكرى زيري، من آمن بالإنسان، وبزينة الدنيا.
من سكنته فكرة، فنفثها أريجاً..
من آمن بلقاء العدوتَين
الخلود لما آمن به».

أبى يوسف أن يكتب التعابير المعتادة في شاهدات الأموات..

كانت تتريت تلبس البياض، وكانت هند ملتصقة بها، تمسح دموعها. رفعت تتريت كفَّي الضراعة، وتلت الفاتحة ترحُّماً على روح زوجها، وفعلت الصغيرة هند فعلها.

أجالَ يوسف النظر في شواهد المؤتمنين على زينة الدنيا، راحيل وتودة وباشكوال، وفي العلامات التي تخلّد ذكرى كل من الرميكية وإستير وزيري.

تراجعَ كي يستحضر ذكرى الغابرين. فوجئ وهو يرى قبالته إيغموراسن على صهوة زاملة والأصبغ بن عبد الملك على صهوة

فرس. ترجّلا من راكبتيهما احتراماً لذكرى الأموات، من يحملون وديعة زينة الدنيا. تقدّما نحو الربوة في خشوع، حتى إذا اقتربا منها، توقّفا، ثم انحنيا احتراماً لذكرى الأموات. كانا قد علما بخبر وفاة زيري وقد أذيع في الجوامع أن اللّه اختار ابن صمادح إلى جواره في الجهاد ضدّ الكفّار.

لم يصدّق أحد الرواية الرسمية.

وقفَ كل من إيغموراسن والأصبغ في جانب. شخصان لا شيء كان يمكن أن يجمع بينهما، وجمعت بينهما ذكرى زيري...

وفجأة كما لو هو الرعد، سُمع صوت نفير يتقدم وهو يصدح بالغناء يتقدم في شمم... كان يصدح بالأنين والألم، ويصدع بأصوات الفلامينكو... بدت مرية في لباس الفرح مع فرقتها الغجرية، حتى أحاطوا جميعهم بالقبور وعلامات الشواهد، على مرأى من حاضني ذكرى الأموات...

ارتفعت أصوات الفرقة مدوية كما لم ترتفع من قبل، واهتزت أقدامهم كما لم تهتزّ من قبل، وتحركت أجسامهم كما لم تتحركْ من قبل، وصدحت حناجرهم كما لم تصدح من قبل.

كان صوتَ الألم يحمل وهج وديعة الراقدين، وينفث أريج زينة الدنيا.

قرطبة 28 يناير 2018

الرباط 15 أغسطس 2019



حسن أوريد

زينة الدنيا

«زينة الدنيا هو ما يمكن أن تكونه أجناس مختلفة، وديانات متعدِّدة، تعيش متوادّة في رقعة واحدة. زينة الدنيا ألّا يُفتن امرؤ في دينه وعقيدته أو يُهزأ بلسانه. زينة الدنيا أن يتحوّل من شاء عن عقيدة إلى أخرى دون أن يتعرّض لمحاكمة أو افتتان أو مضايقة. زينة الدنيا أن يسود العقل دون أن يستبد، وأن تقوم العاطفة دون أن تغلو، وأن يتعايشا في وئام. زينة الدنيا أن ينالَ الناس من العيش ما يصون كرامتهم، ويحفظ مروءتهم. زينة الدنيا ألّا يتحوّل الغِنى إلى بطر، والفقر إلى كُفر. زينة الدنيا ألّا يقع انشطار في علاقة يُفترض أن تكون متكاملة، بين الرجل والمرأة، والحاكِم والمحكوم، والعالِم والمتعلِّم، والبالغ والصبي، والإنسان والطبيعة... زينة الدنيا مشروع في مسار الإنسان».



حسن أوريد، كاتب وأديب من المغرب. حائز على جائزة بوشكين للآداب لسنة 2015 من اتحاد كتّاب روسيا. من أعماله الأدبية: **رَواء مكّة، رباط المتنبي، ربيع قرطبة، الموريسكي، سيرة حمار،** ومن كتبه الفكرية: **أفول الغرب، السياسة والدين في المغرب، عالم بلا معالم.**





الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

لوحة الغلاف للفنان خوان خيمينيز مارتين